

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم التاريخ

السياسة الخارجية
للدولة العثمانية في عهد السلطان
سليمان القانوني
(926 - 973 هـ / 1520 - 1566م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ
الحديث و المعاصر
(الدولة العثمانية و المشرق العربي)
من إعداد الطالبة: حناء سماش
تحت إشراف الأستاذ الدكتور:
نادية طرشون
لجنة المناقشة

- 1- الدكتور كمال حمزي..... رئيسا.
- 2- الدكتور نادية طرشون..... مقررًا.
- 3- الدكتور صادق دهاش..... عضوا.
- 4- الدكتور رابع كنتور..... عضوا.

السنة الجامعية
1440/1439 هـ - 2019 / 2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدني ودعمني أثناء إنجاز هذا العمل المتواضع وأخص بالذكر الأستاذة الدكتورة المشرفة " فادية طرشون" والأستاذ الدكتور "الغالي محيي" على جهودهم وتوجيهاتهم القيمة في متابعة عملنا هذا.

الشكر موصول إلى الأساتذة الكرام الذين أشرفوا على تكويننا في مرحلة الليسانس ومرحلة الماجستير على رأسهم أبو القاسم سعد الله رحمه الله.

كما أشكر زملائي في التخصص خليفة د، عنبة ع، نوال ك، وردة، عبد الحفيظ .
د، محمود ب، واهلي، نور الدين ز، العبيدي.

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل من الوالدين الكريمين

وأختي زينب وأخي محمد وعادل

وأهدي عملي هذا إلى خنيفة وخليصة

وإلى كل منصفى الدولة العثمانية في كتابتهم

مقدمة

مقدمة:

قامت الدولة العثمانية منذ نشأتها في القرن الثالث عشر ميلادي على سياسة التوسع الخارجي و برزت خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري كقوة سياسية ذات شأن كبير بمجال جغرافي واسع ورصيد حضاري متنوع، خاصة بعد ضم الأماكن المقدسة إلى دائرة نفوذها عام 923هـ / 1517م وإعلان أشرف مكة ولاءهم للعثمانيين، وبفضل هذا الموروث الحضاري الزخم استطاع السلطان سليمان الأول 926 - 973هـ / 1520 - 1566م الملقب عند رعاياه بالقانوني وعند الأوروبيين بالعظيم أن يمول خطته للقيام بفتوحات عالمية في الغرب كما في الشرق ووضع دولته موضع الانطلاق إلى العالمية ومصاف الإمبراطوريات الكبرى بانتهاجه استراتيجية محكمة جعلت الدولة العثمانية في عهده دولة مركزية قوية ذات حدود مترامية ومهيمنة، كما أحسن التكيف مع تحولات القرن السادس عشر الحافلة ويظهر ذلك في بناء أسطول قوي لمواجهة تحديات البرتغاليين في البحر الأحمر، والاسبان في غرب البحر الأبيض المتوسط تقديرا منه للأهمية الاستراتيجية والإقتصادية لهذين البحرين الذي مثلا المحرك الأساسي للتفاعلات الدولية آنذاك وتجاذباتها في الصراع بين الشرق والغرب.

الإشكالية :

إن موضوع " السياسة الخارجية العثمانية خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520 - 1566م/ 926 - 973هـ " يُعدّ على قدر كبير من الأهمية فهو يطرح إشكالية: دور السياسة الخارجية بزعامة السلطان سليمان القانوني في خدمة مصالح الدولة العثمانية بمسيرة الوضع المحلي والدولي وتجاذباته، ولتوضيح هذه الإشكالية أكثر يمكن طرح عدّة تساؤلات تميّط الستار عن ذلك الغموض الذي يميز تداخلات السياسة الخارجية وتعدد

مساراتها الأوروبية والإسلامية وهذا ما سنجيب عنه من خلال فصول هذه الدراسة المتواضعة على النحو التالي :

ما هي ملامح السياسة الخارجية للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني اتجاه القوى الأوروبية ؟ وما هو طبيعة التطور السياسي في توظيف الدور العثماني ؟ ، وهل أدت الدولة العثمانية دورا في عملية التوازن الأوروبي لخدمة مصالح و أهداف الفتوحات العثمانية في أوروبا وخارجها ؟ وكيف استغلت الإنقسام الديني الحاصل في أوروبا آنذاك؟ خاصة الورقة البروتستانتية؟ وما هي نتائج السياسة العثمانية اتجاه هذه الورقة الاستراتيجية؟ هل يمثل التحالف مع فرنسا خيارا استراتيجيا بالنسبة للسياسة الخارجية العثمانية ؟ وهل يمكن وصف التحالف العثماني -الفرنسي في هذه المرحلة بأنها علاقات وثيقة أم علاقات تحالف ؟ وما هي الآثار التي شكلت سلوك العثمانيين حيال فرنسا ؟

فيما تجلت مظاهر السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى الاسلامية في مقدمتها الدولة الصفوية ؟ وما هي الدوافع الحقيقية لتجدد الصراع وعدم حسمه في عهد سلفه السلطان سليم الأول وهل المرتكزات المذهبية لكل دولة كانت دائما وراء الصراع العثماني الصفوي وما هو أثر هذا الصراع على الصعيد الاستراتيجي؟ ولماذا لم تستطع الدولة العثمانية ضم المغرب الأقصى أو بالأحرى لماذا أخفقت في ذلك؟ وهل أثرت العلاقات العثمانية المغربية في حدود الدور الإقليمي للدولة السعدية الناشئة وهل أرادت الدولة العثمانية حصر هذا الدور في نطاق التبعية الإسمية؟ أم أبعد من ذلك؟ وما هي استراتيجية الدولة العثمانية في الحدود الجنوبية لماذا عملت على ضم اليمن والحبشة رغم بعدها الجغرافي والتكلفة الباهظة التي تطلبتها السيطرة على هاتين الولايتين ؟ وهل تمثل الحبشة نافذة الدولة العثمانية لولوج الشرق الأقصى وشرق إفريقيا؟ وما موقف الدولة العثمانية من مجريات الأحداث في البحر الأبيض المتوسط ، وهل استطاع الدور العثماني حماية العالم الإسلامي من الهجومات الأوروبية في البحار الجنوبية و

في حوض البحر الأبيض المتوسط ؟ وما هي الخيارات الاستراتيجية للدولة العثمانية في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري؟
أسباب اختيار الموضوع :

إن اختياري لموضوع السياسة الخارجية للدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني 926 - 1520/973م يرجع الى عدة أسباب أهمها:

أولا : رغبتني في القيام بدراسة أكاديمية حول أهم محطات السياسة الخارجية وانعكاساتها في عهد السلطان سليمان القانوني وهو العصر الذي اتفق المؤرخون بدون منازع بوصفه بالعصر الذهبي فعادة ما تركز الأبحاث المعاصرة على الفترة الأخيرة من الدولة العثمانية وهو العصر الذي أصطلح عليه بعصر الضعف والانحطاط فالتركيز عليه يبدو أن هذه الدولة ولدت ضعيفة ولم تمر بمراحل سنن تطور الدول خاصة الدراسات العربية.

ثانيا : قناعتي بأن مجال السياسة الخارجية هو أكثر المجالات حساسية في القرن السادس عشر ميلادي الحافل بالتحويلات الكبرى في الاستراتيجية العثمانية والأوروبية نتيجة التحول في العلاقات الإسلامية ونظام العلاقات الأوروبية من ناحية أخرى وبلوغ الانتشار العثماني ذروته في عهد السلطان سليمان القانوني التي وصلت الى أسوار فينا سنة 1529 وأوروبا الوسطى ، فضلا عن سيطرته على حوض البحر الأبيض المتوسط اثر الانتصار العثماني الكبير في معركة برفيزا 1538م مما أثار اهتمامي وفضولي الكبيرين في تسليط الضوء على تفوق استراتيجية العثمانيين وحيثياتها وأهم مظاهرها.

ثالثا : تبيان أهمية الدور العثماني في مجريات الأحداث الأوروبية و كيف تمكنت هذه الأخيرة أن تصبح دولة عالمية وتلعب دورا كبيرا في التوازن الدولي خاصة بين القوى الفاعلة في أوروبا، فلقد كان للعلاقات التي ربطت بين الدولة العثمانية وفرنسا انعكاسات كبيرة على السياسة الأوروبية وكذلك دعم الحركة البروتستانتية واستغلالها كورقة استراتيجية لخرق

الصف الأوروبي وتأثيرها على مسار العلاقات العثمانية مع القوى الإسلامية وهذا ما دفعنا لاختيار الموضوع لدراسته ومعرفة خباياه.

المناهج المعتمدة في الدراسة :

للإجابة على الإشكالية الرئيسية للموضوع ومختلف الإشكاليات المتفرعة عنها ، اتبعنا كل المناهج التي تقتضيها طبيعة هذا الموضوع ومنها المنهج التاريخي الوصفي الذي يهتم بوصف الأحداث وتسلسلها الكرونولوجي في الزمان والمكان خاصة وأن موضوع السياسة الخارجية خلال عهد السلطان سليمان القانوني مليئة بالأحداث والتفاعلات التي لا تتضح معالمها إلا باستكمال جميع عناصرها وتوضيح الجوانب المرتبطة بها بكل موضوعية واتباعنا في دراسة عناصر الموضوع المنهج التحليلي، للوصول إلى المعلومة وتحليلها وهذا ما تتطلبه الدراسات في السياسة الخارجية وذلك بالاستعانة بمختلف المصادر والمراجع واعتماد منهج المقارنة والمناقشة واستنتاج المعلومات.

خطة البحث :

للإجابة عن هذه التساؤلات قسمنا موضوعنا إلى تمهيد وثلاثة فصول بإحدى عشر مبحثاً يتفرع كل مبحث منها إلى العديد من العناصر الثانوية ، بالإضافة إلى خاتمة و ملاحق وقائمة بليوغرافية وفهرس المحتويات .

استعرضنا في **الفصل التمهيدي** ثوابت ومقومات السياسة الخارجية وأثر الموقع الجغرافي في توجيه السياسة الخارجية العثمانية، ولمحة عامة عن فترتي حكم السلطان بايزيد الثاني والسلطان سليم الأول حيث شكّلت سياستهما الخارجية أحد ركائز السياسة الخارجية للسلطان سليمان القانوني التي حققت الكثير من الإنجازات وساهمت في الدفاع عن أراضي البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية وآسيا الوسطى والقوقاز، مستفيدة من الظروف السياسية والعسكرية والديمغرافية التي ظهرت فيها ، حتى إذ حل القرن 16م/10هـ بادر بايزيد بإعلان الحرب على البندقية بعد توقف اتجاه الغرب بسبب

تخوفه من تحالف الدول الأوروبية عليه في خضم صراعه مع أخيه جم ، لكن بوفاته أخذ الدور العثماني يتصاعد في الصراعات الأوروبية ويزداد أهمية مع مرور الزمن ، كما تميزت السياسة الخارجية للسلطان سليم الأول في تغيير الاستراتيجية العثمانية والتوجه شرقا بعد أن كانت جل فتوحاتها في الغرب ، حيث أوضحت أبعاد وخلفيات هذا التحول ورصدت أهم محطاته في معركة تشالديران سنة 1514 م ، مرج دابق في سنة 1516م والريدانية 1517م الذي نتج عنها انضمام البلاد العربية بما فيها الحجاز وبضمها دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة ورثت فيها أعباء الخلافة ، و لم تعد الدولة دولة حدودية بل نصب سلاطينها أنفسهم حماة كل العالم الإسلامي وليسوا حماة لحدودهم فقط ، وفي الواقع أنّ السمات السياسية لهذا المفهوم الجديد للدولة ستبرز خلال العهد اللاحق ، كما أكسبتها نفوذا ماديا ومعنويا بتوفر الشروط اللازمة لكي يواصل سليمان القانوني سلسلة الفتوحات الكبرى فقد تمكن بايزيد من تحديث القوات البرية والعسكرية وسليم الذي سيطر على مراكز الثروة المالية وهكذا تضاعفت واردات الدولة العثمانية وامتألت خزائنها بالأموال وبفضل كل هذا أصبح بإمكان السلطان الجديد سليمان القانوني 926 - 973هـ / 1522 - 1566م أن يمولى خططه للقيام بمشاريع عالمية ويؤدي دورا كبيرا في السياسة الدولية خاصة الأوروبية.

وفي الفصل الاول الموسوم بـ "السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية" وينقسم إلى أربعة مباحث تناولت في المبحث الأول التعريف بشخصية السلطان سليمان القانوني حول نشأته ومن ثم توليه الحكم والإصلاحات التي اتخذتها السلطة العثمانية في عهده عسكريا وإداريا وقضائيا كما تتبعا أهم التحديات التي واجهها سليمان القانوني خاصة في بداية حكمه ، حيث شكل تمرد القائد المملوكي جان بردي الغزالي أكبر تحدٍ للسياسة العثمانية آنذاك وإصلاحاته المتنوعة التي كللت بمجموعة من

القوانين حتى لقب بالقانوني، مبرزين آثاره خاصة العمرانية وأهم الشخصيات الفاعلة والمعاصرة له سواء في العالم الإسلامي أو أوروبا.

أما المباحث الأخرى فصلت في علاقة الدولة العثمانية مع القوى المسيحية على رأسها فرنسا إبان عهد سليمان القانوني وفرانسوا الأول فهي علاقة كانت تحدها المصلحة وتميزها الليونة التي تتطلبها العلاقات الدبلوماسية حيث كان السلطان سليمان القانوني يسعى من خلال سياسته الخارجية توسيع رقعة الدولة العثمانية في المجر وتفادي أي تحالف أوروبي ضدها وكان التعاون مع فرنسا سبيلها الأساسي إلى ذلك أما الطرف الفرنسي فسعى جاهدا للتوصل إلى تحالف سياسي وعسكري ضد العدو المشترك شارل الخامس وتجلى هذا التحالف في معاهدتين الأولى بعد نجاح دي لافوري المبعوث الفرنسي في مفاوضاته مع السلطان سليمان القانوني ومنحه بموجبها إمتيازات تجارية واسعة في فيفري 1536 م وينظر على أنها صيغة جديدة في العلاقات الدولية وطريقة معاملة الأجانب بل نقطة تحول في العلاقات الدولية، والثانية في فيفري 1553 م من أجل مساعدة الأسطول العثماني لهنري الثاني ضد شارلكان وأهم النتائج المترتبة عنها تعاون الأسطول العثماني مع الفرنسي سنة 1555 م في مهاجمة سواحل كلابريا وجزيرة صقلية وجزر البليار، إذ أدى التحالف الفرنسي العثماني إلى إضعاف موقف الامبراطور شارلكان وجعلته في نهاية المطاف يتنازل عن الحكم لابنه فليب الثاني 1547 م وكانت فرنسا تبرهن في كل مرة على تغلب إلتزاماتها الصليبية تحت ضغوط الرأي العام الفرنسي و أثرها على الحروب العثمانية في المجر والنمسا ثم نظرا لتداخل العلاقات الأوروبية تطرقنا إلى جبهة النمسا والمجر كحدود غربية للدولة العثمانية فكان لابد من تأمينها وتحقيق التوازن الدولي في أوروبا مع أسرة الهابسبرغ الممتدة من هولندا، النمسا، ألمانيا، إمارات نابولي، وصقلية إلى اسبانيا ومن ثم بدأت التوازنات العثمانية -الأوروبية لمواجهة التحدي النمساوي فازدادت الهجومات العثمانية ضراوة على الجبهة

الغربية وتمكنت الدولة العثمانية من ضم بوادبست اثر الانتصار الكبير في معركة موهاكس وحوصرت فينا سنتي 1529 و1532 م و على الرغم من فشل الحصار إلا أنّ فرديناند اضطر لدفع الجزية للعثمانيين كما استطاع سليمان القانوني توظيف الإنقسام الديني لخدمة مصالحه فبقدر ما ساعد الصراع الإسباني الفرنسي الدولة العثمانية على ولوج تحقيق أهدافها بقدر ما ساهم الانقسام الديني بدوره فعملت على دعم البروتستانت في ألمانيا وقبلها الكالفينيين في المجر وتشجيعها في حركتها ضد البابا والامبراطور شارلكان فأصبحت حماية ومساعدة البروتستانت حجر الزاوية في السياسة العثمانية اتجاه أوروبا فقد سعت من خلال هذه السياسة إلى تعزيز الانقسامات السياسية في أوروبا وإضعاف الهابسبرغ ومن النتائج المترتبة عن ذلك أن أصبحت أوروبا مقسمة وسهل على العثمانيين تحقيق أهدافهم التوسعية وعرقلة تنظيم حملات صليبية ضدهم .

أما في الفصل الثاني الموسوم بـ " السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى الاسلامية " و الذي ينقسم الى أربعة مباحث فتطرق في مباحثه إلى السياسة الخارجية مع القوى الاسلامية وطبيعة العلاقات العثمانية الإسلامية على رأسها الدولة الصفوية التي تميزت بالصراع تارة خاصة حول العراق وبالسلم تارة أخرى مبرزين أسباب الصراع المتنوعة وآثاره المتداخلة والمتشابكة مع تسليط الضوء على العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين العثماني -الصفوي في أواخر عهد سليمان القانوني التي كللت بمعاهدة أماسيا 1555 م حيث تعهد العثمانيون من خلال هذه المعاهدة بحماية الحجاج الصفويين المتجهين إلى الحج والعتبات المقدسة بالعراق وأوردنا آثار الصراع العثماني الصفوي المعقدة والمتشابكة نظرا لدوافع الصراع المتعددة فأهم الآثار توقف الفتوح الإسلامية عند فينا وانحسارها واستنزاف قدراتهم في الحروب المستمرة في عهد سليمان القانوني وإذ كان الصراع لم يحسم بين الطرفين إلا أنّها كانت مجالا لتحالف مع البرتغاليين للإستفواء بهم من طرف

الصفويين أشد القوى خطرا على العالم الإسلامي ، إضافة إلى العلاقات العثمانية مع المغرب الأقصى في عهد الدولة السعدية الناشئة ورغبة العثمانيين في ضم المغرب الأقصى بعد امتداد نفوذهم في الجزائر . كما استوقفنا الوجود العثماني في البحر الأحمر بعد ضم صنعاء 1547م التي أعطت للدولة العثمانية مكانة إقتصادية دولية ونفوذ سياسي فعال في المحيط الهندي والبحر الأحمر ذات الأهمية الاستراتيجية فلتأمين الوجود العثماني في المياه الشرقية والحدود الجنوبية قامت بمساندة أمراء ساحل شرق إفريقيا المسلمين من أجل التصدي لتحالف البرتغالي الحبشي الذي كان يهدد المصالح والأهداف العثمانية في المنطقة ، وبضم الموانئ البرتغالية في الحبشة في كل من زيلع ، سواكن ، مصوع كللت بتأسيس إيالة الحبشة عام 1555م ووطد الحكم العثماني قواعده ومحطاته الواقعة على منافذ البحر الأحمر ومسالكها ومر الحكم العثماني بمرحلتين تركت آثارها واضحة على مختلف النواحي سواء السياسية أو الاقتصادية منها أهمها نجاح العثمانيين في إحكام السيطرة على البحر الأحمر وتأمين سلامة الأماكن المقدسة وإنعاش تجارة الترانزيت من جديد.

و أما الفصل الثالث الموسوم بـ "الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر ميلادي" تطرقت من خلاله إلى الاستراتيجية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي ويتفرع الفصل إلى ثلاث مباحث تتعلق الأول منها بجذور البحرية العثمانية وتطورها في مرحلة سليمان القانوني بالإضافة إلى المجالات البحرية العثمانية التي كانت تمثل المياه الإقليمية للدولة العثمانية وفي المبحث الثاني بينا كيفية تثبيت النفوذ العثماني في الحوض الشرقي للمتوسط أولى محطات السياسة الخارجية العثمانية أو لا هي الفتح العثماني لجزيرة رودس سنة 1522م التي كانت تمثل قلعة حصينة للمسيحية في الحوض الشرقي للمتوسط وتنامي خطرها على أمن وسلامة الطرق البحرية المؤدية للعاصمة العثمانية اسطنبول والأماكن المقدسة متطرفة إلى أهمية الجزيرة من حيث الدور الجيوسياسي

وأسباب الفتح ونتائجه المتمثلة في تأمين حركة الملاحة في الحوض الشرقي للمتوسط و مواجهة التهديد الاسباني في الشمال الإفريقي و الاستراتيجية العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط التي عرضنا فيها الصراع الاسلامي -المسيحي مع اسبانيا التي خاضت حربا استرداد طويلة ضد سواحل المغرب الإسلامي، وأخيرا ختمنا بحثنا بحوصلة عامة تشتمل على أهم ما استخلصناه من نتائج .

وصف أهم مصادر ومراجع الدراسة :

تمت الإستعانة في دراستنا برصيد معلوماتي متنوع شمل بشكل عام ما يلي :

الوثائق العثمانية المنشورة وتتمثل في دفاتر المهمة وهي الدفاتر التي كانت تدون فيها الأحكام السلطانية التي ترسل من الديوان الهمايوني والمعروف أنه كانت الهيئة المهمة التي يتم فيها مناقشة الأمور المهمة وربط هذه الأمور بقرارات تصدر باسم السلطان العثماني وبالتالي تحتوي دفاتر المهمة على معلومات تاريخية في غاية الأهمية وهي تعكس الجوانب المختلفة للفترة التي أعدت فيها، وقد اعتمدنا في دراستنا على الأحكام الصادرة من منتصف القرن 16م/10هـ والمنشورة في كتاب **البلاد العربية في الوثائق العثمانية من النصف الأول إلى أواسط القرن 10هـ/16م**، مجلدين: للمؤلف فاضل بيات وتضمنت مواضيع متنوعة ويحفل على وثائق في غاية الأهمية خاصة بطبيعة العلاقات العثمانية والقوى الإسلامية والعربية آنذاك مثل الدولة الصفوية، اليمن، طرابلس، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى.

بالإضافة إلى كتاب **وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين**

(الخليج العربي، الجزيرة العربية، ولاية الحبش، المحيط الهندي، المغرب العربي): للدكتور

محمد محمود خليل، حيث استقيناه منه مجموعة كبيرة من الوثائق العثمانية المختصة بالبحر

الأحمر والمتوسط والمحيط الهندي أو بالأحرى السياسة العثمانية في المياه الشرقية وقد قسمت

تلك الوثائق تقسيما جغرافيا إداريا أو ما يعرف بالجيوسياسي مثل اليمن والحبشة كامتداد

أقصى للدولة العثمانية، أما المصادر المعاصرة فاعتمدنا في بحثنا على العديد من المصادر التي تفاوتت و اختلفت حسب أهميتها نذكر منها "شرف نامه" للبدليسي في كتابه الذي يعد مصدرا مهما في العلاقات العثمانية الصفوية حيث عاصر فترة السلطان سليمان القانوني ، وتفاعل مع أهم الأحداث كشاهد عيان مما جعل كتابه سجلا حقيقيا للعلاقات السياسية والعسكرية العثمانية الصفوية، والشقائق النعمانية لطاش كبري زادة وتأتي أهميته كون المؤلف عايش الفترة وترجم شخصية السلطان سليمان القانوني في كتابه هذا بالإضافة إلى العديد من الشخصيات السياسية والعلمية في عهد سليمان القانوني ، واعتمدت أيضا على كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني لقطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي الذي قدّم تفاصيل دقيقة عن الضم العثماني لليمن والحبشة لكونه كان قريبا من مسرح الأحداث وشاهد عيان ، واحتوى الكتاب معلومات هامة عن حملة سليمان باشا الخادم 1538 إلى المحيط الهندي ، وبذلك يعتبر مصدر مهم في الدراسات المتعلقة بالسياسة العثمانية اتجاه هذه الأقطار المطلّة على البحر الأحمر ذات الأهمية الاستراتيجية.

كما استندنا في إثراء موضوعنا على المؤرخ حاجي خليفة " تاريخ البحرية " الذي اعتمدنا عليه في استراتيجية الدولة العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر حيث قدم تفاصيل عديدة وبدقة عن أهم المعارك البحرية والقواعد والمجالات العثمانية في البحر المتوسط.

واعتمدنا على العديد من المراجع العربية والأجنبية التي كانت محل إختصاص ولعل أبرزها كتاب "سليمان العظيم" لأندرى كلو و شمل كتابه العديد من الملاحق المهمة ويلماز أوزوتونا في كتابه "تاريخ الدولة العثمانية " درس فيه تاريخ الدولة العثمانية بمختلف جوانبها خاصة السياسية والعسكرية معتمدا في كتابه على الكثير من المصادر والمراجع العثمانية والأجنبية.

كما اعتمدنا على أهم كتب المؤرخين من بينهم ساطع الحصري وجميل سيار وعبد الكريم رافق وستاندفرد شاو ومولاي بلحميسي وهارولد لامب، فرنان برودال، اسماعيل سرهنك التي تضمنت في مجملها معلومات هامة .

الصعوبات :

ككل باحث مبتدئ اعترضت سبيلنا صعوبات تمثلت في عدم الاستفادة من بعض المصادر باللغة التركية.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول : العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية العثمانية .

شهدت الدولة العثمانية تحولات وتطورات عديدة عبر مسيرتها منذ نشأتها في القرن الثالث عشر وإلى غاية القرن السادس عشر ميلادي اتخذت مسارا دقيقا يوجه سياستها الخارجية، حيث ينكشف لنا بجلاء بأن تلك الدولة على امتداد السنوات كان التوسع الخارجي بمثابة عصب الحياة بالنسبة لها، ولذا أجمع المؤرخون على أنها دولة ثغرية ذات سياسة خارجية مهيمنة بامتياز.

وتعود أسباب ذلك إلى تنامي واتساع المصالح السياسية والاقتصادية فقد كان من المؤلف لفترة طويلة بين المؤرخين السياسيين الافتراض بأن تصرفات الدول على الصعيد الدولي تتم تبعا لمصالحها الاقتصادية والأمنية، بعبارة أخرى تبعا لاعتبارات تتعلق بصراعات القوة مع الدول الأخرى وهي نظرية تفوق السياسة الخارجية¹، وإذا أسقطت على السياسة العثمانية فهي تتعلق بمعاملة الدولة العثمانية الإسلامية لغيرها من الدول سواء كانت إسلامية أو مسيحية² في السلم والحرب³، وتحديد معاملة الدولة العثمانية للأجانب.

¹ - السياسة الخارجية تعالج مشاكل ما وراء الحدود إنطلاقا من موقع الدولة ضمن نطاقها الإقليمي والدولي، وتسعى الى تحقيق أهدافها وغاياتها التي يفرضها النطاق الجغرافي على صانعي القرار بما يتوافق معها ويحقق أهدافها وعرفها أحد المهتمين بالسياسة الخارجية أنها مجموعة من النوايا التي تدفع الدول الى نمط معين من السلوك أو هي مجموعة من الخطط لما يجب أن يعمل بها خارج الدول و باختصار هي كل عمل أو إجراء تقوم به الدولة خارج حدودها ساعية إلى تحقيق أهدافها، متجنبه ما يضر بها من أضرار. أنظر: مازن الرمضاني، فن التخطيط السياسي الخارجي، مطبوعات كلية القانون والسياسة، بغداد، 1978، صص 25، 26.

² - توماس آرلوند، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسين ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين و اسماعيل النجاوي، مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص 205.

³ - ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، ط 1، المدار الإسلامي، بيروت، 2008، ص 40.

وهي جاليات يلزم على دولها إقامة علاقات مع الدولة العثمانية وتلك العلاقات لم تكن محدودة وواضحة المعالم وإثما أكثر سعة وتلونا وتشابكا لأنها مرتبطة بالعلاقات السياسية¹، ومعاملة المسلمين العثمانيين لغيرهم في الدول الأجنبية، وتهدف السياسة الخارجية في هذا المقام إلى تحقيق أحد الهدفين إما الإقناع² أو الإخضاع³.

لا شك أنّ ظهور الدولة العثمانية في ظروف سياسية ميزت القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي،⁴ بالفراغ السياسي واضمحلال الدول القائمة في المنطقة آنذاك⁵، لكنها حاولت الاستفادة من هذه الظروف قدر الإمكان، باتخاذ استراتيجية عسكرية ميزت سياستها الخارجية في كل مراحلها أي منذ الفترات الأولى من فترة الإمارة في الأناضول 699 - 772 هـ / 1300 - 1370 م⁶ مروراً بفترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

¹ ليلي الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع "العاشر والحادي عشر هجري"، مؤسسة الرسالة، ج 1، ط 1، بيروت، 1989م/1409هـ، ص 83.

² الإقناع: يقصد به نشر الإسلام فالعثمانيون لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام في البلاد التي فتحوها بل تركوا لهم حرية الاختيار لمن بقي على دينه لن يصبه أذى، ونتيجة لهذه السماحة، فقد دخلت أفواجا كبيرة إلى الإسلام ولقد سارع الكثير من الإغريق الذين أصبحوا تحت السيادة العثمانية يسارعون إلى الإسلام، توماس آرنولد، مرجع سابق، صص 170، 172.

³ عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000، ص 15.

⁴ محمد فؤاد كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، أحمد عزت عبد الرحيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ص 4.

⁵ ظهرت إمارة صغيرة بعد اضمحلال دولة السلاجقة تنسب إلى آل عثمان مستقرين على الحدود بين السلاجقة والبيزنطيين بين ستة عشر دولة، وإن لم تكن في أي حال أكبرها لكنها سوف تملأ الفراغ السياسي بتوجيه جهودها نحو الغزو والتوسع في الأراضي البيزنطية في الوقت الذي كانت تتصارع فيه بقية الدويلات المنبثقة عن دولة السلاجقة التي سوف تضمهم الدولة العثمانية فيما بعد. أنظر: نفسه، ص 183.

⁶ نفسه، ص 4.

المتمدة من 772 - 886هـ/1370 - 1481م إلى المرحلة الثالثة التي سميت بفترة العصر الذهبي، وتمتد من سنة 886 - 998هـ/1481 - 1590م¹. وفي غضون هذه المراحل تأثرت السياسة الخارجية للدولة العثمانية بمجموعة من العوامل والمؤثرات، حيث تفاعلت وتداخلت فيما بينها لتحديد مسارها الحربي النشط الذي حرص العثمانيون على الالتزام به²، منقسمين في بقاع آسيا وأوروبا وإفريقيا غزاة فاتحين³، وتتجلى تلك العوامل أولاً في العامل الجغرافي المتمثل في الموقع الاستراتيجي للدولة العثمانية⁴، وثانياً العامل الديني المتمثل في المرجعية الإسلامية⁵ التي غذت ودعمت العثمانيين روحياً في السلم والحرب، أما ثالثاً قوة شخصية السلاطين خاصة السلاطين العشر الأوائل⁶.

1- الموقع الجيوسياسي للدولة العثمانية:

-
- ¹ - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة 2005، ص 11.
- ² - وهي عملية الغزو والجهاد التي كانت عاملاً مهماً في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها، لقد كان مجتمع تلك الإمارات الحدودية ينسجم مع نموذج حضاري خاص، متشعب بمثال الجهاد الدائم لتوسيع دار الإسلام حتى تشمل العالم كله. أنظر: خليل إنجليك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد م. الأرنؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص 15.
- ³ - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البلعبيكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988، ص 439.
- ⁴ - عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516 - 1916، دمشق، 1974، ص 31.
- ⁵ - برنارد لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تعريب رضوان السيد علي، الدار السعودية للنشر، الرياض، 1982، ص 35.
- ⁶ - جب هاملتون وهارولد باوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج 1، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، دار الادي للثقافة والنشر، دمشق، 1997، ص 53.

اتفق المؤرخون على القيمة السياسية والاستراتيجية المستمرة التي يمثلها موقع الدولة العثمانية منذ قيامها في الشمال الغربي للأناضول،¹ ولإلقاء الضوء على أثر الموقع لا بد من التعرف إلى المجال الجغرافي الذي شغلته الدولة العثمانية، فقد شغلت الدولة العثمانية جغرافيا في البداية منطقة سكود شمال غرب الأناضول²، ثم بدأت تتوسع لتشمل عوالم أخرى مثلت المحور الأساسي للدولة العثمانية وهي الأناضول والمتمثلة في آسيا الصغرى وملحقاتها، الروملي وهي أوروبا الشرقية والوسطى ثم المشرق العربي المتمثل في بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية والعراق³ إلى شمال إفريقيا والحبشة.⁴

نستنتج أن الدولة العثمانية امتدت في كل من أوروبا، آسيا وإفريقيا⁵، هذا الموقع المترامي الأطراف جغرافيا جعلها محاطة ومطلّة على مجموعة من البحار والمضائق ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية⁶، حيث حملّ الموقع الاستراتيجي للدولة العثمانية مسؤولية كبرى وانشغالا مستمرا في حماية مكتسباتها، الذي تتزاحم عليه قوى أخرى سواء إسلامية أو مسيحية كردود أفعال على سياسة العثمانيين الخارجية، وكانت أولوية الدولة العثمانية المحافظة على كيانها وتوسيع حدودها فالموقع المنفتح على البحار يعتبر موقعا خاصا ومتميزا يؤثر بامتياز على مختلف جوانب السياسة الخارجية، فاقتضت هذه الأهمية تبني خطاب

¹ - برنارد لويس، مرجع سابق، ص35.

² - فؤاد محمد كوبريلي، مرجع سابق، ص4

³ - جودة حسنين وعلي أحمد هارون، جغرافية الدول الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1984، ص688.

⁴ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص778.

⁵ - إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج1، المطبعة الأميرية بولاق، مصر، 1112هـ، ص454.

⁶ - وهذه البحار هي البحر الأسود، بحر إيجه، البحر الأحمر، البحر المتوسط، بحر العرب، مما أوجد للدولة العثمانية حماية طبيعية متميزة ناهيك عن منافذها البرية المتعددة. أنظر: نفسه، ص454.

سياسي يتصف بخصومية وحساسية وتوجها سياسيا قائما على التوسع والجهاد منذ بداية المسيرة¹.

كانت الدولة العثمانية في أول أمرها إمارة من إمارات الحدود² التي تنسب إلى حاكمها الأول عثمان³، والذي حكم ما بين 1299 إلى 1326م، قدر لها أن تقوم بأعظم الإنجازات بالرغم من صغر حجمها وبساطة قوتها في البداية مقارنة بغيرها من الإمارات المجاورة والمنافسة لها⁴، لكن وضعهم في أقصى الغرب على حدود الإقليم البيزنطي أي الحدود التركية- البيزنطية⁵، فهذا الموقع الجغرافي كان كفيلا بمفرده بأن يخلق جماعة مستقلة مما أعطاهم أهدافا كبرى وفرصا عظيمة في جذب المتطوعين من جميع الأناضول⁶، وهذا ما عبر عنه محمد فؤاد كوبريلي⁷ بقوله: "كانت هذه الإمارة في أحسن موقع على

¹ إكمال الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م1، ترجمة صالح سعادوي، ط2، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2010، ص9.

² أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008، ص46

³ عثمان : (1258/هـ-1326/م) وهو عثمان بن أرطغرل، مؤسس الدولة العثمانية التي تنسب إليه وأول سلاطينها. أنظر: Agoston.G.Masters.B,Encyclopedia of the Ottoman empire ,Facts on File Inc,N.Y,USA,2008,p444.

⁴ ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، المكتبة التجارية المصرية، القاهرة، 1958، ص383.

⁵ عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2001، ص36.

⁶ برنارد لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة العثمانية، مرجع سابق، ص35.

⁷ محمد فؤاد كوبريلي : هو مؤرخ وأديب وسياسي تركي، ولد في اسطنبول 1890م وتوفي بها عام 1966م، عمل مديرا لمعهد الدراسات التركية، ثم عضولا لمجلس النواب لعدة مرات، كما عمل وزيرا للخارجية التركية 1959-1957م، له العديد من المؤلفات في الأدب والتاريخ أشهرها تاريخ تركيا، وتاريخ الأدب التركي، وقيام الدولة العثمانية. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص102.

الشمال الغربي بجوار العالم المسيحي قد فرض على العثمانيين سياسة عسكرية وقوى مركزها كرائدة للحرب حيث كانت أوفر حظا في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل فالدولة من بين ستة عشر دولة بعد اضمحلال دولة السلاجقة¹، من بينها دولة بني عثمان التي قدر لها أن تصبح دولة إمبراطورية وأن تحكم شعوبا ومللا، وأطول دول الترك دامت 683 عاما (1299 - 1924) واختلف على حكمها 36 حاكما وبلغت أوجها في عصر السلطان سليمان القانوني فحكمت المجر ودكت أسوار فينا².

يظهر من هذا ارتباط الدور السياسي الخاص للأسرة العثمانية ارتباطا عضويا بالمهام التي أنيطت للعثمانيين للدفاع عن دار الإسلام أو المجاهدة في دار الحرب،³ فغدت إمارة ذات أطر ثابتة تجتذب قوى فكرية وسياسية، فمن إمارة حدود يسكنها الرعاة إلى دولة قائمة بذاتها، ذات عاصمة وحدود ثابتة وسكان مستقرين⁴، ووسائل للدفاع وتوسيع رقعتها وإدارة تشرف على شؤون الحكم بها، والممتدة من آسيا الصغرى إلى البلقان⁵.

¹ - لما توفي السلطان علاء الدين كايكودباد كانت دولة السلاجقة قد أخذت في التفكك والانحلال وضعف أمرهم في آسيا الصغرى فأعلن عثمان استقلاله وحكم في أراضيه أميرا مستقلا حتى توفي سنة 1326م وكان العثمانيون قد استولوا على مناطق شاسعة في أواسط آسيا الصغرى وغربها وفي نفس العام افتتح أورخان ابن عثمان مدينة بورصة وجعلها عاصمة له ثم تابع فتوحه حتى انتزع معظم الأراضي الواقعة على شاطئ مرمرة. أنظر: محمد بن عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط5، مؤسسة حسين عنان، القاهرة، 1997، ص169.

² - محمد فؤاد كوبريلي، مرجع سابق، ص183.

³ - وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1990، ص43.

⁴ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، 1982، ص38.

⁵ - البلقان: وهي الروم ايلي وتمثل أوروبا الشرقية وملحقاتها. أنظر: سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط2، دار الشروق، بيروت، 1997، ص299.

تعود جذور هذه العظمة إلى ثلاثة قرون من الجهود المتواصلة والدفاع¹، عن هذه الرقعة الجغرافية، ولعل من أهم الآثار السياسية للموقع الجغرافي على السياسة الخارجية العثمانية هو أنّ هذه الأخيرة كيفت نفسها معها، فأحدثت تغييرا واضحا بالنسبة للطبيعة الجغرافية للدولة نفسها، فبعد أن كانت برية حدث تغير جوهري في طبيعتها الجغرافية، إذ صارت الدولة العثمانية تمتد على مساحات شاسعة تمتد من حدود دجلة² وديار بكر³ إلى البصرة والخليج العربي⁴، الذي لم تستطع الإمبراطوريات السابقة مثل الإمبراطورية الرومانية الولوج إليه، وكذلك تمكنت من إخضاع جانب كبير من ساحل البحر الأحمر حتى مدينة عدن والمدن المقدسة والبحر الأبيض المتوسط⁵.

لا شك في أن ذلك ضمن لها قوة سياسية متميزة وهياً لها أن تلعب أدوارا سياسية عالمية نشيطة من خلال تلك الطبيعة الجديدة المكتسبة، والتي لم تكن لها قبل أن تبدأ في ممارسة سياسة التوسع الخارجي أو التي سماها المؤرخون الغربيون الهيمنة العثمانية الخارجية. ومن جهة أخرى، أثرت الناحية الجغرافية للدولة العثمانية في القائمين على النظام السياسي والطموح القوي الذي أكسبها الكثير من النجاحات العسكرية، كما عرف عن العثمانيين التنقل من عاصمة إلى أخرى ما يدل على مرونة السلاطين العثمانيين فمن مدينة يني شهر⁶

¹F. Braudel ,La Mediterranée et le monde Méditerranéen l'époque dePhilippeII , T2 ,librairie Armand Colin,Paris,1966,p11.

² - دونالد كواترث، الدولة العثمانية 1700 - 1922 ، ترجمة أيمن أزمناري ، ، ط1 ، مكتبة العبيكان ، الرياض 2004 ، ص9

³ - نفسه ، ص9

⁴ - ليلي الصباغ ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص73.

⁵Renée De Lucinge,De la naissance dure et chute des etats, edition critique par Michael J.Heath,librairieDros S.A,Genève,1984,p207.

⁶ - يني شهر: كلمة تركية معناها المدينة الجديدة، يني بمعنى جديد وشهر بمعنى مدينة. أنظر: محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص36.

نقلت العاصمة العثمانية إلى مدينة بورصة 1326م¹ في آسيا الصغرى ومنها إلى أدرنة 1362م²، ثم القسطنطينية عام 1453م في قارة أوروبا³.

هذه الأخيرة التي أضفت طابع الدولة العالمية باحتلالها موقعا فريدا من بين مدن العالم، فهي تقع عند ملتقى قارتي أوروبا وآسيا تحيط بها البحار من ثلاث جهات تتميز بترتها الخصبة واعتدال مناخها، كما تميزت بأسباب القوة والمنعة وللقسطنطينية ميناء القرن الذهبي، الذي يعد أوسع ميناء في العالم ومركزا تجاريا عالميا وهي تتمتع بموقع ذو قيمة جيوسياسية كبيرة، فقال عنها نابليون: "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها"⁴، ولتنتقل معها الدولة العثمانية إلى مرحلة الامبراطورية⁵

2- قوة شخصية السلاطين والروح الدينية:

لا يمكن إنكار دور الزعامة السياسية المسؤولة عن توجيه السياسة الخارجية للدولة العثمانية في التأثير عليها فيما يتصل بالأهداف واختيار أساليب تنفيذها، مما يؤكد صحة ذلك التصور أن التغيير في أنماط الزعامات أو القيادات السياسية الحاكمة ينتج في أحيان كثيرة تغيرات هامة وتحولات جذرية في توجهات السياسة الخارجية للدولة العثمانية⁶، فسير

¹ بورصة: تقع عند سفح جبل أوليمبس الذي يسمى بالتركية أولو طاغ أي الجبل الكبير، وقد دفن في هذه المدينة الستة الأوائل من سلاطين الدولة العثمانية، وهم: عثمان، أورخان، مراد الأول، بايزيد الأول، محمد الأول، مراد الثاني. أنظر: نفسه، ص 37.

² منجم باشا أحمد، جامع الدول، دراسة وتحقيق غسان علي الرمال، مكة المكرمة، 1430هـ/2009م، ص 54.
³ Robert Mantran, Istanbul dans la seconde moitié du 16 siècle, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1982, p173.

⁴ سالم الرشدي، محمد الفاتح، مطبعة متولي وأولاده، مصر، 1989، ص 26.

⁵ شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، ترجمة عبد اللطيف الحارث، ط 1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2005، ص 92.

⁶ هشام محمود الأقداحي، السياسة الخارجية والمؤتمرات الدولية، مؤسسة شهاب الجامعية، الإسكندرية، 2012، ص 39.

الأمرء والسلاطين¹ الأوائل في تصديهم لمتطلبات السياسة العامة وفي إدارتهم لشؤون السلطة وما يتفرع عنها من رسم للأهداف الكبرى وتعيين استراتيجية تتناسب وطبيعة هذه الأهداف تتلازم هذه السير العامة تلازما عضويا مع ما اتصفت به سيرهم الفردية من أنماط وسلوك يغلب عليها طابع الزهد والبساطة والتكشف².

يتبين لنا من خلال متابعة الممارسات والقرارات التي اتخذها السلاطين العثمانيين وخاصة في مجال السياسة الخارجية وحتى الداخلية منها كانت في غالبها تنم عن الفطنة والحكمة مما أدى إلى ارتفاع وتيرة التجاوب الشعبي³. لتلك الممارسات السلطانية⁴ التي دفعت البلاد نحو التوسع والتطور والدخول في سياق الدول العالمية والمتحضرة، وحتى نفهم ذلك لا بد من دراسة سريعة لكاريزما شخصية سلاطين الدولة العثمانية فمثلا عثمان مؤسس الدولة العثمانية كان ذو شخصية جذابة تغري الآخرين بخدمته⁵ كما تميز بالجد والمثابرة وضبط النفس والهيبة ورغم حماسته الدينية فقد اتصف بالتسامح⁶ فلو اضطهد المسيحيين لما أمكنه

¹ - السلاطين في الدولة العثمانية يمثلون رمز الوحدة وتقع على عاتقهم مسؤولية توفير الأمن وإقامة العدالة بين الرعية وذلك لكونه رئيسا للدولة وقائدا للجيش وهذه المهمات تتطلب قوة الشخصية أي قدرة صانع القرار في التأثير الفعال لكل صغيرة وكبيرة. أنظر: جب هاملتون وهارولد باوون، مرجع سابق، ص 48.

² - حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة، ط 1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1417 هـ / 1997م، ص 70.

³ - نيقولاوي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، منشورات أنيب، الجزائر، 2004، ص 35.

⁴ - توماس آرلوند، مرجع سابق، ص 175.

⁵ - في إطار منظومة الفتوة في التقاليد الغزية التركية حيث يذكر ابن طوطة "أن الفتوة تتألف من مجموعة من الرجال يجتمعون أهل صناعته من الشبان ويقدمونه على أنفسهم أنظر: ابن بطوطة، مصدر سابق، ج 1، ص 181.

⁶ - أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص 50.

من اجتذاب حديثي العهد بالإسلام¹. الذين كانوا الركيزة الأساسية للدولة الناشئة كما حذى حذوه من السلاطين العثمانيين مثل أورخان².

ومراد الأول³ الذي يعد من الشخصيات القوية المهيمنة على القرن الرابع عشر، كان قائد حرب متميزا بمواصفات الحكمة والفطنة الى محمد الأول الذي أعاد بناء الدولة العثمانية بعد نكبة أنقرة⁴ ومراد الثاني⁵ الذي ألحق الهزيمة في فارنا بأخر تحالف مسيحي وصولا الى محمد الثاني فاتح القسطنطينية⁶ أقوى شخصية رمزية في التاريخ العثماني مع سليمان القانوني⁷.

كما ذهب المؤرخون الى تقسيم سلاطين الدولة الى مجموعتين حسب قوة شخصيتهم وانعكاساتها على قرارات السلاطين في توجيه السياسة الخارجية العثمانية بطريقة منهجية وسليمة، إلى مجموعة سلاطين المرحلة الأولى وهم عشرة أولهم المؤسس عثمان وآخرهم السلطان سليمان القانوني وقد حكموا 287 عاما (698 - 974/1299 - 1566م)

¹ مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 37.

² أورخان: (1281 - 1362م/680 - 763هـ) هو ابن عثمان و ثاني سلاطين الدولة العثمانية عرف بعبقريته العسكرية وقيامه بالتشاور مع كبار رجال الدولة والاستفادة من خبراتهم مما مكّنه من فتح أقاليم عديدة أهمها مدينة بورصة التي نقلت عاصمة الدولة العثمانية إليها كما قام بصك أول عملة للدولة الأتجة كما يعود له الفضل في تأسيس الانكشارية والديوان. أنظر: ابن بطوطة، مصدر سابق، ج 1، ص 164.

³ مراد الأول: ثالث سلاطين الدولة العثمانية تولى حكم السلطنة ما بين 726 - 791م. أنظر: عزتلوا بك آصاف

⁴ أنقرة: مدينة تركية آسيوية على نهر صوبي، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه في ولاية بوزاوق. أنظر: س.

موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشحادات، دار ابن حزم، ط 1، بيروت،

2002، ص 115.

⁵ مراد الثاني: سادس سلاطين الدولة العثمانية، حكم ما بين 1421 - 1451. أنظر: يلماز أوزوتونا، ص 121.

⁶ القسطنطينية: كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة 330م إلى 395م، وعاصمة الدولة البيزنطية

إلى عام 1453 وعاصمة الدولة العثمانية بعد فتحها من قبل محمد الثاني عام 1453م. أنظر: منجم باشي أحمد بن

لطف الله، مرجع سابق، ص 177.

⁷Endré Clot, Soliman Le Manifique, Fayard, Paris, 1983, p30.

وقامت على أكتافهم عظمة الدولة من حيث التوسع الإقليمي ووضع الأنظمة السياسية والعسكرية والإدارية¹.

ينم هذا على أن سلاطين المرحلة الأولى تميزوا بالذكاء والحزم والعزم والشجاعة وقيادة الجيوش والقدرة على تصريف أمور شؤون الدولة الداخلية والخارجية². يتبين مما سبق أن مؤسسة الحكم العثماني الذي يمثلها السلطان قد أخذت جميع السبل في توجيه السياسة الخارجية معتمدة على الفكر المستنير.

³ حيث كان السلطان⁴ رأس السلطة وصاحب الكلمة الأولى في شتى الشؤون الإدارية والتنظيمية⁵، كما عرف على السلاطين العثمانيين الالتزام بالشريعة الإسلامية فعندما نرى قوانين نامة⁶ التي سارت وفقها الدولة العثمانية، ورسمت سياستها الخارجية نلاحظ الصبغة الإسلامية التي اتصفت بها.

¹ - جب هاملتون وهارولد بوون، مرجع سابق، ج 1، ص 50.

² Laine-Poole Stainly, Turkey, Khayats, Beirut, 1966. p324.

³ - دونالد كواترث، مرجع سابق، ص 9.

⁴ - السلطان: والذي يعرف كذلك بلقب خنكار وتعني السلطان الأعظم ولقب بالباديشاه ويقصد به الحاكم الأعلى، أما لقب الخليفة فلم يتخذه السلطان بصورة فعلية إلا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ومن الملاحظ أن مؤسسة الحكم مرت بثلاث مراحل وهي مرحلة أمراء الثغور التي كان فيها لقب غازي في القرن 13 - 14 م ثم مرحلة سلطان الروم وبعد أن توسعت الإمبراطورية جاءت مرحلة الباديشاه أي إمبراطور الإسلام أما لقب الخليفة فلم يتخذه السلطان العثماني إلا ابتداء من سنة 1774 في معاهدة كوجاك كاينارجه. أنظر: برنارد لويس، اسطنبول وعاصمة الخلافة العثمانية، مرجع سابق، ص 69.

⁵ - محمد مصطفى عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 72.

⁶ - قوانين نامة: يعني بالأولى أي قوانين وهي مقياس كل شيء، والثانية نامة وهي كلمة فارسية تعني الكتاب أو الورقة أو الرسالة، وعليه فكلمة قوانين نامة تعني ورقة القانون، أو لائحة القانون أي مجموعة النصوص القانونية واستخدم هذا المصطلح في فقه القانون العثماني. أنظر: عارف خليل وأورهان جانبولات، "قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها، أهدافها، وآثارها"، دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 39، العدد 1، عمان، 2012، ص 311.

فالقوانين التي وضعت من طرف السلاطين الأوائل جعلها موافقة للشرع، فعلى سبيل المثال لا الحصر ورد في مقدمة بعض قوانين نامة "القوانين والمسائل التي يحتويها قوانين نامة السلطان موافقتها مازالت مقررة للشرع الشريف"، وهذا دليل واضح على استناد تشريعات السلاطين للشريعة كتابا وسنة¹.

أما الروح الدينية يغذيها فكر مذهبي تعتنقه جماعة ما، وتسعى إلى تنظيم المجتمع استنادا إليه في كافة قطاعات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، على نحو من العوامل الثقافية المحددة للسلوك الفردي والجماعي باعتبارها تحدد الغايات التي يسعى الفرد أو الجماعة إلى تحقيقها²، ومن ثم فلا غرو أن تتلون السياسة الخارجية لتحقيق السيادة والهيمنة بصبغة دينية³، وهذا ما عبر عنه روبر مانتران في كتابه تاريخ الدولة العثمانية في جزءه الأول بقوله: "لتحسين كل تكوين سياسي الحاجة إلى تدعيم السلطة السياسية بدعامة إيديولوجية وفيما يتعلق بالدولة العثمانية فإنّ الدوافع التي تغذيها لتبرير هيمنة آل عثمان تتجسد في قوله إنّ الله الذي منحني أن أكون خانا بفضل الجهاد"⁴

كما يظهر البعد الديني في شخصية السلاطين العثمانيين التي زادتهم قوة في حماية الأماكن المقدسة بعد ضمها في 1517⁵ وهي إحدى واجبات السلطان بصفته خادما للأماكن المقدسة

¹ - أورهان جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، بيروت، 2012، ص166.

² - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص33.

³ René De Lucinge, op.cit, p164.

⁴ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص36.

⁵ - خليل انالجيك، مرجع سابق، ص34.

وحماية الحجاج خلال رحلتهم الطويلة عبر الصحراء السورية والعربية¹، وسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر² والبحر الأبيض المتوسط، لم تكن هذه المهمة سهلة³ حيث كان يشكل تحديا كبيرا للسلطين العثمانيين⁴ لكنهم أدوها بكل تفان وحزم بسبب قوة شخصيتهم.

تبنّت الدولة العثمانية الدين الإسلامي⁵ منهجا ومرجعية لحكمها⁶ ومن ثم استقت مبادئ سياستها الخارجية منه، فالتزمت بتعاليمه، وعمل السلطين جادين على تثبيت الحكم الإسلامي العادل⁷ في ربوع الدولة العثمانية فكانت نموذجا لدولة الإسلام التي شاركت مختلف الشعوب الإسلامية في تطويرها وتنميتها.⁸

¹ - ثريا فاروقي، حجاج وسلطين، الحج أيام العثمانيين 1517 - 1683، ترجمة أبو بكر أحمد قادر، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص 211.

² - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 78.

³ - ثريا فاروقي، حجاج وسلطين، مرجع سابق، ص 211.

⁴ - عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج 2، ط 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص 863.

⁵ - الذي ورثته الدولة العثمانية من تراث تسعة قرون من الحكم الإسلامي، تأثر مفهومه خلالها بالنظم الفارسية القديمة وبالتقاليد العربية وبسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في حكومته بالمدينة ثم باجتهاد فقهاء السنة ونظرياتهم وأخيرا بمقتضيات العملية التي تحتمها الممارسة الفعلية لشؤون الحكم والإدارة. أنظر: هاملتون جب و هارولد بوون، مرجع سابق، ص 65.

⁶ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 31.

⁷ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 14.

⁸ - هاملتون جب و هارولد بوون، مرجع سابق، ص 49.

وأنّ ما يحمله الحكام العثمانيون للشريعة الإسلامية والتراث الإسلامي¹ عامة من التجلّة والاحترام يدفعانهم إلى الحرص كل الحرص على إتباع أحكام الشرع والالتزام به في كل تصرفاتهم، وعلى تحري التوفيق والملائمة ولو بالظاهر فقط بين هذه الأحكام ومختلف شؤون الحياة² بما في ذلك شؤون الدولة الخارجية، وهذا ما أكدّه المؤرخ العثماني هزرافن حسين أفندي³ في كتابه تلخيص البيان لقوانين آل عثمان بقوله: "إنّ شؤون الدولة مبنية على الدين، إنّ الدين هو الأصل والدولة فرع منه وكون الدولة فرع من الدين استوجب ذلك حرص الدولة العثمانية الشديد على حماية الدين وحراسته و تطبيقه فورد في إحدى المواد القانونية الأمور العامة في الولاية وفي كافة المملكة تعمل بمنهج الشريعة الإسلامية والقوانين العادلة".

فلم يكن السلاطين العثمانيين أقل حرصا من أسلافهم في تطبيق الشريعة الإسلامية⁴ ويظهر هذا من خلال استشارتهم العلماء، ليأمنوا لهم الاستمرارية ويساعدونهم على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية،⁵ بل المساهمة الفعالة في بناء المشروع الحضاري

¹ - محمد عبده، "الدين والدولة أو الخلافة والسلطنة"، مجلة المنار، العدد 33، السنة الثانية، القاهرة، 9189، ص360.

² - هاملتون جب و هارولد بوون، مرجع سابق، ص61.

³ - هزرافن: هو بن جعفر استانكوي الشهير بهزرافن (1089هـ/1678م)، كان من علماء عهد السلطان محمد الرابع، واشتهر بعلمه وأدبه، واشتغل بخدمة الدولة وكان معلما للسلطان محمد الرابع، توفي في اسطنبول وله مصنفات مختلفة كالتاريخ والتصوف والأخلاقيات والسياسة، والإدارة، ومؤسسات الدولة، والطب. أنظر: عارف خليل أبو عيد وأورهان جانبولات، "قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها، أهدافها، وآثارها"، مرجع سابق، صص 365، 367.

⁴ - أورهان صادق جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، مرجع سابق، ص50.

⁵ - إنّ الموقع الروحي السامي للشيخ جعلهم بطبيعة الحال على علاقة وطيدة جدا بالسلاطين، الذين كانوا عادة يجلون شيوخهم، مثلا كان يقف السلطان بايزيد الثاني عندما يستقبل شيخ الإسلام، وكان يفسح له مكانا الى جنبه، وكانت العلاقة تتطور أحيانا الى صداقة شخصية، وإلى ثقة متبادلة، كما كانت الصداقة بين السلطان سليمان وشيخ الإسلام كبيرة جدا. أنظر: أكرم كيدو، مؤسسة شيخ الإسلام، ترجمة هاشم الأيوبي، منشورات جروس براس، طرابلس 1992، ص104؛ كما لقي العلماء احتراما كبيرا منذ الفترة التأسيسية الأولى للدولة العثمانية حيث ارتبطت صورة السلطان العثماني بصورة العالم الديني الذي يبايع ويقدم النصيحة والمشورة تلك هي صورة السلطان =

العثماني الإسلامي والجدير بالذكر إنه من بداية الدولة العثمانية إلى بداية التنظيمات كان السلاطين العثمانيين حريصين على تطبيق الشريعة الإسلامية.¹

فغلبت الصبغة الإسلامية الشديدة للدولة العثمانية جعلها تقوم بواجب الجهاد المقدس ونقل الفتوحات الإسلامية العثمانية إلى القارة الأوروبية، مما عرضها للتصادم مع العالم المسيحي المتعصب بدوره للمسيحية، كما كانت حافزا رئيسيا للدول الأوروبية كي تتضافر في عدائها وفي تنسيق الضربات عليها.² مثل ماحدث في معركة كوصوة³ سنة 1389م ونيقوبوليس⁴ سنة 1396م وفارنا⁵ سنة 1444م، بالمقابل الدولة

عثمان المؤسس مع عالم زمانه أده بالي، كما يقدمها نص تاريخي يعود الى 16/هـ 10م إذ نقرأ في سيرة هذا الأخير "ولد أده بالي بالبلاد القرمانية وقرأ هناك بعض من العلوم، ثم ارتحل الى البلاد الشامية، وتفقه بها على مشايخ الشام، وقرأ التفسير والحديث والأصول عليهم، ثم ارتحل إلى بلاده واتصل بخدمة السلطان عثمان الغازي ونال عنده القبول التام وكانوا يرجعون إليه بالمسائل الشرعية ويتشاورون معه في أمور السلطنة. أنظر: طاشكبري زادة، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1395هـ/1975م، ص6.

¹ - أورهان صادق جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلته بالمذهب الحنفي مرجع سابق، ص51.

² - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج1، ص37.

³ - كوصوة: نسبة إلى سهل كوسوفو ببلاد البوسنة دارت فيها رحى معركة بين القوات العثمانية والقوات الصربية البوسنية المشتركة من نتائج هذه المعركة السيطرة على بلاد الصرب. أنظر: تهاني شوقي عبد الرحمان، الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م/1431هـ، ص29.

⁴ - نيقوبوليس: تقع على الضفة الجنوبية من نهر الطونة جرت فيها معركة بين العثمانيين والحلف المسيحي الأوروبي بزعامة سيجموند ملك المجر، باعتبار الخطر أصبح قاب قوسين أو أدنى من دولته بمباركة البابا بوني فاس. أنظر: سونيا محمد سعيد البنا، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، الابداع للنشر والتوزيع، مصر، 2006، ص310.

⁵ - فارنا: دارت فيها معركة من أهم معارك الدولة العثمانية التي أسر فيها حوالي 800 أسير مسيحي وقتل فيها لاديس لاس الثالث ملك بولونيا والكاردينال جيساريني. أنظر يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل، استنبول، 1988، ص127.

العثمانية تصدت للمواجهة الصليبية¹ ضمن فلسفة الجهاد والتوسع التي تبناها السلاطين الأوائل².

والواقع أن الدين الإسلامي كان الأساس الذي قامت عليه الدولة العثمانية وإليه تدين بالكثير من أسباب وجودها واستمرارها وهذا بفضل ما كان يلهمه أحكامه ومبادئه لقادتها وأولي الأمر فيها من إيمان بضرورة الجهاد لنشر راية الإسلام، وتوسيع رقعته طبقاً لأحكام الشريعة³.

وعلى الرغم من تقسيمات الشريعة إلى دارين فإن إقرار حالة الحرب أو استمرارها ليست هي الغالبة على الدولة العثمانية مع العالم الخارجي، بل تخللتها الكثير من فترات السلم وتفادي القتال بعقد الصلح والاتفاقيات مع القوى المسيحية.

وهذا ما أصطلح عليه بالمرونة التي ميزت السياسة الخارجية العثمانية⁴. وهذا تأسيا بالسنة النبوية التي كانت من بين معالم سياستها الخارجية إظهار القوة أمام الأعداء لكن مع المرونة

¹ - الصليبية: وصف في البداية أطلق على الحملات الدينية والعسكرية المنظمة من طرف أوروبا الغربية، من أجل التوسع واستعادة الأماكن المقدسة في فلسطين والقريبة من سوريا في القرن 10م. أنظر: B.Lewis.Ch.Pellat.J.Schucht, Encyclopedia of Islam, V2, E4, EJBrill,Liden, 1991, p63.

² - سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط1، دار الشروق، عمان، 1997، ص51.

³ - ومن هذه الأحكام هو أن العالم داران، دار الإسلام ودار الحرب وأهل دار الإسلام هم بالبداية المسلمون المؤمنون الذي يفرض عليهم الإيمان الصحيح وجوب توسيع رقعة دارهم على حساب دار الحرب أما أهل دار الحرب فهم اثنان: أهل الكتاب والكفار. أنظر: هاملتون جب وهارولد بوون، مرجع سابق، صص 49، 50.

⁴ - وهذا ما أشارت إليه ثريا فاروقي بالشرعية الإسلامية والبراغماتية السلطانية. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص38.

في المفاوضات وتفادي القتال أحيانا بعقد الصلح ووجوب الإلتزام بما تعقده الدولة من معاهدات واتفاقيات¹.

ومهما يكن من أمر فإنّ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين الأوروبيين لم تكن مجرد علاقة حرب مقدسة فحسب، بل كانت علاقة تجارة عبر البحر المتوسط والمحيط الهندي وكان هناك تبادل أيضا للأفكار يتجه من البلدان الإسلامية نحو البلدان المسيحية، فكتب العلوم والطب ترجمت إلى اللاتينية وظلت في القرن السادس عشر كتابات عالم الطب الشهير ابن سينا تدرس في مدارس الطب الأوروبية².

كان الإسلام بالنسبة للدولة العثمانية ما كانت المسيحية لأوروبا لكن تميز العثمانيين عن الأوروبيين بالتسامح الديني هذا التسامح وإن كان نسبيا معلقا على افتداء الحرية الدينية³ بالجزية⁴، إلا أنّه كان ظاهرة جديدة في عصور سوّدت صحفها كل سير الإضطهاد الديني⁵.

¹ - عبد الله بن ناصر بن سلطان السحبياني، السياسة الخارجية للدولة النبوية، رسالة دكتوراه، إشراف محمد الحسيني حنفي، كلية المعهد العالي للقضاء، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1399هـ/1979م، ص 68.

² - ألبرت حوراني، الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994. ص 34.

³ - في المقابل تعرض المسلمون في صقلية وإسبانيا للتضييق الديني ومحاكم التفتيش بل صدر في حقهم قرار الطرد سنة 1492 م، ولقد تعرض كل المسلمون وحتى اليهود في مملكة إسبانيا إلى أمر اختيار وهو التحول إلى عقيدة جديدة أو النفي أو الموت. أنظر: برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة طاهر عبد القادر محمد، ط 1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1996، ص 294.

⁴ - الجزية: مقدار من المال فرض على أهل الذمة مقابل حرية العبادة لأهل الكتاب. أنظر: سلوى علي ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، صص 7، 8.

⁵ - محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص 36.

ومن أكبر صور التسامح في عهد السلطان محمد الثاني عندما فر الكثير من سكان القسطنطينية أثناء فتحها عام 857هـ/1453م¹ خوفا من القتل أصدر السلطان بيانا عاما دعا فيه هؤلاء الفارين للعودة إلى مدينتهم وأمنهم على حياتهم وأموالهم، ووعدهم بحرية العبادة وممارسة شعائهم، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عمل على تنصيب بطريكية جديدة بنفس المراسيم الفخمة التي كانت في عهد الأباطرة الأول، واحتفى محمد الثاني بالبطريك الجديد وبالغ في تكريمه والترحيب به وتمتع هذا البطريك بكل ما تمتع به أسلافه من قبل من الحقوق والمميزات².

لا شك أن الدولة العثمانية من بداية نشوئها إلى نهاية أمرها كانت دولة إسلامية، نذرت نفسها لحمل راية الإسلام إلى أقطار جديدة ثم الدفاع عنه ضد الكفار.

ومنذ القرن السادس عشر شملت ممتلكاتها مراكز الإسلام الأولى -مدينتي مكة والمدينة المقدستين، وعاصمتي الخلفاء الأقدمين دمشق وبغداد، فكانت آخر الدول الإسلامية وبالتأكيد أطولها عمرا³ ولعل أعظمها قاطبة، وكان حاكمها حاكم الإسلام الأعلى، وجيوشها حامية الإسلام، وقوانينها قوانين الإسلام⁴، والتي كان واجب السلطان أن يتمسك بها ويقوم بتطبيقها⁵، وكان يساعده في هذا الواجب شيخ الإسلام⁶ الذي ظهر

¹ - سالم الرشيد، مرجع سابق، ص 87.

² - نفسه، ص 43.

³ - محمد فؤاد كوبرلي، مرجع سابق، ص 4.

⁴ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 411.

⁵ - برنارد لويس، اسطنبول وعاصمة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص 117.

⁶ - شيخ الإسلام وهو أعلى مرتبة دينية إلى جانب الصدر الأعظم الذي يمثل أعلى مرتبة زمنية، يترأس المؤسسة الدينية مشيخة الإسلام وكان له تأثير كبير في الدولة العثمانية، لقد كانت الكلمة الأخيرة في القضايا الحقوقية والدينية تعود إلى شيخ الإسلام، وكانت القضايا الحياتية والدينية للدولة تحتاج إلى فتواه، في إعلان الحرب، كما في تحقيق الإصلاحات والتغييرات الحكومية التي تؤثر على السياسة الخارجية. أنظر: أكرم كيدو، مرجع سابق، ص 7.

دوره جليا في القرن السادس عشر وقبلها دور الآخيين¹ الذين ساعدوا على نشر الإسلام في الأراضي المفتوحة².

المبحث الثاني: مظاهر السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني³:

لا شك أن الدولة العثمانية كانت ذات سياسة توسعية قائمة على الفتوحات، إلا أن السلطان بايزيد الثاني الذي حكم ما بين (1481- 1512) لم يشهد عهده فتوحات كثيرة⁴ ولا تطورا كبيرا، لأن هذا الأخير كان مسالما وميالا إلى حياة القناعة والزهد حتى لقب بالولي⁵.

حيث كان حكمه ، فترة توقف في الفتوحات والاهتمام بالشؤون الداخلية، أعاد من خلالها بناء وتطوير العاصمة الجديدة استانبول، كما قام بتحسين أنظمة دولته الجديدة⁶. وبهذه الطريقة السلمية يكون السلطان بايزيد الثاني قد أحدث تغييرات في مرتكزات السياسة الخارجية للدولة العثمانية، ورسم لها مسارا مخالفا عن ما سبقه من السلاطين

¹ ابن بطوطة، مصدر سابق، ج1، ص181.

² أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، صص53، 54.

³ -بايزيد الثاني: (1481 - 1512) هو ثامن السلاطين العثمانيين لقب بالولي نازعه أخوه على السلطنة من آثاره مجموعة من المدارس والجوامع. أنظر: حضرة عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415هـ/1995م. ص55

¹J.V.Hammer- Purgistall,Histoire de l'empire Ottoman, T3, trHellert(J.J),Paris,1835,p373-374.

⁵ محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري للنشر والتوزيع، القاهرة 2001، ص190.

⁶ برنارد لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص50.

العثمانيين، ودواعي هذه التغيرات قضية الأمير جم¹ وتكالب الدول الأوروبية عليه محاولة استغلال هذه الرهينة في حملات صليبية² للقضاء على الدولة العثمانية.

1- السياسة الأوروبية للسلاطين بايزيد الثاني:

لا شك أن الصراع بين الأخوين على زعامة السلطنة نتج عنه تأثير كبير على السياسة العثمانية الخارجية والداخلية منها، تعود حيثياتها إلى وفاة السلطان محمد الثاني الذي خلف ولدين، أحدهما اعتلى العرش من بعده وهو بايزيد الثاني (1481 - 1512م/86-918هـ)³ والآخر هو جم⁴ الذي نازع أخوه على العرش، ولأنه كان يعلم أن القانون الذي سنه أبوه سيطبق لأول مرة حفاظا على استقلال السلطنة ومنعا للفتنة.

لكن هذا الأخير لم يستجب لهذه الدعوة وحاربه، مما أدى بالأمير جم إلى الفرار نحو دولة المماليك⁵ إلا أنه عاود الكرة من جديد، بدخوله الأناضول بمساعدة المماليك هذه المرة

¹ - جم : (1481 - 1459م) هو ثالث أبناء السلطان محمد الثاني أي الأخ الثالث للسلطان بايزيد الثاني عندما توفي والدهما في عام 1481 لعب دورا سياسيا كبيرا بدخوله في صراع مرير حول زعامة السلطنة وغطت أخباره صحف التاريخ العثماني والأوروبي. للمزيد أنظر : Nicolas Vatin, Sultan Djem, un prince Ottoman dans l'Europe du 15 siècle d'après deux sources contemporaines Vaki-at-isultan Cem, œuvres de Guillaume Caoursin, imprimerie de la société Turque D'histoire, Ankara, 1997, p.22.

² - محمد أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، بيروت، 1071هـ، صص 55، 66.

³ - محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص 68.

⁴ Franz. Babinger, Mahomet le conquérant et son temps 1432-1481, Payot, Paris, 1954, p.20.

⁵ - المماليك: كان المماليك عبيد يتم جلبهم من مناطق القبجاق على سواحل البحر الأسود أو من القوقاز جنوب روسيا، وهم في سن الشباب، ثم يباعون في الأسواق فيقوم السلاطين والأمراء الأيوبيين بشرايتهم ويدخلونهم مدارس خاصة وأمام تدهور الدولة الأيوبية صعد المماليك إلى الحكم في مصر، ويقسم المؤرخون التطور التاريخي لدولة المماليك إلى مرحلتين أساسيتين الأولى تمتد من سنة 1250 - 1382 وتعرف بمرحلة المماليك البحرية والثانية من سنة 1382 - 1517م وتعرف بمرحلة المماليك البرجية. أنظر: الغالي غربي، دراسات حول تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2011، صص 53، 54.

مما أشعل حرباً أهلية¹.

وقد تمكن بايزيد الثاني مرة أخرى من إلحاق الهزيمة بأخيه عام 1482م، الذي لجأ هذه المرة إلى أمراء رودس² طالباً المساعدة من رئيس الفرسان يوحنا على دخول الروملي ومعاودة الثورة ضد أخيه لكن بايزيد تفاوض³ معهم لكي يحتفظوا بالأمير ويراقبوا تحركاته، مقابل دفع خمسة وأربعين قطعة ذهبية بندقية سنوياً⁴، وعندما علمت الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية ذلك حاوت الاستفادة من هذه الخصومات الداخلية لمهاجمة أراضي العثمانيين، فطلب كل من ملك المجر وملك فرنسا وحاكم البندقية من الفرسان تسليمهم الأمير جم ليتخذوه ذريعة للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، لكن الفرسان رفضوا تسليمه، حتى سلموه إلى البابا إنونست الثامن⁵، الذي تعهد للسلطان بإبقاء أخيه لقاء ما كان يدفع لهم أموالاً⁶.

¹ - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 50.

⁴ - أمراء رودس: ظهوروا في القرن 13 ميلادي ولعبوا دوراً مهماً في الدفاع عن المسيحية في الأرض المقدسة بعد إستعادتها من طرف صلاح الدين الأيوبي ثم كريت ثم رودس واضطروا إلى مغادرتها في 1522م، منحهم الامبراطور شارل كانت مالطا لمقاومة التقدم الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط. أنظر: Jean Pierre Bois, Les guerres en Europe 1494_1792, Belin Sup, France 1993, p141.

³Nicolas Vatin, op. cit, p51.

⁴ - أحمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 170.

⁵ - إنونست الثامن: (1432 - 1492م) بابا الكنيسة الكاثوليكية من الثالث عشر بعد المتين من 1483 حتى وفاته. أنظر: Creighton, A history of the Papacy, Cambridge modern history, New York, 1903, pp135-182.

⁶ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 409.

لقد أدى ذلك النزاع الذي تمخض عنه، رهينة¹ استولت عليها الدول الأوروبية فترة من الزمن، كان لها تأثير فعال في اتجاه السلطان بايزيد نحو سياسة السلم والهدوء وانتهاج سياسة حذرة واسترضائية سواء في الداخل أو الخارج، ويبدو أن السلطان أخذ في اعتباره قدرة أمراء رودس على إشعال حرب أهلية بأمر من البابا، وذلك بإطلاق سراح الأمير جم المطالب بالحكم²، وتحت هذا التهديد كذلك اضطر العثمانيون إلى مد علاقات مصلحة مع دول وإمارات أوروبا بما في ذلك البابوية التي كانت تتلقى دفعة سنوية من السلطان بايزيد³.

نستنتج من هذا أن السياسة الخارجية للدولة العثمانية قبل وفاة الأمير جم كانت سياسة محايدة وحذرة وسلمية اتجاه القوى المسيحية والبابوية خاصة، لكن بعد وفاته تغيرت ملامح السياسة الخارجية أو بالأحرى عادت إلى مجراها الأول، سياسة حربية نشيطة حرص العثمانيون على الالتزام بها منذ البداية منتشرين في بقاع أوروبا فاتحين⁴.

أ/حروب السلطان بايزيد الثاني في أوروبا:

على الرغم أن السلطان بايزيد الثاني كان مسالماً فإن الظروف السياسية الخارجية أملت عليه القيام بنشاطات عسكرية، وكانت أولى خطواته العسكرية هو السيطرة على سواحل دالمشيا⁵ حتى راجوزا المطللة على البحر الأدرياتيكي وذلك عن طريق إرسال غزاة من

¹ - وضع الأمير جم في قصر تحت حراسة مشددة، وقد اتخذ رهينة مقابل حسن سلوك السلطان حتى وفاته في نابولي عام 1495. انظر: جون سوندوز، العالم الإسلامي عشية توسع أوروبا، ترجمة محمد ظافر الصواف، ط1، مؤسسة الرسالة، عمان، 1994، ص152.

² - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص51.

³ - خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوروبي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1971، ص15.

⁴ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، صص409، 410.

⁵ - دالمشيا: تقع على الساحل الشرقي من بحر الأدرياتيكي للمزيد انظر: EvliyaCelebi, Narrative of travels in Europe, Asia and Africa in the seventeenth century, translated by Josph Von Hammer, the royal library, Munich, 2011, p92

الحاميات العسكرية المرابطة في بلاد الصرب¹ والبوسنة²، وعبر الدانوب إلى تمسفار والأراضي المجرية، وهذه الغارات أدت إلى الحصول على الكثير من الغنائم وإلى فتح نهائي لهجروزي في عام 1483 باستثناء كرينا التي ظلت في أيدي البنادقة³.

ومن أول الأعمال الحربية التي ميزت سياسة بايزيد الخارجية هو دعم غزوات عهد أبيه فعلى حد قول المؤرخ ابن كمال⁴، لم يكن بايزيد غازيا عظيما مثل أبيه⁵ ولكن رأى من الضروري الاستيلاء على مولدافيا سوف يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع المجر من ناحية، وسوف تمكنه من السيطرة على مصبات نهر الدانوب لإيقاف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الأسود ويهاجمون السفن العثمانية⁶.

¹ - الصرب: التي كانت تمتلك مقومات قوة تضعها في مصاف الوريث للإمبراطورية البيزنطية لولا السبق العثماني وكانت الصرب تتبع الإمبراطورية البيزنطية وتقع بين مقدونيا والمجر وقد تمكنت خلال ضعف بيزنطة من مهاجمتها وضم مناطق البوسنة والهرسك وكرواتيا والشاطئ الشمالي للدانوب وجعلت من بلغاريا كيانا تابعا لها. أنظر: تهاني شوقي عبد الرحمان، مرجع سابق، ص 23.

² - البوسنة: أصبحت البوسنة والهرسك سنجق عثماني بعد الفتح العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح 1464 إلى 1580 حيث تحولت إلى إلية عثمانية من 1580 إلى 1879 ضمت كل من أربعة سناجق وهي البوسنة، هيزروجوفينا، زفورنيكوكيلس. أنظر: Adem Handzie, Population of Bosnia in the Ottoman period a historical overview, Ircica, Istanbul, 1994, p2.

³ J.S.Shaw, history of the Ottoman empire and modern Turkey, T1, Cambridge, London, 1988, p72.

⁴ - ابن كمال: (1468 - 1534 م) يلقب بكمال باشا زادة عمل مدرسا في اسكوبيا ثم اسطنبول، أصدر فتواه في محاربة القزلباش عندما كان قاضي عسكر كما رافق السلطان سليم في حملته على مصر ويذكر أوليا جلبي أنه تولى منصب القضاء. أنظر: S. A. Somel, Historical dictionary of the Ottoman Empire, the Scarecrow press INS, Oxford, 2003, p152.

⁵ - ابراهيم حسن شحاتة، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، منشأة المعارف للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1981، ص 1.

⁶ J.S.Shaw.op.cit,p72 .

قامت الدولة العثمانية في بداية عهد بايزيد الثاني ببعض الغارات المحدودة بسبب قضية جم، ولكن بعد وفاته في 25 شباط 1495 تغيرت سياسة السلطان بايزيد تجاه الممالك الأوروبية، فبادر إلى إعلان الحرب على البندقية، وقد ردت هنغاريا حليفة البندقية على ذلك بالهجوم على صربيا.

وقد أظهرت هذه الحرب التي استمرت خلال 1499 - 1500م أنّ الأسطول العثماني قادر على مواجهة أسطول البندقية في عرض البحر¹، بعدما كان التفوق العثماني بريا أضاف السلطان بايزيد التفوق البحري، وذلك بتقوية البحرية ودعمها بسفن جديدة،² واستطاع أحداث قوة بحرية تأخذ بالحسبان، ومن نتائج الحروب العثمانية الأوروبية كذلك في عهد بايزيد ترسيخ الراية التركية في الأرض الإيطالية بانتزاع ليبانتو ومودون³ وقلعتين استراتيجيتين في خليج باتراس وثنغور أخرى⁴.

ومن جهة أخرى أصبحت الدولة العثمانية تشارك أيضا في السياسة الداخلية الأوروبية، ففي الحروب المندلعة في إيطاليا كانت كل دولة موشكة على الهزيمة تهدد بطلب مساعدة العثمانيين، فقد دعمت الدولة العثمانية ميلانو و نابولي ضد تحالف فرنسا والبندقية، وقد وعد بايزيد الثاني نابولي بإرسال مساعدة عسكرية مؤلفة من 25 ألف جندي، إلا أنّ السلطان بايزيد الثاني طالب بأوترانتو، وهكذا قد أخذ الدور العثماني في الصراعات الأوروبية يزداد أهمية مع مرور الزمن⁵.

ب/العلاقات الدبلوماسية مع دول أوروبا:

¹ - خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 51.

² - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 185.

³ J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p175 .

⁴ S.Laine -Poole,op.cit,p147.

⁵ - خليل انالجيك، مرجع سابق، ص 51.

تميز عهد السلطان بايزيد الثاني ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا،¹ وذلك ابتداء من عام 1503 بعقد عدة اتفاقيات مع أهم الدول الأوروبية آنذاك على رأسها البندقية²، اسبانيا والبرتغال فبدأت بذلك نحو أوروبا فترة صلح دامت قرابة عشرين سنة، كانت الدولة العثمانية مضطرة للالتفات نحو الشرق حيث كانت تجري أموراً مهمة فيها³، ومن المظاهر الدبلوماسية كذلك هو وصول أول سفير روسي إلى البلاط العثماني وبالتالي أول ظهور روسي في ميدان الدبلوماسية التركية.⁴ والذي أرسل من طرف القيصر إيفيان الثالث⁵ في أوائل عام 1492م محملاً بالهدايا، كانت مهمته محصورة في الحصول على بعض الامتيازات للتجار الروس، كما أقامت الدولة العثمانية علاقات دبلوماسية مع بولونيا ابتداء من عام 1490، حيث عقدت معها معاهدة قابلة للتجديد كل عامين⁶

وهكذا يمكن القول إنّ السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني لم تضيف الكثير إلى الدولة من مقاطعات لكنّها حافظت على مكتسبات من سبقه من السلاطين وعلى رأسهم الأب محمد الثاني⁷، كما عزز السلطان بايزيد الثاني الجيش والبحرية وجعلها ضعف ما كانت عليه في السابق، بالإضافة إلى اكتسابه مكانة مهمة بين الدول الأوروبية خاصة إيطاليا، وقد أدى ذلك إلى تزايد النفوذ العثماني واستقراره في الأماكن المفتوحة.⁸

¹ - محمود محمد الحويري، مرجع سابق، ص 193.

² J.V.Hammer-Purgstall, op. cit, T5, p177.

³ - برنارد لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، صص 50، 51.

⁴ - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 74.

⁵ Sir Valentin Chirol and Lord Eversley, The Turkish empire, London, 2013, p102.

⁶ - أحمد سعيد البرجاوي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للتوزيع والنشر، بيروت، 1993، ص 28.

⁷ J.S.Shaw, op. cit, p.73.

⁸ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 496.

2- العلاقات الخارجية مع القوى الإسلامية:

أ/ العلاقات العثمانية المملوكية:

تميزت العلاقات العثمانية المملوكية بالتقلب وعدم الاستقرار، متوترة أحيانا وجيدة أحيانا أخرى، فبعد تولي بايزيد الثاني الحكم نازعه أخوه جم،¹ ولما لم يتمكن جم من التغلب عليه فر إلى مصر² عام 1481م وطلب مساعدة السلطان المملوكي³، فأمده سلطان المماليك بما أراد، فتحرك الأمير على رأس جيش من حلب سنة 1482م للاستيلاء على الأناضول وإرغام أخيه على التنازل على الحكم، وبهذا التدخل ساءت العلاقات بين العثمانيين والمماليك، وحدثت بينهما صدامات عسكرية على الحدود⁴ أراد العثمانيون الانتقام من المماليك لإيوائهم الأمير جم وقد كان النصر في هذه المعارك لصالح المماليك⁵.

واستمرت العلاقات متوترة وهذا بفعل تجاوز الدولتين ومحاولة كل طرف التوسع على حساب الآخر، والسيطرة على المناطق المتاخمة فكان من الطبيعي أن يحدث بينهما احتكاك⁶.

ومن مظاهر التوتر في العلاقات العثمانية المملوكية هو تدخل المماليك في الشؤون

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 181.

² - ابراهيم بك حلیم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1408 .
هـ/ 1988م، ص 71.

³ - قايتباي: من سلاطين الدولة المملوكية، ص 171 عين سلطانا على سوريا ومصر، له مآثر حربية وعمرانية، توفي سنة 1496م. أنظر: ابن أجا محمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، دار الفكر، دمشق، 1989.

⁴ - ابراهيم حلیم بك، مرجع سابق، ص 72.

⁵ - فؤاد أحمد متولي، مرجع سابق، ص 174.

⁶ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص 72.

الداخلية لإمارة ذي القادر¹ والاستيلاء على بعض مقاطعاتها²، هذه الأخيرة كانت تربطها علاقة مصاهرة مع السلطان بايزيد الثاني³، ولذلك جرد السلطان حملة عسكرية لإخراج المماليك من تلك المقاطعات التابعة للإمارة وحدثت المواجهة العسكرية عام 1489 - 1490م، ولكن جيش بايزيد الثاني لم يستطع التغلب على جيش المماليك، ثم كرر الحملة في السنة التالية دون أن يحقق أي نصر يذكر.

إلا أنّ هذا النزاع لم يستمر طويلا لأنّ السلطان الحفصي توسط بين الدولتين على أساس جعل تلك المقاطعات وقفا للحرمين الشريفين⁴.

من الملاحظ بعد هذا الصدام العسكري وحله بوساطة من الحفصيين⁵ تحسنت العلاقات العثمانية المملوكية واتسمت بالتعاون وتبادل الخبرات في إطار التعاون والتكامل إسلامي - إسلامي، ونشأت علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية ودولة المماليك شجعتها سياسة السلطان بايزيد الثاني السلمية، ووصول قيادة جديدة إلى القاهرة⁶.

¹ - ذي القادر: كانت تقع هذه الإمارة بين مرعش وملاطية شمال بلاد الشام، وتتبع إسميا لنيابة حلب المملوكية وقد خضعت للمماليك 62 عاما وللعثمانيين 116 عاما. أنظر: يلماز أوزوتونا، المدخل إلى التاريخ التركي، ترجمة أرشد الهرمزي، ط 1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005، ص 399.

² J. S. Shaw. op. cit., p78.

³ - تزوج السلطان بايزيد الثاني من إبنة آخر أمرائها علاء الدولة - ومنها أنجب ابنه سليم الأول، حيث اتبع العثمانيون إلى جانب الحرب أساليب أخرى لضم الإمارات المجاورة والتوسع كالزواج مع الأسر الحاكمة عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق، 1988، ص 46.

⁴ - ساطع الحصري، مدخل إلى السلطنة العثمانية تأسيسها وتوسعها، دمن، دتط، ص 38

⁵ - نسبة إلى دولة بني حفص واستمرت هذه العائلة في حكم تونس إلى أن ضمها العثمانيون نهائيا 981م، 1574م. محمد فريد بك الحامي، المرجع السابق، ص 232.

⁶ - بعد وفاة السلطان قايتباي سنة 901/1496م فتولى من بعده ابنه محمد (1496 - 1498م) قام السلطان بإرسال خاير بك إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني مؤكدا على الود القائم بين الدولتين، ثم بعد وفاة هذا الأخير اعتلى قانصوة الغوري أمر الحكم المملوكي عام 1501م/903هـ فزادت العلاقات بين الدولتين تحسنا وتبادلا الهدايا =

ومن مظاهر هذه العلاقات السياسية الإسلامية هو التعاون مع المماليك في بناء أسطول¹ لمواجهة تحديات البرتغاليين في البحر الأحمر الذين وصلوا إلى الهند²، وهذا بعد طلب المساعدة من السلطان المملوكي كما طالب السلطان بايزيد الثاني المساعدة من المماليك والأوزبك التركمان فيما وراء النهر لوضع حد للاضطهاد الصفوي للسنة في المناطق المجاورة للصفويين، وقد استجابت قبائل الأوزبك لطلبه وقامت سلسلة من الهجمات على حدود فارس الشرقية واكتفى المماليك بتكليف حاكم حلب المملوكي بمقاومة النشاط الصفوي على حدودهم الشمالية³، ويندرج هذا التعاون في إطار التضامن الإسلامي السني وحماية العثمانيين لحدودهم الشرقية والغربية من الخطر البرتغالي⁴ الذي بدأ يهدد مصالحهم وحتى زعامتهم المنتظرة للعالم الإسلامي⁵، ومن الخطر الشيعي المتزايد والذي حاول التحالف مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية.

والرسائل والتحف بين الغوري وبايزيد الثاني. أنظر: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج1، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، مطبعة الجامعة الأمريكية، بيروت، 1945. صص 294، 296.

¹ - بعد انتصار الأسطول البرتغالي في موقعة ديو سنة 1509، سارع العثمانيون في إرسال مساعدات تتمثل في سفن حربية محملة بالمدافع والأخشاب إلّا أنّ هذه المساعدة لم تصل المماليك بسبب إستلاء فرسان القديس يوحنا عليها، وقد نجح العثمانيون في سنة 1510م في إيصال حوالي 400مدفع و40 قنطار من البارود إلى القاهرة كما أرسلوا

سنة 1512م عددا من طباط البحرية للإشراف على الأسطول المصري. أنظر: الغالي غربي، مرجع سابق، ص 58

² - روبر مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، م1، ط1، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، 1993، ص 212.

³ - عبد العزيز محمد عوض، بحوث ودراسات مهداة لعبد الكريم غرايبية(العلاقات العثمانية - الصفوية 1499م-

1722م)، د.م.ن، د.ت.ن، ص 286.

⁴ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج1، ص 74.

⁵ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق. ص 60.

على العموم كانت سياسة السلطان بايزيد الخارجية تسعى إلى إيجاد صيغ التفاهم الودية مع القوى العديدة الإسلامية المجاورة، متبعا أساليب متنوعة ومتعددة مثل أسلوب الزواج من الأسرات الإسلامية الحاكمة، فقد تزوج إحدى بنات ورثي عرش الصفويين كما زوج بنت أخيه إلى سلطان مصر¹ من أجل توثيق العلاقات.

ب/موقف السلطان بايزيد الثاني من قضية الأندلس:

هناك أسئلة حائرة تجول في أذهان العديد من المثقفين في العالم العربي حول مواقف ملوك وسلاطين الدول الإسلامية من مأساة الأندلس، ومن أهمها سؤال لماذا لم تقم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني، ومن المعلوم أنّ تفرق المسلمين في الأندلس إلى طوائف أضعفهم وجعلهم عرضة لأطماع الإسبان في خضم الفرقة والشتات²، خطى الإسبان خطوة مهمة في مضمار الوحدة عندما اتحد فرديناند ملك أراغون مع إيزابيلا ملكة قشتالة³، وأصبح الهم الوحيد لهما القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر⁴ في غرناطة⁵. وتحقق لهم ذلك بعد حصار دام سبعة أشهر سقطت فيه آخر مدينة إسلامية هناك، ووقع ملك غرناطة أبو عبد الله الغرناطي على معاهدة

¹ - عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون - الفرس -

مسلموا الهند، دار النهضة، بيروت، 1991، ص 65.

² - ج.س. كولان، الأندلس، ترجمة ابراهيم مخور رشيد، عبد الحميد يونس و حسن عثمان، ط1، دار الكتب اللبنانية،

بيروت، 1980، ص 133.

³ - نفسه، ص 139.

⁴ - بني الأحمر: هم بنو نصر أو النصريون آخر أسرة عربية حكمت غرناطة من سنة 629هـ/1232م، إلى أن سقطت

على يد القشتاليين Kastliler سنة 808هـ/1492م. أنظر: كريزر وزملاؤه، معجم العالم الإسلامي، ترجمة جميل

كوثر، بيروت 1991، صص 246، 247.

⁵ - غرناطة: آخر الممالك الإسلامية في الأندلس للمزيد أنظر: أحمد أبو العباس المقرئ لسان الدين الخطيب

، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عنان محمد عبد الله، ج 2، دار الكلمة، القاهرة، 1988.

التسليم، مقابل تعهد الملك فرديناند بحماية المسلمين وممتلكاتهم. ، لكن الإسبان لم يحترموا بنود المعاهدة¹ وراحوا ينتهجون سياسة مسيحية متعصبة بزعامة الكنيسة.²

فقد حولوا المساجد إلى كنائس ونصّروا المسلمين وإن هم رفضوا زج بهم في السجون رجالا ونساء وأطفالا حتى المسلمين الذين كانوا من أصول نصرانية لم يسلموا من ذلك، فثار أهل غرناطة في 1499م³.

ومع عجزهم عن مقاومة المد المسيحي⁴ المتعصب، حاولوا الاستنجاد بالمسلمين في الدول الإسلامية القائمة آنذاك، على رأسها الدولة العثمانية لنفوذها الكبير ومكانتها العسكرية في العالم الإسلامي فبعث أهل الأندلس⁵ رسالة استغاثة إلى السلطان بايزيد الثاني.

وصل الوفد الأندلسي إلى استانبول وسلم رسالة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان العثماني نورد هنا مقدمتها: "السلطان الحضرة العلية وصل الله سعادتها وأعلى كلمتها ومهد أقطارها وأعز أنصارها وأذل أعداءها حضرة مولانا وعزة

¹ - أحمد ابن محمد المقرئ، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيدار الكتب العلمية، ج4، تحقيق إحسان، بيروت، 1968، صص 523، 526..

² - محمد جميل بيهم، مرجع سابق، ص82.

³ - محمد علي قطب، مذابج وجرائم محاكم التفتيش، د.م.ن، د.ت.ن، ص73.

⁴ - لوي كارديا اوي، "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون"، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، 1989، ص38.

⁵ - أورخان محمد علي: "مأساة الأندلس وموقف العثمانيين"، مجلة حراء، العدد 7، استانبول، أكتوبر- ديسمبر 2006، ص137.

ديننا: السلطان الملك ناصر الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين... " 1 .

أرقت هذه الرسالة بأبيات طويلة من الشعر 2 .

لم يقف السلطان بايزيد الثاني مكتوف الأيدي بعد تسلمه هذه الرسالة، بل دعا الصدر الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس طارئ لبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تقديمه في تلك الظروف 3 ، حيث بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة آنذاك، ونوع المساعدة التي تستطيع الدولة العثمانية تقديمها لمسلمي الأندلس 4 ، فقام العثمانيون بالمفاوضات مع أهل الأندلس 5 ، وحاولوا بكل الوسائل نصحتهم ومساعدتهم من حين لآخر، ولقد أرسل مبعوث سري عثماني لتنسيق العلاقات والتحركات بين مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا وإستانبول.

1 - أنظر نص الرسالة في: أبو العباس أحمد ابن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1 مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939، تحقيق محمد السقا، ص 160. وعنوانها: "رسالة أهل الجزيرة بعد إستلاء الكفرة على جميعها للسلطان بايزيد الثاني" من أبياتها:

سلام كريم دائم متجدد ❖❖❖❖ ❖ أخص به مولانا خير خليفة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ❖❖❖❖ ❖ بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ❖❖❖❖ ❖ وضحى عميق ذو ظلام و لجة
غدرنا ونصّرنا وبدّل ديننا ❖❖❖❖ ❖ ظلمنا وعملنا بكل قبيحة
فها نحن يا مولاي نشكوا إليكم ❖❖❖❖ ❖ فهذا الذي نلناه من شر فرقة
فأنتم بالله خير خليفة خير ملوكنا ❖❖❖❖ ❖ وعزكم تعملوا على كل عزة

3 - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 74.

4 - أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص 138.

5 - عبد الجليل التميمي، "الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين"، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، العددان 23 - 24، زغوان، 1989، ص 191.

أبدى السلطان بايزيد الثاني عطفه واهتمامه الكبير¹ لدرجة أنه أرسل أسطولاً بحرياً بقيادة كمال ريس² إلى الشواطئ الإسبانية، فقام هذا الأخير بإحراق بعض السواحل الأوروبية الجنوبية ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى الدولة العثمانية³. لكن هذه المحاولات والمساعدات لم تكن كافية وفعالة ولم تؤدي إلى نتائج ملموسة، لأن السلطان بايزيد كان يمر بظروف قاسية داخلية وخارجية منعتة من إغاثة مسلمي الأندلس بصورة جيدة، وهي صراعه مع أخيه جم (1481 - 1495)،⁴ وحربه مع المماليك في أدنة خلال (1485 - 1491)، هذا بالإضافة إلى حربه مع ترانسلفانيا والمجر والبندقية، وتهديده من طرف تحالف صليبي بقيادة الباباجيل الثالث، وكذا التهديد الصفوي من ناحية الشرق⁵ والخلافات الأسرية بين أبنائه أفضى إلى تنحيه عن الحكم ثم موته في ظروف غامضة⁶.

المبحث الثالث: مميزات السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول

¹ - برنارد لويس، إكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص 200.

² - كمال ريس: أحد البحارة الأتراك النشطين في غرب البحر المتوسط. أنظر: إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 30.

³ - قامت هذه القوة بنقل ما يقارب ثلاث آلاف من المسلمين التاركين ديارهم والهائمين على وجوههم من الأندلس إلى سواحل المغرب الأقصى والجزائر. أنظر: عبد الجليل التميمي، "الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين"، مرجع سابق، ص 191.

⁴ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 70.

⁵ Arnold Toynbee, A study of history, T2, Oxford university, London, 1945, p444.

⁶ - محمد أبي السرور البكري الصديقي، مرجع سابق، صص 55، 56.

لا شك أن وصول الأمير سليم الأول¹ على رأس الدولة العثمانية قد أحدث تغييرا جذريا في سياسة الدولة العثمانية الخارجية واستراتيجيتها العسكرية، فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد يتوقف واتجه توجها شرقيا² نحو المشرق الإسلامي، وسعى وراء توسيع حدود دولته في البلاد الإسلامية³.

1- دوافع التحول الاستراتيجي نحو الشرق الإسلامي:

مازالت الدوافع والأسباب الكامنة وراء توقف الزحف العثماني باتجاه الغرب والتحول المفاجئ إلى الشرق نحو البلاد العربية بداية من سنة (922هـ/1516م)⁴ مثار دهشة وتساؤل للعديد من المؤرخين على مختلف مشاربهم ومدارسهم، ولعل بعض هذه التساؤلات لها ما يبررها⁵.

ومن الدوافع التي غيرت وجهة العثمانيين نحو الشرق هو رغبة السلطان سليم الأول في زعامة العالم الإسلامي وسيادته،⁶ مما جعله يصطدم ويدخل في نزاع مع القوى الإسلامية

¹ - سليم الأول: (1470 - 1520م) تاسع السلاطين العثمانيين، يلقب بياوز أي الرهيب، تولى أمر السلطنة عام 1512/918م تميز عهده بضم البلاد العربية وعلى رأسها الحجاز التي تحوي الأماكن المقدسة، وبالتالي جلوسه على سدة الزعامة السياسية الروحية للعالم الإسلامي و تلقبه بخادم الحرمين الشريفين، له ديوان أشعار بالتركية والفارسية والعربية.أنظر: حضرة عزتلوا يوسف بك آصاف، مرجع سابق، صص 56، 59.

² - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 20.

³ - ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 3.

⁴ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 102.

⁵ - ومن هذه التبريرات أن الدولة العثمانية وصلت حالة التشعب بعد عقود من الحروب والفتوحات وبلوغ الدولة عصرها الذهبي وذرورة مجدها والانتشار العثماني الهائل ولاست كل مايجري في أوروبا وأصبح الكثير من الأوروبيين رعايا عثمانيين، فكان لابد أن تحقق نوعا من التوازن الإستراتيجي.محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص 17.

⁶ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 49.

القائمة في القرن السادس عشر¹، حيث كان السلطان سليم الأول يطمح إلى جمع المسلمين في العالم تحت قيادة واحدة.

ويظهر هذا جليا في إحدى الرسائل التي بعث بها إلى طومان باي² بأنه سيملك الشرق والغرب ويوحد الدولة الإسلامية تحت قيادته³، ولهذا سيدخل في صدام قوي مع الصفويين ليتحول الصراع بينهما إلى صراع مذهبي⁴، عندما يعلن إسماعيل الأول⁵ المذهب الشيعي ويتعصب له مشكلا خطرا على الحدود الشرقية للدولة العثمانية من الواجب القضاء عليه، فاضطر العثمانيون إلى اتخاذ خط شديد المناوئة ضد الشيعة الصفويين، إنقاذا لرقعتهم الآسيوية قبل أن يتلعضها الصفويين⁶.

¹ - فبالإضافة إلى الدولة العثمانية هناك كيانات أخرى تمثل العالم الإسلامي رغم ما تمثله الدولة العثمانية بكيانها الضخم تجب عنا إلى حد ما معالم أخرى وباعتبارها الدولة الإسلامية الأقوى لكنها لا تمثل مجمل المسلمين. أنظر: ستوارد لوثر، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة أعجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، ط3، دار الفكر، بيروت، 1971، ص26.

² - طومان باي: آخر سلاطين المماليك (1474-1517م)، ناب عن السلطان الغوري أثناء خروجه لملاقاة العثمانيين في حلب، تولى الحكم في مصر بعد مقتل الغوري ولقب بالملك الأشرف، استمر حكمه 3 أشهر و14 يوم، قبض عليه وأعدم من طرف السلطان سليم الأول. أنظر: رضي الدين بن محمد الحنبلي، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب، ج2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973، ص378.

³ - خليل إنجليك: "العثمانيون النشأة والإزدهار"، مقال منشور في كتاب دراسات في التاريخ العثماني، السيد محمد السيد، القاهرة، 1996، ص74.

⁴ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص30.

⁵ - إسماعيل الأول (1478 - 1524م): مؤسس الدولة الصفوية سنة 1501 م التي حكمت إيران وشرق

الأناضول وجزءا من العراق. أنظر: G.Agoston.,op.cit,p 284.

⁶ - لقد كان الإنقسام الذي أحدثه قيام الصفويين، في العالم الإسلامي، ماثلا في خطورته وآثاره البعيدة الإنقسام الذي أحدثه الإصلاح الديني في أوروبا، حيث صمم إسماعيل على جعل فارس دولة شيعية لعلي وآل بيته تبجيل نصف إلهي، ولا شك في أن إسماعيل كان يطمح في نشر فهمه الخاص للإسلام في العالم الإسلامي كما جرب أن يفعل ذلك الفاطمين قبل ستة مائة سنة، في حين مثلت آسيا الصغرى مرتعا خصبا لنشاطه المباشر، كان هذا الوضع تحديا صارخا للعثمانيين. أنظر: جون سوندوز، مرجع سابق، ص70.

وكان الصفويون من أخطر الأعداء المسلمين للعثمانيين، هذا العداء بين السلالتين الحاكمتين أدى إلى حرب مفتوحة في سنة 1514 فالشاه كان له مؤيدون عديدون في ادعاءاته للشرعية الدينية بين رعايا السلطان وخاصة في الأناطول، أدى إلى خوف دائم من ثروات مؤيدة للصفويين¹.

هذا بالإضافة إلى التخوف العثماني من الاتصالات التي كان يجريها الشاه مع المماليك والدول الأوروبية²، وإمكانية عقد تحالف مع الأولى ضد الدولة العثمانية مثيرا لغضب سليم من السلطان المصري الغوري السني، لكنه كان اتفاقا هشاً بسبب التناقض بين الدولتين، وربما لم يساعد المماليك الصفويين ضد العثمانيين، خشية أن ينتصر الصفويون فيكون ذلك وبالا على المماليك على حد قول ابن إياس³.

كما سعى الصفويون إلى التحالف مع البندقية ضد الدولة العثمانية، ليجعلوا هذه الأخيرة بين كفي كماشة، فيهاجمها الأوروبيون من الغرب والصفويون من الشرق، بينما يقوم المماليك بمهاجمتها من الجنوب، لكن البندقية كانت منهمكة في حروبها في أوروبا وتربطها بالعثمانيين معاهدة سلام⁴ فلم تتجاوب مع هذا العرض⁵.

¹ - كوليزامبر، قضايا المثال والمشروعية في التاريخ العثماني المبكر، مجلة الاجتهاد، العدد 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت، 1420هـ/1999م، ص 100.

² - محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، ط 1، دار الصحوة، القاهرة، 1978. ص 41.

³ - محمد بن أحمد ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 5، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، 1960، ص 361.

⁴ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 90.

⁵ - محمد بن أحمد ابن إياس، مصدر سابق، ج 5، ص 194.

ومن دوافع تغيير الاستراتيجية نحو الشرق التهديدات البرتغالية للمنطقة وعدم مقدرة الممالك على إيقاف تقدمهم وتهديدهم للحرمين الشريفين¹، بالإضافة إلى الاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا ودعوة أهلها السلطان العثماني التدخل العسكري وحمائهم².

أ/ الصدام العثماني-الصفوي:

اعتلى سليم الأول العرش بطموح كبير أعاد حيوية السلطان محمد الثاني السياسية في الفتوحات ومواصلة المسار الذي بدأه هذا السلطان في إنشاء وتوطيد أركان الدولة العالمية، لكن هذه المرة كان اتجاهه نحو الشرق، وسوف يساعده على ذلك خبرته السابقة في طرابزون³، ظنا منه أنّ المشكل الكبير هو التهديد الصفوي⁴.

وللتفرغ لهذا المشكل أول عمل قام به هو تهدئة الأوضاع على الجبهة الغربية بعقد وتجديد المعاهدات مع البندقية والمجر بالخصوص ومنح البندقية امتيازات تجارية⁵، كما نجح في عقد تحالف مؤقت مع الممالك عام 1513، مستغلا التعاطف السني ضد أعمال البطش

¹ - محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1514 - 1914م)، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1993، ص102.

² - عبد الجليل التميمي: "العرب والأتراك في إطار الدولة العثمانية"، المجلة التاريخية المغربية، زغوان، د.ت.ن، ص90.

³ - طرابزون: مدينة واقعة على ضفاف البحر الأسود وكانت قد أفتكت من آل كومنان قبل ذلك ب 30 سنة على يد محمد الفاتح. E.Clout,op.cit.p65.

⁴ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص16.

⁵ J. S.Shaw.op.cit,p72.

التي مارسها الشاه إسماعيل في بغداد ضد السنة ، بالإضافة إلى تخوفهم على أملاكهم في بلاد الشام ومصر من التوسع الصفوي¹.

كما قام السلطان سليم الأول بتأمين الجبهة الداخلية².

لا شك أنّ السلطان سليم الأول كان مضطراً لمواجهة الدولة الصفوية³ ، القوة الإسلامية الثالثة بعد الدولة العثمانية ودولة المماليك⁴ تدفعه دوافع سياسية ودينية اتجهت الدولة الصفوية الناشئة ، أي ليمنع وصولها إلى البلاد العربية المشرقية ومن ثم إغلاقها لشرق المتوسط في وجه الدولة العثمانية وليضع حدا لانتشار المذهب الشيعي خارج الحدود الصفوية⁵.

ب- معركة تشالديران ونتائجها (1514م/920 هـ):

لم تكن ثمة أسباب مباشرة لمعركة تشالديران⁶ أو للحرب بين العاهلين الصفوي والعثماني ، لكن التحركات السياسية والعسكرية للشاه دفعت السلطان سليم الأول إلى التفكير في وضع حد لها قبل أن تتفاقم ، وما جرى من امتناع الشاه إسماعيل الأول عن تهنئة

¹ - عبد الكريم رافق ، مرجع سابق ، ص14.

² - قبل التوجه الى الجبهة الشرقية أمنّ الجبهة الداخلية بقتل جميع إخوته وأولاد إخوته الذين صرّح لهم قبل ذلك الإقامة في بروسة مخافة التمرد عليه وإدعاءات أخيه أحمد الحق في السلطنة لآثمه أكبر سنا ولأنّ والده كان قد انتخبه قبل تنازله عن السلطنة وصادق على ذلك كبراء الدولة .أنظر: الميرلاي إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، تقديم حسن الزين ، دار الفكر الحديث ، بيروت ، 1988 ، ص65.

³ - الدولة الصفوية : تقع على الحدود الشرقية من الدولة العثمانية حيث شغلت جغرافيا الهضبة الإيرانية وتمتد من هضبة بامير في الشرق إلى هضبة أرمينيا في الغرب مطلة على بحر قزوين ، سهول العراق ، الخليج العربي ، كما تضم أقاليم أذربيجان والعراق وكردستان وخوزستان وأقاليم كيلان زمازندر وكرمان في الوسط وأقاليم خرسان وبلوجستان ومكران في الشرق .جودة حسنين وأحمد هارون ، المعجم الجغرافي ، سبق ذكره.ص569.

⁴ - ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص38.

⁵ A. Toynbee, op. cit, V2, p, 222.

⁶ - تشالديران : سهل في الأناطول الشرقية إلى الشمال الغربي من تبريز وإلى الشرق من بحيرة وان ، شوقي أبو خليل ، تشالديران ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، 2005 ، ص95.

السلطان سليم الأول بمناسبة اعتلائه العرش، ما هو إلاّ دافع للطرفين للحرب، حيث عقد السلطان سليم الأول مجلسا للحرب في مدينة أدرنة في 19 محرم 920هـ/14 مارس 1514م، ووضع قادته وأعيانه في جو الصدام¹، وافتك شرعية دينية بفتوى 2 تجيز له قتل الشيعة الصفويين واعتبارهم خارجين عن الإسلام من كبار علماء عصره³.

وفي يوم الأحد 15 محرم 920هـ الموافق لـ 23 أوت 1514م، حدثت المواجهة بين الفريقين في ميدان تشالديران⁴، حيث دارت رحى معارك⁵ قتل فيها أكثر أعيان القزلباش، ومعهم زهاء خمسة آلاف فارسي، مما أدى إلى انحدار جيش القزلباش انحدارا تاما وولى الشاه بالفرار، وأعقب ذلك دخول السلطان سليم الأول عاصمة السلطنة تبريز وإقامته فيها عدة أيام⁶.

بهذا الانتصار يكون سليم الأول قد حقق نتائج سياسية واقتصادية هامة تكمن في السيطرة على تبريز عاصمة الشاه إسماعيل وتغيير خريطة الكيانات الصغيرة باسترجاع كردستان وديار بكر وأورفة وماردين وما جاورها، وضمها إلى ممتلكات الدولة العثمانية، كما تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم على أقصى الشرق وجنوب شرق الأناضول عن طريق

¹ - سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، ط1، دار النفائس، بيروت، 2009، ص77.

² - طرح سليم الأول فتاوي للحرب أمام علماء عصره ضد الصفويين والمماليك. أنظر: أكرم كيدو، مرجع سابق، صص 109، 111.

³ - من علماء عصره زنبلي علي جمالي، شيخ الإسلام ابن كمال الذي ألف رسالة بالعربية عنوانها "رسالة في فكر الروافض" بين فيها أن الشيعة الصفويين كفار خارجون عن الإسلام يعتبر قتالهم جهاد في سبيل الله. عن علماء عصر السلطان سليم الأول أنظر: طاش كبري زادة، مصدر سابق، صص 236، 263.

⁴ Maribel Fierro, "the western Islamic world eleventh to eighteenth centuries," V2, the new Cambridge history of Islam, Cambridge university press, London, 2010, p335.

⁵ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 190.

⁶ - شرف خان البدليسي، شرفنامه، في تاريخ سلاطين آل عثمان ومعاصريهم من حكام إيران وتوران، ترجمة محمد علي عوني، دار الزمان، دمشق، 2006، ص 121.

الإلحاق مثل إمارة ذو القادر الذي انتقم السلطان سليم الأول من حاكمها علاء الدولة الذي كان مواليا للمماليك¹ أو بواسطة المعاهدات مع الأسر الحاكمة ورؤساء القبائل وتأمينها ضد أي غزو محتمل من الشرق.²

وأصبحت الطرق مفتوحة أمام العثمانيين إلى أذربيجان والقوقاز وبغداد³، وأكبر نتيجة سياسية هي زوال الخطر الصفوي⁴ الذي أفضى مضجع السلطان سليم الأول، أما اقتصاديا فتكمن في سيطرة العثمانيين على طريق الحرير الفارسي (تبريز - حلب) و(تبريز - بورصة)⁵، مما جعل هذه المراكز الغنية مصادر دخل عظيمة ستؤدي إلى تدفق مالي معتبر إلى خزانة الدولة العثمانية على المدى الطويل⁶، ونظرا لحالة التدمير التي بدأت تظهر في أوساط الجيش العثماني وخوفا من مهاجمة المماليك من الخلف أمر السلطان سليم الأول الجيش بالانسحاب من مدينة تبريز⁷، دون أن يتمكن من استثمار هذا النصر وتتبع الشاه الهارب للقضاء على الدولة الصفوية، واكتفى بكسر شوكتها المادية والمعنوية⁸.

2- التوسع العثماني في البلاد العربية:

¹ محمد بن علي اللخمي الإشبيلي، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس ارنست، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1962، ص 6.

² عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 57.

³ إبراهيم حسن شحاتة، مرجع سابق، ص 102.

⁴ حلیم بك، مرجع سابق، ص 80.

⁵ عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 57.

⁶ فقد كان دخل إيالة ديار بكر لوحدها في عام 1582 يساوي مجموع الدخل العام للدولة الذي يدخل خزنتها من كافة ولايتها في البلقان. خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 54.

⁷ تبريز: مدينة فارسية تراوح حكمها بين الدول الإسلامية خاصة الدولة الصفوية والدولة العثمانية وفي إطار الحكم العثماني تأسست كإيالة وانحلت عدة مرات في 1534/08/21 تتألف من 15 لواء، خمسة من هذه الألوية بقيت لدى تركيا، 3 منها لدى روسيا، و7 منها لدى إيران. أنظر: يلماز أوزوتونا، م 2، مرجع سابق، ص 777.

⁸ نفسه، ص 74.

أ/ دوافع التوسع العثماني في البلاد العربية :

انتهت الجولة الأولى بين الشاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليم الأول في لعبة الشطرنج بنصر هذا الأخير، نصر تنقصه صفة الديمومة والاستقرار فقد ثبت أن النزاع الديني بين القوتين لن ينتهي بهجوم إحدى القوتين على الأخرى والقضاء عليها، إذ أن القوتين متوازيتان، ومن هنا كان لابد من البحث على قوة ثالثة تقضي على ذلك التوازن¹، بمعنى آخر أن يبحث العثمانيون عن ميدان ثالث تخوضه إحدى القوتين وتخرج منه رابحة، وكانت الإماراتان اللتان تقومان على مسافات متساوية تقريبا من تبريز واستانبول، هما ذو القادر² في الجنوب الشرقي من الأناضول، ودولة المماليك في بلاد الشام ومصر، لكن إمارة ذي القادر إمارة صغيرة المساحة لا يمكنها أن تكون وزنا راجحا في إحدى كفتي الميزان ولذا فالفريسة المنتظرة هي البلاد العربية التابعة للدولة المملوكية³.

لا شك أن الظروف الداخلية والخارجية في المنطقة العربية كذلك قد دفعت العثمانيين إلى ضمها ودعوات الشعوب العربية التي أرادت استبدال الحكم المملوكي الذي أرهاق كاهلها بالضرائب وتميز بالظلم⁴ وغياب العدل⁵ بحكم عثماني⁶، عادل أضف إلى ذلك اعتبار

¹ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 47.

² J.S.Shaw, op.cit, p82.

³ A. Toynbee, op.cit, v2, p222.

⁴ - علي بن محمد اللخمي الإشبيلي، مصدر السابق، ص 7.

⁵ - محمد ابن أحمد ابن اياس، مصدر سابق، ج 3، ص 129.

⁶ - وهذا بفعل الدعاية العثمانية وتمثلت في القول: "أن الدولة العثمانية التي أرسلتها العناية الإلهية لإنقاذهم"، حيث كانت سمعة العثمانيين في الأوج عند مطلع القرن السادس عشر، ففي الشرق كما في الغرب ازداد الإعجاب بالعثمانيين ولا سيما في الأوساط الشعبية المضطهدة والمستغلة والشعوب العربية واحدة منهم كانت تعاني من سياسة ضرائبية مجحفة والإرتفاع الفاحش في الأسعار مما أدى إلى التدمير والتطلع إلى حكم آخر. أنظر: نيقولا إيغانوف، مرجع السابق، ص 61.

سياسة المماليك¹ اتجاه استانبول مظهرا من مظاهر العداوة التي أضعفت مواقع المماليك في مصر، وقوّت المشاعر المعادية لهم في الأوساط الحاكمة فأخذ الحكام العثمانيون إلى اعتبار المماليك عدوهم الرئيسي والأشدّ خطرا².

وقبل أن يتوجه سليم إلى المنطقة، كان عليه قبل كل شيء أن يجد أرضية شرعية³ لهذا الأمر، والحيلولة دون تعرض سمعة دولته الجهادية في العالم الإسلامي إلى إساءة، وكان من الادعاءات التي طرحها أنّ المماليك غير قادرين على القضاء على التهديد الغربي المسيحي الذي يستهدف الأراضي الإسلامية المقدسة، وأنّ العرب في هذه المنطقة رفعوا شكواهم من ظلم المماليك إلى العثمانيين⁴.

وسوف يخوض السلطان سليم الأول لحسم الصراع المعركة الأولى في مرج دابق⁵، بالقرب من حلب سنة 1516م، وهذا ما عبّر عنه المؤرخ المعاصر للأحداث ابن طولون بقوله¹ "وفي عشية السبت الثاني من شعبان وصل الخبر إلى دمشق، أنّ سلطاننا التقى مع الروم في مرج دابق بموضع يعرف بتل الغار وقيل بمرج الطبقة أي مرج دابق يوم الأحد

¹ اتخذ السلطان سليم الأول من مسألة قبول المماليك التحالف مع الصفويين ضده حجة لإستكمال إستراتيجيته الشرقية القائمة على التوسع في البلاد العربية. أنظر: أحمد فؤاد متولي، مرجع السابق، ص 178.

² محمد بن أحمد ابن إياس، مصدر السابق، ج 5، ص 361.

³ إحتاج العثمانيون لفتوى شرعية تبيح لهم محاربة المماليك، فعمدوا مرة أخرى إلى علمائهم لسد ثغرة الشك. أنظر: أكرم كيدو، مرجع سابق، ص 110.

⁴ فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية (مطلع العهد العثماني - أواسط القرن التاسع عشر ميلادي)، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 128.

⁵ مرج دابق: يقع شمال سوريا غير بعيد عن حلب قرب محلة دابق التي اشتهرت منذ زمن الفتوحات الإسلامية كمركز تجمع للجيش. أنظر: جانين ود. سورديل، معجم الإسلام التاريخي، ترجمة أ. الحكيم، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، لبنان، 2009، ص 406.

14 رجب، وأنه كانت النصره أول النهار لسلطاننا، وفي وقت الظهر أشتغل العسكر بالنهب فرجع عليهم ملك الروم بالبندق والرصاص فكسرهم، وولى الباقيين منهزمين إلى حلب، وفي يوم الأحد الثالثة دخل غز² كثيرون إلى دمشق، وفي اليوم الرابعة دخل دمشق محمد بن سلطاننا ومعه الغزالي جان بردي³ نائب حماة، سيطر السلطان على كل الأراضي السورية، واستقبله أهلها بالمصاحف والأعلام وطلبوا منه الأمان فأمنهم وأنعم عليهم⁴.

والمعركة الثانية الفاصلة هي الريدانية⁵ استكمالا لإستراتيجية السلطان سليم الأول والهدف المسطر منها هو السيطرة على مصر⁶، حيث عبر الجيش العثماني جزيرة سيناء مارا بغزة التي هزمت حامية المماليك الموجودة فيها 12/25/1516م، ثم وصلت القوات العثمانية إلى دلتا النيل⁷.

ويذكر محمد ابن إياس المؤرخ المعاصر: "وصلت طلائع عسكر بني عثمان عند بركه الحاج بضواحي القاهرة، فاضطربت أحوال العسكر المصرية، وأغلق الباب الفتوح وباب

¹ ابن زنبيل أحمد الرمال، آخره المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر، مطابع الهيئة الحديثة للطباعة والنشر، ط2، مصر 1998، ص99.

² غز: وهي قبيلة تركية التي ينتمي إليها العثمانيون وفرع عشيرة قايي التركمانية أحد فروع الغز والتي يقال عنها بأنها لم تتجاوز 400 خيمة مجموع أفرادها 4000 شخص بما فيهم النساء والأطفال. أنظر: يلماز أزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، م1، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، صص83، 84.

³ جان بردي الغزالي: هو حاكم دمشق عينه سليم الأول وقد حكم في الفترة الممتدة من 1516 - 1521م أنظر: J.V.-Hammer-purgstall, op.cit. T4.P344.

⁴ محمد ابن طولون الدمشقي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص334.

⁵ محمد ابن إياس، ج5، مصدر سابق، 143.

⁶ نفسه، ص145.

⁷ نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص86.

النصر وباب الشعرية وباب البحر ... وأغلقت الأسواق وزعق النفير وصار السلطان طومان باي وهو راكب بنفسه يرتب الأمراء على قدر منازلهم ونادى العسكر بالخروج للقتال، وأقبل جند ابن عثمان كالجراد المنتشر، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكانت بين الفريقين معركة مهولة وقتل من العثمانيين ما لا يحصى عددهم"، ويستطرد ابن إياس فيقول: "ثم دبت الحياة في العثمانية فقتلوا من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم"¹.

ربح العثمانيون المعركة الثانية ضد المماليك² بقيادة طومان باي، والذي منى بهزيمة كبيرة، وألقي القبض عليه وتم إعدامه³، ومن أسباب هزيمتهم هو تحول ولاءات بعض القادة المماليك إلى السلطان سليم الأول مثل خاير بك وجان بردي الغزالي،⁴ والفارق الكبير في العدة حيث أنّ التفوق العثماني واضح في الأسلحة المتطورة والمدافع والخطط الحربية المحكمة.⁵

ب/ نتائج التوسع العثماني في البلاد العربية وأبعاده الاستراتيجية:

حقق الانتصار العثماني على المماليك العديد من النتائج السياسية المهمة والمؤثرة على مستوى الدولة العثمانية نفسها، وكذلك على مستوى القوى السياسية المجاورة لها، وكانت تلك النتائج من القوة بحيث عملت على تغيير خريطة توزيع الكيانات السياسية في المنطقة بصورة اتفقت مع الأهداف العليا للدولة العثمانية، التي سعت إلى تنفيذ استراتيجية شرقية

¹ - محمد ابن إياس، مصدر سابق، ج5، ص144.

² - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص228.

³ - نفسه، ص176.

⁴ - ابن زنبيل مصدر سابق، ص23.

⁵ - نيقولايف ايفانوف، مرجع سابق، ص60.

محضة منذ مجيء السلطان سليم الأول على رأس الحكم، ومن أهم النتائج السياسية اتساع سيادتها¹ بصورة واضحة على بلاد الشام ثم مصر.

فلقد كان لدخول العثمانيين إلى مصر نتائج عميقة² ليس على مصر فحسب بل على كل المنطقة العربية التي كانت خاضعة للمماليك، ذلك لأن النفوذ العثماني شمل بالإضافة إلى مصر سائر بلاد الشام³ واليمن والحجاز⁴، وانفتح الطريق للحبشة وشرق السودان وجميع السواحل المطلّة على البحر الأحمر⁵ الذي أصبح يمثل بعدا استراتيجيا فلا بد من السيطرة على كافة مراكزه وغلقه أمام البرتغاليين وانفتح لها الطريق إلى المحيط الهندي عن طريق البحر فبلغت سواحل الهند⁶

بالإضافة إلى اغتيال شرعية الخلافة الإسلامية التي كانت تعيش في ظل حكم المماليك⁷ وانتقلت إلى العثمانيين، لكن الأبحاث التاريخية لا تؤيد الأقوال التي تفيد بانتقال

¹D.E.Pitcher, Historical geography of the Ottoman empire from the earliest times to the end of sixteenth century, Leiden, 1972, p121 .

²Maribel Fierro, op.cit, p336.

³ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 48.

⁴ - كان دخول الحجاز وبعض مناطق اليمن تحت السيادة العثمانية أثناء إقامة السلطان سليم في مصر حيث استقبل وفدا من أعيان الحجاز بعث به الشريف بركات وكان على رأس هذا الوفد أبو النمي حاملا معه رسالة يعلن فيها الشريف قبول دخول الحجاز تحت سيادة العثمانيين وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض مخلفات الرسول صلى الله عليه وسلم وبذلك ضمت الدولة العثمانية الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز على رأسها المسجد الحرام والكعبة المشرفة والمسجد النبوي فضلا عن المسجد الأقصى مما أضفى على الدولة العثمانية زعامة دينية على العالم الإسلامي وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية خادم الحرمين الشريفين. انظر: فاضل بيّات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، صص 465، 466.

⁵Maribel Fierro, op.cit, p336.

⁶Haji Kalifeh, History Maritime wars of the Turks, Translated by James- Mitchell, London, 1831, p72.

⁷ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 73.

الخلافة الإسلامية¹ فعلى الرغم من تواترها، فلا تترك مجالاً في أنّ الرواية هي أسطورة تكونت بعد فتح مصر وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير يسيرة والأدلة على ذلك كثيرة.

فالمؤرخ ابن اياس كان معاصراً لتلك الفترة ولم يذكر شيئاً عن مسألة الخلافة في كتابه بدائع الزهور ورغم أنه دون وقائع كثيرة بتفاصيلها، بالإضافة إلى أنه لا يوجد تاريخ تركي معاصر يشير إلى ذلك مثل منشآت فريدون بك التي تضم نوعاً من اليوميات سجل فيه كل أعمال السلاطين، لا نجد في هذه اليوميات إشارة عن قضية الخلافة وكذلك بالنسبة إلى أقرب التواريخ العثمانية إلى عهد السلطان سليم الأول المعروف بتاج التواريخ، فإنّ هذا التاريخ يحتوي بحثاً مطولاً عن السلطان سليم الأول، ومع هذا لا يذكر شيئاً عن الخلافة².

كان من الطبيعي أن يحقق التوسع العثماني في البلاد العربية نتائج مهمة على تكوين المجتمع العربي والعثماني نفسه، حيث كان معظم رعايا الدولة العثمانية من الأوروبيين المسيحيين³.

وأكبر قسم من أراضيها في أوروبا⁴، وأما الآن وقد فتحت البلاد العربية زادت نسبة الرعايا العرب والمسلمين في الدولة زيادة كبيرة، فأصبحت دولة شرقية إسلامية⁵ بل اعتبر سلاطينها

¹ - فلم يكن حق حمل لقب الخلافة العامة للمسلمين أو إمارة المؤمنين ما دام هذا الحق ظل في اعتقاد أهل السنة وتراثهم الفكري قاصراً على نسل قريش، ولم يحدث بالفعل أن تنازل الخليفة المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، عن هذا اللقب كما أنّ هؤلاء لم يكتسبوا بهذا اللقب العباسي ونظيره الحفصي، وفضلوا ما حصلوا عليه من صيت إسلامي عظيم عن حمايتهم للعالم الإسلامي وأراضيه المقدسة. أنظر: ابراهيم حسن شحاتة، مرجع سابق، ص 104.

² - ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 43.

³ - توماس آرلوند، مرجع سابق، ص 171.

⁴ - محمد فؤاد كوبريلي، مرجع سابق، ص 136.

⁵ - وأكثر من ذلك فهذه الممتلكات ضمت بين جنباتها المدينتين المقدستين مكة والمدينة مما أضفى على السلطان العثماني الدور المميز كمالك وحام لأقدس المزارات الإسلامية ومن الآن فصاعداً خادم الحرمين الشريفين والعديد من الألقاب المماثلة بدأت تظهر بشكل نظامي بين ألقاب السلاطين العثمانيين. كوليزامبر، مرجع سابق، ص 103.

أنفسهم حماة كل العالم الإسلامي¹ حيث أصبح لها سياسة ومشكلات إسلامية شرقية بالإضافة إلى مشكلاتها الأوروبية².

ألحقت سياسة سليم الشرقية نتائجها الفعالة على المستوى الاقتصادي، وكانت تلك النتائج من العمق والفعالية بحيث أدت إلى تطور الدولة العثمانية، وقد زادت فعاليات النتائج الاقتصادية³، من خلال ما شهدته المنطقة من انتعاش واضح في النشاط الاقتصادي العثماني وانعكس ذلك بدوره مرة أخرى وبصورة أقوى على السياسة التوسعية العثمانية، إذ قدّم انتقال الموارد الاقتصادية التي كانت تختص بها المنطقة العربية إلى الدولة العثمانية الكثير، حيث سيطرت على الطرق التجارية الدولية⁴ مثل طريق تجارة الحرير المار على حلب،⁵ وطريق تجارة الهند لتي تمر عبر البحر الأحمر إلى مصر ومنها إلى أوروبا، وكان لذلك بالغ الأثر في دعم خزانة الدولة بموارد مالية كبيرة، مكنتها من تمويل نفقات الحملات العسكرية الكبرى التي قام بها السلطان سليمان القانوني فيما بعد⁶.

¹ - علي بن محمد اللخمي، مصدر سابق، ص 10.

² - عبد الرحمان عودة و ابراهيم ياسين الخطيب، مرجع سابق، ص 28.

³ - خليل انالجيك، مرجع سابق، ص 77.

⁴ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 345.

⁵ - شوكت باموك، مرجع سابق، ص 59.

⁶ - خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 56.

الفصل الأول

السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

المبحث الأول: ترجمة لشخصية السلطان سليمان القانوني

1- التعريف بالسلطان سليمان القانوني:

تولى السلطان سليمان القانوني الحكم بعد وفاة والده سليم الأول وحكم مدة ستة وأربعين عام على هرم الدولة العثمانية، وهي أطول مدة حكم فيها سلطان عثماني. ويبقى أنّ عهده المثير من حيث مدته (1520 - 1566م) يتطابق بوجه عام مع المرحلة الأكثر روعة في مراحل التاريخ العثماني الطويل ففي زمنه وحتى أيامنا كان بالنسبة للغرب كما بالنسبة للشرق، رمز العظمة كان هو المستفيد منها كما كان هو صانعها¹ فعنده قمة العهود العثمانية ويمكن اعتباره أعظم شخصية في التاريخ العثماني حيث وصلت الدولة في عهده إلى أوج اتساعها وقوتها برا وبحرا².

ووصفه السفير الإمبراطوري أجير غيسلين دي بوسبيك³ في الكلمات التالية: "إذا سألتني ما هي صفات سليمان كرجل فأقول أنّه كرجال العهود القديمة تقاطيع وجهه وهيكل جسمه يميلان طابع العظمة، يليق بالعظمة السياسية التي تتمتع بها إنه مقتصد معتدل في مأكله ومشربه، وذلك منذ شبابه رغم أنه كان يمكنه أن يأخذ لنفسه حرية عظمى وفي أيام شبابه لم يكن يمس الخمر، بحيث لا يمكن حتى لأعدائه أن يقولوا أي كلمة ضده في هذه

¹ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 237

² - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 465.

³ - أجير غيسلين دي بوسبيك: Ogier Ghiselin De Busbecq سفير أرشيدوق النمسا فرديناند في بلاط السلطان سليمان، وقد ألف كتابا عن الدولة العثمانية ونظمها السياسية والعسكرية في اللغة اللاتينية، وطبع هذا الكتاب في ليدن سنة 1633م، وقد أبدى إعجابه الشديد بنظام الديوشرمة والعناية بتربية الإنسان بهذه الطريقة تربية جيدة بخلاف الأوربيين الذين كانت عنايتهم بتربية كلاب وصقور الصيد أكثر من اهتمامهم بتربية الإنسان وصقل ملكاته، بصرف النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها. أنظر: برنارد لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص 54.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الأمر، إنه يمثل لأوامر الدين الإسلامي بكل دقة، كما أنه يجب تبليغ ونشر هذه الأحكام، وذلك لتوسيع حدود إمبراطوريته".

أ/ المولد والنشأة:

ولد السلطان سليمان القانوني في أول شعبان سنة 900هـ الموافق 27 أبريل سنة 1495م¹ في مدينة طرابزون²، وكان مولده في القصر الإمبراطوري الذي يشرف على المدينة وكان له العديد من الأخوة قتلوا بعد ذلك، لذلك أهتم المؤرخون به دون أخوته³، وقد حظي باهتمام ورعاية كبيرة فنشأ محبا للعلم معظما لأهله موقرا لأهله غاية الاحترام والتبجيل⁴. وهذا ما عبر عنه المؤرخ المعاصر طاش كبري زادة في كتابه الشقائق النعمانية: "كان محبا للعلم معظما لأهله غاية الإعظام" وهي شيمة من شيم الكبار⁵

ومر تعليمه على مراحل على جمع من العلماء، حيث أخذ سليمان على شيوخه القرآن والكتابة والحساب والموسيقى ودربوه كذلك على التمارين الجسمية والرماية⁶، مما أثر على شخصيته وميولاته بالغ التأثير.

حظي سليمان القانوني بحظ وافر من المعارف والنوادر وله معرفة جيدة بتواريخ الأوائل والأواخر وشاعرا له ديوان شعري كبير بالتركية والفارسية، خطا مختصا في

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 198.

² - حضرة عزتلو يوسف بك آصاف، مرجع سابق، ص 66.

³ E.clot, op .cit ,p46.

⁴ - طاش كبري زادة، مصدر سابق، ص 376.

⁵ - نفسه، ص 376.

⁶ E.clot, op. cit, p47.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الأحجار الكريمة، متقنا للغات الشرقية لاسيما العربية¹ وكان ينكب على القراءة والمطالعة، كلما أراد الترويح عن نفسه ورعا، وما يدل على ورعه هو نسخه لثمانية نسخ للقرآن الكريم بنفسه، وهي محفوظة في مسجد السليمانية، ومن هنا يظهر ترسيخ القيم الدينية الاسلامية في شخصية سليمان القانوني².

لا شك أنّ هذه التنشئة أثرت في شخصية سليمان مما سهل عليه قيادة أكبر دولة في القرن السادس عشر كسياسي كبير ذات بعد عالمي، وتتفق التحليلات الغربية والعربية على حد سواء على أنّ السلطنة العثمانية في عهد سليمان القانوني كانت مركز العالم وأقوى دولة والأشد استقراراً³ ومناعة وقوة بحرية الأكثر ازدهاراً⁴ لذا أجمع الأوروبيين على تلقيه بالعظيم⁵ أما شعبه فلقيه بالقانوني.

ب/تولية السلطان سليمان الأول الحكم وأهم إصلاحاته:

بوفاة السلطان سليم الأول عام 926 هـ / 1520م، تولى سليمان الحكم بموروث كبير عن أبيه السلطان سليم الأول، ساهم هذا الموروث في توطيد أركان حكمه بل في الولوج في عصر ذهبي بلغت الدولة العثمانية حينها أقصى اتساعها وأوج مجدها⁶.

¹ - طاش كبري زادة، مصدر سابق، ص376.

²E.S.Creasy,history of the Ottoman Turk from the beginning of their empire to the present time , Khayats,Beirut,1961,p158.

³ - إدريس الناصر رائسي،العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن السادس عشر ميلادي،دار الهادي للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2008، ص256.

⁴ - خالد زيادة، مرجع سابق، ص17.

⁵R.B. Merriman.Suleiman The Magnificent 1520-1566,Cooper Square publishers, INC, New York,1966.p27.

⁶ - عبد اللطيف هريدي، مرجع سابق، ص59.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

آنذاك كان سليمان الابن الوحيد لسليم في نحو الخامس والعشرون من عمره ، وكان قد شغل منصب والي مانيسا مما أكسبه خبرة سياسية بالإضافة إلى الخبرة العسكرية.¹ وأحيانا كان يمارس الحكم بالنيابة عندما كان والده يخوض حملات في أماكن قاصية ، وبذلك فأن السلطان ليس بالجديد في مسؤولية الحكم² ولم يكن الرجل شهيرا في الجيش كانت الفصائل التي أخضعها سليم تظن أنه بلا خبرة وبلا إرادة لكن بعد سنوات سوف يثبت العكس³ بتولى الحكم في الدولة العثمانية سليمان سلطانا على البلاد.

وفي صبيحة 17 شوال /30 سبتمبر قدم وفد من الأمراء والوزراء والأعيان لتعزية السلطان بوفاة والده ومبايعته وتهنئته بتقلده الحكم⁴. حكم مدة ستة وأربعين سنة وهي أطول فترة يحكم فيها سلطان عثماني⁵ ، وتعتبر فترة حكمه من أهم الفترات ليس في تاريخ الدولة العثمانية بل في تاريخ العالم⁶.

وعند تسلم السلطان سليمان القانوني مقاليد الحكم قام بتوزيع النقود على الانكشارية وتعيين مربيه قاسم باشا مستشارا خاصا وإبلاغ توليته الحكم إلى كل الولاة والأشراف بمكة والمدينة وذلك عن طريق خطابات مفعمة بالنصائح والآيات القرآنية التي تبين فضل العدل والقسط في الأحكام وسوء عاقبة الظلم. وكان سليمان يبدأ خطاباته بالآية الشريفة(إنه من

¹ - إيرينا بيتروسيان، الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة جمعة الراشد، مركز جمعية الراشد للثقافة والتراث، دبي، 2006، ص163.

² - روبيرمانتران، مرجع سابق، ص215.

³ - نفسه، 216.

⁴ - القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، دمشق، 1978، ص47.

⁵ - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص59.

⁶E.S.Creasy,op. cit,p156.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)¹ وكان سليمان من الحكمة بحيث يبقى الصدر الأعظم بيرى باشا في منصبه وكان الصدر الأعظم رجلا يتمتع بالاحترام لما يتميز به من حكمة وخبرة² و كان سليمان يختلف عن والده فقد اشتهر سليمان بالتسامح والعدالة واستهل حكمه بمعاينة الخارجين عن القانون و الباشوات والضباط الذين ثبت فسادهم و تحيزهم، متشبهها بجده عثمان الذي سعى إلى إقامة العدالة دون تحيز في شتى ربوع أملاكه الواسعة.

وابتهج رعاياه حين ولى أمرهم سلطانا بإمكانهم أن يحبوه ويرهبوه، هذا إلى أن سليمان قد تمتع بمزايا لم تتح لأسلافه، فلم يكن ثمة أمراء بإمكانهم تحدي سلطته³ كما أورث سليم لسليمان فرقة الانكشارية باعتبارها أداة مهمة للسلطة⁴، بالإضافة أن فتوحات سليم قد وفرت لسليمان وضعا استراتيجيا فريدا في الشرق والغرب، كما زالت دولة المماليك وألزمت البنادقة والصفويين حدودهم الإسلامية، في حين لم تكن قد اكتملت بعد قوة الهابسبرغ الصاعدة التي كانت سبيل الحلول محل المجر باعتبارها العدو الرئيسي في المنطقة الممتدة إلى الشمال من نهر الدانوب كما أن الأسطول القوي الذي جرى تشييده خلال ربع القرن السابق قد أتاح لسليمان سلاحا جديدا يمكنه من التصدي لأعدائه برا وبحرا، بالإضافة إلى فتوحات سليم في أراضي الخلافة الإسلامية القديمة قد وفرت لسليمان مصادر دخل وفيرة وهيبة كبيرة في العالم الإسلامي⁵

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 198.

² - روبرت مانتران، مرجع سابق، ص 216.

³ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 88.

⁴ Mesut Uyar and Edward Erickson, A military history of the Ottomans from Osman to Ataturk, Greenwood, California, 2009, p2.

⁵ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 88.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وعند موت السلطان سليم تصور جانبردي الغزالي¹ والي دمشق بأن صغر سن السلطان الجديد سليمان القانوني تمكنه من سهولة الانفصال عن السلطة العثمانية وإعادة الحكم المملوكي للمنطقة². وأنّ الفرصة سانحة لكي يعلن نفسه حاكماً على سوريا وفلسطين فاتصل بحاكم مصر خيربك³ طالبا منه المساعدة في الحركة الانفصالية لكنه لم يؤيده بما أقدم عليه من تمرد، بل إنّ خاير بك ظل على ولائه للعثمانيين، وأبدى استعداداه للسلطان الجديد بإرسال جيش ضد الغزالي⁴

وخلال فترة قصيرة تمكن جان بردي الغزالي من بسط نفوذه على معظم بلاد الشام باستثناء حلب، التي تحصن واليها منتظرا المساعدات العثمانية والتي وصلت فعلا بقيادة علي بك بن الشاه سوار⁵، والتي سرعان ما قضت على هذا التمرد وعادت بلاد الشام مرة أخرى إلى الحضيرة العثمانية.

قام سليمان القانوني بعدة إصلاحات بعد توليه السلطة وإصدار عدة قوانين فالسبب الأول والأهم في إطلاق لقب القانوني عليه يعود الى قيامه بتدوين القوانين التي وضعت في عهد محمد الفاتح وفي عهد بايزيد الثاني وفي عهد سليم الأول⁶ ومع أنّ القوانين كانت مدونة في السابق إلا أنّ السلطان سليمان كان أفضل من قام بتحريرها وشملت أكثر من مائتي قانون

¹ - جانبردي الغزالي : هو حاكم دمشق، عينه سليم الأول أميراً على دمشق مدى الحياة وقد حكم في الفترة الممتدة من 1516 - 1521م. أنظر: J.V.Hammer-Purgstall, op.cit, T4, p345.

² - ابن زنبيل، آخرة المماليك، مصدر سابق، ص 270.

³ - هو أحد أمراء المماليك الجراكسة، عينه قانصوه الغوري نائبا عن حلب وظل في الوظيفة إلى سنة 922هـ/1516م، وحكم مصر مدة خمسة سنوات وثلاثة شهور. أنظر: نفسه، مصدر سابق، ص 270.

⁴ - ابراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 87.

⁵ - ابن طولون، مصدر سابق، ص 251.

⁶ - إكمال الدين احسان أوغلي، مرجع سابق، ص 444.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

منظم¹ وقد راعى سليمان في هذه القوانين أن تكون مختلفة من منطقة لأخرى في أنحاء الدولة مراعاة للظروف الخاصة لكل منطقة².

لقد كان سليمان الثاني قائدا كبيرا ورجل دولة مقتدر ورجل إدارة توسعت فيه حدود الدولة العثمانية غربا وشرقا³ كما شمل الازدهار جميع مناحي الحياة فقد أجمع المؤرخون على أنّ الدولة العثمانية وصلت في عصر السلطان سليمان إلى ذروة مجدها وعزها وكمال قوتها، ولهذا فمعرفة إدارة الحكم في ذلك الوقت لا يمكن الاقتصار على وصف البلاط والعادات⁴ والاحتفالات والحديث عن الموظفين⁵، بل لا بد من الإشارة أن سليمان الثاني ورث إدارة عن والده سليم الأول الذي اهتم بالإصلاح الإداري⁶. ولعل أولى الخطوات التي بدأ بها هي ذاتها التي دأب العثمانيون على القيام بها عند فتحهم إقليما جديدا فإنهم كانوا يعينون عليها أميرا ومعه قاض ودفتردار⁷.

فعلى سبيل المثال بدأت في مصر عثمانة الإدارة تدريجيا ففي شهر ماي 1522 أمر السلطان بتنفيذ إصلاح قضائي فعوضا عن نظام القضاة الأربعة الكبار استحدث منصب قاضي القضاة في القاهرة، فأخذ يصدر أحكامه وفقا للمذاهب الأربعة، وفي الوقت نفسه تم حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا يعاونون القضاة وقد بلغ عددهم مئات

¹ - أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص 696.

² - أحمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 275.

³ - طاش كبري زادة، مصدر سابق، ص 375.

⁴ - لقد تأثر النظام الإداري العثماني بالبيروقراطيات الأوروبية، إثر التركيز العثماني الطويل على أوروبا الشرقية، فكانت التنظيمات الإدارية مؤثرة جدا في البنيات العثمانية، ومنها البيئة العربية وبخاصة على النسق الذي رسمته بنود قانون نامه. أنظر: سيار الجميل، مرجع سابق، ص 68.

⁵ - مراجعة دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1992، ص 7.

⁶ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 88.

⁷ H.Inalcik, the Ottoman empire conquest ,organization and economy, collected studies , Variom reprints,London,1978,p7.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

عدة ،وعين قضاة من الفلاحين ،وأعيد تنظيم ادارة الأوقاف وأملاك الخزينة لكي تتفق والنمط العثماني¹ ، وأثناء قيام التمرد الثاني الذي قام به أحمد باشا في مصر 1525 ، وكان هذا الوالي يطمع أن يكون صدرا أعظما ولم يفلح في هذا² أرسل السلطان الصدر الأعظم³ إلى المنطقة لوضع إدارتها على محور النظام وأقام مقامه إياس باشا⁴ وخلال ثلاثة أشهر من وصوله أعاد الشرعية العثمانية إلى مصر واستخدم كل الوسائل التي تنم عن عزم الباب العالي على الحزم في الادارة.⁵

بالرغم من أن شيخ الاسلام يت رأس أعلى هيئة إسلامية حيث اسندت له في منتصف القرن السادس عشر صلاحيات التعيين ضمن طبقة العلماء ،أضيف إلى صلاحياته الروحية تأثير سياسي في شؤون الحكم والإدارة وجعلهم بطبيعة الحال على علاقة وطيدة جدا بالسلطين العثمانيين بمركز يمتاز عن مراكز الصدر الأعظم.⁶

وفي عهد السلطان سليمان القانوني كان الديوان⁷ بمثابة مجلس للوزراء فهو يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة و يعقد اجتماعاته مرتين في الأسبوع للبحث والتداول في القضايا الحكومية الهامة كإقرار الحرب والسلم ، كان السلطين أنفسهم في البداية يتأسونه لكنهم ترفعوا عن ذلك بعد تفتح الدولة على البلاطات الملكية المجاورة ويضم الصدر الأعظم

¹ - نيقولاى ايفانوف، مرجع سابق، ص 97.

² - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص 66.

³ - الصدر الأعظم : لقب الوزير الأول أو الوزير الأعظم في ظل الدولة العثمانية وهو منصب رفيع يأتي من حيث الترتيب بالمقام الثاني بعد السلطان أول من تولاه علاء الدين باشا وأطلق عليه لقب الوزير الأول منذ عهد سليمان القانوني ومن ألقاب الصدر الأعظم بيلربي . أنظر: هاملتون جب وهارولد بوون، مرجع سابق، ص 107.

⁴ - ابراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 88.

⁵ - نيقولاى ايفانوف، مرجع سابق، ص 100.

⁶ - أكرم كيدو، مرجع سابق، ص 104.

⁷ - إكمال الدين احسان أوغلي، مرجع سابق، صص 170، 172.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وقاضي الجيش الأناضول، آغا الانكشارية وأميرال¹ البحرية والمشرفين على الشؤون المالية من الدفتردارين وتشانجي² وهو الذي يتحقق من مطابقة الأوامر والرسائل وتشريعات الدولة العثمانية آنذاك³.

وكان السلطان يرأس اجتماعات مجلس الوزراء والديوان غير أن السلطان سليمان حول إلى الصدر الأعظم بعضا من سلطاته، وذلك في براءة الفرسان الذي أصدرها سنة 1524م، وقد وصلت التشكيلات الإدارية المركزية والتشكيلات الإدارية للمقاطعات والأقاليم، درجة عالية من الدقة والتنظيم⁴، وكانت البلاد تقسم إداريا وعسكريا إلى ايالات، والإيالات إلى ألوية أي سناجق⁵ وكان كل لواء من الألوية يضم مقدارا من التيمارات والزعامات وكان يعهد بشؤون الإيالة إلى باشا يسمى بكربكي، بمعنى بك البكوات، ويعتبر برتبة ميرميران بمعنى أمير الأمراء ويعهد بشؤون اللواء إلى بك يسمى سنجق بكي بمعنى بك اللواء⁶.

¹ - أميرال: وتعني لغة أمير البحر أما اصطلاحا فهي أطلقت على قائد الأسطول الحربي أو على قائد القوى البحرية عند العثمانيين. أنظر: حسان حلاق وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية، دار النهضة العربية، بيروت، 2009، ص 27.

² - تشانجي: هو المصدر الرئيسي للقوانين القديمة للإمبراطورية ومسؤول عن صياغة قوانين جديدة، وإلى غاية القرن السادس عشر ميلادي كان يختار من العلماء ويشكل ما سوف يعرف بسكرتارية الديوان، أنظر: مصطفى الغاشي، "صورة مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر" نموذج التمكروتي، مجلة الاجتهاد، العدد

44، السنة 11، بيروت، 1999م/، 1420هـ، ص 95.

³ - جب هاملتون و هارولد بوون، مرجع سابق، ص 159.

⁴ - أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، المرجع السابق، ص 240.

⁵ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 80.

⁶ - ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 30.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

كما ازدادت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني مدنية، ويظهر ذلك من خلال بنائه العديد من المدارس التي درست فيها مختلف أنواع العلوم¹، فأدخلت تغييرات في نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه السلطان محمد الفاتح، وجعل أكبر الوظائف العلمية هي وظيفة المفتي²، لقد ناضل العثمانيون ردحا طويلا من الزمان لاحتواء التغيير الطارئ على طرق التجارة وآثاره الضارة على الشرق الأدنى وذلك بالهيمنة على مصر وبغداد والبصرة وعدن فحقق عودة تجارة العبور إلى الشرق الأدنى³. بعدما كان كارثيا بالنسبة للمنتجين و التجار العثمانيين أنفسهم، وقد استعاد سليمان القانوني حرية التجارة مع اشتراط قيودا مختلفة، وأنصف من كانوا ضحايا السلب.⁴

كما اهتم العثمانيون بالبيئة وقاموا بسن مجموعة من القوانين تشير إلى مايجب عمله لتأمين نظافة البيئة وصدرت اللائحة القانونية الأولى للمحافظة على البيئة قبل 461 سنة أي في سنة 1539/898م ونقتبس هنا بعض الفقرات من احدى هاتين اللائحتين فقط، ولا شك أنه من غير المنصف إجراء مقارنة مع اللوائح القانونية الحالية في خصوص المحافظة على البيئة في هذا القرن وبين النصوص التي سوف نذكرها من تلك اللائحة، فهناك فرق كبير من ناحية الزمان ومن ناحية جميع الظروف، ولكن من الملفت للنظر حقا وجود فقرات في هذه اللائحة لا تزال صالحة للتطبيق حاليا⁵ مثلا الفقرة التي تنص على ضرورة المحافظة على

¹ - طاش كبري زادة، مصدر سابق، ص376.

² - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص251.

³ - أحمد آق كوندوز و سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص263.

⁴ - رويبر مانتران، مرجع سابق، ص216.

⁵ - أحمد آق كوندوز و سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص265.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

نظافة المناطق المحيطة بالمساكن وبالداكاكين "المادة رقم واحد"، وقيام السلطات بإجبار أهالي تلك المناطق للقيام بتنظيف مناطقهم "المادة 2"¹

وفي مجال العمارة ظهر في عهد سليمان القانوني أكبر شخصية معمارية في التاريخ الإسلامي وهو المعمار سنان² الذي لقي دعما كبيرا من السلطان سليمان القانوني، هذا الدعم كان نتيجته جامع السليمانية³ من أشهر الأعمال المعمارية في هذا العهد بل وفي التاريخ العثماني كله، ويمثل أكثر مراحل المعمار العثماني تطورا⁴، و ذروة ما بلغته العمارة العثمانية من روعة وجمال وبهاء وقد استغرق بناؤه قرابة ثمانية سنوات والجامع بكليته من مدارس داخلية ومستشفى وغيرها، يعد ثاني كلية تبنى في استانبول بعد الكلية التي بناها محمد الفاتح⁵، وأنشأ سنان واحد وثمانين جامعا كبيرا، واثنين وخمسين مسجدا صغيرا وخمسين مدرسة، وسبعة معاهد لدراسة القرآن، وسبعة عشر مطعما عموميا، وثلاث مستشفيات، وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن، وسبعة جسور⁶، وثلاث وثلاثين قصرا، وثمانية عشر خانا وخمسة متاحف، وثلاثة وثلاثين حماما، وتسعة عشر ضريحا أو قبة⁷، وأمر ببناء

¹ - ساحلي أوغلي خليل، مرجع سابق، ص 549.

² - سنان: كان ضمن هؤلاء الفتيان المسيحيين الذين جندوا في الجيش العثماني أو ما يسمى بالديوشرمة، ثم التحق بمدرسة عسكرية ابتدائية عجمي أوغلان وفيها تعلم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية، ثم كان عليه أن يختار فنا من الفنون ليختص فيه، فاختار قسم التجارة تلقى سنان في هذه المدرسة دراسته النظرية على يد المتخصصين العسكريين، وتحت إشراف هؤلاء أيضا عمل سنان عاملا معماريا في بناء الجوامع والحمامات وسبل المياه والخانات واشترك في الحملات العثمانية على أوروبا. أنظر: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، صص 157، 158.

³Ogier Chislen De Busbecq,op.cit,p174.

⁴ - برنارد لويس، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع السابق، ص 137.

⁵ - نفسه، ص 141.

⁶ - حاجي خليفة، حاجي خليفة، تاريخ ملوك آل عثمان، تحقيق السيد محمد السيد، مؤسسة العالي أتاتورك للثقافة واللغات والتاريخ، أنقرة، 2009، ص 227.

⁷ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 455.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ضريح للإمام أبي حنيفة¹ في بغداد وكذلك شيد المسجد الذي يضم قبر جلال الدين الرومي في قونية، وهو لا يزال إلى اليوم مزارا لأرباب الطرق الصوفية كما قام بتجديد أسوار بيت المقدس².

وركز سليمان القانوني على الجانب العسكري حيث نجحت الدولة العثمانية خلال عهده في بناء أجهزة متعددة كان من أبرزها الجهاز العسكري الذي اعتمدت عليه منذ نشأتها، ولا سيما في حملاتها التوسعية الخارجية، والتركيز على أوروبا³، على الصعيد العسكري حقق انتصارات عسكرية كبيرة، حيث عمل على تطوير المؤسسات والتنظيمات العسكرية مما زاد فعاليتها،⁴ و السيطرة على قيادة الجيش وتنظيمه بإحكام⁵.

أصدر السلطان سليمان القانوني قانونا بعدم وجوب خروج السلطان العثماني إلى الحملات العسكرية، وأجاز للجيش العثماني ومنهم الانكشارية بالقتال تحت إمرة قائدهم الأكبر، وهكذا لم يشهد المجال العسكري في عهد السلاطين الذين خلفوا سليمان القانوني أي توسع عسكري كبير يستحق الذكر، حيث أنهم وبسبب التغيير الذي حدث في خروج

7- أبو حنيفة(80 - 150هـ/699 - 767م): هو النعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة، فقيه وإمام مسلم من أصل فارسي، منهجه الأخذ بالكتاب والسنة واجتهاد الصحابة. أنظر: نصار وزملاؤه، مرجع سابق، ص65.
¹E.Clout,op.cit,p285.

³ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص67.

⁴ - وقام بتقسيم الجيش الانكشاري إلى ثلاث فرق، وجعل مرتب كل نفر من الفرقة الأولى من ثلاثة قروش إلى سبعة قروش يوميا والثانية من ثمانية قروش إلى تسعة قروش يوميا للنفر الواحد وفي الفرقة الثالثة التي تتألف من الذين أصيبوا بعاهات دائمة جعل مرتب الواحد منهم ثلاثين قرشا إلى مائة وعشرين قرشا شهريا أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص251.

⁵ - نفسه، ص251.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

السلطان إلى ساحة المعركة ، استطاع الانكشارية أن يتمردوا على أوامر قائدهم العسكري في أكثر من مرة¹.

وقد قفزت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان إلى الصف الأول من بين الدول الأوروبية البحرية الكبرى في حوض المتوسط ، وأثبتت الدولة العثمانية أنها تملك الكثير من مقومات الدولة البحرية² منها شخصيات بحرية ذات كفاءة عالية ، مثل خير الدين بروس³ وبفضل هذه القوة البحرية استطاع أن يستولي على جزيرة رودس⁴ وأن يكون للأسطول عدة قواعد بحرية في المتوسط⁵.

2- الشخصيات المعاصرة للسلطان سليمان القانوني:

أ/في الدولة العثمانية و العالم الإسلامي:

عاصر السلطان سليمان القانوني شخصيات عثمانية خلدها التاريخ ، حيث أسهمت في سياسة هذا الأخير وأضافت إليها الكثير وساهمت في إيصال الدولة العثمانية إلى الذروة من بينهم الصدور العظام⁶ بيري محمد باشا ، إبراهيم باشا¹ ، الذي كان ضحية مؤامرات

¹ - أحمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة ، الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية ، مجلة التربية والتعليم ، المجلد 17 ، العدد 2 ، الكويت 2010 ، ص 73.

¹ - محمد فريد بك المحامي ، مرجع سابق ، ص 153.

³ - خير الدين بروس : هو بحار وقبطان عثماني (1467 - 1546م) اشتغل بالتجارة في بحر ايجة ثم عمل لدى السلطان محمد الحفصي صاحب تونس ، وقد أقام بعد ذلك علاقات وثيقة مع العثمانيين وفي عهد السلطان سليم الأول عين خير الدين واليا على الجزائر ولما قبل أخوه عروج بعث خير الدين رسالة إلى السلطان سليم يطلب منه الارتباط بالدولة العثمانية فقبل السلطان ذلك ومنح خير الدين رتبة بيلربك. أنظر : ثريا فاروقي ، مرجع سابق ، ص 85.

⁴ - هارولد لامب ، سليمان القانوني ، شكري محمد نديم ، شركة النبراس ، بغداد ، 1961 ، ص 77.

⁵ M.Leopold Von Ranke, histoire des Osmanlis et de la monarchie Espagnole pendant les siècles 16^{eme} et 17^{eme}, traduite de L'Allamand J.B.Haiber, Librairie editer, Paris, 1839.p20.

⁶ - أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك ، مرجع سابق ، ص 240.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

البلاط السلطاني² نتيجة الصلاحيات الواسعة³ الذي منحها له السلطان سليمان القانوني مما جعله عرضة للمؤامرات من طرف العائلة المحيطة بالبلاط على رأسهم روكسلانا⁴

وشخصيات أخرى مثل لطفي باشا، وصوكوللو محمد باشا، ومن شيوخ الإسلام المعروفين زنبلي علي أفندي، كمال باشا زادة،⁵ جوي زادة، ثم بالأخص شيخ الإسلام أبو السعود أفندي⁶، ومن رجال الدولة المعروفين في عهده خير الدين بربروس، قوجة نيشانجي، جلال زادة مصطفى سيدي بك وجعفر آغا، من رجال العلم والتصوف من رؤساء الطريقة النقشبندية⁷ الحاج محمود بداهشي، الشيخ بعلي أفندي، الحاج درويش محمد أفندي

¹ - روبرمانتران، مرجع سابق، ص 231.

² - عين في الصدارة العظمى سنة 929هـ/1523م بعد حملة رودس 1522م مكان بييري باشا يعود له الفضل في الانتصارات العثمانية في فارس وأوروبا أعدمه السلطان بسبب اتهامه بالطمع في العرش. أنظر: نصار وزملاؤه، مرجع سابق، ص 6.

³ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، "السلطنة الروسية في البلاط العثماني"، مجلة العربي، العدد 283، الكويت، يونيو 1982م، ص 92.

⁴ - روكسلانا: هي زوجة السلطان سليمان القانوني والسيدة الأولى في القصر والدة ابنه سليم، أطلق عليها سلطنة الحريم وخرم سلطان أي السلطنة الباسمة أو الضاحكة وتسمى باسم روكسلان وهو تحريف لكلمة Russolana بمعنى الروسية. أنظر: نفسه، ص 90.

⁵ - كمال باشا زادة: (1468 - 1534 م): وهو أحمد ابن سليمان، عمل مدرسا في اسكوبيا ثم اسطنبول، أصدر فتواه لمحاربة القزلباش عندما كان قاضي عسكر صاحب السلطان سليم في حملته على مصر ويذكر أوليا جلبي أنه تولى منصب القضاء. أنظر: Evliye Celebi, op.cit, p170.

⁶ - سعود أفندي نظرا لموقعه الروحي السامي جعله بطبيعة الحال على علاقة وطيدة ومتمينة جدا بالسلطان سليمان القانوني بل علاقة صداقة كبيرة جدا حتى أن السلطان في رسالته عن حرب سكتوار وحملته العسكرية عليها سنة 1566 كتب يقول: " ... مساعدتي في الظروف الصعبة، رفيق العمر، أخي إلى الأبد، رفيق دربي في فعل الصواب ..."، حتى أنه كان يعتقد أن ما يقوم به أبو السعود يجلب له الحظ والتوفيق. أنظر: أكرم كيدو، مرجع سابق، ص 104، 105.

⁷ - النقشبندية: وهي أكبر الطرق الصوفية وتنسب إلى محمد بهاء الدين النقشبندي الذي نظمها ورتب صفوفها، وأول ما ظهرت في بلاد ما وراء النهرين بين الأوساط الثقافية السنية الراقية ردا على الوثنية المغولية وتحظى النقشبندية بمكانة=

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وقاضي زادة عجم أفندي، ومن المعماريين سنان باشا لكن الرجال العظام ليسوا هؤلاء فقط فغيرهم كثير¹.

أما عن العالم الإسلامي فعاصر السلطان سليمان في آسيا شخصيات إسلامية مهمة كانت تتربع على حكم دول إسلامية ففي الحدود الشرقية غير بعيد في الدولة الصفوية عاصره كل من اسماعيل وطهماسب² الصفوي وفي الهند السلطان بابر³ ثم همايون⁴.

ومن الشخصيات الجديرة بالذكر بعد بابر وهمايون الذين وطدوا أركان الدولة المغولية في الهند والتي لها أهمية تاريخية وحضارية بحيث أسهمت كثيرا في التطور التاريخي للإمبراطورية المغولية وهو جلال الدين محمد أكبر⁵ وفي لاهور عاصره الشاه محمد حسين¹

اريخية هامة نظرا لدورها في تدعيم المذهب السني في مناطق ماوراء النهر و إيران. أنظر: إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 185.

¹ - أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص 241.

² - طهماسب: تولى الشاه طهماسب الأول الحكم في إيران عام 131هـ/1524م وعمره لا يتجاوز 11 عاما لذلك تولى زعماء القزلباش (ذوي الطرايش الحمر) الوصاية عليه إلى أن بلغ سن الرشد، نجح الشاه الجديد في السيطرة على أمور البلاد، بعد أن شارك فعليا في توجيه إدارة البلاد فاستقرت الأحوال الداخلية مما جعله يتفرغ إلى مواجهة الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب انظر عبد العزيز سليمان نوار، مرجع سابق، ص 235.

³ - بابر: مؤسس السلالة المغولية في دلهي (1526 - 1530) ويعني اسمه النمر ينحدر من سلالة تيمورلنك وجنكيز خان تمكن من الإستلاء على سمرقند وفرغانة وأكبر بلاد الهند مثل لاهور وشمال الهند، ويعتبر بابر من عظماء التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ الهند بصفة خاصة. انظر: Allen.W.E.D, Turkish power in sixteenth century central Asian, Asian Research Center, London, p 65.

⁴ - همايون: تولى الحكم عام 1530م استطاع الانتصار على إخوته بعد نجاحه في التحالف مع الشاه طهماسب الصفوي في إيران. انظر: نظام الدين أحمد بخشي الهروي، الطبقات الكبرى، ترجمه ووضع حواشيه أحمد بن عبد القادر الشاذلي تحت عنوان المسلمون في الهند من الفتح العربي حتى الاستعمار البريطاني، ج 1، القاهرة، 1995، صص 514، 520. نقلا عن ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 308.

⁵ - جلال الدين محمد أكبر (1556 - 1605م): هو ابن السلطان همايون حاز شهرة واسعة في المجال العسكري، لقب بالشاهنشاه بعد أن استطاع توحيد الهند تحت سيطرته وأخضع قبائل السند وبلوچستان وقندهار والبنغال وأنشأ

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ب/ في دول أوروبا :

عرف عهد السلطان سليمان القانوني بالعصر الذهبي للدولة العثمانية، ففي عهده بلغت الدولة أقصى اتساعها وأوج مجدها² وإذا كان العثمانيون قد لقبوا السلطان سليمان بالقانوني لكثرة ما صدر في عهده من قوانين، فإنّ الأوروبيين لقبوه بسليمان العظيم لآفته استطاع بالإضافة إلى علمه وتشجيعه للفنون وكثرة ما بلغ من توفيق استطاع أن يحتفظ بهيبته³ في عصر كان يعاصر فيه في أوروبا كل من أسرة الهابسبورغ⁴ بزعامة شارل الخامس⁵ الذي كان يعلن مرارا عن عداوته للدولة العثمانية التي عملت على التوسع في أوروبا.

وفي عهد سليمان القانوني أراد شارل العاشر أن يوحد المسيحيين بتحالفات صليبية⁶ في وجه العثمانيين الغزاة على الامبراطورية الرومانية المقدسة من الناحية

=نظاما سياسيا وإداريا وعسكريا أو اهتم بالجيش، وأقام دار لصناعة السلاح، وازدهرت في عهده الحركة الفكرية بالهند. ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 310.

¹ - ابراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 96.

² - محمود محمد الحويري، مرجع سابق، ص 9.

³ - عبد الطيف هريدي، مرجع سابق، ص 59.

⁴ - أسرة الهابسبورغ: وهي أسرة من أصل سويسري نمساوي كان ينتخب أعضاؤها منذ أواخر القرن 13م كأباطرة لألمانيا وهو لقب ينطوي على الهيبة والمكانة لكنه ذو سلطة محدودة، وبحلول النصف الثاني من القرن 15م، اكتسب رأس أسرة الهابسبورغ حق المطالبة التقليدية بالامبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية، وسيطرت هذه الأسرة أيضا على الأراضي الهولندية المعروفة حاليا ببلجيكا وهولندا. أنظر ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 84.

⁵ - شارل الخامس (1516 - 1555م): من أهم الشخصيات المعاصرة للسلطان سليمان القانوني، تولى عرش الإمبراطورية الألمانية المقدسة وبالتالي تولى مهام التصدي للزحف العثماني ومواجهة استراتيجية سليمان القانوني نحو أوروبا الوسطى، تنازل عن العرش لابنه فليب الثاني. أنظر: M.Leopold Von Ranke, op.cit, pp111-118.

⁶ Ibid, p114.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الشرقية¹ وعاصره ملوك آل بوربون في فرنسا الذين سوف يدخلون في علاقات صداقة مع السلاطين العثمانيين بداية من سليمان القانوني وفرانسوا الأول² ثم ابن فرانسوا الأول هنري الثاني³. وهنري الثامن⁴ وفليب الثاني⁵ وعاصره كل من مارتن لوثر⁶ وكريستوف كلومبوس⁷

¹ - إدريس الناصر رائسي، مرجع سابق، ص 69.

² - فرانسوا الأول (1515 - 1544م): أول ملوك فرنسا من أسرة فالوا التي حكمت فرنسا في بداية العصر الحديث، عقدت في عهده معاهدة الصداقة الفرنسية العثمانية 1535. ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 85.

³ - هنري الثاني: ملك فرنسا ما بين (1547 - 1559م). أنظر: W.E.D.Allen, op.cit, p 66.

⁴ - هنري الثامن (1491 - 1547م): هو أحد ملوك إنجلترا (1509 - 1547م)، خاضت إنجلترا في عهده عدة حروب خارجية ضد فرنسا منذ 1513 وتجددت في عام 1522، وعندما كانت الحرب دائرة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس أنجاز هنري الثامن إلى إسبانيا من ثم حول نظره نحو فرنسا حفاظا على مبدأ التوازن الدولي بالإضافة إلى ادوارد السادس (1547 - 1553م) وماري الأولى (1553 - 1558م) و اليزابيث الأولى (1558 - 1603م) التي سوف تشهد حكمها علاقات تجارية مع الدولة العثمانية. عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1947. صص 186، 187.

⁵ - فليب الثاني (1527 - 1598م): ملك اسبانيا ونابولي وصقلية (1547 - 1598) أنظر: M.Leopold Von Ranke, op.cit, pp124-140.

⁶ - مارتن لوثر (1483 - 1546م): مؤسس المذهب البروتستانتي. محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 205.

⁷ W.E.P.Allen, op.cit, p64.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

المبحث الثاني: التقارب العثماني-الفرنسي في عهد سليمان القانوني.

1- التحالف العثماني الفرنسي بين التكامل والتعارض:

أ/ أهداف التحالف العثماني -الفرنسي:

لا شك أنّ عهد السلطان سليمان القانوني من 1520 حتى عام 1566 عهد العالمية للدولة العثمانية، حيث لم تعد هناك في السياسة الدولية آية مسألة لا تعني العثمانيين لهذا أطلق على عهده نظام القوّة والهيمنة الإسلامية، أي الدور العالمي الذي أدته الدولة العثمانية من خلال سياستها الخارجية التي قامت على استغلال أوضاع أوروبا والتدخل في شؤونها واتخاذها ذرائع لتحقيق أهدافها ومشاريعها التوسعية في النصف الأوّل من القرن السادس عشر ميلادي، الذي سجل فيه ظهور الدولة العثمانية كقوّة أوروبية وتجلّى هذا خاصة بعد سياسة التحالف والوفاق الفرنسية العثمانية¹.

هذا التحالف ظهر كنتيجة حتمية للأوضاع السائدة، ففي 1519 م برز شارل الخامس من آل هابسبورغ وفرنسوا الأول ملك فرنسا كمرشحين لتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة²، وقد وعد كل واحد منهما بهذه المناسبة أن يستنفر كل القوى الأوروبية ضد العثمانيين، وقدّر أنّ هذه الهيئة المنتخبه قررت أنّ شارل الخامس هو الأفضل لنيل هذا التاج³، ولكن بعد الانتخابات بفترة قصيرة في مارس 1521م اشتعلت الحرب بين هذين العاهلين الأوروبيين⁴، وهكذا جاء هذا الانقسام الأوروبي لصالح العثمانيين ولصالح سياستهم الخارجية في المنطقة⁵.

¹ - سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية(النشأة- الإزدهار) وفق المصادر العثمانية والدراسات التركية الحديثة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 1428هـ/2007، ص20.

²R.B.Merriman,op.cit, p 127.

³Melin Kunt and Christine Woodhed,Suleyman the Magnificent and his Age ,Longman , London,1995,p43.

⁴ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص36.

⁵ - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 58.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ومن هنا نشأ التقارب العثماني الفرنسي في خضم الصراع الفرنسي النمساوي، اتفق خلاله السلطان سليمان القانوني وفرنسا على العمل على هزيمة شارل الخامس، فالصداقة الفرنسية العثمانية ليست سوى نتائج وقائع الحال¹، أي أنّ كل واحدة من هاتين الدولتين كانت تمارس هيمنتها داخل دائرتها الخاصة (أوروبا الغربية لفرنسا وأوروبا الشرقية للدولة العثمانية)، وذلك دون حصول صدام بينهما أو تهديد أي منهما لمصالح الآخر².

قامت السياسة الفرنسية على مناهضة أسرة الهابسبورغ الملكية استطاع السلطان سليمان أن يخطوا خطوات بعيدة في سبيل تنفيذ خطته ضد جارتها الشمالية والحقيقة أنّ العلاقات الودية ما لبثت أن نشأت منذ ذلك الحين بين بلاطي باريس واستانبول³. فيما يخص العلاقات الدبلوماسية أسست بصورة مستمرة مع تمثيل منفرد⁴ (من جانب واحد وهو فرنسا) في الدولة العثمانية، فالملك الفرنسي أولّ عاهل أوروبي في القرن السادس عشر يمثله سفير مقيم في الباب العالي وأول من استلم المهمة هو جون دي لفوري⁵. كما استفادت الدولة العثمانية من هذا التحالف لتحقيق أهداف سياستها الخارجية وساعدتها الأوضاع الأوروبية القائمة على التشاحن خاصة بين الهابسبورغ والفرنسيين⁶، حيث كانت المملكة الفرنسية محاطة بأراضٍ يسيطر عليها ملك إسبانيا والحاكم النمساوي

¹ - ويظهر في سعي فرنسا في استمالة الدولة العثمانية الإسلامية وبذل الجهد في محالفتها مع كون فرنسا تعتبر لدى البابا أول الدول الكاثوليكية وأهمها محافظة على عدم تقدم الإسلام بأوروبا إلا أنّ بلوغ الدولة العثمانية العالمية صار وجودها ضروريا لحفظ التوازن السياسي بأوروبا والتحالف معها ضرورة حتمية. أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 204.

² - إدريس الناصر رائسي، مرجع سابق، ص 95.

³ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص 451.

⁴ - محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، 1954، ص 295.

⁵ - جون دو لفوري: Jean De La foret، نسبه إلى أسرة la foret التي لعبت دورا كبيرا ومهما في سياسة فرنسا منذ

1536م. أنظر: Gabriel De Mim, Deux ambassadeurs au Constantinople 1604, 1614, Plon, Paris, 1902, p4.

⁶ E.Charriere, Negociations de la France dans le levant, collection de documents inedits sur l'histoire de France, T1, Paris, 1840-1860, p210.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

فرديناند الأول الذي عين إمبراطوراً في الفترة 1566-1564 م مع وجود هولندا شمالها وإسبانيا جنوبها والإمبراطورية المقدسة على حدودها الشرقية¹.

وقد حاول فرنسوا أن يحد من هذه القوة ويوازنها عن طريق سلسلة من الحروب والتحالفات الإستراتيجية ولم تكفل كل حروبه ضد الهابسبورغ بالنجاح بل العكس من ذلك ففي عام (1525-1532) في موقعة بافيا²، تمّ أسر ملك فرنسا ولم يتم إطلاق سراحه إلاّ بعد تقديم تنازلات³ سياسية كبيرة ودفعت فدية ضخمة مقابل حريته، وقد جعل هذا الوضع الصعب الملك الفرنسي راغباً في توقيع اتفاقيات مع السلطان العثماني سليمان القانوني⁴ عدّة مرّات خلال العقدين (1538-1539) و (1546-1549)⁵.

أما فيما يخص العثمانيين وتطلعاتهم من إقامة تحالف مع الفرنسيين هو تسهيل السياسة التوسعية العثمانية، حيث اقتنعت وعملت الإدارة العثمانية البراغماتية على إقامة تحالف مع الفرنسيين. فهذا التحالف مع فرنسا في نظر العثمانيين يعدّ بمثابة حجر الزاوية في سياستهم الأوروبية من أجل مواجهة شارل الخامس الذي أعلن دائماً أنّ هدفه الأساسي هو القضاء على الدولة العثمانية⁶ في المقابل كان سليمان القانوني ينظم مقاومة الزحف العثماني على

¹ شارل كان حاكم النمسا كان في آن واحد ملكاً لإسبانيا والبلاد المنخفضة وإمبراطوراً لألمانيا وحاكماً لجزء هام من إيطاليا الجنوبية وكانت جمهورتي جنوا وفلورنسا تابعتين إليه وجمهورية البنادقة طوع أمره ومدينة وهران بإقليم الجزائر الغرب تابعة له وكذلك جزيرة مينورقة وصقلية. أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 208.

² حيث وقع ملك فرنسا في مازق وكان المنفذ الوحيد أمامه هو التحالف مع العثمانيين لإنقاذ العرش الفرنسي بضرب شارل الخامس، كما أنه يحقق رغبة فرنسا في ولوج تجارة الشرق ومنافسة إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تنشطان حركة تجارية واستعمارية في الهند والعالم الجديد، أنظر: كمال حسنة، العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث 1789-1807م، إشراف عائشة غطاس، جامعة الجزائر، 2005، 2006، ص 17.

³ يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 268.

⁴ هارولد لامب، مرجع سابق، ص 118.

⁵ ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 85.

⁶ يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 267.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

النمسا وقلب أوروبا¹، وقد توجهت الدولة العثمانية إلى هذا التحالف من أجل تحقيق جملة من الأهداف على رأسها توسيع نطاق نفوذها نحو وسط أوروبا².

كما كان هدف السياسة الخارجية العثمانية في هذه المرحلة إضعاف الهابسبورغ وإبقاء أوروبا منقسمة والحيلولة دون شن حرب صليبية³ جديدة موحدة ضدها، فعدم قيام تحالف أوروبي تجنبا للحملات المتكررة والمتتالية على العثمانيين، وعلى الرغم من هزائمهم إلا أنهم كانوا يواصلون جهودهم ضدهم، وبالتالي التعاون مع فرنسا سيضمن للسلطان سليمان القانوني استقطاب واحدة من أهم القوى الأوروبية النشيطة لتكون حاجزا أمام أي اتحاد صليبي⁴ وكان التعاون مع فرنسا سبيلها الأساسي لذلك⁵.

وإلى جانب الصراع الديني الذي تفجر في أوروبا كانت فرنسا هي الطرف الأوروبي الأساسي الذي استحث سليمان للهجوم على المجر والإمبراطورية النمساوية⁶. وقد رأى العثمانيون بدورهم أيضاً أنّ التحالف مع الفرنسيين أفضل وسيلة لكي لا تسيطر قوّة واحدة على أوروبا.

¹ -نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوّة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص 26.

² R.B.Merriman, op. cit, p131.

³ - لم تنجح الدول الأوروبية في شن حرب صليبية موحدة تقضي على الدولة العثمانية فقد كان عليها أن تبني علاقاتها معها وهي المتغلغلة في قاراتها والمسيطرة على القسم الأعظم من حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يحدها جنوبا. أنظر: ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 140.

⁴ - محمد حرب، "حملات سليمان القانوني"، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 55 - 56، الرياض، رجب 1402هـ، صص 229، 241.

⁵ - لوثر ستوارد، مرجع سابق، ص 230.

⁶ E.Clout, op. cit, p171.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

أما على صعيد آخر فإن استراتيجية القانوني كانت تهدف إلى جني ثمار أخرى من تحالفه مع فرنسا وهي دعم التجارة¹ في حوض البحر المتوسط من خلال الإتجار معها كطرف أوروبي، حتى يعيد الحيوية للبحر المتوسط ومكانته الاستراتيجية التي فقدتها إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وبالتالي منافسة التجارة البرتغالية التي أوجدت لنفسها طريقا جديدا واحتكرته للاستحواذ على تجارة الشرق².

ومن جهة أخرى فإن السلطان سليمان القانوني وظف علاقاته الأوروبية لحل بعض وجوه الأزمات الاقتصادية داخل الدولة العثمانية³، وذلك عن طريق سياسة حرية التجارة التي منحها للفرنسيين مع بعض الدول الأوروبية⁴.

لم تكن الدولة العثمانية في تحالفها مع الفرنسيين تنطلق من حسابات سياسية واقتصادية مع الدول الأوروبية فحسب، بل كانت تنطلق من إدراك ووعي لطبيعة المنافسات الخارجية بين القوى الأوروبية⁵ في هذه المرحلة التاريخية التي تعد الحلقة الأولى للتنافس الاستعماري⁶، في نفس الوقت الذي لم يكن لفرنسا قوة بحرية كبيرة فلقد اعتقدت أن

¹ - الكيلاني شمس الدين، "العثمانيون والأوروبيون في القرن السادس عشر"، مجلة الإجتهد، العدد 43، السنة 11، بيروت، 1999، ص121.

²Gabriel De Mim,op.cit,p3.

³ - كافح العثمانيون أمدا طويلا لإيقاف الأضرار اللاحقة بالشرق الأدنى على إثر التغيير في الطرق التجارية العالمية، فضموا مصر وبغداد والبصرة وعدن ومسقط إلى ممالكهم، وسيروا الحملات البحرية إلى المحيط الهندي، ونجحوا في تحويل تجارة العبور (الترانزيت) إلى الشرق الأدنى بعدما تعرضت إلى الانقطاع في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فدبت فيها الحياة أواسط القرن نفسه.أنظر: أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص403.

⁴S.Creasy,op.cit, p208 .

⁵R.B.Merriman,op.cit,p127.

⁶ - فلقد كانت المنافسة على التجارة وعلى المستعمرات في العالم الجديد على رأس أسباب الحروب بين الدول الأوروبية، وفي حين كانت هولندا وإنجلترا أقوى الدول البحرية التي استطاعت تحدي احتكار اسبانيا والبرتغال للأراضي والطرق البحرية الجديدة المكتشفة، كانت فرنسا وروسيا قد بدأت في التنافس على النفوذ في أوروبا والشرق الأدنى. أنظر: نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص33.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الشرق الأدنى يعتبر مجالا مناسباً للتوسع الاقتصادي من أجل تدعيم أركانها والتخلص من الحصار الإمبراطوري عليها¹.

ونتيجة لانعدام التكافؤ في ميزان القوى بين الفالوا والهابسبورغ لم تجد فرنسا إلا الدولة العثمانية لتحقيق التوازن بين القوى في أوروبا² على الرغم من جهود البابا المكثفة ليؤلف بين الإمبراطور الإسباني والملك الفرنسي ويوحد حركتهم للحرب ضد العثمانيين، ولكن جهوده كلها باءت بالفشل³، ومن هنا لعبت الدولة العثمانية دورها في تشكيل التوازن في أوروبا واستغلال المواقف لصالحها وفي المقابل رؤية فرنسا وملكها فرنسوا الأول نحو الدولة العثمانية⁴ باعتبارها القوة الوحيدة التي تضمن استمرار الدول الأوروبية القائمة والمنتافسة مع الإمبراطور شارل الخامس⁵، والذي أحاطت إمبراطوريته بفرنسا من جميع الجهات⁶.

ب- بداية المراسلات و مواقف الدول الأوروبية :

أدت كل هذه الأوضاع السائدة في أوروبا وخاصة في فرنسا إلى ظهور التحالف الفرنسي العثماني على مسرح السياسة الدولية، وقام بهذه المبادرة البلاط الفرنسي أثناء أسر ملكهم في مدريد خاصة بعدما تعرّضوا إلى خطر كاد يقضي عليهم، فالإسبان في الجنوب والانجليز في الشمال، وقائد عام البروتون يحرص البروفانس على الثورة وباريس مهددة، ونتيجة لهذا الحصار الشديد الذي كانت تعاني منه فرنسا⁷ على الصعيد السياسي و العسكري والاقتصادي، جعلها تستنجد بالدولة العثمانية لفق ذلك الحصار⁸.

¹Kamal karpat,The Ottoman state and it's place on the world history ,E.G.Brill ,Leiden, 1974,p8.

²E.Clout,op.cit,p171.

7- روبر مانتزان، مرجع سابق، ص226.

⁴R.B.Merriman,op.cit,p50 .

⁵H.D.De Grammont,La France et la regence D'Alger,Adolphe Jourdan,Alger,1879,p5.

⁶ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص208.

⁷J. Ursu, La politique orientale de François I, 1515-1547,imprimerie F.Paillart,Paris, 1908 , p34.

⁸E. Clot,op.cit, p205.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وبأسر الملك الفرنسي فرانسوا الأول في معركة بافيا¹ في 1524/02/24م أيقن بضرورة الاستنجاد بالسلطان سليمان القانوني، ففي وجهة نظر الفرنسيين لم يكن يوجد أي طرف ليلعب هذا الدور سوى العثمانيون الذين كانوا يسيطرون على أجزاء كبيرة من إفريقيا وآسيا وأوروبا وقواتهم تهدد النمسا²، وأسطولهم يسيطر على شرق المتوسط،³ فبين الفرنسيين والعثمانيين ليس هناك من اختلاف وتضارب، فالمصالح واحدة والأعداء هم أنفسهم والحاجات هي نفسها، ويتطلعون إلى أهداف مشتركة بسبب وزنهم ومكانتهم العسكرية⁴.

وقد بدأت مرحلة الاتصالات العثمانية الفرنسية حيث دارت مباحثات بين الملكة الأم لويزا سافوا الوصية على العرش الفرنسي وبين السلطان سليمان القانوني⁵، بهدف التعاون ضد العدو المشترك وقد اتخذت الملكة هذا القرار عقب هزيمة بافيا فكان عليها وجوب النظر إلى البعيد والبحث عن منجد أكثر قوة فلم يكن أمامها سوى الاتجاه إلى الدولة العثمانية⁶.

لذلك غادر السفير الفرنسي محملاً بهدايا ثمينة، إلى الباب العالي ولكن هذا السفير لم يصل⁷، بل قبض عليه حاكم البوسنة أثناء مروره قاصداً الأستانة وقتله وأتباعه⁸ وسرعان ما أرسل بلاط فرنسا بعثة أخرى كان يقودها المبعوث جون فرنجبياني التي كانت في أواخر سنة

¹R.B.Merriman,op.cit,p82.

² - محمود محمد الحويري، مرجع سابق، ص9.

³ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج1، ص78.

⁴De LA Jonquière, Histoire de l'empire Ottoman, Paris, 1871, pp222- 223 .

⁵J.V.Hammer-Purgstall, op. cit, T5, p474.

⁶E. Clot,op.cit, p 206.

⁷ - الباب العالي: مبنى كبير فخم لا يفصله عن سراي السلطان إلا زقاق أنشئ في عهد السلطان العثماني محمد الثاني ويعبر عنه بالتركية طوب كابي أنظر: حسان حلاق وعباس صباغ، سبق ذكره، ص27.

⁸ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص208.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

1525¹، حيث وصل هذا الأخير محملاً برسالة من الوصية بالعرش²، وأخرى من فرنسوا الأول إلى السلطان العثماني³ الذي طالب في رسالته بمهاجمة ملك المجر⁴ حليف شارل الخامس، كي يمنعه من تقديم المساعدة له، وبذلك يمكن لفرنسا أن تنصر عليه وتسترد ما فقدته من شرفها في موقعة بافيا⁵.

واستقبل السلطان سليمان سفير فرنسا يوم 6 ديسمبر 1525 باحتفال كبير وأجزلت له العطايا وهذا بعد أن عرض عليه مطالب ملكه، وبعد محادثات بينهما أبدى السلطان استعداداً لمساعدتهم من خلال محاربة المجر، ولم يكن ذلك عن طريق معاهدة بينهما بل اكتفى السلطان بأن كتب لملك فرنسا رسالة⁶ رائعة في صيغتها أظهر فيها استعداده لمساعدته⁷.

لقد استقوت فرنسا بالسلطنة العثمانية على الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث بدأ مع السلطان سليمان القانوني ولعدة قرون بعد ذلك تعاون عثماني فرنسي يحركه عداة مشترك لأسرة الهابسبورغ⁸، وإذا كان هذا النمط من العلاقات المسيحية الإسلامية، أي

¹E.Charrière. op. cit,T1, p110.

² - فرنجيباني Jhon Frangipani: هو نبيل من أصل كرواتي، عمل كدبلوماسي لفرنسا في فترة حكم فرنسوا الأول

لدى الدولة العثمانية.أنظر: R.P.De Rusas , Le regime des capitulations dans l'empire Ottoman ,

Echos D'ort,Paris,1906,p60-61

³ - أتت سليمان القانوني رسالة استعطاف ورجاء ممزوجة بالخضوع من والده ملك فرنسا الأسير لدى شارل الخامس إثر معركة بافيا تخاطب السلطان قائلة: "أتضرع اليك أيها الإمبراطور العظيم لإظهار كرمك أن تعيد إلي ولدي". أنظر: نص الرسالة كاملة هارولد لامب، مرجع سابق، ص118.

⁴ - وفي 25 نيسان 1526 سار على رأس جيش قوامه 100 ألف جندي و300 مدفع لمهاجمة المجر. أنظر: علي

حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1998، ص70.

⁵J. Ursu ,op.cit, pp31-35.

⁶R. P. Rausas,op.cit,p83.

⁷R. B. Merriman,op.cit,p133.

⁸J.Urusu,op.cit,p34.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

إستقواء طرف مسيحي على آخر بالتحالف مع طرف إسلامي متغيرات جديدة التي اكتسب معها الدور العثماني في التوازنات الأوروبية خلال القرن السادس عشر¹.

إن سليمان القانوني كان يواجه أطرافا أوروبية جديدة، وذلك بعد أن انتقل التوازن الأوروبي إلى ممالك غرب أوروبا وكانت هذه الممالك تدخل طورا جديدا في تطورها نحو دعم قواها الذاتية ونحو تغيير توازن القوى مع العالم الإسلامي²، فمن ناحية كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد دعمت من وحدة مملكتها، كذلك شهدت فرنسا و إنجلترا درجات متقدمة من تركيز القوة والسلطة والموارد بعد أن طال توزيعها وتمزقها بين القوى الإقطاعية الداخلية المتصارعة³.

يستدل مما سبق أن هذا التحالف أثار الرأي العام المسيحي ولم يثر الرأي العام الإسلامي⁴، ومن خلال تتبعنا للعلاقات العثمانية الفرنسية نجد لا فرنسوا الأول ولا السلطان سليمان القانوني هم الأوائل المتحالفين بل سبقهم إلى التحالف والتعاون المشترك بين العالم المسيحي والإسلامي⁵ في بعض القضايا السياسية والعسكرية رغم فترات الصراع

¹ - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص26.

² - نفسه، ص27.

³ - إدريس الناصري رائي، مرجع السابق، ص96.

⁴ - إذ لم يشر إليها المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون بقليل أو كثير، واعتبرها المؤرخون الأتراك حادثا عاديا

كغيره من الحوادث التي كانت تعيشه الدولة العثمانية.أنظر: ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج1، ص209.

⁵ - الفرنسيون في مصر زمن السلطان المملوكي قانصوة الغوري سنة 1507م، أنظر: E.Charriere, op.cit, T1،

p121.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الطويلة والمخيمة عليها مثل تعاون البابا انوست السابع،¹ عندما أبقى الأمير جم وهو أخ السلطان بايزيد الثاني رهينة عنده مقابل مبلغ أربعين ألف دوكا².

ومن مظاهر التحالف تشجيع ألكسندر السادس الذي شجع ألفونسو دي نابل التحالف مع العثمانيين ضد الملك الفرنسي شارل السابع³ ولدوفيتش دي مور الذي تعاون مع السلطان في الحروب الإيطالية⁴، كما طالب الأمراء المسيحيين في مراحل عديدة ضغط الحكام الصفويين ضد العثمانيين وسبقه بافيا، ومن مظاهر ذلك رسالة شارل الخامس لظهماسب مفادها طلب التعاون معهم ضد السلطان سليمان القانوني.

لكن فرنسوا بقي دائماً قلقاً بشأن الحفاظ على صورته المتحمسة جداً للمسيحية، في مقابل واجبه الأول هو حماية الحدود⁵. وفي الوقت العصيب حدثت مفاجآت كبرى في السياسة الدولية، إذ بينما ينتظر الرأي العام في دول وسط أوروبا وغربها متخوفاً من الامتداد العثماني أن يجرف معه مقر البابوية ويدخل روما ويحول كنائسها إلى مساجد، إذ يحدث التقارب بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول الذي تحول إلى تحالف.

¹A. Charles, "Catholic and Sultan, the church and Ottoman Empire 1453-1923", *revue Française d'histoire d'outre mer*, T72, n°268, 3^{eme} trimestre, 1985, p367.

² - الدوكا Duka: عملة كانت متداولة في كل من البندقية وفرنسا وتصلك من الذهب والفضة وكانت هي الأكثر رواجاً بين التجار الذين يجوبون الديار العثمانية بالرغم من وجود وتداول العملات التي كان يسكنها العثمانيون. أنظر:

Evliya celebi, op.cit, p26.

³ - شارل السابع: ملك فرنسا ما بين (1483 - 1498م) أنظر: W.E.D.Allen, op.cit, p67.

⁴Jean Pierre Bors, op.cit, p138.

⁵E.Clout, op.cit, p176.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

قابلت الجماهير الأوروبية ذلك التحالف باستنكار شديد، واعتبرته بدعة منكرة في العلاقات الدولية من حيث المبدأ والتوقيت والمصدر الذي صدر عنه هذا التحالف¹، وأمام ضغط الرأي العام الأوروبي كان ملك فرنسا يحاول التحالف مع السلطان سليمان القانوني لينقض العهود ثم يعود من جديد لاستجداء عطف وتأيد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأي العام الأوروبي فيتراجع مرة أخرى ويعود إلى حظيرتهم². ورغم عدم التزام فرنسا بعهودها مع الدولة العثمانية³ وكثرة نقضها لها، إلا أنّ كسبها كحليف وتابع للعثمانيين بحكم موقعها الاستراتيجي وسط إمبراطورية الهابسبرغ، يدفع الدولة العثمانية أن لا تفوت الفرصة للاستفادة منها سياسيا وعسكريا⁴ ولو بصورة متقطعة ومتذبذبة.

لا شك أنّ نظرية التوازن الدولي التي بدأت تستقر آنذاك هي التي فرضت عدم الالتزام بالأهداف الدينية ومرد ذلك أولا للمصالح الجيوسياسية للدول الأوروبية، إذ أنّ التحالفات التي تمت وسوف تتم بعد ذلك بين الدولة العثمانية وفرنسا⁵ تقابلها محاولات أخرى من جانب الدولة الصفوية⁶ للتحالف مع دول أوروبية أخرى، وهي تحالفات من النوع السياسي الذي يضع الأهداف السياسية⁷ فوق الأهداف الدينية، وإن كان هذا الموضوع

¹ - من حيث المبدأ لم يكن القرن السادس عشر يعترف بالتسامح حتى يعترف بالتعاون الإسلامي - المسيحي والتوقيت لأن الكنيسة كانت تجتاز فترة من أخطر الفترات. أنظر: جلال يحيى، تاريخ أوروبا الحديث، دار المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، 2014، ص725.

² علي حسون، مرجع سابق، ص75.

³ J. Urusu, op. cit, p95.

⁴ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص288.

⁵ E. Clot, op. cit, p184.

⁶ - إذا كان سليمان قد مّدّ يده إلى فرنسوا الأول لمحاربة الامبراطورية المقدسة فإنّ شارل الخامس سيمد يده إلى فارس الصفوية وفيما بين عامي 1525 - 1545 عاود شارل المفاوضات مع الصفويين المرة بعد المرة بافتراض التنسيق بين المسيحيين والصفويين للوقوف في وجه سليمان القانوني. أنظر: شمس الدين الكيلاني، مرجع سابق، ص122.

⁷ Charles Hoch, la question d'orient, Smndoz et Fischbacher, Paris, 1877, p160.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

محل جدل وحوار طويل، فالكل في نفس الوقت لهم أهدافهم الدينية والسياسية وليس من اليسير القول بأنهم غلبوا هذا العامل على ذلك أو العكس¹.

أما بالنسبة للسلطان العثماني سليمان القانوني فلم يكن هناك ثمة معارضة كبيرة أو أخلاقية بين المصلحة العليا لدولته وبين نزعته الدينية كحاكم مسلم، وتفوقه² وكان دائما ينظر السلطان إلى الإمبراطور شارل الخامس وأخيه فرديناند على أنّهما العدوان الرئيسيان³، وكان يرى أنّ الانتصار عليهما عسكرياً واجتياح أراضيها وإخضاعها لحكم الدولة العثمانية لا يتمّ إلا باستغلال كل الظروف السياسية الأوروبية.

على العموم الصلات بين فرنسا والدولة العثمانية في القرن السادس عشر كانت أكثر من ودية، ومع أنّ العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية دعمت في سنتي 1528-1535، بمعاهدتين تجاريتين⁴، كان لهما صداهما الكبير في وسط أوروبا المسيحية، إذ أن عمل السفير الفرنسي كان يهدف في الدرجة الأولى إلى تمتين العلاقات السياسية والعسكرية،⁵ بين الدولتين وتأكيد التحالف بين الدولتين، بل إن تعليمات الملك فرنسوا الأول، إلى دي لافوري تهتم بالنواحي السياسية والعسكرية وتأكيدات الصداقة، وطلب المساعدة المالية والبحرية دون التطرق إلى النواحي التجارية⁶.

2- آثار التحالف العثماني - الفرنسي :

أ/ معاهدة الامتيازات العثمانية - الفرنسية 1536م :

¹ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص266.

² - توماس آرلوند، مرجع سابق، ص196.

³ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص268.

⁴ J.M.Carre, Voyageurs et écrivains Français en Egypte, T4, Imprimerie Oriental, Le Caire, sded, p10.

⁵ - خليل اينالجيك، مرجع سابق، ص59.

⁶ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج2، ص553.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

هي سياسة اقتصادية تعبّر عن انفتاح عثماني اتجاه فرنسا بصفة خاصة ودول أوروبا بصفة عامة ومرونة في التفاوض كمبدأ من مبادئ السياسة الخارجية في عهد السلطان القانوني وهي ميزة من مميزات السياسة الخارجية العثمانية، عرفت هذه المجموعة من المعاهدات باسم الامتيازات الأجنبية¹.

أمّا ما يميز المعاهدة العثمانية الفرنسية عن غيرها بأنّها اتفاقية تعاون وصدّاقة² موجهة بالدرجة الأولى ضد أسرة الهابسبورغ ولكنها سمحت للفرنسيين بالحصول على حقوق ومزايا عديدة سميت لاحقاً بالامتيازات الأجنبية³. وكان التجار الفرنسيون يتمتعون بها في مصر زمن المماليك وهي امتيازات كان قد تمّ تجديدها لهذه الولاية من طرف السلطان سليم الأول⁴ ثمّ السلطان سليمان القانوني بعد ذلك لعدّة سنوات متتالية⁵.

مثلت معاهدة 1536م المعاهدة مظهر من مظاهر الانفتاح العثماني نحو أوروبا وفرنسا بالخصوص، وكان الهدف من ورائها هو عرقلة قيام حلف مقدس يعقده العالم الكاثوليكي الأوروبي ضد الدولة العثمانية المنتهجة سياسة خارجية ذو مرجعية وصبغة

¹ - الامتيازات الأجنبية باللغة العربية أو capitulations : هي المعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستأمنين من رعايا الدول الأجنبية في ممتلكات الدولة العثمانية لممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها، أو هي التسهيلات والحقوق التي منحها السلاطين العثمانيين للدول الأجنبية ورعاياها على أراضي الدولة العثمانية في فترات مختلفة أو تلك التي حصل عليها الأجانب نتيجة لضغوطاتهم السياسية والاقتصادية خلال فترة ضعفهم، وقد استمرت تلك الامتيازات الأجنبية إلى غاية الحرب العالمية الأولى. أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2006، ص36.

² E.Charriere,op. cit, T1 ,p283.

³ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص226.

⁴ - وتعود إلى فترة السلطان بايزيد الثاني عام 1508م. أنظر: Colonel La mouche , Histoire de la Turquie depuis les origins jusqu'à nos jours ,Payot ,Paris , p110.

⁵ - فلاديمير يورسوفيتش لوتيسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ط9، بيروت، 2007، ص24.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

إسلامية، فحصل عليها فرانسوا الأول ملك فرنسا الذي هزم أمام الهابسبورغ عام 1525، في وقت كان في حاجة ماسة إلى المساعدة من طرف العثمانيين¹.

لا شك أنّ عقد الاتفاقية يعود إلى ثلاث أسباب رئيسية، وبالتالي شملت جوانب ثلاث وهي: الجانب السياسي والاقتصادي والديني معا²، ففي الجانب السياسي قصد السلطان سليمان القانون توحيد مملكة فرنسا في الصراع الدائر بينه وبين أوروبا النصرانية وكذلك فتح قناة للتأثير في أوروبا، بينما رأت فرنسا في قوة ومكانة السلطان سنداً لها ضد أسرة الهابسبورغ التي أسرت ملكها فرانسوا الأول من قبل³.

أمّا البعد الاقتصادي⁴ فإنّه تجلّى في رغبة الدولة العثمانية في تنويع البضائع المستوردة ومصادرها وكذلك زيادة وارداتها الضريبية، بالإضافة إلى تقليص النفود الاقتصادي القوي لتجار إمارة البندقية، في الوقت الذي تطلعت فيه فرنسا إلى تعويض عجز قوتها البحرية عن مجارة نظيراتها الأوروبية وبالتالي التميز والانفراد عن المماليك الأوروبية بالتجارة مع الدولة العثمانية⁵، علاوة على ما كانت تتوقعه فرنسا من الأرباح التي سوف تدرّها عليها التجارة مع الدولة العثمانية⁶، وإسهام ذلك في تحسين وضعها الاقتصادي الضعيف، ولهذا نجد أنّ هذه المعاهدة تجارية أكثر منها سياسية⁷، بينما تمثّل الجانب الديني في اهتمام مملكة فرنسا وحماستها للتنصير والمنصرين⁸.

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 37.

² E.Charriere, op.cit, T1, p259.

³ Antony Bridge, Suleyman The Magnificent, Granada publishing, London, 1983, P90.

⁴ Colonel La Mouche, op.cit, p110.

⁵ E.Charriere, op.cit, T1, p259.

⁶ J.C.Hurewitz, Diplomacy in the near and middle east, A documentary Record: 1535-1914, Princeton, New York, 1956, p5.

⁷ - مرادجة دوسون، مرجع سابق، ص 212.

⁸ - نادية محمود مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص 29.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ب- نتائج معاهدة الإمتيازات العثمانية - الفرنسية:

إنّ معاهدة 1536م¹ والتي عقدت بين فرانسوا وسليمان القانوني لقد اعتبرها البعض نقطة تحوّل أساسية في إدارة العلاقات الإسلامية الدولية، حيث أوضحت اتجاه المسلمين التي تبنى مبدأ التعاون السياسي مع المسيحيين وهي مرحلة جديدة في السياسة الخارجية استناداً إلى مفاهيم ومبادئ المصالح المشتركة أكثر منها على أساس القواعد والمبادئ المستمدة من الدين.

وكانت هذه المعاهدة مجرد تصديق على إجراءات كانت متبعة من قبل فلقد سبق لمماليك مصر ولمحمد الفاتح والسلطان سليم الأول أن منحوا التجار الفرنسيين تسهيلات كثيرة² أي أنها بنيت في مجملها على أصول معاهدة سليم الأول والبندقية 1517 التي تعتبر بدورها امتداداً لتقاليد المعاهدات المصرية الإفرنجية في أواخر العصور الوسطى.³

وقد حققت الاتفاقية أيضاً مكاسب اقتصادية إيجابية للطرف الفرنسي، كما رجحت ميزان القوى لصالح فرنسا في المجال السياسي العالمي⁴ نظراً لثقل الدور العثماني المؤثر في أحداث القارة الأوروبية والعالم، وأخيراً فإنّ الاتفاقية ساهمت في فتح منفذ لفئات الرحالة والتجار والمنصرين الأوروبيين فتمكنوا من التعرّف على البلاد التي طالما حيل

¹J.C. Hurewartz, op.cit,p5.

² Ancien Diplomate, le régimes des Capitulations,son histoire,son application,ses modi - fication,librairie Plon,Paris, p10.

³ - ياسر عبد العزيز قاري، دور الإمتيازات في سقوط الدولة العثمانية، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الرياض، 2001، ص26.

⁴ - يوسف علي الثقفي، "معاهدة الامتيازات"، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، العدد 6، السنة 6، الرياض، 1403هـ، ص375.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

بينهم وبينها واتضح ذلك الدور بصورة أكبر مع ازدياد عدد المستفيدين من نظام الامتيازات¹.

ومن الانصاف كما ذكر الباحثون، كان للاتفاقية أثر إيجابي مباشر على التجارة في الدولة العثمانية، حيث اتسع حجم النشاط في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وانتعشت موانئ الأقاليم العثمانية التي تضررت من الالتفاف الأوروبي حول القارة الإفريقية بزعامة مملكة البرتغال،² كانت الامتيازات وسيلة لتمزيق الصف الأوروبي واختراقه كأهداف خفية غير معلنة³.

إنّ الامتيازات نتج عنها تدعيم اقتصاد فرنسا وانعكس ذلك بدوره مرة أخرى وبصورة أقوى على جوانب عدة، فلقد أتاحت حرية التجارة البحرية⁴ المطلقة لفرنسا والدول الأوروبية التي رفعت العلم الفرنسي إمكانات هائلة لسفنها في الموانئ العثمانية دون رقابة أو جمارك، تنقل من الدولة العثمانية وإليها كل أنواع البضائع والسلع⁵.

فضلاً عن الامتيازات الجديدة التي كسبتها من خلال وصايتها على المسيحيين⁶، من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس جعلت من المسيحيين العثمانيين مواطنين متميزين

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 228.

² - ياسر عبد العزيز قاري، مرجع سابق، ص 27.

⁶ - نفسه، ص 78.

⁴ Raia Zaymova, le plan d'une monarchie universelle, op.cit, p453.

⁵ - بالنظر إلى تلك البنود المعاهدة المتفق عليها بين كل من فرنسا والدولة العثمانية نلاحظ أنّ تلك البنود أتاحت الكثير من الامتيازات للفرنسيين داخل أراضي الدولة العثمانية من حيث حرية التجارة في جميع الأقطار العثمانية. أنظر: خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 224.

⁶ - كما أعطت هذه الامتيازات للدولة الفرنسية الحق في فرض حمايتها على الرعايا الأوروبيين بالإضافة الي الطوائف المسيحية الأخرى داخل الدولة العثمانية، كما قام الفرنسيين بإنشاء المدارس والمعاهد والكنائس وعلى النقيض من ذلك فإنّ التجار العثمانيين لم تكن لهم مثل تلك الامتيازات في فرنسا ولا يحق لهم ممارسة شعائرهم الدينية على نمط

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

¹ عن الآخرين يتمتعون بنفس حق الانتماء إلى نظام الملل العثماني² وحق الوصاية الأوروبية، ناهيك عن مكاسب المدارس التبشيرية والإرساليات³ التي وضعت بين أيديهم سبل تطور تربوي وعلمي ورفاه لا يحلم بها المسلم في سلطنته نفسها لقد تحوّل مع الوقت ولاء المواطنين المسيحيين من السلطان العثماني إلى حكام أوروبا، مادامت الامتيازات تجعلهم مفضلين عن غيرهم يتمتعون بمعاملة خاصة في مجالي القضاء والاقتصاد⁴.

كانت عواقب هذه الامتيازات وخيمة جداً على الدولة العثمانية، فالمؤرخ البوني ديميتري كيتيسيلس يتساءل في كتابة الإمبراطورية العثمانية فيما إذا كان نظام الامتيازات التجارية الذي منحه العثمانيون لأوروبا هو السبب الرئيسي في الاستعمار الاقتصادي الأوروبي للدولة العثمانية، وعاد إلى أوائل الامتيازات التي منّتها العثمانيون للبنديّة عام 1554، وربط بينها وبين الامتيازات التي حصلت عليها في العصر البيزنطي⁵.

خلص ديميتري كيتيسيلس إلى أنّ الامتيازات حطمت اقتصاد الإمبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية⁶، بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطة بتنفيذ مشاريع إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة

=مساو للفرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية. أنظر: Stephen Fisher Galati. Ottoman Imperialisme And German, Havard university press, London, 1959, p117.

¹R.B.Merriman, op. cit, p143

² سلوى علي ميلاد، مرجع سابق، ص17.

³ محمد فريد بك المحامي، مصدر سابق، ص254.

⁴ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط2، بيروت،

1424هـ/2003م، ص25.

⁵ نفسه، ص26.

⁶ نفسه، ص27.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

موثيق مدّلة للعثمانيين ما دام الأوروبيون لا يخضعون للسلطات العثمانية كأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية¹.

3- العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد هنري الثاني:

أ/ معاهدة التحالف العسكري 1553م:

لم يسرع هذا الملك إلى تجديد المعاهدة مع العثمانيين، نتيجة الوضع السياسي الذي ساد أوروبا في هذه المرحلة وعدم تشجيع ملك فرنسا هنري الثاني في بادئ الأمر بعقد معاهدات مع الباب العالي مراعاة للرأي العام الأوروبي الضاغط على السياسة الخارجية الفرنسية² وإن كان حريصاً على تحالفه معهم ضد أعدائه النمساويين والواقع أنّ هنري الثاني كان منزعجاً من استغلال الإمبراطور لتحالف والده مع العثمانيين، والإشاعات المغرضة التي كان يبثها ضده ومع ذلك فقد احتفظ بسفيره في اسطنبول³ وبقي على اتصال مستمرّ مع السلطان، ثم خطى خطوة عملية وهي عقد معاهدة مع العثمانيين⁴ وقد تبين من هذه المراسلات المتبادلة بينهما أنّ همّه الأكبر كان التحالف العسكري قبل تحسين أوضاع التجارة مع الشرق⁵.

وتوجت المراسلات بعقد معاهدة تحالف بتاريخ الأول من مارس 1553م/10 صفر 960هـ بين السلطان سليمان القانوني والملك الفرنسي هنري الثاني من أجل مساعدة الأسطول العثماني لملك فرنسا ضد شارلكان⁶، حيث ظهرت بوادر هذه المعاهدة بعد وصول

1- عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 1، صص 750، 751.

2- ادريس الناصر رائسي، مرجع سابق، ص 310.

3- وقد أبقى السفير جبريل دارمون ممثلاً لدى الباب العالي، وأمره بمرافقة السلطان في حملته الأخيرة فرافقه، وفي

عودته زار بيت المقدس فقابله الرهبان بكل احتفال تعبيراً عن تمسكهم بالمعاهدات السابقة. أنظر: نفسه، ص 315.

4- محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 242.

5- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 145.

⁶Le Baron De Testa, Receuil des traitais de la porte Ottoman avec puissances etrangeres, Vol 10, Prs, 1854, p43.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

إسبانيا إلى قمة مجدها وبروزها كقوة¹ عالمية على الساحة الأوروبية، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية قوة مهابة لا تستطيع أي دولة أن تواجهها، فكان من الطبيعي أن تستغل فرنسا هذه القوة لصالحها، بعد وفاة الملك فرنسوا الأول من قبل هنري الثاني².

وبالإضافة إلى الفوائد الاقتصادية والدينية يجعل كل الكاثوليك³ النازلين في الدولة العثمانية⁴ تحت حماية فرنسا، وقد أبقى السفير درامون ممثلاً لدى الباب العالي، وأمره بمرافقة السلطان في حملته الأخيرة، وفي عودته زار بيت المقدس وقابله الرهبان بكل إحتفال تعبيراً عن تمسكهم بالمعاهدات السابقة، ولما عاد السفير إلى فرنسا وجد نيران الحرب قد اشتعلت من جديد مع النمسا⁵ فعاد إلى استانبول واتفق مع السلطان على أن تتحد الأساطيل البحرية الفرنسية مع الأساطيل العثمانية للهجوم على كورسيكا⁶ عقاباً لأهل جنوة المحتلين لها على مساعدتهم لشارلكان ولكي تكون قاعدة لقوات الأسطولين في عملياتهم المشتركة لغزو إسبانيا وإيطاليا⁷

وجرت مباحثات بين الدولتين انبثق عنها معاهدة تحالف بتاريخ 16 صفر 960هـ /

الأول من مارس 1553م⁸.

¹V.J.Parry And Others,A history of the Ottoman empire to 1730,Cambridge University press,London,1976,p86 .

² - لم تتأثر العلاقات العثمانية الفرنسية بوفاة الداعي والمؤسس لها فرنسوا الأول وإنما استمرت على نفس الخطى في

عهد هنري الثاني (1547 - 1599م) بل وأضاف إليها هذا الأخير معاهدة جديدة عززت امتيازات دولته مع

السلطان سليمان القانوني عام 1553م. قيس جواد العزاوي، مرجع سابق، ص 20.

³A. Charles, op.cit,p376 .

⁴ - هارولد جب وهاملتون بوون، ج2، مرجع سابق، ص 247.

⁵E.Clout,op.cit,p184.

⁶ - كورسيكا: جزيرة في غرب البحر الأبيض المتوسط. أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج5

، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1914، ص 374.

⁷ - عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، ط1،

بيروت 1409هـ/1989م، ص 156.

⁸J.C.Hurewitz,op.cit,p7 .

ب- نتائج معاهدة 1553م :

ضمت المعاهدة مجموعة من البنود قد وضّحت بحسب ما جرت به العادة بكلام مضبوط لا يقبل التأويل بواسطة أرامونت سفير هنري لدى السلطان سليمان القانوني الذي أضاف إليها قسما صريحا بحضور برنس سالرننتين بصفة كونه نائبا أمينا ومن جهة أخرى فقد صادق عليها رستم باشا بموجب السلطة الممنوحة له من جهة السلطان العثماني العثماني¹ ، وكانت بين السلطان سليمان القانوني وهنري دي فالوا الثاني وقد أبرمت بخصوص الحرب البحرية التي سيشرعان فيها ضد الإمبراطور شارل الخامس² و اشتملت المعاهدة على تسعة بنود.

جاء في البند الأول يرسل السلطان العثماني أسطولا بحريا إلى بحر توسكانيا³ لمحاربة الإمبراطور شارل الخامس، وقد أعان بذلك هنري دي فالوا مدة سنتين، بناء على طلبه المتكرر في بادئ الأمر، فقد اتفق بأن الملك الفرنسي يدفع ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب بصفة متأخرة مرتب الدونانمة⁴ ، وذلك حينما تصير الملاحاة مأمونة لنقل النقود بالعمارة المذكورة وتعتبر كأنها مرهونة نظير المبلغ المذكور، حتى يدفع لأدميرال عمارة السلطان سليمان القانوني في مدة أربعة شهور متوالية ابتداء من أول ماي القادم⁵ وهي تعبر عن مساعي مشتركة لعمليات عسكرية مكثفة لضرب المصالح النمساوية.

⁷G.P. Pelissé, op. cit, p31.

² - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق ، ص 185.

³ - كان أسم توسكانيا يطلق على المناطق الكائنة في وسط إيطاليا ، يوم كانت إيطاليا مقسمة إلى إمارات ، وقد أطلق نوجزا على البحر الكائن ما بين كورسيكا والبر الإيطالي أسم بحر التوسكان بينما هو البحر الأبيض المتوسط. أنظر، قيس جواد العزاوي ، مرجع سابق ، ص 191.

⁴ - الدونانمة: وجمعها دوننمات ومعناها الأسطول. أنظر: نفسه ، ص 186.

⁵L.B. Testa, op. cit, T1, p43.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ونص البند الثالث على أنه في حالة ما إذا أراد هنري الثاني أن يستعمل السفن الحربية للاستعانة بها على الجهات الغربية، أي الجهات الواقعة ابتداء من كروتون لغاية جايب¹ فإنه يقوم بدفع مائة وخمسين ألف قطعة من الذهب إلى السلطان سليمان القانوني . هذه السفن الحربية تقوم بأعباء وأوامر هنري دون مقابل ، فقد اتفقا على أن المواد الحربية ومؤونات المدن والقصبات والقرى والكنوز فإنها تترك غنيمة للعثمانيين ، وهذا يعني أن المساعدات العثمانية دون مقابل دفع الثمن، وإنما الغنائم تكون لفائدة العثمانيين كتعويض على الخسائر.

كما تقرر ذلك بالبند السابق وأما الوطنيون والمزارعون والقاطنون البالغون والقاصرون، الرجال منهم والنساء، فإنهم يسلمون للأسر بدون معارضة حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الديانة المسيحية بل ولو كانوا ممن أسلم نفسه بمحض إرادته. وهذا تأكيد لما جاء في المادة السادسة من معاهدة 1536م²

أما البند السابع فجاء فيه يمكن للسلطان سليمان أن يستولي ويأسر، باسم ملكه الأفخم، كل مكان تقدم عليه العمارة العثمانية المظفرة³، متى رأى ثمة فائدة، وذلك ابتداء من

¹ - جايب: هي كايث أو كاتيا فإنها تقع في أسفل نعل الجزمة الإيطالية . أنظر: قيس جواد العزاوي ، مرجع سابق ، ص 191.

² - حيث نصت المادة العاشرة من معاهدة 1535 على أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة يجب على رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيها أو على سفنها أو في مكان تابع لسلطتها، في حالة الرق، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم في الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم، يطلق سراحهم فوراً بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض، وإذا كان أحد الأسرى قد تحوّل عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعا من إطلاق سراحه. أنظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، صص 711، 712.

³ E.Charriere,op .cit,T1,p250.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

حدود نهر تروننو¹ لغاية أوترانتوكروتون ، ومن ثم لغاية صقلية² ونابولي ، وعموما جميع الأقاليم المملوكة للإمبراطور شارل الخامس ملك النمسا سواء أكان ذلك داخل الأراضي أو خارجها³ ،

وله الحق في الاستيلاء على أي سفينة يصادفها⁴ وله أن يغزو بل وأن ينهب ويأسر الرجال والنساء البالغين أو القاصرين ، حتى يمكنه متى شاء أن يحافظ ويمتلك جميع ما يغتنمه سواء أكان من بني الإنسان أو المدن أو البيوت الخلوية وأن يعدها ويستعملها لاحتياجاته ولو ضد رغبة الفرنج بالرغم من معارضتهم الشديدة في ذلك .

وورد في البند الثامن إذا تمكن جلاله السلطان سليمان من الحصول على إحدى المدن الأربعة المحصنة في إقليم البوي⁵ ، بواسطة مساعي فردينان سان سيفرنبرنس دي سالبرنتين بمقتضى

¹ - تروننو: نهر يصب في الجانب الشرقي من إيطاليا في البحر الأدرياتي. أنظر، إدريس الناصر رائي، مرجع سابق، ص312.

² - صقلية: هي أحد محاور الحركة الاستراتيجية المهمة في حوض البحر المتوسط وهي ملتقى الحضارات الآسيوية والأوروبية والإفريقية ، وهي جزيرة إيطالية كبيرة في وسط البحر الأبيض المتوسط ، تقع إلى الجنوب من إيطاليا مساحتها 25 ألف كيلومتر مربع ، فتحها العرب المسلمون وأقاموا فيها حكما عربيا إسلاميا طوال قرون. أنظر: أحمد توفيق المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا، ط1، مكتبة الإستقامة المطبعة العربية ، الجزائر، 1365 هـ، ص9.

³ L.B.Testa ,op.cit, T1,p45 .

⁴ - ويتمحور ذلك في إطار ما سمي في القرن السادس عشر باستراتيجية تسمح بشن الحملات ولذلك ارتبطت القرصنة بالحروب التي قامت في أوروبا واتسع نطاقها مع ظهور الدولة العثمانية على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط. أنظر: ابراهيم سعيود، "القرصنة المتوسطة خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجا"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد11، جامعة غرداية، 2011، ص149.

⁵ - هو إقليم أبوليا APULIA الواقع في الجزء الشرقي من جنوب إيطاليا أنظر: قيس جواد العزاوي، مرجع سابق، ص191.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

تعهد هذا الأمير لجلالة السلطان سليمان أن يعيد إلى هنري مبلغ الثلاثمائة ألف قطعة من الذهب التي ضمن له كما تقدم دفعها ، وذلك في حالة ما إذا كانت دفعت إليه ¹ .

وبذلك استطاعت فرنسا أن تحصل على إمتيازات جديدة وقد بدى الجانب العسكري واضحاً وجلياً من خلال بنودها وكان هدف فرنسا في هذه المرحلة تحصين موقعها في أوروبا بمساعدة السلطنة العثمانية لها وخاصة في الجانب العسكري أمام خطر الإمبراطورية الرومانية المقدسة ²، وهكذا فقد اتسمت العلاقات العثمانية- الفرنسية بالود والصداقة خاصة، ³ وبذلك لم يثر ملوك فرنسا قضية النواحي التجارية مرة أخرى إلا في عهد الملك شارل التاسع والسلطان سليم الثاني حيث جددت الامتيازات في سنة 1569 ⁴

ألحقت سياسة الدولة العثمانية الخارجية التي سارت على خطى التحالف مع فرنسا ومنحها الامتيازات نتائج على المستوى السياسي و الاقتصادي والعسكري وذلك على المحيطين العثماني والفرنسي وكانت تلك النتائج من العمق والفاعلية ، بحيث أدت إلى تطوّر فرنسا وساهمت بصورة أو بأخرى في التأثير على أوضاع القوى السياسية في المنطقة واقتصادياتها.

ويبدو أنّ هدف السلطان من وراء تجديد العلاقات مع فرنسا أن يبرهن لملوك أوروبا الذين كانوا يعادونه بدافع الدين ، أنّ صداقته مفيدة وأن من تقرب منه يجني منافع وامتيازات كثيرة،

¹F.Braudel, op.cit ,T2,p230.

²E.Charriere,op.cit,T1,p210.

³ - إدريس الناصر رائسي ، مرجع سابق ، ص 315.

⁴ - محمد فريد بك المحامي ، مرجع سابق ، ص 254.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

يضاف إلى ذلك أنّ هذه المعاهدة أضافت إعادة إحياء الموانئ الشرقية بعد أن شهدت جموداً تجارياً على إثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح¹ وتحوّل تجارة الهند عن طريقه². بالإضافة إلى التعاون العسكري³ الذي لم يدم طويلاً، لأنّ فرنسا وإسبانيا وضعتا حداً لنزاعهما في اتفاقية كاتوكمبريسيس⁴ التي عقدت في 5 أفريل 1559،⁵ وتخض عن المعاهدة عدة نتائج أهمها اشتراك الأسطول العثماني مع الفرنسي سنة 1555م حيث سارت⁶ مراكب الدولتين نحو جزيرة كورسيكا وفتحتها، بعد ذلك شنت غارة على بلاد كلاباريا⁷ وجزيرة صقلية، لكن لما وقع تنافر بين قائد الأسطول العثماني والفرنسي لم يستمر التواجد العثماني بها كثيراً⁸ بل افترق الأسطولين ورجع القبودان إلى الأستانة⁹.

¹ - جدد فتح القسطنطينية في عام 1453م نشاطات الحركة الصليبية في أوروبا، ورأى الأمير هنري الابحار حول إفريقيا والوصول إلى الحكام النصاري المجهولين في الشرق، ورأى هذا أيضاً بعين احتكار التجارة منها دورة فاسكو دي قاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1497م. عباس حمداني، رد العثمانيين على إكتشاف أمريكا والطريق الجديد إلى الهند، مجلة الفسطاط، العدد 7، مركز اليقين الإعلامي، د.م.ن، 2006، ص 2.

² - إميل خوري وإسماعيل عادل، للسياسة الدولية في المشرق العربي، ج 1، دارالنشر للسياسة والتاريخ، بيروت، 1990، ص 7.

³ - هذا التعاون الذي تكرر سنة 1555 و1558 وقبلها 1551 و1552. أنظر. Petitjean Johann, op.cit, p256.

⁴ - كاتوكمبريسيس: cateaucampresis هي معاهدة سلم التي انتهت الحروب الإيطالية في عام 1559م والتي

احتفظت اسبانيا بمقتضاها بميلانو و نابولي للمزيد أنظر : F. Braudel, op.cit, T2, pp261-264.

⁵ Gurkan Emrah Safa, Espionage in the 16 th century Medaterranean secret ,diplomacy- Medeterranean go between and the Ottoman Habsburg rivalry, Georgetown university library, Washington, 2009, p266.

⁶ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 145.

⁷ - الإقليم الجنوبي من إيطاليا وبفصله عن صقلية مضيق منسيا وهو إقليم جبلي ومن أشهر مدنه ريغودو كلابري .

أنظر: هارولد لامب، مرجع سابق، ص 6.

⁸ - نفسه، ص 69.

⁹ - نفسه، ص 77.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

كما عزز السلطان سليمان القانوني أسطوله في عام 1558م بوحدات إضافية أنزلت قواتها على شاطئ نابولي ، وفتحت مدينة سورانزو¹ ، وكان هذا التعاون العسكري هو الأخير بين الدولتين ، بفعل تغير الظروف السياسية والعسكرية².

وفي عام 1559م وقع الملك هنري الثاني معاهدة كاتوكمبريسيس مع الإمبراطور فليب الثاني الذي خلف أباه شارل الخامس³ ، تم بموجبها تسوية أوضاع أوروبا ، فأستدعى بذلك السلطان السفير الفرنسي في الأستانة وقال له : « أكتب لسيدك وقل له إنه إذا كان صعبا على الأصدقاء أن يصبحوا أعداء فمن الصعب أيضا على الأعداء أن يصبحوا أصدقاء»⁴. واتضح للمسؤولين العثمانيين الكبار بما فيه الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا⁵ أنّ خلفاء الملك فرنسوا الأول لم يكونوا قادرين على تنفيذ الالتزامات التي تعهد مؤسس أسرة فالوا للسلطان سليمان القانوني فيما يتعلق بصراعه مع الهابسبرغ ولا يرغبون في تنفيذها⁶

مما أدى إلى وقف التعاون العسكري الفرنسي العثماني بعد معاهدة كاتوكمبريسيس فالجيش والأسطول العثماني لم يعد ضرورياً عندما أصبح السلم مع الهابسبرغ ،⁷ ووفاة فهنري الثاني ثم سليمان القانوني وأثر الحروب الدينية في إضعاف فرنسا من الخارج⁸.

وفي هذه الظروف فقد التحالف العثماني الفرنسي أهميته لكن لم يمنع أن تستمر العلاقات بين البلدين جيّدة وأحياناً كذلك مثمرة حتى نهاية القرن السادس

¹ - اسماعيل سرهنك ، مرجع سابق ، ص102.

² L.B.Testat,op.cit,T1,p33.

³ Ogier Chislen De Busbeq,op.cit,p173.

⁴ - إميل خوري وإسماعيل عادل، المرجع السابق، ج1، ص8.

⁵ - محمد صوقللو: ولد في البوسنة 1505م وتوفي في اسطنبول 1579م عين وزيرا في عام 1555م كما عينه

سليمان القانوني في منصب الصدر الأعظم 1565م ، شارك في العديد من الحروب وحقق العديد من الانتصارات .

ثريا فاروقي ، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها ، مرجع سابق ، ص92.

⁶ - نفسه ، ص92.

⁷ F.Braudel,op.cit,T2,p33.

⁸ Jean Pierre Bors,op.cit,p148

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

عشر¹. وأمثلة ذلك أنه بعد توقف بعض الفرنسيين كانوا متوجهين إلى القدس، أرسل الملك الفرنسي هنري الثاني مبعوثا إلى السلطان العثماني ومعه رسالة يطلب فيها إطلاق سراحهم وهو الطلب الذي لم يرفضه سليمان القانوني كما كتب هذا الأخير رسالة إلى هنري الثاني أهم ماجاء فيها : "بمقتضى الصداقة الصريحة والروابط الموجودة بيننا، لبينا رغباتكم، حيث تم إطلاق السجناء، لكن فيما يخص صلحكم مع الإسبان يجب أن تبقوا حذرين"

وبعد وفاة هنري الثاني في السنة نفسها 1559م² انتهت مرحلة هامة من تاريخ العلاقات العثمانية الفرنسية. أمافرنسوا الثاني³ الذي خلف أباه هنري الثاني فيظهر من الرسائل التي تبادلها مع مبعوثه لدى السلطان، أنه كان حريصا على متابعة علاقات الود والصداقة مع السلطة العثمانية⁴.

¹E. Clot,op.cit,p 142.

²L.B.Testat,op.cit,T1,p33.

³ - فرنسوا الثاني : حكم فرنسا ما بين (1559 - 1560م) أنظر : W.D.E.Allen,op.cit,p66.

⁴ L.B.Testat,op.cit,T1,p40.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

المبحث الرابع: سياسة السلطان سليمان القانوني لإستمالة البروتستانت

1- العثمانيون و البروتستانت في القرن السادس عشر ميلادي:
أ/ البروتستانت في القرن السادس عشر ميلادي:

كان الإصلاح الديني بوجهه البروتستانتي¹ ثورة على كل من الشيوقراطية البابوية وامتيازات الإكليروس²، كما كان ثورة على روح الوثنية لدى شعوب أوروبا، فهو من ناحية قد اتخذ شكل انتفاض للروح العلمانية على ادعاءات الإكليروس والإعفاءات التي كانوا يتمتعون بها³ ومن ناحية أخرى كان حركة إحياء ديني ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التي درجت عليها الكنيسة المسيحية، ويرجع حدوث الإصلاح الديني في الوقت الذي حدث فيه من ناحية إلى إحساس الناس بأن المساوي المتعلقة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت إذ ذاك على جانب كبير من الخطورة، كما يرجع من ناحية أخرى إلى الرغبة في اتخاذ أسلوب جديد في المسيحية أبسط وأكثر روحانية، إذن فهي الرغبة التي استحوذت في ذلك الوقت على عقول الكثير من المتحمسين⁴.

وتظافرت عدة عوامل على قيام هذه الحركة نذكر منها تدهور الكنيسة الكاثوليكية في روما، وروح النقد والتحرر من القيود التي فرضتها الكنيسة على حرية البحث والتفكير،

¹ - سمي أتباعه بالبروتستانت protestantsles وهم أتباع لوثر وسموا كذلك باللوثريين لأن اختيارهم للمذهب الجديد منحهم الفرصة للاستيلاء على أراضي الكنيسة الكاثوليكية في بلادهم وامتناعهم عن تنفيذ قرارات الديت الثاني أن يجرموا من الثروة التي هبطت عليهم ويعيدوا الأرض للكنيسة، لذلك أعلنوا أنهم لن يدعوا لتلك القرارات ولا يتقيدون بها بل يحتجون عليها ومن هنا أطلق اللوثريون على أنفسهم اسم "المحتجون"، وهو الاسم الذي لازم أصحاب هذا المذهب حتى اليوم. أنظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص103.

² - ميلاد المقرحي، تاريخ أوروبا الحديث 1453 - 1848م، ط1، دار الكتب الطنية، بنغازي، 1996، ص98

³ - جلال يحي وجاد طه، معالم التاريخ الأوروبي الحديث، منشأة المعارف، دنط، ص95.

⁴ - هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت وأحمد عبد الرحيم مصطفى، ط3، دار المعارف، القاهرة، دنط، ص164.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وموقف حكام ألمانيا¹ في الوحدات السياسية العديدة وهو موقف أمّلته رغبتهم في التخلص من سيطرة كنيسة روما وتدخل البابا من ناحية أخرى، وتطلعهم إلى الاستئثار بأموال الكنيسة وممتلكاتها الشاسعة من ناحية أخرى، وصبوك الغفران² التي شكّلت السبب المباشر في قيام الحركة الدينية التي حمل لواءها مارتن لوثر وتطورت تطورا سريعا إلى حركة دينية ثورية³.

تعددت الأسباب من سياسية واقتصادية أدت إلى تبلور حركة الإصلاح، فقد شهدت الفترة التي سبقت حركة الإصلاح توسّع ملوك أوروبا من سلطاتهم السياسية مقابل سلطة البابا والإمبراطور، وأصبح الملوك في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا أكثر قوة، ونظموا شؤونهم المالية وبنوا جيوشهم، وأصبح البابا في نظرهم مجرد قائد سياسي لدولة أجنبية لا سيطرة له ولا نفوذ على أقطارهم، وبعد ذلك انفصل بعض الملوك تماما عن سلطة البابا⁴.

¹ - كانت المعتقدات الدينية وفلسفة اللاهوت في ألمانيا أرسخ من إيطاليا مقر البابوية، وكان في ألمانيا عدد من المفكرين تعرضوا للبابوية بالتقد اللاذع على عيوبها ومثالبها المالية والأدبية وساعد على نشر آرائهم وجود الطباعة في شمال ألمانيا مما سهل على الطبقة الألمانية المثقفة الإطلاع على أوجه النقد الموجه للكنيسة ومشاركة كبار الكتاب آرائهم وفلسفتهم الدينية مما أثار على الموقف السياسي في ألمانيا في ذلك الحين وأدى إلى قيام ثورات واضطرابات دينية. أنظر: إدريس الناصري رائي، مرجع سابق، ص70.

² - صبوك الغفران : كانت فكرة أن البابا قادر على إصدار صبوك غفران تجب الخطايا من كل نوع مستمدة من النظرية القائلة بأن القديس بطرس وخلفاؤه قد منحت لهم ميزة توزيع فيض لا ينضب من الثواب من المؤمنين، وهذا الفيض من الثواب يرجع أصلا إلى تضحيات المسيح، ثم زاد على مر السنين بالأعمال الخيرة التي قامت بها أجيال متعاقبة من المسيحيين المؤمنين، وقد تجاوبت فكرة الثواب على أنها أمرا موقوتا. أنظر: جلال يحيى وجاد طه، مرجع سابق، ص99.

³ - هيربرت فيشر، مرجع سابق، ص164.

⁴ - ومن بعض الملوك الذين انفصلوا عن سلطة البابا هنري الثامن حيث تفاقم الخلاف بينه وبين الكنيسة البابوية لما طالت مراوغة البابا في مسألة الطلاق واختار الملك رجلا كان يعمل تحت رئاسة الكاردينال ولزي، ولكنه كان أصلب عودا من الكاردينال، ويعتق مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وهو توماس كرمويل، الذي أشار على الملك بالانفصال عن كنيسة روما وفصل كنيسة إنجلترا ووضعها تحت سيادة الملك، وذلك بأن يجذو الملك حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا كنيسة روما وأنشؤوا كنائس أهلية. أنظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، مرجع سابق، صص188، 189.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وتجلت العوامل الاقتصادية إلى كون الاقتصاد الأوروبي خلال القرون الوسطى كان اقتصادا زراعيا ومعظم الناس كانوا فلاحين يعيشون في قرى صغيرة ثم بدأت تتكون المدن الكبرى وبدأت حركة تجارية، نمت على إثرها ثروة المدن وأصبحت ملكية قروض الإقطاع وسيطرة الأساقفة وقد لجأ التجار والأثرياء إلى الملوك والأمراء للحماية، وهكذا أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ضعف الكنيسة وفقدان سيطرتها ومكانتها الدينية وأثرها على الجماهير¹، ففي فرنسا أصدر الملك شارل السابع² في عام 1438م مرسوما ملكيا تحد به سلطة البابا وسيطرته على شؤون الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، وبدأ هو وخلفه من الملوك يصدرن الأوامر بتعيين الأساقفة وغيرهم من رجال الدين في بلادهم، وهو الذي كان حقا ثابتا للبابا³.

وكانت الظروف السياسية في صالح دعاة الإصلاح، فان الإمبراطور الذي كانت تشتت جهوده مئات المطالب وتحوله بعض الشيء عن ألمانيا⁴ وحرب فرنسا وحاجته إلى سحق العصيان الخطير الذي قامت به المجالس المحلية، فلم يكن إطلاقا في وضع يمكنه من القيام بضغط متصل هو وحده الكفيل بقمع حركة اعتمدت على تأييد الطبقة الوسطى وأصحاب المطابع، ولم يكن أخوه فرديناند حاكم النمسا الذي كان يواجه الأتراك، بأحسن منه مركزا للتصدي للهرطقة الألمانية.

أما الفرنسيون الذين كان شارل الخامس أعتا منافسيهم⁵ وأعدائهم فقد اعتبروه، مصدر هم دائم يقض مضجع الحكومة الإمبراطورية وهم المستمسكون بالدين القويم ولكنهم الحريصون في المسائل السياسية أكثر حيث اعتبروا اللوثريين مستحقين لكل تشجيع⁶.

¹ - أشرف صالح محمد السيد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ط1، دار الناشرين، الكويت 2004م، ص 98.

² - شارل السابع : (1403 - 1463م) ابن شارل السادس، ملك فرنسا ما بين 1422 - 1461 لقب شارل المنتصر أو حسن الخدمة. للمزيد أنظر: Bqudot De Juily,Histoire De Charles VII,t1,Guillaume De Lyne,Paris,sded.

³ - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص 93.

⁴ - ميلاد المقرحي، مرجع سابق، ص 91.

⁵ - خليل اينالجيك، مرجع سابق، ص 57.

⁶ - جلال يحيى وجاد طه، مرجع سابق، ص 103.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ب/العلاقات العثمانية البروتستانتية وتطوراتها :
لا شك أن الدولة العثمانية قامت باستغلال الظروف الأوروبية الدينية أي الانقسامات في الكنيسة الكاثوليكية، ويبدو أن البيروقراطية العثمانية¹ كانت أكثر انتباها لأهمية الاصطدام بين البروتستانت والكاثوليك، وكان السلطان سليمان القانوني لا يترك فرصة سياسية يستطيع بها شق الصف الأوروبي إلا واغتنمها، كي لا تتوحد في وجه الدولة العثمانية وما دعمه للمذهب البروتستانتية وتأييده للأمرء الألمان الذين تبنوه في مواجهة البابوية وشارل الخامس²، وتعود إلى المعلومات التي أحضرها اللاجئون المسلمون من إسبانيا³، وجزء يرجع إلى المجهودات التي بذلها بعض المبعوثين البروتستانت الذين أظهروا أنفسهم بأنهم موحدون زاهدون، أكثر التصاقا بالإسلام عن العبادات الصورية للكاثوليك المشركين، وقد كان ذا أهمية تناسب التجارة أو أي أمور أخرى، ولقد كان الاهتمام العثماني بالبروتستانت ليسوا كحلفاء لكن كتشويش للقوى الكاثوليكية⁴ خاصة الهابسبرغ الذين سوف يتأثرون من جراء هذه الحركة الدينية المناوئة.

حرص العثمانيون على دعم البروتستانتية في كل مكان ومتى استطاعوا مع العلم وجود مشابهة وجدانية للعثمانيين مع البروتستانت وصورت الدعاية العثمانية نفسها قريبة عقائديا منهم مما أرغم الهابسبرغ على تقسيم قواتهم على الأتراك والبروتستانت في القرن السادس عشر مما أنقذ على الأرجح كل واحد منهم الآخر⁵.

¹ - أو الجماعة العثمانية الحاكمة وهم الرجال الذين يتخذون القرارات فعليا، لكن ليس من السهل رسم حدود لهذه الجماعة وهم من الوزراء أو المديرين الماليين أو حكام الأقاليم وكذلك الكتاب الحاصلين على قدر عال من التعليم الذين يعملون في مكاتب الهيئة القضائية العثمانية وضباط الانكشارية وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالأقاليم الحدودية، و القضاة الشرعيين وقضاة الجيش، وفي الأخير رئيس الاستشاريين القانونيين شيخ الإسلام. أنظر: ثريا فاروقي، مرجع سابق، صص 52، 53.

² - شمس الدين الكيلاني، مرجع سابق، ص 125.

³ - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص 45.

⁴ - برنارد لويس، إكتشاف المسلمين لأوروبا، مرجع سابق، صص 200، 201.

⁵ E.Clout,op,cit,p170.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

كما أضحى التوسع في أوروبا عن طريق الاستفادة من هذا الانقسام من الأمور الإستراتيجية في سياسة السلطان سليمان القانوني الخارجية، فعملت السياسة العثمانية على مستويات عديدة، كانت سببا في توجهاتها وتحالفاتها طيلة عقدين من الزمن، فخلال مواجهتها العدو الرئيسي لها شارل الخامس¹ ظهر مارتن لوثر الذي مزق الوحدة الكاثوليكية الأوروبية وانتشر مذهبه بسرعة فائقة وتحولت دول عديدة أوروبية إلى المذهب الجديد، وقد شنّ لوثر حربا دينية من داخل أوروبا على الكاثوليكية وحارب شارلكان وخرج على سلطة البابا وكان ذلك عاملا مساعدا للفتوحات التي قام بها العثمانيون في أوروبا الوسطى².

فمن ناحية أرادت السلطة أن تستفيد من هذه الحرب المذهبية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت، فقد ظهرت البروتستانتية على الكاثوليكية³، إذ كانت ترى أنّ البروتستانتية هي المسيحية الحقيقية وليست الكاثوليكية وأنها الأقرب إلى الإسلام، وبنّت علاقاتها الدبلوماسية على هذا الأساس⁴، وسعت لبناء علاقات متميزة مع البروتستانت مبينة لهم التشابه بين البروتستانتية والدين الإسلامي.

فقد وجد العثمانيون حليفا طبيعيا لهم في عصبة شمالكادن⁵ للأمرء الألمان البروتستانت الذين كانوا في صراع عسكري ضد شارل الخامس وبتحريض من الفرنسيين، كتب السلطان رسالة إلى الأمرء البروتستانت في 1552/959هـ ميحثهم فيها على مواصلة التعاون مع الفرنسيين في حربهم ضد البابا والإمبراطور، وقد أكد لهم أنه في حالة دخول العثمانيين

¹J.V.Parry,op.cit,p73.

² - قيس جواد العزاوي، مرجع سابق، ص 21.

³ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 30.

⁴ - نفسه، ص 226.

⁵ - عصبة الشمالكادن: Schmalkaden هو حلف عقد بمدينة شمال كلد بولاية هس في ديسمبر 1530 وقد أعلن أعضائه بيانا صرحوا فيه أنهم لم يرضخوا للقوة وسوف يدافعون عن مبادئهم ومصالحهم مهما اقتضى الأمر، وإن تعرض فريق منهم للعدوان في سبيل كلمة الله والكتاب المقدس هب الجميع لنصرته بكل ما يملكون من قوة ومساعدته على الخلاص.أنظر: عبد الحميد البطريق و عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص 105.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

أوروبا فإنهم سيمنحون الأمن للأمراء البروتستانت.¹ ، وبعث رسالة كذلك إلى الأمراء اللوثرين في الأراضي المنخفضة وفي المناطق الأخرى المعارضة لإسبانيا أكد سليمان القانوني أنه يعتبرهم قريين من المسلمين بعد أن تخلوا على عبادة الأوثان² والإيمان بوحدانية الإله والقتال ضد البابا والإمبراطور³.

ومن هنا يظهر التدخل والاتصال المباشر بين العثمانيين والبروتستانت ، ويظهر العثمانيون بصورة المتفرج والمؤثر بفعل تأثير العثمنة⁴ ، فالعثمانيون لم يزجوا بأنفسهم في الصراع المذهبي الدموي الذي نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذا تستهوي أفئدة المضطهدين والمعذبين في الأرض الأوروبية يلتمسون في رحابها الأمن والملاذ والتسامح⁵ وقد فضل الفقراء المسيحيين اللذين تعرضوا لظلم الأمراء الجشعين وأصحاب الأراضي أن يعيشوا تحت حكم العثمانيين⁶ ولا يعيشون في كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة في حكم الفقراء⁷ وكانت الجماهير الشعبية ربما في معظم دول أوروبا الفيودالية ولا سيما بين الفلاحين تنتظر مقدم العثمانيين ، وتعلق عليهم آمالها بالتخلص من سلطة الفيوداليين.

¹ - شمس الدين الكيلاني ، مرجع سابق ، ص 125.

² - خليل إينالجيك ، مرجع سابق ، ص 61.

³ P.M.hold, « the heyday and decline of the Ottoman empire»,the Cambridge history of Islam ,T51,the Upress,London,1970, p329.

⁴ - العثمنة: وانتشرت في كل مكان أساطير كثيرة عن تسامح العثمانيين في الدين ومحبة الشعب لهم ، فجذبت إليهم قلوب المضطهدين والبائسين فالعنصر الأهم ، البهاء الإسلامي العثماني كما سمي في روسيا ، فسليمان القانوني 1520 - 1566م مثلا كان يطالب باشاواته بإجزال العطايا لرعاياه حتى يحسدهم فلاحو الإمارات المجاورة على قدرهم. أنظر: نيقولاوي إيقانوف، مرجع سابق، ص 66.

⁵ - عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق، ج 1 ، ص 47.

⁶ - توماس آرلوند، مرجع سابق، ص 182.

⁷ - عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق، ج 1 ، ص 47.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وهذا ما عبر عنه مارتن لوثر بقوله "سمعت أن بعض الناس في الأراضي الألمانية يرغب بمجيئ العثمانيين وحكمهم، ويتوق إلى أن تكون الحياة تحت حكم العثمانيين أفضل منها تحت حكم الإمبراطور والأمراء"¹.

ارتكزت السياسة الخارجية العثمانية على دعم العلاقات مع دولة فرنسا² ودعم البروتستانت بما يخدم مصالحها في المنطقة، ولعب دور فعال في الساحة الأوروبية فالواقع أن العثمانيين عمدوا إلى ترك القوى المسيحية تتصارع فيما بينها في الحروب الدينية³، ولم يكن ثمة مسلك خير من هذا ملائمة لمصالح العثمانيين فقد أثر الكثيرون من بروتستانت بنسلفانيا العيش تحت لواء الإسلام العثماني على أن يقعوا في قبضة الجزويت⁴.

وظهر الدعم العثماني خاصة بعد المجمع الخامس أين لعب الأتراك العثمانيون دور الحماية النشطاء لحركة الإصلاح الديني "فقد أيّدوا زعماء الإصلاح البروتستانتية حيثما أمكنهم ذلك تأييدا كاملا"⁵، وفي رسائلهم (خطوط الهمايون وخطوط نامة⁶) إلى الزعماء

¹ - نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، ص 64.

² - وكان سليمان جاهزا لاقتناص الفرصة فمدّ يد العون لفرانسوا الأول، وللحركات الانشقاقية عن كنيسة روما وقد شجع فرانسوا بدوره العثمانيين للاتصال بالبروتستانت في ألمانيا ولا شك أن الضغط العثماني حول اهتمام آل هابسبرغ عن الانشقاق، مما وطد الإصلاح الديني في أوروبا. أنظر: عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 81.

³ - الحروب الدينية: أدى ظهور المصلحين الدينيين إلى بروز قوتين ظاهرتين مستعدتين للدخول في كفاح طويل من أجل العقيدة وهما القوة البروتستانتية والكالفينية ومقرها في جنيف والأخرى كاثوليكية ومقرها في روما، وسرعان ما أدى هذا الموقف إلى الزج بأوروبا في حروب دينية عنيفة استمرت من أواسط القرن السادس عشر إلى العقد الثالث من القرن التالي. أنظر: هيربرت فيشر، مرجع سابق، ص 250.

⁴ - نفسه، ص 251.

⁵ C.M. Cortepeter, Ottoman impérialisme during the reformation, Europe and the Caucasus, New York, 1972, p241.

⁶ - خطوط همايون: وهو الاسم الذي يطلق على الأوامر الصادرة من السلاطين وبكتابة أيديهم أو ما حرره الكتاب وأمضاه السلطان كما يطلق على التعليقات المدونة من لدن السلاطين على الملخصات المقدمة من الصدور

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

اللوثريين في فلاندره وغيرها من المقاطعات الإسبانية شجب السلاطين العثمانيون الكاثوليكية التي ترفض الإسلام كما ترفض اللوثرية، ودعوا زعماء الانتفاضة الهولندية لتنسيق أعمالهم مع مسلمي إسبانيا ومع كل الذين يقاتلون ضد البابوية¹.

وهكذا أصبحت حماية اللوثريين والكالفنيين² ومساعدتهم ضد الكاثوليك حجر الزاوية للسياسة العثمانية في أوروبا فقد سعت هذه السياسة إلى إحداث انقسام سياسي في أوروبا وإضعاف الهابسبرغ وعرقلة أي تنظيم لحملات صليبية جديدة³، وفي هذا الإطار غدت هنغاريا تحت الحماية العثمانية قلعة منيعة للكالفينية في أوروبا، ودعم العثمانيون الكالفنيين في فرنسا ضد العصبة الكاثوليكية المؤيدة لإسبانيا، كما استغل العثمانيون تحالفهم مع عصبة الشمال كادان للأمرء الألمان البروتستانت⁴.

2- تأثير السياسة الخارجية العثمانية على البروتستانت:

لا شك أن الدولة العثمانية استفادت من الانقسام في العالم المسيحي الكاثوليكي واستعملت البروتستانتية كورقة إستراتيجية رابحة في سياستها الخارجية اتجاه القوى الأوروبية خاصة الإمبراطورية المقدسة بقيادة شارل كان، هذا الأخير لم يكن مسترشداً بواجبه الديني

=العظام، ويطلق كذلك على الأوامر الصادرة من السلاطين ابتداءً ويسمى هذا النوع الأخير الخط الهمايوني. انظر: سهيل صابان، سبق ذكره، ص 101.

¹P.M.Hold, ,op.cit, p329.

² الكالفنيين: هم أتباع كالفن أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتية اتساعاً وأعمقها تأثيراً، فقد أوجدت الكنيسة البروتستانتية في فرنسا، وشكلت الجمهورية الهولندية وقبلها الاستكلنديون ديانة قومية لهم، وقبل وفاة كالفن كانت المقاطعات السويسرية قد قبلتها، واعتنقها معظم المجريين الذين خرجوا على روما، وحتى في إنجلترا حيث كان عليها أن تواجه تياراً جارفاً من الروح المحافظة. انظر: جلال يحيى و جاد طه، مرجع سابق، ص 154.

³ حملات صليبية: كان فرنسوا ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور النمسا يتنافسان من حين لآخر بمشروعات صليبية تستهدف استجلاء العثمانيين من ممتلكاتهم في أوروبا وغزو اسطنبول وطرد العثمانيين منها. انظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 1، ص 47.

⁴ خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 61.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

بقدر تأثيره بالموقف السياسي للإمبراطورية في أوروبا حيث كان الصراع قائما بينه وبين فرانسوا الأول ملك فرنسا ، كذلك كان من سوء حظ الكاثوليكية أن انتشرت اللوثرية في ألمانيا في الوقت الذي كان الأتراك العثمانيون يهددون ممتلكات الإمبراطور في المجر و النمسا ، فكان منهمكا في السياسة الخارجية مكثفيا في الداخل بمحاولة تهدئة الأحوال في ألمانيا حتى يستطيع أن يضمن إرسال المساعدات على وقف تقدم الأتراك لهذا ظل مدة طويلة لا يستطيع اتخاذ موقف حاسم ضد اللوثرية مما شجع أنصارها وقوى ساعدهم¹

وأدى الضغط العثماني خلال 1521 - 1555م والمساعدات العثمانية للأمراء البروتستانت² بشارل الخامس على تقديم بعض التنازلات للبروتستانت مما كان له أثرهم في الاعتراف الرسمي بالبروتستانتية³ في نهاية المطاف والجهود التي قام بها العثمانيون في أوروبا قد لعبت بشكل غير مباشر، ودورا خطيرا في التعريف بالحركة البروتستانتية وانتشارها وعلى الرغم من أنّ العثمانيين كانوا يقدمون العون من حين لآخر⁴ للبروتستانت فإنّ ذلك لم يحدث قط في شكل تدخل وعون مباشرين، وقد أسفرت الحملة التي استهدفت الإمبراطور مباشرة بعد عام 1532 عن سقوط كونز واضطر الإمبراطور خلال ذلك الصراع للاعتراف بالبروتستانتية نظاما دينيا وسياسيا⁵ ، وتخلص البروتستانت إلى درجة كبيرة من تسلط آل هابسبورغ الكاثوليك خلال الفترة ما بين 1533 - 1546م التي استمر فيها التهديد العثماني ، حتى أن البروتستانت رأو في الأتراك منقذا لهم في أواسط القرن السادس عشر

¹ - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص101.

² J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p326.

³ A.Bridge,op.cit,p167.

⁴ - إكمال الدين إحسان أوغلي ، مرجع سابق، ص38.

⁵ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص288.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

¹، وسوف تكون حريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية داخل الأراضي العثمانية مثالا بالنسبة للبروتستانت الذين يعيشون داخل الإمبراطورية نفسها ².

وخلال القرن السادس عشر ميلادي كان دعم وتشجيع البروتستانتية والتحالف مع فرنسا هو من المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية العثمانية، والهدف من ذلك الحفاظ على أوروبا منقسمة وإضعاف الهابسبرغ وتجنب الحملات الصليبية ³، فتحت الحكم العثماني عملت الكالفينية بكل حرية إلى درجة شاع فيها تعبير الكالفينية التركية وهكذا فقد أصبح الكالفينيون في فرنسا يعتقدون خلال النصف الثاني من القرن 16م أنه لا بد من استثمار التحالف مع العثمانيين ضد إسبانيا الكاثوليكية ⁴، فالتهديد العثماني كان من العوامل الرئيسية لانتشار وتوطيد البروتستانتية وحتى دعمها في أوروبا حينما ساعد العثمانيون مباشرة شمال هنغاريا وترانسلفانيا أين أصبحت الكالفينية ⁵ العقيدة السائدة.

وأضحت ترانسلفانيا تعظم لأنها الأولى التي أعلنت حرية المعتقد كما أنّ التهديد العثماني طالما أربك وعرقل الهابسبرغ في معركتهم ضد الإصلاح لكن عدم إمكانية شارلكان وفرديناند تكريس كل قواتهم في محاربة المرتدين البروتستانت وموارد شارل من الرجال والأموال كانت محدودة وبالتالي لم يستطع دعم أخيه لاحتراز النصر الحاسم على عدو المسيحية وعدم مقدرة تحقيق الهدفين وإرجاع البروتستانت إلى حجر الكنيسة ومطاردة أتراك أوروبا ومقاومة العثمانيين تخلى عنها ⁶.

لا شك أنّ السلطان سليمان العظيم (1520 - 1566) م بفضل هذه السياسة الخارجية القائمة على التوسع في أوروبا واستغلال الانقسام في العالم المسيحي استطاع انتزاع

¹ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 288.

² Fisher Galatti, op.cit, p55.

³ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 144.

⁴ P..M.Hold, ,op.cit,p329

⁵ - توماس آرلوند، مرجع سابق، ص 181.

⁶ E. clot, op.cit, p170.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

رودس وفرض الجزية على ترانسلفانيا¹ ومولدافيا²، وأخذوا من النمسا سبعة أعشار المجر وقد أثارت تلك الانتصارات البحرية والبرية حراس العقيدة المسيحية قلق أوروبا وقد بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج قوتها، واعتبر عدد كبير من المسيحيين الرعايا الباب العالي نعمة، خاصة لأنهم كانت لهم حريتهم الدينية³ ويمارسون شعائرتهم⁴ ويحتفظون بعادات أجدادهم فقد آثر الكثيرون منهم أي بروتستانت ترانسلفانيا والمجر العيش تحت الحكم الإسلامي على أن يقيموا في قبضة الجزويت⁵ ونظر البروتستانت إلى الدولة العثمانية بعين الرغبة⁶

- 1- ترانسلفانيا: هي إمارة ترانسلفانيا التابعة وتسمى بالعثمانية أردل. أنظر: ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص 51.
- 2- مولدافيا: كانت من آخر المناطق التي استولى عليها العثمانيون، وحاولت ملوك بولندا لاستعادة هذه الإمارة إلى سلطتهم من حين لآخر حتى أواخر القرن السابع عشر، إلى جانب دفع الجزية للدولة العثمانية فإنها بمنفذا السهل على البحر الأسود، شكلت جزءا لا يتجزأ من المنطقة الواسعة التي كان يؤثر فيها طلب الإدارة المركزية العثمانية على الغذاء والمواد الخام على أساس يومي. أنظر: نفسه، ص 176.
- 3- توماس أرلوند، مرجع سابق، ص 172
- 4- وهكذا فقد بلغت الفتوحات العثمانية أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني ودخل الناس إلى الإسلام ليس عن طريق الإكراه ولكن عن عقيدة واقتناع وقد قال السير توماس أرلوند في كتابه الدعوة إلى الإسلام: "إنّ المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيين للرعايا المسلمين.....على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في أوروبا وإنّ أصحاب كالفن في المجر وترانسلفانيا وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا طالما آثروا الأتراك على الوقوع تحت حكم الهابسبرغ المتعصبة. أنظر: علي حسون، مرجع سابق، ص 73.
- 5- الجزويت: أو اليسوعيين وهي جماعة كاثوليكية جديدة ذات الأثر البعيد في المحافظة على كيان الكنيسة الكاثوليكية ومؤسسها رجل نشأ بين الشعب الإسباني المعروف بتعصبه للكاتوليكية هو دون اينجو لوبيز دي ريكارلدى وكان من خصائص نظام العمل في جماعة الجزويت الطاعة والولاء للبابا وتكريس حياة الجماعة لخدمة الكنيسة وفي أي مكان يطلب منهم ذلك وقد تنوعت طرق الجزويت في محاربة البروتستانتية من طرق سياسة تعليمية. أنظر: هربرت فيشر، مرجع سابق، ص 250، 251.
- 6- توماس أرلوند، مرجع سابق، ص 190.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ومن نتائج السياسة العثمانية أنه اضطر شارل الخامس إلى عقد صلح اوجزبرج¹ 1555 يقر بالبروتستانتية ، والواقع أنّ هذا الصلح كان انتصارا كبيرا للبروتستانتية التي طالما دعمها العثمانيون ، ولكنه أدى الى تجزئة ألمانيا من الوجهة السياسية والدستورية وبعثتها إلى دويلات كثيرة منفصلة عن بعضها البعض ، وبوجه عام سادت اللوثرية في الشمال ، وفي دوقية قورنبرغ في الجنوب، بينما سادت الكاثوليكية في الجنوب وفي حوض الراين وفي ممتلكات الامبراطورية التي امتدت سنة 1555 إلى شمال هولندا.

ولم تقتصر حركة الإصلاح الديني على ألمانيا ، بل تسربت منها إلى البلاد الاسكندنافية في الدانمرك وفي السويد كذلك تسرب المذهب البروتستانتى إلى المقاطعات السويسرية، واستراحت ألمانيا فترة من الزمن من الحروب الأهلية رغم أن كل من الفريقين، الكاثوليكي والبروتستانتى لم يعتبر صلح أوجزبرغ الحل النهائي للمشكلة ، ولكنه على أي حال وضع حدا للنزاع المسلح ثلاث وستين عاما²

3- موقف البروتستانت من الأتراك العثمانيين :

في القرن السادس عشر حصلت تغييرات كبرى في موقف المسيحيين إزاء الإسلام بسبب تقدم العثمانيين نحو أوروبا³ ، ويجدر الإشارة هنا إلى أن لوثر مع أنصاره كانوا يتبعون موقفا سلبيا في البداية انطلاقا من إيمانه أن التهديد العثماني إنما هو عقاب من عند الله ، ولكن حين أخذ

¹ - وهو صلح ديني كان أهم ما جاء فيه المبدئين اعطاء الحرية لكل أمير يختار المذهب الذي يروق له في إمارته وتبقى أموال الكنيسة التي أخذها البروتستانت قبل عام 1552 في أيدي من استولى عليها من رجال الدين أو غيرهم وأما الأملاك التي فقدتها بعد عام 1552 فيجب ردها إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما.أنظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص109.

² - نفسه، ص109.

³ - يوسف علي ربيع الثقفي، أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا، دم.ن، 1989، ص38.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الخطر العثماني يهدد ألمانيا¹ كان التضامن الديني المسيحي حاضرا بين كل المسيحيين باختلاف مذاهبهم²، فالمنافسات لم تحل دائما أن يرى المسيحيون في غرب أوروبا وجنوب شرقها أنفسهم أنهم ينتمون إلى دين واحد، وكانت هذه المشاعر قوية على وجه الخصوص عندما يجابههم حاكم مسلم³ فلم يتوان اللوثريون عن مساعدة فرديناند ماليا وعسكريا في مقابل حصولهم على تنازلات لصالحهم بفضل الضغط العثماني.

كما شكل التدخل العثماني عاملا حاسما في ظهور الدول القومية، كما هو الحال مع فرنسا وفي بروز البروتستانتية في أوروبا أيضا⁴. حيث أن مارتن لوثر تهكم على تصورات القرون الوسطى حول الإسلام⁵، وقدّم لتأييد وجهة نظره عدة عينات ونماذج تقليدية مما سماه خرافة الأوروبيين وجهالتهم حيال الإسلام وإضافة إلى ذلك رفض لوثر فكرة الحروب الصليبية، ونادى بدلا من ذلك بوجوب اتخاذ موقف صبور متسامح من الأتراك لأنهم رأى فيهم عقوبة ربانية عادلة للمسيحيين بسبب خطاياهم وذنوبهم.⁶

ولكن ما إن اقتربت الجيوش العثمانية في سنة 1529م من فينا⁷ حتى تغيرت تلك اللهجة فأصبحت أكثر عدائية وحدّة، وانبعثت القوالب القروسطية التقليدية من جديد، مركزة على وصف الإسلام بأنه دين العنف، الذي يخدم المسيح الدجال وأنّ المسلمين معادون للعقل والعقلانية، ولهذا فإنّه لا فائدة ترجى، ولا طائل من محاولة تنويرهم وتحويلهم نحو الإيمان

¹ - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 61.

² - لكن هذه المشاعر نجدها بين الكاثوليك والأرثوذكس لأنهم لم تكن بينهم نزاعات عسكرية في الماضي القريب. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 100.

³ - نفسه، ص 100.

⁴ - خليل إنجليك، مرجع سابق، ص 58.

⁵ - أليكسي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف الجراد، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 97.

⁶ - نفسه، ص 98.

⁷ Fisher Galati, op.cit, p33.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الصحيح ، ولكن الحل الأجدى هو مجابتهم بقوة السيف وحدته¹ وتعاون الأمراء البروتستانت مع فرديناند فرغم الإختلافات والحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك² إلا أنّهما اعتبرا العثمانيون خطرا كبيرا على أوروبا الوسطى لا بد من تكاثف الجهود لمواجهة والتصدي له.

والواقع أن لوثر ذاته كان واحدا من الأوائل الذين صاغوا نموذجا جديدا كليا عن الإسلام ، مستخدما إياه كنموذج سلبي في جداله العنيف مع الكاثوليكية حيث يقول : "البابا والإسلام يشكلان من حيث الجوهر العدوين اللدودين للمسيح و للكنيسة المقدسة ، ولكن إذا كان الإسلام يمثل جسد المسيح الدجال ، فإنّ البابا هو رأسه" وبهذا الشكل ، أصبح الإسلام كما يراه لوثر مرادفا لمفهوم الخطيئة داخل الكنيسة المسيحية وبهذا المعنى فإنّ الكنيسة الكاثوليكية ذاتها أصبحت في نظر لوثر هي الإسلام³.

وبدءا من هنا أصبح المفكرون المسيحيون في أوروبا كثيرا ما يعودون إلى مبادئ الإسلام ليس بهدف المناظرة والمساجلة معه مباشرة ، بل من أجل استخدام نموذجه كوسيلة في المجادلات اللاهوتية والفلسفية المحتدمة وهكذا فإنّ اتهام بعضهم بعضا بالإسلامية أصبح هو الموضة الرائجة بين اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت في القرن السادس عشر، فلقد رأى البروتستانت في الإسلام وبالتالي في الكاثوليكية "عملا دون إيمان"⁴.

¹ - أليكسي جورافيسكي، مرجع سابق، ص 97.

² - انّ الإثنين ينتميان إلى كنيستين مختلفتين فرغم هذا فقد اجتمعا ضد المسلمين. أنظر: برنارد لويس، إكتشاف التقدم

الأوروبي، مرجع سابق، ص 199.

³ - أليكسي جورافيسكي، مرجع سابق، ص 98.

⁴ - نفسه، مرجع سابق، ص 98.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

المبحث الثاني: الصراع العثماني-النمساوي
وأثره على التوازن الأوروبي :
1-الدولة العثمانية والهابسبرغ في ظل التوازنات
العثمانية الأوروبية:
أ/الظروف والأسباب الدافعة إلى السيطرة على
المجر:

انفجرت القوة العثمانية في شرق البحر المتوسط ومنطقة الدانوب واضطرت أسرة الهابسبرغ إلى إعداد عدتها لمواجهة العثمانيين المتقدمين في عدد من النقاط الإستراتيجية بيد أن شارل الخامس كان حريصا وحذرا من التهديدات العثمانية على الأراضي الحدودية ، إذ تعددت الهجمات على تلك المناطق ، وأراد شارل أن يوحد المسيحيين في وجه المسلمين الغزاة على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، من الناحية الشرقية خاصة وأن أوروبا كانت في حالة لا تستطيع مقاومة الهجوم العثماني المتجدد¹

وظلت المجر عدوا تقليديا للعثمانيين منذ أن وطأت أقدامهم شبه جزيرة البلقان² فهي إما خصم مباشر أو حليفة لخصم مباشر، ثم كان ما كان من فتح بلغراد³ فاهتزت أرجاء المجر ورأى ملكها أنه هالك لا محالة، فعقد تحالفا صليبيا ضم كل جيوش أوروبا وبادر العثمانيون بلقائه في موقعة موهاكس⁴.

¹ - ادريس الناصري رائي، مرجع سابق، ص96.

² - تدفق العثمانيون صوب البلقان في البداية إلى إقامة النظام العسكري الجديد بنجاح أورخان على الملك الصربي لازار الخضوع للدولة العثمانية عام 1374م/745هـ ودفن الجزية، ولا شك أن التوسع في البلقان كان ضرورة أمنية قبل التوسع في الأناطول ذاتها إضافة إلى أهميته في إقرار عمليات التوطين العثمانية المنظمة، ولم يكن بغرض التدمير والمعاداة أنظر: محمد فؤاد كوبرلي، مرجع سابق، ص31.

³ بلغراد: وكانت هذه المدينة بمثابة درع يحمي به المجرئون كلما تقدم العثمانيون نحوهم وبالتالي فتحها يعني حرمان المجرين من هذا الدرع، كما أن توسطها للقارة الأوروبية جعل منها قاعدة صالحة لإنطلاقات عثمانية أخرى نحو قلب أوروبا واستغرق حصارها شهرا كاملا وتم فتحها سنة 1524/927م. أنظر: جاحي خليفة، مصدر سابق، ص285.

⁴ - عبد اللطيف هريدي، مرجع سابق، ص61.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

فقد كان الطموح الأول على مستوى السياسة الخارجية للسلطان سليمان القانوني والمبكر في أوروبا في بداية فترة حكمه فلا شك أن موهاكس¹ محطة تاريخية مهمة² من محطات التاريخ العثماني المجري³، فيعزى اتجاه السياسة الخارجية نحو غرب أوروبا، والبحر الأبيض المتوسط⁴ إلى تسلط إسبانيا التي حققت وحدتها على المغرب وغرب العالم الإسلامي، أما سبب اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو أوروبا الوسطى يعزوا إلى اعتبارات وتطلعات برزت في سياسة الدولة العثمانية الخارجية .

من خلال استغلال الظروف المواتية لبداية حملتها الأولى على المجر، وكان السلطان على دراية أن بلاد المجر منقسمة وأن السكان يعيشون في بؤس حتى إن كثيرا منهم كانوا ينتظرون قدوم العثمانيين ويعدونهم منقذين، كما كانت عواطف النبلاء متشنجة ضد الألمان إلى درجة أنهم لم يترددوا في أن يطلبوا من الملك طردهم من البلاد مع أن المجر بحاجة إلى مساعدة آل هابسبرغ، وشارك المجريون لوثر في نظرتة القائلة: "بأن انتصارات الأتراك إنما هي عقاب عادل لما اقترفه الرومان من فساد وظلم اجتماعي".⁵

في الشرق كما في الغرب على حد سواء ازداد الإعجاب بالعثمانيين ولا سيما في الأوساط الشعبية المضطهدة والمستغلة، يقول أغاتا نغيل كريستي إنه في شبه جزيرة البلقان والمجر وأوروبا الغربية وروسيا برزت مجموعات كبيرة من الناس كانت بأفكارها ومشاعرها وبدرجات متفاوتة لاثخاف غزوات العثمانيين وفتوحاتهم بل تدعوا إليها صراحة فالجماهير الشعبية ربما في معظم دول أوروبا الفيودالية ولاسيما بين الفلاحين تنتظر مقدم العثمانيين، وتعلق عليهم آمالها بالتخلص من سلطة الفيوداليين، وفي هذا المقام كتب مارتن

¹J.S.Shaw,op.cit,p88.

²Ogier Chislen De Busbecq,op.cit,p47.

³E.Clout,op.cit,p105.

⁴Mesut Uyar and Edward J. Erickson,op.cit,p37 .

⁵ - نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، صص 61، 64.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

لوثر(1546/1483م) "يطالب الكثيرون بقدوم العثمانيين وحكمهم"¹ وأشار في مكان آخر: "قد سمعت أن بعض الناس في الأراضي الألمانية متدمرون من الأمراء"²،

وابتداءً من جلوس سليمان إلى بلغراد... "فهو عهد شارل كان استغلت هذا الوضع الاهتمام بالعثمانيين³ الشديد فانتخاب ملك إسبانيا إمبراطوراً على ألمانيا، وكونه الأخ الكبير للملكة المجر باختصار حكمه أو سلطته على أوروبا الوسطى كمنطقة نفوذ حيث أصبح ماردا عجبياً⁴ يهدد الدولة العالمية، إذ أن وضع الدولة العثمانية العالمية مع إسبانيا بسبب المغرب ومسألة الأندلس واضح فصمم السلطان على تشتيت هذه الدولة وتقسيمها إلى دول، كما كانت في السابق، وكان يجب ضرب شارل كان في جبهتين، الجبهة الأولى في أوروبا الوسطى و الجبهة الثانية في البحر الأبيض المتوسط حيث قرر السلطان سليمان القانوني أن يترك الأمر في البحر إلى خير الدين بربروس⁵، أما مسألة أوروبا الوسطى فقد قرر أن يتبناها بنفسه⁶.

بدأ العثمانيون في عصر سليمان القانوني فتوحاتهم في أوروبا بفتح بلغراد التي كان المجرينيون يتولون حمايتها، وكانت علاقة العثمانيين بالمجريين في هذا الوقت متوترة إذ كان سليمان قد أرسل إلى ملك المجر رسولا يعلنه بتولي حكم العثمانيين⁷، فقتل الملك المجري رسول سليمان مما أدى بالسلطان العثماني إعلان الحرب على المجر وحاصرت القوات العثمانية بلغراد من البر

¹E. Clot,op.cit,p170.

² - نيقولا إيغانوف، مرجع سابق، ص62.

³Charles Hoch,op.cit,p152.

⁴ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص266.

⁵ - محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص204.

⁶ : يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، صص266، 267.

⁷L.S.Staviranos,the Balkan since 1453,Holt Rinehart and Winston,London,1958,p76.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ومن النهر وسلمت بلغراد¹ بعد شهر واحد من الحصار (عام 1521م)، واتخذها العثمانيون قاعدة حربية تنطلق منها قواتهم في فتوحاتهم الأوروبية².

فلا شك أن موهاكس سوف تبرز المزايا السياسية للعثمانيين في الحروب الحديثة المبكرة على الفعالية العثمانية في ميدان القتال الكبيرة جدا³ بحيث بدأ فتح السلاطين أوروبا الوسطى بأكملها، بل حتى إيطاليا، إحتمالا ملموسا وتكمن بعض المزايا المهمة للسلاطين العثمانيين في العجز السياسي لخصومهم، وهكذا لم يشعر فلاحوا البلقان أو قبرص أو المجر الثقلون بالضرائب بالأسى، فإن نبلاء المجر بشكل خاص كثيرا ما ثاروا ضد أسيادهم الهابسبرغ بمساعدة عثمانية صريحة أو ضمنية، وقد أثبتت محاولات الحكومة في فيينا بناء دولة مركزية ذات إيديولوجية مقاتلة مناهضة للإصلاح عدم جدواها إلى حد كبير عندما يتعلق الأمر بترسيخ سيطرة الهابسبرغ على المقاطعات المجرية التي انتشرت بها الكالفينية على نطاق واسع⁴.

كانت تحركات سليمان الأولى للإستلاء على بلغراد ثم رودس⁵ وارصوفا في 1522، ومثل هذه التحركات يمكن تفسيرها بالحاجة إلى الوصول بممتلكات الدولة إلى الحدود الطبيعية وتوفير الأمن اللازم⁶، وكانت بلغراد في هذا الخصوص بموقعها جنوب الدانوب تمثل آخر القلاع الحصينة في البلقان التي كانت ماتزال في أيدي غير عثمانية على حين كانت وارصوفا

¹E. Clot,op.cit,p58.

² - محمد حرب، حملات سليمان القانوني، مرجع سابق، صص 229، 241.

³R.De Lucinge,op.cit,p150.

⁴ - ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص 185.

⁵P.M.hold,op.cit,p325.

⁶Kamal Karpat,op.cit,p120.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

تتحكم في البوابة الحديدية ذات الأهمية الكبرى للملاحة في الدانوب، أما رودس فكانت لها خطورتها ليس على الأمن بل على التجارة الخارجية.¹

وانطلاقاً من الأوضاع الخارجية فكانت مواتية فالبنديقية كانت مرتبطة مع الدولة العثمانية بمعاهدة وليس من مصلحتها نقضها وكذلك مملكة راجوزا² التي حصلت مؤخراً على بعض الامتيازات الجديدة من الدولة العثمانية، و الشاه طهماسب المضغوط، فقد كان غير قادر على خوض الحرب رغم تأمره مع شارل الخامس، في حين الأفلاق قد خضعت للعثمانيين، وأما شارل فقد كان منهمكاً بالمشكلات في الغرب الأوروبي إلى درجة أنه يصعب عليه التدخل في شرقه.³

ب/ معركة موهاكس وانعكاساتها 1526م:

وتسمى حملة أنكروس الثانية، أي حملة المجر الثانية كما تدعى بحملة موهاكس، بعد فتح بلغراد تعرضت المجر والكروات وترانسلفانيا ودالماتيا إلى هجمات عثمانية متعددة، وفي هذه الحملة ألحقت أجزاء⁴ كبيرة من هذه البلدان بالدولة العثمانية وفي عام 932هـ/1523 فتحت الجيوش العثمانية قلاع مهمة من الناحية الاستراتيجية على نهر الدانوب⁵ بالإضافة إلى القلاع

¹ - بيتر شوجر، أوروبا العثمانية 1453 - 1804م (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)، ترجمة عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1419هـ/1998م، ص 187.

² - راجوزا: وهي جمهورية ديبرونيك السلافية الصغيرة التي تقع جنوب غرب البوسنة على ساحل دالماتيا وقد عرفت في المصادر العثمانية باسم دوبراونديك. أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 308.

³ E.Clout, op.cit, p106.

⁴ J.V.Hammer-Purgstall, op.cit. T5, p437.

⁵ Ibid, T5, p438.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الموجودة في منطقة سيرم¹ واحدة تلوى الأخرى، ثم قلعة إيلوك وعشرة قلاع أخرى بجوارها وأخيرا تم الإستلاء على قلعة أسسك على نهر دراوا كسياسة وقائية أولية.²

ولما عاد السلطان من رودس وبلغه خبر تعديت لاووش³ ملك المجر على حدود الدولة بالروملي صمم على محاربة المجر في 23 أبريل 1526 (11 رجب 932هـ) فأرسل إليها الصدر الأعظم ابراهيم باشا⁴ بجيش مركب من 30 ألف مقاتل وأسطول من 800 سفينة مشحونة بالذخائر إلى نهر الطونة ثم خرج السلطان سليمان القانوني للقتال،⁵ أحس ملك المجر لويس الثاني بالخطر العثماني الشديد على بقية بلاده فأخذ يستعد للحرب ويطلب العون من أوروبا، وعندما أحس سليمان بتحرك البابا لجمع القوات الأوروبية ضد العثمانيين، رغم أن هذا التحالف لم يتم لشدة العداء بين الهابسبورغ وفرنسا⁶

وحين وصل السلطان سليمان إلى مدينة موهاكس قدم له حاكمها الطاعة والخضوع وكانت العمليات قصيرة فسليمان الذي يغادر اسطنبول في 23 ابريل 1526م يتلقى الجيش في 29 اغسطس في سهل موهاكس المليئ بالمستنقعات وفي غضون مدة قصيرة لا تتجاوز ساعتين، تمكنت مدافع السلطان من ابادة السلاح الثقيل المدرع للفرسان⁷ وقتل الملك المجري

¹ - سيرم: وهي منطقة تبلغ مساحتها نحو سبعة آلاف كلم وتقع بين نهري الطونة وصوه أمام بلغراد.أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص313.

² - أحمد آق كوندوزو سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص237.

³ - لاووش: وهو آخر ملك مستقل للمجر قبل الفتح العثماني، ويعرف في أوربا باسم لويس الثاني، أما المصادر العثمانية فتشير إليه باسم لاوشولا يوشولاغوص.أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص292.

⁴ Kamel Pasha Zadeh, Histoire de la campagne de Mohacz, trA.J.B.Pavet de Courteille, ed Pavet de courteille, Paris, 1859, P74.

⁵ - حضرة عزتلو يوسف بك آصاف، مرجع سابق، ص62.

⁶ J.S. Shaw, op.cit., p91.

⁷ - كان لويس يعتمد اعتمادا كبيرا على فرسانه الذين اشتهروا بخوض غمار الحروب، فكون منهم قوة كبيرة استعد بها للتصدي للعثمانيين الزاحفين نحو موهاكس، وكان من حسن حظ العثمانيين أن بالي باشا أطلع السلطان على بسالة

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

لويس الثاني¹ في المعركة ويصبح الطريق إلى بودا مفتوحاً² ولعبت المدفعية العثمانية المتقدمة دورها في هذا النصر السريع الخاطف الذي أحرزه الجيش العثماني، بعد قطعه لمسافات طويلة قتل من الجنود المجريين الكثير وفر أيضاً عدداً كبيراً من ميدان المعركة³، وكان من ضمن هؤلاء الذين فروا إلى المستنقعات القائد الأعلى للقوات المسيحية⁴

فسقطت البلاد المجرية أمام العثمانيين ودخل سليمان القانوني⁵ بودا في الثالث من ذي الحجة من عام إثنان وثلاثون وتسعمئة هجري⁶ ومن بوادا⁷ أعلن السلطان سليمان القانوني خضوع مملكة المجر للحماية العثمانية ثم أصدر أمراً بتعيين أحد المجريين ملكاً عليها وكان هذا الملك هو جون زابوليا⁸ أمير منطقة أردل وهو الذي تعرفه المصادر الشرقية باسم

=الفرسان المجريين وشهرتهم في الحروب، فغيّر السلطان العثماني تنظيم الجيش في مواجهة هذه القوات القوية ورسم لها خطة لتطويق الفرسان المندفعة عن طريق التفهقر أمامها حتى تبلغ المدافع العثمانية، ثم تطويقها بالقوات من الخلف. أنظر: أحمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 239.

¹Kamel Pasha Zadeh, op. cit, p152.

² روبر مانتران، مرجع سابق، ص 220.

³ كانت الحصيلة ثقيلة لمعركة موهاكس عشرين ألف هنغاري من المشاة وأربعمئة ألف من الفرسان قتلوا. أنظر: J.V.Hammer-Purgstall, op. cit, T5, p439.

⁴ محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، صص 92، 93.

⁵Kamel pasha Zadeh, op. cit, p108.

⁶ علي حسون، مرجع سابق، ص 72.

⁷ بوادبست أو بودا: وتعني البلد العالي وتقع على الشاطئ الأيمن من نهر الطونة في مقابل مدينة بوست، وبعد ذلك انضمت المدينتان فأصبحت مدينة واحدة وهي عاصمة المجر. محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 211.

⁸ زابوليا: هو سجموند جانوس زابوليا حاكم أردل والمجر العثمانية خلف والده لفترة في حكم المجر، ثم عين على إمارة أردل من قبل الدولة العثمانية، ويعرف في المصادر العثمانية باسم يانوش الثاني أو استفان بن يانوش أو استفان قرال. أنظر: جاجي خليفة، مصدر سابق، ص 296.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

يانوش، وعاد سليمان القانوني إلى إستانبول بجيوشه¹ وبعد ثلاث سنوات تقدمت الجيوش العثمانية حتى وصلت أسوار فيينا²

كانت معركة موهاكس ثقيلة بنتائجها على المجر وبالغة الأثر على أوروبا، ومن خلال الحرب التي وقعت في موهاكس في عام 1526م وهزيمة الملك الهنغاري في المعركة وموته فيها، يكون العثمانيون قد نجحوا في كسر أهم خط للدفاع عن المسيحية ضدّهم في أوروبا الوسطى³ واستقر العثمانيون كقوة مهيمنة في أوروبا الوسطى تقريبا قرنين من الزمن⁴، كما امتدت رقعة الدولة العثمانية بعدها ووصلت حدودها إلى النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبالتالي دخلت الدولة العثمانية للمرة الأولى بين دول أوروبا الوسطى⁵

اتبع العثمانيون في زحفهم العسكري على أوروبا سياسة التسامح الديني وهي سياسة تقوم على الجهاد السياسي، واستهدفت منها إضعاف المسيحيين إذ تركوهم نهيا للمنازعات المسيحية بين أنصار الكنيسة الكاثوليكية وأنصار المذاهب المسيحية الأخرى التي انبثقت عن مارتن لوثر في ألمانيا، فالحكم العثماني في أوروبا تميز بطابعين.⁶

ومن نتائج معركة موهاكس الانتصار الكبير⁷ عواقبها الخطيرة بالنسبة لأوروبا، فبعد هزيمة الجيش المجري ومقتل لويس آخر ملوك أسرة جاجلون و من ثم الإستيلاء على المنطقة من طرف العثمانيين كلها الممتدة حتى أبواب فيينا⁸ مما سيمهد للوجود العثماني في المنطقة.⁹

¹ - محمد حرب، حملات سليمان القانوني، مرجع سابق، ص 93.

² - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 80.

³ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 38.

⁴ W. E. D. Allen . the Turks in Europe, Oliver and Boya ,London, 1919 .p1.

⁵ - قيس جواد العزاوي، مرجع سابق، ص 18.

⁶ - هربرت فيشر، مرجع سابق، ص 93.

⁷ E. Clot,op.cit,p82 .

⁸ Subhi Labile, The Era of Suleyman, the Magnificent crisis of orientation, **middle east-studies**, printed in Grand Britain Cambridge, London, sd. Ed, p454 .

⁹ E.S. Creasy, op.cit p, 165.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

حيث استولى العثمانيون على الجزء الأكبر من المجر واحتفظوا به حتى أواخر القرن السابع عشر ميلادي¹ ، ووضع فرديناند حاكم النمسا وصهر لويس الثاني ووريثه على الباقي منها، وكانت النتيجة المباشرة لهذا الانتصار خضوع بوهميا والمجر زمنا طويلا لأسرة الهابسبرغ².

حملت موهاكس مهمة جديدة على عاتق الإمبراطورية المقدسة وأعطى للهابسبرغ مهمة الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين، هذا الدفاع الذي كان من الممكن أن يلقي على كاهل الأمة المجرية³ لولا موهاكس، وقد اختفت المجر بعدما كانت الحاجز الضروري الوحيد القوي في وجه إمبراطورية إسلامية متوسعة وهي نقطة حاسمة في تاريخ السياسة العثمانية⁴.

وبعد هذه الخطوة المدروسة في السياسة الخارجية لم تصبح المجر تمثل أي تهديد، ولم تكن بعد في أيدي الهابسبرغ وأكثر من هذا كانت المجر مازالت تعاني تعاني من آثار ثورة الفلاحين الكبرى التي حدثت عام 1514 تمزقها التحزبات والصراعات السياسية، ويحكمها شاب وقد يفسر هجوم سليمان على المجر خطوة عدوانية تستهدف مزيد من الانتصار ومن الممكن أيضا اعتباره محاولة من سليمان للاستفادة من الموقف المضطرب في ضربة تترك البلاد ضعيفة منهكة لسنوات طويلة، ومن ناحية أخرى فإن المجر الضعيفة تعطي الفرصة للعثمانيين لتركيز جهودهم اتجاه حدود الدولة الصفوية، حيث يواجهون هناك مصاعب ضخمة⁵.

لا شك أن سليمان عندما توجه إلى المجر لتحقيق أهداف استراتيجية، لكن السياسة التي اتبعها بعد النصر والتي كانت من الضخامة والتنوع بحيث كان ولا بد أن تثير دهشة الجميع

¹ - هربرت فيشر، مرجع سابق، ص 94.

² L .S.Staviranos,op.cit,p76.

³ - هربرت فيشر، مرجع سابق، ص 94.

⁴ Colonel La Mouche,op.cit,p114 .

⁵ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 234.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

حتى سليمان نفسه ، لم يكن يحمل فكرة الغزوات الدائمة¹ ، وقد اكتفى العثمانيون آنذاك بأخذ منطقة سريم² فقط بينما انسحبوا من بقية هنغاريا ، وسوف يرى العثمانيون من الأنسب أن يجعلوا منها حزاما أمنيا يخضع لسيطرتهم ولعل ذلك كان نتيجة لسياسة التوازن التي شاء السلطان سليمان القانوني أن يسير عليها في أوروبا³ حيث قام المجلس الهنغاري هناك بانتخاب ملك جديد للبلاد يوحنا زابوليا⁴ وفي الواقع لقد فضل العثمانيون في البداية أن تكون هنغاريا دولة تابعة⁵ لهم كما كان الأمر مع مولدافيا ، لأن تطبيق الحكم العثماني المباشر في بلاد غربية بشكل كامل على الطرف الأبعد لنهر الدانوب كان صعبا ومكلفا.⁶

في حين أن أنصار آل هابسبرغ بعد فترة وجيزة أعلن بقية أمراء المجر عدم رضاهم على انتخاب الملك الجديد ، وقرروا ترشيح فرديناند أخ شارل الخامس إمبراطور ألمانيا من أسرة هابسبرغ وملك بوهيميا ودوق النمسا في هذا المنصب ، وقد كان فرديناند زوجا لأخت الملك الراحل وادعى بأحقية في الحكم المجري⁷ ، وبهذه الطريقة وجد للمجر ملكان ، أحدهما تباركه الدولة العثمانية وهو زابوليا، والآخر يحميه امبراطور ألمانيا وهو

¹ - بيتر شوجر، مرجع سابق، ص 89.

² - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 549.

³ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 38.

⁴ S.laine-Poole,op.cit,p180.

⁵ - فالواقع أن سياسة الوضع تحت التبعية أي الإكتفاء بقبول الطاعة والولاء كان من أساليب الفتح العثماني إذ كانت تستهدف التخفيف من حدة ردود الفعل التي يمكن أن تظهر نتيجة للفتوح المفاجئة ، فلا يجري إلحاق المنطقة تماما إلا بعد أن تهدأ المشاعر فيها وتتعاطف مع الحكم العثماني والدليل على ذلك أن عرش المجر كان سترك ليانوش زابولاي الذي انتخبه النبلاء المجريون ملكا.أنظر: إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 38.

⁶ - خليل اينالجيك، مرجع سابق، ص 58.

⁷ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 214.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

فرديناند¹، وقد سبب هذا التصرف في عدااء طويل الأمد بين الدولة العثمانية وبين الامبراطورية المقدسة².

2- الحسم العسكري في المجر والتعثر في النمسا 1529 م:

أ- الحملة على المجر (1527-1529م) وبداية التوتر مع النمسا:

طرأت تغيرات على الصراع في الدانوب إذ تغيرت ملامحه، فالصراع المجري العثماني لم يستمر طويلا، بل انتقل الصراع و المنافسة إلى الهابسبرغ والعثمانيين حول السيطرة على المجر وامتلاكها، وفي 1529 شجع السلطان سليمان القانوني من طرف الملك الفرنسي³ لمهاجمة المجر مرة أخرى عملا على إعانة زابوليا⁴ بعد إعلان فرديناند ملكا زحف هذا الأخير ضد منافسه زابوليا⁵ الذي تنزل به الهزيمة عند أول اشتباك، وعندئذ يطلب مساعدة السلطان العثماني في استرجاع عرشه تلك كانت أصول الحملة الرابعة التي غادر سليمان القانوني من

¹ أصبح للمجر ملكان دخلا في حرب أهلية طاحنة استمرت حتى عام 1538م. أنظر: بيتر شوجر، مرجع سابق، ص 88.

² محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 240.

³ W.E.P.Allen, op.cit, p37.

⁴ حيث أن زابوليا انتخب من بعض أمراء المجر خلفا للويس الذي قتل في معركة موهاكس وبعد فترة وجيزة أعلن بقية أمراء المجر عدم رضاهم على انتخاب الملك الجديد، وقرروا ترشيح فرديناند أخ شارل الخامس إمبراطور ألمانيا من أسرة الهابسبرغ وملك بوهيميا ودوق النمسا وقد كان فرديناند زوجا لأخت الملك الراحل، وبهذه الطريقة وجد للمجر ملكان، أحد تباركه الدولة العثمانية وهو زابوليا، والآخر يحميه إمبراطور ألمانيا وهو فرديناند، وقد سبب هذا التصرف عدااء طويل الأمد بين الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية. أنظر: محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 240.

⁵ وقع نقاش ديبلوماسي حاد على حقوق المتنافسين على العرش المجري وقد أجرى سليمان محادثات حول هذا القضية حتى مع فرنسا وبما أن السلطان كان بجانب زابوليا قرر استئناف هذه السياسة بالقوة وأعلن أنّ هدفه النهائي من حملته هي فيينا. أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 236.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

أجلها اسطنبول في 10 ماي 1529 برفقة الصدر الأعظم¹ بجيش كان عليه الهجوم على ممتلكات أسرة الهابسبرغ النمساوية .

وكان اللقاء بين الجيش العثماني بقيادة سليمان القانوني مع جيش حليفه يانوش زابوليا² الذي اعترف بسلطة السلطان العليا، وفي 3 سبتمبر ظهر الجيش العثماني قرب أسوار بودا الخاضعة لفرديناند الذي تمكن من أخذ المدينة من يانوش زابوليا ، وتعرضت بودا للحصار وعجزت حاميتها عن مقاومة الأتراك العثمانيين وفي 8 سبتمبر استسلمت بودا العاصمة المجرية.³

وارتفع حدة التوتر عام 1531م عندما اقتحم فرديناند هنغاريا للمرة الثانية وحاصر بودا،⁴ وقد رد السلطان سليمان على ذلك في السنة اللاحقة بحملة ضخمة إخرقت هنغاريا ووصلت إلى قلعة كونز التي لا تبعد سوى 60 ميلا عن فيينا، حيث كان يأمل السلطان بجر شارل إلى موقعة حاسمة إلا أنه في تلك اللحظة نجح أندري دوريا في إشعال جبهة البحر المتوسط⁵.

وفي هذا الإطار لم يتأخر في استئناف الأعمال الحربية، خاصة بعد حصار بودا يخرج سليمان في 25 أبريل 1532م في حملة تسميها كتب الأخبار العثمانية "حملة ألمانيا" إذ كان يتعين على الجيش الوصول إلى جراتس⁶ التي يصل إليها في سبتمبر ومن ثم في وقت متأخر جدا من الفصل بما لا يسمح بالزحف إلى مكان أبعد منها ويستولي العثمانيون على الفلاخ في المجر الجنوبية و لم تكن تقتضي مثل هذا الحشد للإمكانات، وسوف تؤدي مفاوضات دبلوماسية،

¹ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 221.

² - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 216.

³Kamel Pasha Zadeh,op.cit,p97.

⁴ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 217.

⁵ - خليل اينالجيك، مرجع سابق، ص 58.

⁶ - جراتس: مدينة على نهر الدانوب من شرق فيينا.أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 219.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

تبدأ بعد ذلك بوقت قصير في اسطنبول إلى هدنة¹ وإلى إبقاء مؤقت على الوضع القائم في المجر حيث يحتفظ كل من فرديناند وزابولاي بالأراضي التي كان يسيطر عليها في أواخر عام 1529م ويدفع كل منها الجزية لسليمان بناءً على ذلك.²

وتسارعت الأحداث بعد وفاة زابولاي عام 1541م وقامت زوجته بإرسال وفدا إلى اسطنبول، لاستئذان السلطان في أن يتولى ابنها الرضيع سجموند³ مكان أبيه، فوعدها سليمان القانوني بتحقيق رغبتها⁴، ومن جهة أخرى لما علم فرديناند بموته حتى قام باختراق هنغاريا مرة أخرى وقام السلطان بحملة أخرى على المجر⁵ إلا أنه في هذه المرة طبق سياسة خارجية مغايرة وهي قائمة على الحكم العثماني المباشر⁶، مما جعل المجر ولاية عثمانية تحت حكم بكربك كغيرها من الولايات بينما أرسلت أرملة زابولاي وابنها القاصر إلى ترانسلفانيا التي كانت حينئذ دولة ثابتة وكان قد بقي في حوزة فرديناند من عام 1526م شريط ضيق من الأراضي المجرية⁷، يقع في غرب البلاد التي آلت الآن إلى العثمانيين كوريثة للعرش المجري وكان الإستلاء على بودا قد أثار هياجاً عظيماً في كل ألمانيا، ونجح

¹J. S.Show,op.cit,p94.

⁶W.E.D.Allen,op.cit,p37.

³ - عندما توفي زابولاي ترك وريثاً من زوجته البولندية ايزابيلا جون سجموند ولم تستطع أمه الاحتفاظ بالعرش لابنها الوليد وابقاء الهابسبرغ بعيداً، إذ لم تكن هناك سوى قوة في البلاد قادرة على صد قوة الهابسبرغ أو قطع الطريق عليها. أنظر: بيتر شوجر، مرجع سابق، ص 89.

⁴ - محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 243.

⁵.J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p328.

⁶ - وهنا عاد سليمان إلى المجر في 1540 ليجعل من مدينة بودا إيالة عثمانية ومن الطفل جون سجموند (ابن زابولاي) ملكاً على المجر وتابعا للدولة العثمانية ومسؤولاً بوصاية أمه ايزابيلا على المقاطعات الشرقية للبلاد وقد أدى هذا القرار إلى تقسيم المجر إلى 3 أجزاء، الجزء الغربي في حوزة فرديناند، والوسط إيالة عثمانية والجزء الشرقي تحول بسرعة إلى ولاية عثمانية تابعة عرفت بإمارة ترانسلفانيا أنظر: بيتر شوجر، مرجع سابق، ص 89.

⁷ - خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 57.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

العثمانيون في إفشال العمليات العسكرية التي استهدفت بها القوات المجرية العثمانية مدينة
بشتة¹

ومن أهم تطورات عام 1543م زحف السلطان ثانية على المجر لإخضاع المنطقة وانضمت
وحدة من المدفعية الفرنسية إلى الجيش العثماني في المجر² وأدّت هذه الحملة إلى الإستلاء
على بعض المواقع الاستراتيجية الهامة و إلى فتح إيزتيريو موزيكيسفهير وعدد من الأماكن في
المجر الغربية وهو ما يؤدي إلى حماية بودا وتأمينها بسلسلة من الحصون المتقدمة، ومنذ السنة
التالية، أي 1544م قام والي بودا بمواصلة تلك الفتوحات واستطاع توسيع تلك الحدود عن
ذي قبل، و توطيد القوات العثمانية والدفاع عن الولاية بالاستيلاء على قيسجراد³ وسوف
تؤدي مفاوضات طويلة وصعبة مع سفراء فرديناند في 19 يونيو 1547م⁴ إلى عقد هدنة
مدتها خمس سنوات، وقد اعترفت النمسا بتبعيةها للباب العالي بموجب هذه المعاهدة التي
رفض شارل الخامس التوقيع عليها⁵.

ب/ حصار فيينا والإخفاق العثماني 1529م و 1532م:

تحتل سياسة الدولة العثمانية الخارجية اتجاه القوى المسيحية وعلى رأسها الإمبراطورية
الرومانية المقدسة وعاصمتها فيينا⁶ قسما كبيرا من إهتمامها وقسطا كبيرا وفعالا من
جهودها، ومن الطبيعي أن تقرر الدوافع الدينية⁷ التي احتلت مكانة بارزة من بين الدوافع
المحركة للسياسة الخارجية العثمانية اتجاه الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى رأسها

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 39.

² - خليل انالجيك، مرجع سابق، ص 58.

³ Gilles Veinstein, Autoportrait du sultan Ottoman conquérant, Les éditions Isis, Istanbul, 2010, p34

⁴ Colonel La Mouche, op.cit, p100.

⁵ - روبرت مانتران، مرجع سابق، ص 227.

⁶ Sir Valentine Chircole and Lord Eversley, op.cit, p121.

⁷ - محمد أنيس، مرجع سابق، ص 23.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

الإمبراطور شارل الخامس من معاصري السلطان سليمان القانوني ومن أبرز حكام أسرة الهابسبرغ في أوروبا¹.

والسياسة الخارجية كانت تتركز بأيدي السلاطين العثمانيين في السؤال الدائم حول السلم أو الحرب مع القوى الموجودة خارج ممتلكاتهم، كان اتسم القرار عليها نظريا فقد بواسطة الديوان، وفي الواقع أن السياسة الخارجية في عهد سليمان القانوني كانت تقرر من قبله بالاشتراك مع ابراهيم والمفتي.

لا شك أن السياسة العثمانية الخارجية في القرن 16 م بوسط أوروبا تعد محطة فارقة في تاريخ أوروبا خلال العصور الحديثة، وكان للتقدم العثماني انعكاساته المتشعبة والعميقة على العالم الإسلامي والعالم المسيحي، إذ لم يكد العثمانيون ان يثبتوا أقدامهم في المجر حتى توسعوا ووصلوا الى أسوار فينا ودخلوا في صراع مرير ومتواصل مع آل هابسبرغ للسيادة على أوروبا الوسطى² فازدادت الهجمات العثمانية ضراوة على الجبهة الشرقية لأوروبا وحوصرت فينا³ التي كانت حمايتها من مسؤولية فرديناند الذي التزم بالذود عنها وكانت امكانيات المجر لا ترقى لمواجهة الموقف، بالإضافة الى ذلك حالة الفوضى الدينية التي ازدادت وأصبحت تهدد بالثورة⁴.

فلم يكن غرض الحملة للسلطان سليمان السيطرة على فينا بل كان غرضها العثور على الجيش السيار وإبادته، حيث جاء لفينا لتعجيز العدو ولم يكن ذلك ضمن خطته كما أنه ترك مدافع الحصار الثقيلة في بودا وحوصرت المدينة مدة تسعة عشر يوم فقط (27 سبتمبر- 16 أكتوبر 1529م) فلم تكن هذه المدة كافية في ذلك العهد لإسقاط قلاع بهذا الحجم

¹J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p146.

² - هارولد لامب، مرجع سابق، ص 160.

³J.S. Shaw,op.cit,p93.

⁴ - إدريس الناصري رانسي، مرجع سابق، ص 73.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

عنوة، فعلى سبيل المثال كان السلطان سليمان قد أسقط قبل عدة سنوات قلعة بلغراد خلال أربعة وثلاثين يوم. وورودس خلال 144 يوم.

لم يتمكن السلطان من العثور على الجيش الألماني السيار ولم يشأ شارل كان أن يرتكب عملا خاليا من الحيلة كهذا، اذ رفع الحصار عند هطول الثلج ودامت الحملة الهمايونية الرابعة مدة سبعة أشهر وسبعة أيام وكانت أكبر عملية غزو في التاريخ العثماني أصبحت المنطقة من النمسا، بافيرا، مورافيا، بوهيميا، سلوفاكيا، سيليزيا، سلوفينيا وحتى الحدود السويسرية مجالا للغزو¹ وبالتالي مجالا حيويا في اعتبارات السياسة الخارجية العثمانية.

وبعد التوغل العثماني داخل عمق القارة الأوروبية فانتشرت الأنباء في كل أنحاء أوروبا بأن سليمان القانوني أقسم أن يخضع كل سكانها للعقيدة الاسلامية. وأدرك الأوروبيون أن الخطر لا يتعلق هذه المرة ببلاد المجر و بلدان الدانوب بل بقلب أوروبا فكان عليهم تجنيد كل الطاقات لمقاومة الغزو، لذا فان حتى بروتستانت ألمانيا² حشدوا قواهم وقاموا بترتيب الدفاع عن المدينة بصورة محكمة ذلك أن شارل الخامس هددهم باتخاذ عقوبات ضدهم اذ هم تخلوا عن فرديناند في هذه المحنة³.

لقد أصبح حصار سليمان لفينا في خريف 1529⁴ حدثا بارزا في التاريخ وكثيرا ما قيل أن الغزو العثماني قد بلغ في أقصى زحفه أسوار فينا تلك السنة ثم أوقفت هناك بتأثير الحصار، وأكثر الأمور غرابة حول حصار فينا هو انه لم يحدث مطلقا مواجهة عسكرية أو صدام مباشر وما حدث هناك على الدانوب⁵ في أواخر سبتمبر كان معركة لم توقف التوسع العثماني مطلقا ولم تحسم الصراع بين السلطان سليمان القانوني والإمبراطور شارل الخامس أو أخيه فرديناند⁶.

¹ - يلماز أوزوتونا، مرجع سابق، م1، صص 273، 274.

² A, Bridge, op. cit, p114.

³ R. B. Merriman, op. cit, p105.

⁴ S. Laine-Poole, op. cit, p18.

⁵ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، صص 218.

⁶ - هارولد لامب، مرجع سابق، صص 138.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وما حدث هناك هو محاولة استدراج شارل الخامس الى السلطان سليمان فلم يحظ السلطان هذه المرة أيضا بفريسته ذلك ان شارل الخامس لم يخرج للقتال وفضل البقاء داخل أسوار فينا¹، على الرغم من محاولات السلطان استدراجه للقتال في الميدان، فتجنب بهذا التصرف مجابهة هي بدون شك خاسرة ثم عمد الى مغادرة المدينة عند اقتراب الجيش العثماني منها.² وأصرت السياسة العثمانية على إجتياز عقبة فينا في محاولة أخرى عام 1532 حيث سار السلطان سليمان القانوني من استانبول مرة أخرى نحو الغرب لمحاربة الامبراطور شارل الخامس³، على رأس جيش قدر بمائتي ألف مقاتل وأربعمئة مدفع قاصدا مدينة فينا لفتحها ومحو ما لحقه من فشل في المرة الأولى وعندما وصل الى نيس وصله مبعوثان من قبل فرديناند للتفاوض من جديد حول تحقيق السلم غير أنهما فشلا في حمله على العدول عن موقفه.⁴ وشاركت هذه القوات الدفاع عن البوابة الشرقية لأوروبا ولكن أمام الضغط العثماني تشتت شملها في هذا الوقت لم تكن لدى الأرشيد وق فرديناند القوة الكافية لشن هجوم على السلطنة العثمانية إذ كانت قواته تعاني من الضعف والخطط المعنويات بسبب ضعف المرتبات أمام حاجة فرديناند الماسة الى المال لخوض معركة طويلة ومكلفة على الدانوب.

حاول فرديناند عرض السلام على السلطان العثماني لكنه رفض⁵، في غضون ذلك تلقى عرضا آخر من فرنسا هذه المرة قدّمه سفيرها رانسون⁶ الذي اجتمع به في مدينة بلغراد

¹L.S.Stavrianos,op,cit,p78.

²E.Clout,op.cit,pp119-120.

³ - لم يكن محاصرة فينا هذه المرة بل تأديب أسرة الهابسبرغ العريقة لكن هذه الأخيرة عندما علموا بوصول سليمان القانوني تجنبوا مواجهته، ولما لم يتحركوا للحرب، أرسل سليمان إلى فرديناند رسالة كلها إحتقار دفعا لحماسة إلى الحرب، لكن آل هابسبرغ لم يتحركوا وصدّرت أوامر للإنكشاريين للقيام بعمليات عسكرية سريعة في داخل ألمانيا غنموا فيها وأسروا وانتصروا وعندما حلت الشتاء عادت الحملة العثمانية بأكملها إلى إستانبول.أنظر:محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص63.

⁴E.Clout,op.cit,p116

⁵P.Coles,La Lutte contre Les Turcs,Flammarion,Paris,1969,p131

⁶E.Clout,op.cit,p116.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

¹ تضمن اللقاء حث السلطان على مجابهة شارل الخامس في ايطاليا وليس ألمانيا ، إلا أنّ السلطان سليمان القانوني وعد السفير الفرنسي باصدار أوامره الى خير الدين بربروس لمهاجمة ميلانو وجنوة² لآته يتعذر تغيير الخطط العسكرية³ أضف إلى ذلك أنّ الجيش العثماني قد وصل إلى فينا متأخرا ، فبحكم العادة كانت الحملات العسكرية العثمانية تنتهي في سبتمبر وأكتوبر من كل عام وكان الجيش يقضي شتاؤه في العاصمة⁴ ، وفي هذه الحالة كان واضحا أنّ الحصار سيمتد لفترة طويلة إذ كان حصن فينا منيعا جدا، لم يكن لدى الجنود العثمانيين أي تمس وم مع كل هذا بدأ الحصار وأخذت المدفعية العثمانية دورها.⁵

في الأخير اتضح أنّ الجيش العثماني المرهق من الحملة الطويلة والشاقة عاجز عن تنفيذ الواجب الذي وضع على عاتقه، الى جانب البنادق الألمانية الطويلة وجسارة المدافعين ، أنقذ فينا من السقوط ومن أسباب الفشل بعدها ، ولم يكن الجيش العثماني معتادا على اجتياز المسافات الطويلة كما أنّه أرهق وسخط على حالته المادية ، فأدت هذه العوامل مجتمعة الى ضعف عزمته⁶ كما أسفرت الحملة العثمانية على ألمانيا عن خوف فرديناند وإيمانه بأن لا قوة في أوروبا تستطيع التصدي لسياسة سليمان القانوني التوسعية ، فاضطر إلى طلب الصلح⁷ ، ووافق السلطان القانوني بشرط أن يعترف بأنّه ليس ندا للسلطان العثماني و أنّه مجبر في

¹P.M.Hold,op.cit,T5, p326.

² اتسمت العلاقات العثمانية ببعض المدن الإيطالية بعدم الإستقرار نتيجة الأحداث الكبيرة التي تخللت القرن الخامس ، حيث تم القضاء على الإمبراطورية البيزنطية وضيّق على تواجد الدويلات الإيطالية هناك وفي البلقان أما في القرن 16م فأصبح لها دورا بارزا في تأجيج الصراع العثماني الاسباني في الحوض الغربي للمتوسط ، وساهمت مساهمة كبيرة في توسيع نشاط فضاء القرصنة وتجارة الأسرى كعبيد.أنظر: ابراهيم سعيود، مرجع سابق ، صص 151، 152.

³ اميل خوري ، واسماعيل عادل، مرجع سابق ، صص 5، 6.

⁴Renée De Lucinge,op.cit,p15.

⁵Sir Valentine Chricole and Lord Eversley,op.cit,p122.

⁶L.S.stavrianos,op.cit,p77.

⁷J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p178.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

معاهدة الصلح على الاعتراف بزابوليا ملكا على المجر تحت الحماية العثمانية، ووافق فرديناند على 3000 دوقه ذهبية جزية للدولة العثمانية.¹

ويبدو أنّ حملة فينا ترمز إلى الحد الأقصى الذي يمكن بلوغه في الغرب خلال فصل واحد من جانب الجيش العثماني الذي جرت العادة على ألا يخرج قبل أواخر أفريل وعلى أن يرجع قبل الشتاء، وعلى الرغم من تفوقهم في الرجال والعتاد، فإن العثمانيين لن يكرروا التجربة من جديد قبل عام 1683م، وفي هذه أيضا سوف تمنى التجربة بالفشل²، إذ تصبح فينا بعيدة المنال، فإن الحملات العثمانية ضد النمسا، والتي لا تصل إلا نادرا، إلى الولايات الوراثة لآل هابسبرغ، تبدو تكرارا لعمليات الزحف دون معركة حاسمة، تعود باستنفاد القوى والخراب على كلا من الجانبين³.

3- تثبيت الحكم العثماني في المجر :

تغيرت الأوضاع في ربوع بلاد المجر والنمسا وتميزت بالاستقرار ومن أسبابا ذلك الدسائس مثل دسياسة راهب يدعى مارتنوري⁴ كانت قربته اليها الملكة إيزابيلا بناء على وصية زوجها⁵ لها قبل موته فأنه سعى في التوفيق بين الملكة وفرديناند ملك النمسا حتىّ إنّه تحصل بقوة دهائه وسلطته الدينية على تنازل الملكة الى فرديناند عن اقليم ترانسلفانيا ومدينة تمسفار⁶ وخلافا لشروط الهدنة سير فرديناند جيشا نمساويا لاحتلالها، وفي أثناء هذه الجوسسة كان الراهب⁷ يرسل السلطان سليمان القانوني ويظهر له الإخلاص وصدق الولاء لكن لم تقف حقيقة الأمر على السلطان بل علم بهذا التنازل المخالف للعهود وأرسل

¹ - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص 64.

² - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 203.

³ - رويبر مانتران، مرجع سابق، ص 222.

⁴ Mihnea Berandie et Gilles Vein Stein, L'Empire Ottoman et les pays Roumains, *Annales economiessoci et sicivilisations*, année 46, n°1, Paris, 1991, p111.

⁵ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 240.

⁶ - تمسفار: هي إيالة من الإيالات العثمانية. أنظر: Evliya Celebi, op.cit, p92.

⁷ R.B.Merriman, op.cit, p262.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

على الفور جيوشه للمحافظة على نفاذ شروط الهدنة وارجاع النمساويين إلى حدودهم فأرسل جيشا مؤلفا من ثمانية آلاف جندي إلى بلاد المجر في شهر سبتمبر سنة 1551¹. ولم يقابل هذا الجيش مقاومة تذكر بل فتح بكل سهولة القلاع والحصون المحتلة من طرف جيوش النمسا لإخلاء النمساويين منها و عند اقتراب الجنود العثمانيين إليها ودنوها منها ، ولما رأى الراهب مارتينوزي أفول نجمه وعدم نجاحه في الحصول على مأربه أراد السعي لدى السلطان مظهرا له ميله لمساعدته في اخضاع اقليم ترانسلفانيا² الذي قاوم الجيوش العثمانية مقاومة شديدة طمعا في أن يعين هو واليا عليها فأحس فرديناند بخيانتته ودس عليه من قتله في ديسمبر³ 1551م.

ولقد كان لانتصار العثمانيين على النمساويين عام 1552⁴ في عدة نتائج و إحكام السيطرة على تمسفار⁵ وحاصرت الجيوش بعد ذلك مدينة ارلوفي بلاد النمسا الحصينة مدة من الزمن ثم رفع عنها الحصار وهي آخر حملة لسليمان القانوني على بلاد المجر كانت تهدف سياسته إلى توطيد الحكم العثماني في المنطقة وتعويض فشل القوات العثمانية في الاستيلاء على جزيرة مالطا⁶ بنصر آخر في المجر، فخرج على رأس جيش قوي⁷ وكان المرض قد ألمَّ به قبل خروجه من الأستانة وبلغ المدينة⁸ واستعصت عليه شهرا كاملا⁹.

¹ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 312.

²J.V.Hmmer-Purgistall,op.cit,T5.p288.

³Ibid,288.

⁴Gilles Veinstein,op.cit,p31.

⁵Ernle Bradford, the great siege, Hodder and Stoughton, London, 1968, p222.

⁶ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 322.

⁷S.Laine-Poole,op.cit,p195.

⁹ - حاجي خليفة، مصدر سابق، صص 322، 323.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

وهي الحملة الرابعة عشر التي خرج إليها من استانبول يوم 9 شوال 673هـ / 29 أبريل 1566م¹ وهو شيخ هرم أتبعه مرض النقرس ثم توفي² السلطان سليمان هناك³ وافتتح في هذه الحملة اما سكودار وهي من أهم قلاع المجر⁴، وعلى العموم فيما بين 1526م و 1541م فتحت الجيوش العثمانية غالبية المجر ولم يتبق من المملكة سوى شريط صغير من الأرض في الغرب يحكمه الهابسبرغ، وكانت تلك الأسرة الملكية تدفع الجزية لاستانبول كما تمّ ترسيم الحدود العثمانية المجرية على بعد أميال من شرق مدينة فيينا.

كانت العمليات العسكرية بالمجر 1566 في غضون حملة سليمان الأخيرة تجري إقليميا بواسطة قوات الجيش التركي المنفردة حيث⁵ توفي السلطان سليمان وهو يقود حملته الرابعة عشر والأخيرة والتي أوصلته إلى أسوار مدينة سكتوار⁶، وتم إخفاء خبر وفاة السلطان من طرف الصدر الأعظم محمد باشا صوكولو حتى عن أقرب خدمه إذ كان لا بد من تأمين الوراثة الموفقة لابن سليمان سليم الثاني الذي ظل وقت ذاك في الأناضول⁷

وبوفاة السلطان سليمان القانوني أحد العشر السلاطين الأقوياء الأوائل، انتهى عهد السلطان سليمان الذي يعد عهدا مهما من حيث الشمول والتنوع ووضوح الأسلوب كما تمثل الدولة العثمانية في عهده أهم دولة في العالم من كل الجوانب تقريبا، وغدا سراي طوب قابي وكأنه

¹ محمد فريد بك المحامي، مصدر سابق، ص 251.

² نفسه، ص 323.

³ Jean Pierre Bois, op.cit, p124.

⁴ ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص 84.

⁵ ايرينا بيتروسيان، مرجع سابق، ص 163.

⁶ مدينة تبعد عن بودين بنحو 230 كلم شرقا ونظرا لموقعها المتميز بين عدد من البحيرات ونهر الماسي، فقد اشتهرت هذه المدينة باسم "أظهر شهري" أي مدينة الجزر، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام بالجسور المقامة على تلك البحيرات، وهذه الأقسام الثلاثة تشكل من قلعة المدينة، وسكتوار القديمة، وسكتوار الجديدة. أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 323.

⁷ ايرينا بيتروسيان، مرجع سابق، ص 163.

الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية

ملتقى للسفراء القادمين من الشرق والغرب وأصبحت الدول الأوروبية والإسلامية وعلى رأسها الدولة الصفوية لا يدعون فرصة تفوت إلا وأرسلوا الهدايا الثمينة والممثلين الدبلوماسيين إلى العاصمة العثمانية¹.

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 224.

الفصل الثاني

السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المبحث الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه الدولة الصفوية 1520-1566م

1- أسباب الصراع العثماني- الصفوي:
أ/ الأسباب السياسية والدينية:

لا شك أن الصراع العثماني الصفوي لم يكن دينيا مذهبيا صرفا فثمة دولتان تعتبران دولتين إسلاميتين، تتصارعان على السيطرة على العالم الإسلامي انطلاقا من دوافع استراتيجية وسياسية ونظام مصالح، لكن التأكيد المذهبي¹ على انتماء كل دولة كان يعطي أهلها وقعا ودفعاً تعبويًا وإيديولوجيًا² في الصراع ويقدم لكل منهما أسلحة استخدام الفرق الإسلامية وقدرة هذه الأخيرة في تبرير المعارك والحشد لها³.

فالجمع بين الأسباب السياسية و الدينية مرده أنّ المحرك الديني هو الذي أصبح يحدد

المسار السياسي للعلاقات العثمانية- الصفوية، بل استغل الدين أو الدعاية الدينية،⁴

¹ كانت العداوة سافرة بين العثمانيين والصفويين بسبب اختلاف المذهب وبسبب سعي الصفويين لنشر المذهب الشيعي والترويج له في شرق الأناضول على الحدود مع العثمانيين وفي بعض المناطق التابعة للسلطان العثماني. أنظر: فؤاد أحمد متولي، مرجع سابق، ص 185.

² الدين الإسلامي اتركز عليه نظام حكم وإيديولوجية الدولة العثمانية ضمن التمسك الصارم بتقاليد أهل السنة، ولقد استفادت منه السلطة العثمانية إلى حد بعيد في تحقيق أغراضها السياسية وإضفاء الشرعية على أفعالها وتصرفاتها. أنظر: إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 159.

³ وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 49.

⁴ لا شك في أنّ الدعاية الدينية للطريقة الصوفية للشيخ صفي الدين ظلت تحظى بدعم الحكام الإيرانيين حتى نهاية القرن السادس عشر ونتيجة لذلك ثار جدال بين المؤرخين المختصين بالدراسات العثمانية في القرن العشرين يتعلق بمقدار التهديد الذي شكّله التدخل الصفوي في شؤون الأناضول على سيطرة السلاطين على مناطق معينة من هذه المناطق، مع ذلك عند محاولة الاجابة حول هذا السؤال من الضروري التمييز بين الأوقات والأماكن المختلفة آخذين دائما في الحسبان أنّ لدينا معلومات عن المواقف والسياسات العثمانية أكثر مما لدينا عن الصفويين، بسبب الدمار الذي لحق بالسجلات الصفوية في حروب القرن 18م، لذا اقتضى الفطنة والتأني لأخذ الإدعاءات بالتخريب من جانب أي قوة بشيء من الارتياب، وهكذا يبدو أنّ الدعاية الصفوية أضافت المزيد إلى الشقاكات الدينية والسياسية التي كانت قائمة بالفعل في منتصف القرن السادس عشر في الأناضول، لكن من غير الواقعي الافتراض بأنّ القوة العثمانية في المنطقة ربما

لأجل المصالح السياسية¹.

خاض فاعلمية العسكرية التي سيخوضها العثمانيون نحو الشرق لتأمين الحدود والقضاء في الوقت نفسه على الصفويين الذين يستهدفون زعزعة الدور الديني، الذي يقوم به العثمانيون، بتزعمهم العالم السني² ضمها أهمها على الاطلاق الدولة الصفوية، التي تبنت المذهب الشيعي المقابل للمذهب السني³.

اعتبرت الدولة العثمانية نفسها المدافع الأول عن المذهب السني بينما تعتبر الدولة الصفوية المدافع الأول عن المذهب الشيعي⁴ فظهر هذه الأخيرة أحدث منذ البداية في المجتمع الإسلامي انقساماً يماثل في خطورته وآثاره البعيدة، الانقسام الذي أحدثه الإصلاح الديني البروتستانتي، الذي حصل بعد بضع سنوات في العالم المسيحي.

ولاشك أن إسماعيل الصفوي ومن جاء بعده كان يطمح إلى نشر فهمه الخاص للإسلام في العالم الإسلامي وكانت آسيا الصغرى تمثل مرتعاً خصباً لنشاطه المباشر، فكان

=ظلت بدون منازع لولا الاضطراب الديني الذي رعاها الصفويين. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 91.

¹ - باسم حمزة عباس، "إيران في عهد الشاه طهماسب الأول الصفوي 1524 - 1576"، مجلة الخليج العربي، العدد الأول والثاني، العراق، 2012، ص 3.

² - تزعمت الدولة العثمانية العالم الإسلامي ليس لكونها حوض العالم السني فحسب بل لكونها الدولة القوية على الصعيدين السياسي والعسكري فمن البديهي أنه في حال النزاع عن السلطة كان يلتجأ إليها الحكام والملوك المسلمون أو الأشخاص الذين يريدون الاستفادة من رعاية الحاكم الإسلامي العظيم. أنظر: إيرينا بيتروسان، مرجع سابق، ص 151.

³ - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003، ص 258.

⁴ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 823.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الوضع تحديا صارخا للعثمانيين مما اضطرروا إلى إقامة خط شديد المناوئة للشيعة الصفويين انقاذا لرقعتهم الآسيوية من أن يبتلعها الصفويين الشيعة¹.

بالإضافة إلى اعتبار تأمين سلامة الزوار الصفويين المتوجهين لزيارة العتبات المقدسة²، وهي رحلة كانت تمر على الأراضي العثمانية خاصة بعد الضم العثماني لهذه المنطقة في العراق والحجاز³، واحدة من أهم التجاذبات العثمانية الصفوية وأسباب النزاع بين الطرفين حيث يتهم الصفويون السلطات العثمانية والمحلية في العراق والعشائر العراقية بابتزاز الحجاج والزوار الإيرانيين ومعاملتهم معاملة سيئة ومع أن العثمانيين كانوا يعملون على حماية هؤلاء الحجاج لما في ذلك من فوائد مادية إلا أن تدخل العشائر كانت تحول دون استمرار هذه الحماية فعلا، ففي بعض الأحيان تنتقم العشائر الثائرة على الحكومة العثمانية عن طريق مهاجمة قوافل الحجاج مع مهاجمتهم قوافل التجار بما فيها قوافل الحج الإيرانية⁴. أما الأسباب السياسية فهي متعددة مردها إلى تناقض الأنظمة السياسية ومبادئها⁵، ومهما يكن من أمر هذه الدوافع، لم يكن بإمكان العثمانيين التخلي عن فكرة الوصول إلى

¹ - جون سوندوز، مرجع سابق، ص 70.

² - العتبات المقدسة: مرقد الأئمة (أئمة الاثنا عشرية) في النجف وكربلاء والمسجد الحرام أنظر: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية أو آخر عهد السلطان سليمان القانوني، المجلد 3، ارسكا، استانبول 2014، ص 124.

³ - مهمة دفترية، صص 17، 18، الحكم 39. نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية، مرجع سابق، صص 124، 130.

⁴ - وعلى قوافل الحج القادمة من الشام كذلك. أنظر: ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق، ص 278.

⁵ - تجدر الملاحظة هنا إلى أن وجهة النظر الشيعة حول السلطة السياسية تختلف تماما عن وجهة نظر السنة، فالسنة يرون أن الأمير المسلم ملكا كان أو خليفة هو مجرد حاكم مدني مسؤول عن الدفاع عن الإسلام وشرعه أما الشيعة فيرون أن الأمة الإسلامية يجب أن تحكم من قبل إمام من سلالة علي وهو الممثل المباشر لله على الأرض والمفسر المعصوم للشرع الإلهي. أنظر: جون سوندوز، مرجع سابق، ص 62. للمزيد أنظر: جب هاملتون وهارولد بوون، مرجع سابق، ص 50.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الخليج والامتداد إلى مسلمي الهند¹، وتحجيم دور الصفويين في المنطقة ولتحقيق هذه الغاية كان لا بد من السيطرة على الطريق البري المؤدي إلى الخليج، عبر بغداد والبصرة.

فلو كانت المسألة تتعلق بالصفويين وما يشكلونه من تهديد في الجزء الجنوبي الشرقي من الدولة العثمانية، لاقتصرت العمليات العسكرية العثمانية على ردع الصفويين أو القضاء عليهم بالتوغل إلى أعماق أذربيجان وإيران، وليس الاكتفاء بالمناطق الحدودية، ثم التوجه نحو العراق، من دون متابعة السير نحو الشرق، وإحكام السيطرة العثمانية على العراق، ومد نفوذهم إلى البصرة، لتكون منفذا إلى الخليج².

و نتائج هذا الطموح السياسي العثماني مشاكل حدودية خاصة مع الصفويين وتفاقمها عام 1527م فكل دولة كانت تسعى لأن تطمئن على حدودها الشرقية وكانت قارص³ من القلاع المهمة والمواقع الحصينة التي للعثمانيين فرصا أوسع لصد الغزوات لا من جانب الصفويين فقط بل من جانب الروس كذلك إن مشاكل الحدود كانت مثار أزمات عديدة وطويلة وأعدت الأزمات وأوضحها هي تحديد الحدود الشمالية في المناطق الجبلية⁴ التي يسكنها الأكراد⁵، وهذا يدل على تداخل مشاكل الحدود بين الدولتين مما أدى مرارا إلى

¹ مسلمي الهند: وقد كانت لنداءات دول الهند المسلمة التي تضررت مصالحها التجارية ووقعت تحت تهديد البرتغاليين أثرها في قيام العمليات الحربية وعلى الرغم من أنّ حملة الهند التي قام بها سليمان باشا الخادم لم تنته بنجاح فإنّ وجود العثمانيين في تلك المنطقة أزعج البرتغاليين كثيرا وحد من عملياتهم البحرية، إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 43.

² فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء المصادر والوثائق العثمانية، مرجع سابق، ص 259.

³ قارص: مدينة محصنة في تركيا الآسيوية، الأناضول على النهر الذي يحمل الاسم نفسه، مركز لواء الذي يحمل الاسم نفسه في ولاية أرضروم. أنظر: س. موستراس، المعجم الجغرافي، سبق ذكره، صص 380، 381.

⁴ باسم حمزة عباس، مرجع سابق، ص 7.

⁵ الأكراد: من الشعوب الجبلية ذات الأصل الهند وجرماني التي استوطنت في مناطق الشرق الأوسط، تعتبر كردستان موطن الأكراد الأساسي، وهي منطقة مقسمة اليوم سياسيا ما بين تركيا، العراق، سوريا، ولأسباب مذهبية

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

تصادم استراتيجيتهم حول المنطقة.¹ حاولت الدولتان القضاء على الإمارات المغولية والتركمانية الواقعة في شمال العراق مما أدى إلى تداخل الحدود بين الدولتين وتأرجح ولاء هذه الإمارات الحدودية بين الدولتين، مما زاد من حدة التوتر.²

في حين كانت الاتصالات بين الدول الأوروبية والصفويين قائمة فلم ينظر العثمانيين بارتياح للاتصالات الدول الأوروبية بالصفويين، إذ استقبل الشاه طهماسب عام 1529 سفراء البرتغال³ والدولة الرومانية المقدسة الذين عرضوا عليه المساعدة ضد العثمانيين، وقد أدرك السلطان سليمان⁴ بذلك من عيونه وجواسيسه ببلاط طهماسب، فزاد على ذلك أن مبعوثي أهل السنة في بغداد صاروا يتوافدون على استانبول للاستنجاد بالسلطان العثماني وحثه على انقاذ السنة من الحكم الشيعي، ويغلب الظن أن هؤلاء

=ساند الأكراد العثمانيين السنة في حروبهم مع الصفويين السنة، عام 1515م اتحدت الإمارات الكردية بشكل فدرالي مع الدولة العثمانية مع ضمان الحفاظ على الاستقلالية في الداخل علما أنّ هذه الاستقلالية لم تضمن باستمرار. أنظر: كلوس كريزر فارنرديم وهاس جورج ماير، المعجم الإسلامي، ترجمة جميل كوثرة، المؤسسة الجامعية للدراسات و للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1991، ص70.

¹ -سهيل طقوش، مرجع سابق، ص210

² - كان الحكام يدينون بالولاء تارة للصفويين وأخرى للعثمانيين، أمثال حكام البازوكي في مناطق كيفا وأرغيش وعدل جواز وألشكرد في أرمينيا، وحكام دنبلي في سمكن آباد وحكام بدليس، وحكام سهران، وحكام المحمودية في آشورت وغيرها. أنظر: نفسه، ص94.

³ - باسم حمزة، مرجع سابق، ص3.

⁴ - فقد تحالف طهماسب الأول مع البرتغاليين ضد العثمانيين، لأنه كان بحاجة إلى بنادقهم ومدافعهم ولأنهم كانوا بحاجة إلى إستبعاد العثمانيين عن النشاط الحربي في بحر الهند والبحر الأحمر والخليج العربي واستقبال سفارات شارل الخامس ملك اسبانيا والبرتغال في أثناء حصار مدينة فينا سنة 1529 ووعده بدعمه في حربه. أنظر: بديع محمد جمعة، عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص40.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المبعوثين كانوا يبالغون في وصف ما أصاب أهل السنة في بغداد من مذابح تنكيل على يد الصفويين¹.

ب/ الأسباب الاقتصادية و الاستراتيجية :

لكن هناك أسباب وعوامل حقيقية وخفية وراء هذا الصراع تكمن في العامل الاستراتيجي الذي يؤمن للدولة امتدادها أو ما يعرف اليوم بالجغرافية السياسية ومن الملاحظ أن القتال الشرس والعنيد بين الصفويين والعثمانيين تكرر بشكل أساسي على بعض المناطق في الأناضول الشرقي (أرضروم² - تبريز³)، وعلى (العراق - الموصل)، وتشير الدراسات التي تناولت المواقع الاستراتيجية لهذه المناطق، أن منطقة الموصل - أرضروم تعتبر المدخل الرئيسي للفتحين القادمين من الشرق أو من الجنوب للاستلاء على سهول الأناضول،⁴

ومن هذا المدخل كانت تتجه الطرق المؤدية إلى استانبول والبحر، كما أن تبريز مركز الطرق المؤدية شمالا إلى أرمينيا⁵ والأناضول، وكان لا بد للجيوش والتجار القادمين من أرمينيا وأذربيجان، وهم يقصدون الأناضول من المرور بأدنة بأرضروم، وكانت تتصل هذه

¹ - محمد عبد اللطيف هريدي، مرجع سابق، ص 59.

² - أرضروم: مدينة في تركيا الآسيوية الأناضول تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات فتحتها السلاجقة في القرن الحادي عشر ميلادي ثم العثمانيون في 1517س. موستراس، المعجم الجغرافي، سبق ذكره، ص 45.

³ - شوكت باموك، مرجع سابق، ص 59.

⁴ - أرضروم: مركزها بورصة ثم أنقرة وفي 1451 كوتاهية أسست في 1326 أنظر: يلماز أوزوتونا، موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، م 2، ص 612.

⁵ - أرمينيا: اسم لصق عظيم في جهة الشمال، وهما أرمينيتان الكبرى والصغرى، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق، وقيل أرمينيا الكبرى خلاط ونواحيها، و أرمينيا الصغرى تفليس ونواحيها، وهي مدينة في تركيا الآسيوية الأناضول مركز لواء إيج إيل في ولاية قرمان. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز، الجندي، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م/1397هـ، صص 159، 160.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الأخيرة بتبريز وغيرها بسيواس وديار بكر والموصل وبغداد والبصرة وصولاً إلى الخليج العربي ، ومن ديار بكر يتفرع طريق الموصل إلى حلب والاسكندرون¹ على البحر المتوسط نفسه²

ومن جهة أخرى كانت الموصل هي المنفذ الآخر المهم للوصول³ إلى الأناضول وكذلك إلى حلب والبحر المتوسط لذلك يضاف أن منطقة الموصل منطقة اتصال بين جبال كردستان الوعرة والسهول والصحاري التي تبدأ من جنوب الموصل وتمتد إلى الخليج⁴.

ونظراً للأهمية الاستراتيجية التي يشكلها هذا الامتداد الجغرافي ابتداءً من حدود أزروروم، تبريز، الموصل، بغداد، البصرة والخليج أو ابتداءً من ديار بكر إلى حلب فالإسكندرون أي الشاطئ المتوسطي لبلاد الشام فإنه من الطبيعي أن يتركز الصراع بين دولتين نواة أحدهما في القسم الغربي من آسيا الصغرى ونواة أخرى في إيران، وأن إستلاء الصفويين على العراق وفارس قد عرقل مرور التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا في حين تحولت سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب عبر الشرق الأوسط.

وإزداد النفوذ العثماني⁵ وأصبحت الحاجة ملحة للسيطرة على طريق بغداد- البصرة، والرغبة في تأمين الطرق التجارية⁶ الممتدة من البصرة إلى بلاد الشام والأناضول، أصبحت

¹ - الإسكندرون : تقع قرب مدينة إيبوس شمال سوريا في الجزء الجنوبي للخليج الذي يحمل الاسم ذاته وهي مركز ناحية لواء تيلان في ولاية حلب. أنظر: س. موستراس، المعجم الجغرافي، سبق ذكره، ص 67.

² - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 56.

³ - سيار الجميل، مرجع سابق، صص 353، 336.

⁴ - نفسه، ص 336.

⁵ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 91.

⁶ - عباس اسماعيل الصباغ، مرجع سابق، ص 156.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

من أولويات الاهتمام العثماني وينبغي ألا ننسى هنا أن إيصال النفوذ العثماني إلى البصرة أي الثغر الشمالي للخليج، سيضع العثمانيين أمام مرحلة جديدة، هي السيطرة على الطريق البحري، بين الهند والشرق الأوسط¹.

ج/ الأسباب المباشرة للصراع العثماني - الصفوي:

تجدد الصراع في عهد سليمان في حين كان الصفويون تحت قيادة طهماسب ابن اسماعيل الصفوي يثرون الفوضى في أوساط التركمان في الأناضول، و في الوقت الذي شهد فيه العراق الأوسط والجنوبي بما في ذلك بغداد والبصرة² التي كانت تحت أيدي الصفويين محاولة فرض المذهب الشيعي والتضييق على المذهب السني³ ويتجلى ذلك في قيام الولاة الصفويين باعدام أكبر فقهاء السنة الذين قاوموا المذهب الشيعي وجرى تدمير أضرحة السنة⁴ بما في ذلك ضريح أبي حنيفة النعمان وعبد القادر الجيلاني .

وحولت المساجد الكبرى إلى مراكز لممارسة الطقوس الشيعية ، ولم يكن السلطان سليمان القانوني باعتباره زعيما للعالم السني⁵ باستطاعته أن يقف إزاء كل ذلك مكتوف اليدين⁶ فكان السبب المباشر للحملة يكمن في عمليات تغيير الولاء واللجوء من قبل بعض الولاة إلى إحدى الدولتين ، أي خيانة هؤلاء الولاة أسيادهم .

¹ - شوكت باموك، مرجع سابق، ص 59.

² J. V. Hammer-Purgstall, op.cit, T5, p6.

³ - محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 185.

⁴ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 91.

⁵ J.V.Parry, op.cit, p86.

⁶ - محمد عوض، مرجع سابق، ص 288.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وتتجلى هذه العمليات في تخلي الأمير الكردي شرف خان¹ أمير بتليس عن تبعيته للعثمانيين، ولجؤه الى الصفويين وتلقيه دعماً عسكرياً منهم، وكان شرف خان من الأمراء الأكراد الذين كانوا يحكمون المنطقة منذ القرن الثامن هجري، وكان قد خضع للحكم العثماني في عهد السلطان سليم الذي عهد اليه بتبليس ولجوء الوالي الإيراني أولامة خان الى الدولة العثمانية، اذ عينه السلطان سليمان القانوني والياً على حصن حسنكيف² وجميع أراضي بتليس³، أي الأراضي التي كانت تحت إمرة شرف خان ومنحه 400 ألف دوقة (مليونياً أقجه) مخصصات سنوية، ويبدو أن أولامة لم يتمكن من الدخول الى بتليس على الرغم من محاصرته لها، واضطر الى التراجع بعد وصول قوة صفوية بقيادة شرف بك ووصل خبر هذه الهزيمة الى مسامع السلطان سليمان القانوني⁴.

أما السبب المباشر الآخر فهو اعلان ذو الفقار خان⁵ الوالي الصفوي على بغداد تبعيته للعثمانيين، وهذه صورة واضحة عن تغيير الولاءات وقيامه بارسال مفاتيح بغداد الى السلطان سليمان القانوني⁶، وكان ذو الفقار يعرف بخليفة الخلفاء، وقد عينه الشاه طهماسب والياً على بغداد⁷

¹ - شرف خان: ابن شمس البديسي جد شرف خان صاحب كتاب شرف نامه، أعلن ولاءه للعثمانيين عند دخول السلطان سليم أذربيجان، ثم عاد إلى ولاء الصفويين مرة أخرى بعدها عزله السلطان سليمان القانوني نتيجة للدسائس التي حيكت ضده أنظر: شرف خان البديسي، مصدر سابق، ص 447.

² - حسنكيف: هي المعروفة في كتب التاريخ بحصن كيف. أنظر: ستيفن لونكريك، من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الحياط، ط 1، منشورات الشريف الزعبي، بغداد، 1968، ص 36.

³ - شرف خان البديسي، مصدر سابق، ص 132.

⁴ - سعد الأنصاري، العلاقات الإيرانية العراقية، دار الهدى، بيروت، 1987، ص 34.

⁵ - ذو الفقار خان: هو بن علي بك الذي كان قد اشتهر باسم نخوذ سلطان والذي كان حينئذ حاكم كلهرستان ثم حاكم بغداد. أنظر: شرف خان البديسي، مصدر سابق، ص 130.

⁶ - كما قرأ الخطبة وضرب السكة باسم السلطان سليمان القانوني. أنظر: يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط 1، مطبعة الفرات، بغداد، 1925، ص 155.

⁷ - شرف خان البديسي، مرجع سابق، ص 130.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

ويبدو أن ما أقدم عليه ذو الفقار لقي ترحيبا كبيرا عند العثمانيين، إذ لم يتأخروا في الاقرار بالأمر الواقع، وأصدر السلطان سليمان القانوني أوامره بتقليد ذو الفقار لواء بغداد وذلك في (3 شعبان 935هـ/12 أبريل 1529م) وكان ذو الفقار يأمل بالتمكن من الصمود في بغداد أمام الصفويين لحين وصول الامدادات العثمانية الموعود بها، الا أنه ما لبث أن لقي مصرعه من قبل رجال الشاه¹ طهماسب و أعيدت سيطرة الدولة الصفوية على بغداد².

2- تصاعد العمل العسكري على الجبهة الشرقية.

أ/المرحلة الاولى: حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد وضم العراق.

شهد القرن 10هـ/16م بعد تشالدران ثلاث جولات كبرى بين العثمانيين والصفويين ولقد ترتب على هذه الجولات التي لم تحسم الصراع بين الطرفين نتائج إقليمية متنوعة كما كانت ورائها دوافع شتى ولم يكن للعلاقات الصفوية الأوروبية تأثير فاعل على نتائجها أو مسارها في هذه المرحلة لكن في المقابل تأثر اندلاع الجولات بحالة المواجهة العثمانية الأوروبية ويظهر كل هذا³ عندما تولى الشاه طهماسب الحكم في أذربيجان في عام 1524 استمر في اتباع سياسة التحالف مع حكام أوروبا التي بدأها والده اسماعيل الاول⁴ وكانت أوروبا في حاجة ماسة الى اشتغال العثمانيين في جبهات اخرى للتخفيف من ضعفهم العسكري ضدها. وزحف طهماسب على رأس حملة كبيرة في عام 1530.⁵

¹ - ستيفن لونكريك، مرجع سابق، ص35.

² - فاضل بيات، من تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص256.

³ - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص53.

⁴ - أقام الشاه إسماعيل الأول علاقات مع دول أوروبية عديدة، بل دخل معها في تحالف سياسي وتنسيق إقتصادي ظهر في مجموعة من الإتفاقيات ثبتت عرى الصداقة بينهما، ومن جهته حاول الشاه إستغلال العلاقات الجيدة مع أوروبا الغربية وتوظيفها لصالحه من أجل التوسع في المناطق الغربية لايران، كما حذى الشاه طهماسب حذو أبيه.

أنظر: سهيل طقوش، مرجع سابق، ص83.

⁵ - شرف خان البدليسي، مصدر سابق، ص135.

وكان هذا الزحف الصفوي على أملاك الدولة العثمانية قاصدين بغداد تحديداً ، بعد استمالة حاكم بدليس شريف بك .¹

في حين تحركات و أعمال طهماسب استفزت السلطان سليمان القانوني فجهز جيشا كبيرا وعهد الى الصدر الأعظم ابراهيم باشا السير لاسترداد العراق من أيدي الصفويين فذعروا لهذا الخبر واتخذوا التدابير اللازمة لمجابهة هذا الزحف ولكن ابراهيم باشا تمكن من الاستلاء على بغداد عام 1534م/941هـ واضطر نائب الشاه أن يفر منها فالتوسع العثماني في العراق تم سنة 1534م²، في عهد السلطان سليمان القانوني بعد الانتصار على الصفويين الذين كانوا يحكمونه³ و دخل السلطان سليمان بغداد⁴ في 30 نوفمبر 1534 م في موكب مهيب و لم يتأخر في استخدام رمزية عاصمة الخلافة العباسية⁵ في سياسته الخارجية.⁶

استقبل السكان الجيش العثماني بالترحاب والسرور، وحصلت في بغداد انتفاضة ضد الحكم الصفوي، تزعمها رجال الدين أما الحاكم الصفوي، محمد توركمن، فقد هرب من المدينة الى الصفويين متخفياً في (21 جمادى الاولى 941هـ/28 تشرين الثاني 1534م)، ثم دخلها السلطان منتصراً⁷ وتسلم مفاتيح البصرة في عام 1535م¹ من حاكمها راشد بن

¹J . V. Hammer- Purgstall,op.cit, T5,p19 .

²Sir Valentine Chirol and Lord Eversley,op.cit,p123.

³ - ساطع المصري ، مرجع سابق، ص42. إستغلال العلاقات الجيدة مع أوروبا الغربية وتوظيفها لصالحه من أجل التوسع في المناطق الغربية لايران، كما حذى الشاه طهماسب حذو أبيه.أنظر: سهيل طقوش، مرجع سابق، ص83.

⁴ - ستيفن لونكريك ، مرجع سابق، ص37.

⁵ - عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث ، الرافدين ، ج1، ط7، بيروت ، 2008، ص39.

⁶ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص50.

⁷ - سهيل طقوش ، مرجع سابق، ص97.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

مغماس بواسطة ابنه وفي أثناء إقامة السلطان من ديسمبر 1534 إلى أبريل 1535م، قدمت إلى بغداد وفود من شيوخ القطيف حاملين معهم رسائل الترحيب إلى السلطان² وكانوا بحاجة إلى حماية و تحالف مع العثمانيين ضد البرتغاليين فأصبحوا كلهم تابعين للباب العالي³ ما أدى إلى سيطرة العثمانيين على إحدى الطرق التجارية الهامة التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا، بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل وحلب، او بواسطة بغداد ودمشق وصيدا، وترتب على العثمانيين، مسؤوليات دفاعية جديدة، خاصة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج⁴.

تكتسب هذه الحملة أهميتها في انها ضمت العراق الى الدولة العثمانية، وأبعدت الصفويين عن العالم العربي بصورة نهائية، وتأسست ولاية أرضروم، وتم تأمين حدود الدولة مع القوقاز⁵.

وكان دخول العراق في حوزة العثمانيين على هذه الصورة ايذانا ببديء عهد جديد في تاريخه وصارت بغداد مركزا لإيالة العراق⁶، وكان من نتائج السيطرة العثمانية على العراق أن بدا العراق وحدة إقليمية متماسكة ومترابطة أكثر من ذي قبل، ولأول مرة في تاريخه الحديث خلال العقود الأولى من القرن 16م ونظمت إدارة العراق قانونيا⁷ ضمن نظام الشرق

¹ - عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص 92.

² - عباس الغزاوي، تاريخ العراق بين الإحتلالين، العهد العثماني الأول، الجلايرية، م 4، ، بغداد، 1949، ص 44.

³ - محمد رجائي ريان، "أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي 1546 - 1914"، دراسات تاريخية، العددان 85 - 66، دمشق، أذار - حزيران 2006، ص 268.

⁴ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 68.

⁵ - سهيل طقوش، مرجع سابق، ص 98.

⁶ - عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، ص 39.

⁷ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 68.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المعروف الذي أوجده القانوني نفسه، وبدأت الحياة العثمانية الإقليمية للعراق اثر تطبيق الخطط السياسية العثمانية.¹

ب/المرحلة الثانية :تجدد الصراع العثماني - الصفوي 1548م و1553م

انشغل السلطان سليمان كلياً بقضايا الشرق فلتنافسة العثمانية الصفوية التي لم تحسم 1536م/942هـ²، أرغمت سليمان القانوني على أن ينتبه إلى الوضع الداخلي في الدولة الصفوية من إمكانية هزيمة الشاه الصفوي طاهماسب فأقام حملة على أذربيجان أقبل إليه عن طريق كافا أخو طاهماسب وهو القاص ميرزا³ الذي أعلن إستقلاله التام⁴ عن دولة أخيه فجهز الشاه جيشاً استطاع أن يلحق الهزيمة بجيش القاص جعلته يفر باتجاه الدولة العثمانية.

وعلى حدود السلطنة أرسل للسلطان يخبره بمجيئه، فأمر السلطان بحسن استقباله ووعدته بالهجوم على إيران حين تحين الفرصة المناسبة⁵ وعندما وجد السلطان أن الفرصة سعت إليه، أخذ يعد خطته لإتمام مشروعه الإستراتيجي الرامي الى الإستلاء على إيران وملحقاتها،

¹ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص95.

² - شرف خان البدليسي، مصدر سابق، صص136، 137.

³ - كان القاص ميرزا -ابن الشاه اسماعيل -حاكماً على شيروان، منذ أن فتحها الجيش الصفوي سنة 1538م، ولما لم يكن في وفاق مع أخيه الشاه، أعلن إستقلاله بمقاطعة شيروان، مما جعل الشاه طهماسب يعد حملة لتأديبه لكون الوقت غير مناسب لطمع الأعداء العثمانيين بهذه المنطقة إبان صعود نجم دولتهم الى أقصى حد.أنظر: إسماعيل الصباغ، مرجع سابق، ص180.

⁴ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص346.

⁵ J.V.Hammer-Purgstall ,op.cit,T5,p505.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

بعد إنقسام البيت المالک الصفوي على نفسه فأعد حملة قادها بنفسه وسار الى شيروان¹ مصطحبا معه القاص ميرزا وعلي سلطان بن خليل فانتصر عليهم، وأسند حكومتها لهذا الأخير² ومن ثم توجه الى تبريز بعد الحاح من القاص ميرزا ، فدخلها مرة أخرى وفيها دفع القاص ميرزا الى عمق الأراضي الإيرانية ، فاستولى القاص على أصفهان والأهواز وشوشتر، ثم توجه الى دزفول وحين لم يستطع الاستلاء عليها ذهب الى بغداد يجر أذيال الخيبة وراء ظهره.

في حين أدت هذه الحملات إلى نتائج عكسية مردها إلى الأعمال التي قام بها بن خليل في بغداد ، كما أنه قام بمجموعة من الأعمال في بغداد نفرت منه السلطان³ فساءت علاقته به مما أضطر بالسلطان الى إصدار أوامر بمحاربتة فبغاته الجيش العثماني وانتصر عليه بمعركة شتت شمله وجعلته يهيم على وجهه في البلاد ، إلا أن وقع أسيرا بيد مجموعة من القزلباش حملته الى أخيه الذي أمر بسجنه ثم قتله في عام 1548/955هـ م⁴.

أما الشاه فعندما علم بتوجه السلطان الى تبريز أجلى المدينة وانسحب الى قزوین⁵ ، كان عازما بشكل أكيد عدم المجابهة في حرب ميدانية⁶ كالعادة مما أدى الى عجز السياسة العثمانية وعلى رأسها السلطان سليمان الى حسم الصراع والسيطرة على الأراضي الصفوية سيطرة

¹ - شيروان: مدينة من مدن كيلان على بحر قزوین تقع بين الجبال والشعاب. محمد بن منعم الحميري، الروض المعطر في خير الأقطار، تحقيق إحسان حقي، ط2، بيروت، 1980، ص38.

² - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص303

³ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص550.

⁴ - شرف خان البدليسي، مصدر سابق، صص176، 177.

⁵ - قزوین : مدينة جبلية تقع شمال غرب طهران. نصار وزملاؤه، سبق ذكره، مج5، ص2555.

⁶ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص345.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

تامة ، لكنه وصل الى تبريز سنة 956هـ¹ فدخلها وفتح في طريقه الجزء التابع للعجم من بلاد الكرد وقلعة وان الشهيرة ومن ثم عاد منتصرا الى اسطنبول في 957/1549م². وبهذا انتهت معركة من معارك القرن السادس عشر الطويلة والمريرة التي خاضها الحكام العثمانيون والصفويون لتبدأ معركة أخرى وتستأنف الحرب في 1553³ كانت جراء فتنة القاص ميرزا نتائج ايجابية من الجانب الصفوي ، فقد نقل الشاه طهماسب مقر حكومته من تبريز الى قزوین سنة 1552م بعد أن غدت تبريز هدفا للعثمانيين أكثر من مرة ، كما ملم شتات الزعماء القزلباش حول الشاه طهماسب وجعلته موضع ثقة بينهم⁴ لتبدأ منذ تلك الفترة عملية إعتبار للدولة من الناحية الإستراتيجية.

كما استولت القوات الصفوية على شيروان وأجزاء من أرمينيا، مما جعل السلطان يعد العدة لإسترجاعها⁵ وما ان وصلت الأخبار التي تشير الى استعدادات السلطان لاجتياح الدولة الصفوية ، أرسل الشاه رسالة الى السلطان طالبا فيها عقد صلح لإنهاء حالة الحرب⁶ التي طال أمدها فرفض السلطان طلبه ، لأن الصلح يتعارض مع استراتيجيته العسكرية التي كانت تهدف إلى إستعادة مناطق الأطراف التي كانت بحوزة العثمانيين مؤخرا، وأعد كتابا شديد اللهجة للشاه تضمن تهديدا صريحا للحرب ، وشرع في الزحف على أذربيجان.⁷

وبعد أن خاض الطرفان عدة معارك في مناطق الأطراف ، أسر في نهايتها سنان باشا أحد أبرز قيادات السلطان ، عرض الوزير الأعظم محمد باشا على السلطان مسألة عقد الصلح مع الشاه

¹ - ابراهيم حلیم بك ، مرجع سابق ، ص 93.

² - محمد فريد بك المحامي ، مرجع سابق ، ص 240.

³ - هارولد لامب ، مرجع سابق ، ص 272.

⁴ - اسماعيل الصباغ ، مرجع سابق ، ص 181.

⁵ - شرف خان البدليسي ، مصدر سابق ، ص 180.

⁶ Ogier Chiselen De Busbecq, op.cit, p41.

⁷ - سهيل طقوش ، مرجع سابق ، ص 100.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

، فوافق شريطة الإفراج عن الباشا المؤسور ، وحين عرض أمر الصلح على الشاه وافق على شروط السلطان وأرسل مبعوثه شاه قولبخان الى أماسيا حيث كان يعسكر السلطان وذلك لتداول مذكرات الصلح ، فكان أن اتفق الطرفان على تسوية بعض المسائل¹ ويبدو أن الطرفين كانا يرغبان في تحقيق نوع من الهدوء بينهما لمواجهة المشاكل الخاصة التي برزت في وجه كل منهما فكانت الظروف مهيأة لعقد صلح أماسيا في 8 رجب 962هـ/29 ماي 1555م².

3- العلاقات الدبلوماسية والمعاهدات العثمانية - الصفوية .

مما لاشك فيه أن التاريخ الدبلوماسي للدولتين العثمانية والصفوية يمثل جانبا مهما من العلاقات بين البلاطين لأنه يعكس بصورة واضحة ، مجمل التطورات السياسية المنبثقة عن حكومتيهما بكل ما تشتمل عليه من مقررات لوزراء وأمراء وحكام وعسكريين يقف على رأسها السلطان أو الشاه³ ،

كما يوضح بشكل أو آخر النوايا الظاهرة والباطنة لكل فريق اتجاه الآخر و يفصح في الوقت ذاته عن المواقف الذي تتم بمقتضاه الإجراءات حيال الأحداث والتطورات الناشئة في أوقات السلم والحرب⁴ ، ويرسم المنحنى البياني لأحوال الطرفين قوة وضعفا في المجالات السياسية

¹ - محمد أبي السرور البكري الصديقي ، مرجع سابق ، صص 251 ، 252.

² - اسماعيل سرهنك ، مرجع سابق ، ص 551.

³ - اسماعيل الصباغ ، مرجع سابق ، ص 180.

⁴ - على الرغم من الفترة المستمرة التي عمت كل المناطق الشرقية من الأناطول في أراضي الدولة العثمانية حيث أشعلت الإنتفاضات ضد سلطة السلطان لأسباب دينية ركز سليمان كل اهتمامه على أوروبا ، فالتنافس السياسي بين الصفويين والعثمانيين خفت حدته لبعض الوقت ، حيث كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها العسكرية وهذا ما لم يفهمه الشاه الصفوي . أنظر: إيرينا بيتروسيان ، مرجع سابق ، ص 146.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

والعسكرية و الاقتصادية ومدى سيطرة المركز على هذه المجالات ويجدر الاشارة أن السلطان سليمان والشاه اسماعيل الأول في أواخر عهده تبادلوا الرسائل، فبعث الشاه عام 1522 رسالة يعزي فيها السلطان العثماني بوفاة والده ، ويقدم له التهاني بمناسبة فتحه لجزيرة رودس² والثانية أرسلها السلطان سليمان القانوني بمثابة رد على رسالة الشاه³

واستنزاف الطاقات الإسلامية ، أدى بالشاه إلى اللجوء للسلم وعقد معاهدة مع السلطان سليمان القانوني كما سار على خطى والده خاصة بعد الهدوء في الجبهة الشرقية وطول الحروب بين الصفويين والعثمانيين قد حث هذا الأخير على عقد صلح مع السلطان العثماني سليمان القانوني ، وقد كانت الظروف مهيأة لعقد صلح أماسيا في 1554م⁴ وهو يكشف بعض آمال الطرفين في هذه الاتفاقية على بساطتها وقلة مواردها تكشف لنا الأسباب الحقيقية التي أدت الى نزاعات طويلة بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين المتحاربتين⁵.

وكان التوقف عن الصراع العثماني الصفوي المذهبي والسياسي من حين لآخر مكن السلطان التهيؤ للعمليات الحربية الموجهة إلى الأراضي الأوروبية⁶ كما كانت الدولة العثمانية تسعى بجد الى أن تطمئن على حدودها الشرقية ، وكانت إيران من القلاع الحصينة والمواقع التي تعطي للعثمانيين فرصا أوسع لصد الغزوات وأصعب ما واجه العلاقات هو كيفية تحديد الحدود الشمالية بين الطرفين في المناطق الجبلية التي يسكنها الأكراد⁷ ، وهكذا بعد أن أدرك كل منهما أهمية الصلح أرسل وفدا إلى السلطان سليمان القانوني لعقد معاهدة بين الدولتين

¹R.B.Merriman,op.cit,p235.

² - محمد فريد بك المحامي ، مرجع سابق ، ص 206.

³ - اسماعيل الصباغ ، مرجع سابق ، ص 182.

⁴J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T5,p70 .

⁵ - عمر عبد العزيزنوار ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 284.

⁶ - إيرينا بيتروسيان ، مرجع سابق ، ص 146.

⁷ - سعد الأنصاري ، مرجع سابق ، ص 65.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وفي 8 رجب 962هـ / 29 ماي 1555م¹ وقع الشاه الصفوي والسلطان العثماني على معاهدة أماسية² وبذلك تمت بين الطرفين أول معاهدة صلح لانتهاء الحرب علما أن الدولة العثمانية كانت في ذروة مجدها، وذلك لقناعة العثمانيين في استحالة قضائهم على الدولة الصفوية كمشروع استراتيجي وقناعة الصفويين في عدم جدوى الاستمرار في معاداتهم للعثمانيين فحددت مناطق النفوذ لكل دولة مع الإشارة إلى الحدود الفاصلة بين الجانبين كي لا يكون مجال للتجاوز يرغم أحد الطرفين على إثارة الحرب من جديد.³

سارت العلاقات بين طهماسب وسليمان القانوني على نوع من الهدوء وكان الطرفان يريدان هذا الهدوء فعلا ليتفرغ كل واحد منهما لمواجهة المشاكل الكبرى المسؤول عنها، وبدأت هذه العلاقات طيبة عندها، إلا أنها امتحنت هذه العلاقات الدبلوماسية في قضية بايزيد⁴ ابن السلطان سليمان القانوني الذي فر الى طهماسب⁵ ومعه عدة كتائب عسكرية سنة 1559م⁶، ومع أن هذا الأخير استقبله بحفاوة إلا أنه سرعان ما أدرك أن الرجل لن يفيدته كثيرا، وأن أباه سليمان القانوني قوي الشكيمة ولن يمرر له موقفا كهذا.⁷

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 247.

² - ولكن معاهدة أماسيا لم تمنع من تجدد الحرب بين الدولتين الصفوية والعثمانية لأن أسباب الصراع المذهبية والدينية ظلت قائمة لدى الجارتين المسلمتين فجرت بينهما معركة على نهر الفرات في عام 1559 ولحقت بالقوات العثمانية خسائر فادحة، تم عقد صلح آخر بينهما في عام 1562م. أنظر: محمد عوض، مرجع سابق، ص 290.

³ - اسماعيل الصباغ، مرجع سابق، ص 183.

⁴ - بايزيد: الشهرزادة بايزيد ابن السلطان سليمان القانوني الذي تمرد على والده والتجأ في نهاية المطاف إلى شاه إيران. أنظر: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، أواخر عهد السلطان سليمان القانوني، مرجع سابق، ص 3، ص 124.

⁵ P.M.Hold ,op .cit,T5,p406.

⁶ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 320.

⁷ - عمر عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص 258.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وقد شغلت مسألة تسليم بايزيد السلطات الصفوية والعثمانية¹ فترة من الوقت فقد أخبر الشاه السفير العثماني ، بأن الأمر يعود الى بايزيد ، وكان الشاه طهماسب قد أصهر بايزيد وزوجه ابنته عام 1561 واطظر السلطان سليمان القانوني الى استعمال القوة لكن صحة السلطان كانت تتدهور وانتشار الطاعون بالدولة العثمانية مما اضطره الى استقبال سفارة الشاه التي حملت اليه المطالب التالية :²

أولا : حرية المرور للرعايا الصفويين الذين يوافق الشاه على اقامتهم في القدس حتى تدركهم الوفاة .

ثانيا : تقديم المساعدة العسكرية العثمانية للقبايل الصفوية ضد قبائل الأوزبك والترکمان .

ثالثا : اعادة أولاد خان تبليس الأربعة الذين تمردوا على الشاه طهماسب ولجأوا الى بغداد.³

ونجحت المفاوضات كذلك بتسليم بايزيد الى أبيه مقابل مبلغ كبير من الذهب ، وتمت الصفقة ودخل الذهب خزينة الشاه كما ألقى بايزيد في قبره بعد أن أمر والده سليمان بقتله وكان ذلك عام 1562 في مقابل اعادة أولاد بتليس الأربعة⁴ الى الشاه طهماسب وبذلك استمر الهدوء على الحدود الصفوية العثمانية فترة أخرى .

اتسمت السياسة الخارجية العثمانية بالحكمة خاصة فيما يخص التوسع الإقليمي وعدم خوض المعارك على جبهات متعددة فمثلا جبهة المجر استعدادا لها⁵ كان سليمان دائما يضطر الى عقد صلح مع الجبهة الشرقية أو الغربية للتفرغ الى كل جبهة على حدى وهذه استراتيجية

¹ - مهمة دفترى 6، صص 17، 18، الحكم 39. نقلا عن فاضل بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ، مرجع سابق ، م 3 ، ص 126 .

² - هارولد لامب ، مرجع سابق ، ص 302 .

³ - شرف خان البديسي ، مصدر سابق ، ص 192 .

⁴ - محمد أبي السرور بكر الصديقي ، مرجع سابق ، ص 107 .

⁵ L.S.Stavrianos,op.cit,p79.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

موروثة عن أبيه سليم الأول عندما تفرغ الى الشرق قام بعقد معاهدات صلح مع الدول الأوروبية¹

ويعتبر كذلك مسألة تأمين سلامة الحجاج الشيعة الى العتبات المقدسة في العراق و الأراضي الحجازية واحدا من أسباب المنازعات بين الطرفين لاتهام الصفويين السلطات العثمانية² بالتقصير وهي واحدة من القضايا المهمة بين الدبلوماسية الصفوية والدبلوماسية العثمانية وتوصلوا في الكثير من المرات الى ايجاد حلول تنظيمية لعملية توجه الصفويين الى الحج وزيارتهم مشهدي الامام علي بن أبي طالب والامام الحسين، ودفن موتاهم في النجف، والأمر بالعمل وفق بنود المعاهدة المنعقدة مع الدولة الصفوية ففي طلب موفد الشاه الى استانبول اذنا من السلطان العثماني للتوجه الى الحج وزيارة الروضة النبوية المطهرة وذلك باستخدام الطريق المباشر بين بغداد ومكة المكرمة³، وعلى الرغم من أن السلطان رفض استخدام هذا الطريق واعتبره مغلقا، إلا أنه أكد على أحقية الصفويين بالحج⁴، كغيرهم من المسلمين.

مؤكدًا على أن هناك قافلتين رئيسيتين للحجاج⁵ وهي قافلة الحج الشامية وقافلة الحج المصرية⁶ كما وافق السلطان سليمان القانوني على قيام الشاه بارسال النذور والصدقات للمشهدين الشريفين¹، وقد أوصلها اثنان من رجاله.

¹ - برنارد لويس، اسطنبول وعاصمة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص 54.

² - مهمة دفترية⁶، صص 14، 18، الحكم 93، فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، أواخر عهد السلطان سليمان القانوني، م 3، مرجع سابق، ص 124.

³ - نفسه، ص 125.

⁴ - ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق، ص 170.

⁵ - فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، أواخر العهد السلطان سليمان القانوني، م 3، مرجع سابق، ص 124.

⁶ - قافلة الحج الشامية والمصرية: والمعروف أنّ قوافل الحج كانت تتوجه للحرمين من جهات مختلفة، وكانت هناك نقاط تجمع الحجاج للالتحاق بقافلة من هذه القوافل تأتي على رأسها دمشق والقاهرة، وسميت قافلة المنطلقة الأولى

4- آثار الصراع العثماني - الصفوي:

كان للصراع العثماني الصفوي آثاره المعقدة والمتشابكة على العثمانيين والصفويين على حد سواء، نظرا لدوافع الصراع المتعددة سواء المذهبية أو الاستراتيجية التي غدت الصراع الصفوي العثماني في القرن السادس عشر فمن حيث الآثار الاستراتيجية أصبح للعثمانيين قاعدة بحرية متقدمة في البصرة مكنتهم من توجيه ضربات موجعة للأسطول البرتغالي²، ومن خلال هذه القاعدة قاوموا نفوذه في منطقة الخليج لمدة خمسين عاما وبفضل هذه القاعدة كذلك تمكن الأسطول العثماني من تطهير سواحل اليمن من الوجود البرتغالي حتى بغداد في عام 945هـ .

واستطاعت القوات العثمانية الوصول إلى الهند حيث تمكن بييري رايس³ أن يصل بأسطوله الى سواحل الهند في عام 959هـ⁴ ولم ينفذ أسطوله في قطع المسافة بين البصرة والسويس لطرد الأساطيل الأجنبية في المياه الإقليمية⁵، كل ذلك كان له أثره في تشجيع إمارات الخليج على الوقوف أمام النفوذ الأجنبي.

=قافلة الحج الشامية، والثانية قافلة الحج المصرية، وعلى الرغم من أنّ الهدف الأساسي لهاتين القافلتين بل قوافل الحج كلّها هو تيسير السبل الكفيلة لأداء الحجاج مشاعر الحج، إلا أنّ الخلاف كان لا يخلو بين هذه القوافل ولا سيما بين أمراء الحج المصريين والشاميين، أنظر: نفسه، ص 94.

² - والمقصود المشهدين هو مشهد الامام علي بن أبي طالب في مدينة كربلاء وضريح الإمام الكاظم الذي يعتبر الأب الروحي للصفويين. أنظر: نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، ص 103.

³ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 74.

³ - بييري رايس: هو محي الدين بييري، بحار ولد في غالبيولي 1465 م توفي بالقاهرة 1544م، عمل بالقرصنة مع عمه كمال رئيس في البحر المتوسط ثم دخل في خدمة العثمانيين 1499م و قدّم خريطته المشهورة التي رسمها في غالبيولي إلى السلطان العثماني سليم الأول 1570م ويعدّ كتابه المسمى كتاب البحرية من أهم الأعمال المقدمة في مجال البحرية والذي ترجم إلى اللغة الانجليزية. أنظر: ثريا فاروق، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 303.

⁴ Haji Khalifeh, op.cit, p72.

⁵ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 66.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

في حين الإضرار بمصالح الصفويين فمن الواضح أن الوجود العثماني في الخليج العربي قد فوت عليهم الفرصة للتحالف مع القوى الصليبية هناك رغم سعيهم الدؤوب لهذا التحالف كما أصيب آمال الصفويين في الزعامة الإسلامية بالخيبة باستلاء العثمانيين على العراق العربي حيث توجد عتباتهم المقدسة¹.

لقد تحول العراق الى أقوى رأس جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق الأدنى كما أبعث تثبيت السلطة العثمانية في العراق الأوسط² شبح سيطرة الصفويين عن البصرة وشبه الجزيرة العربية³.

ومما يجدر ذكره أن الفتح العثماني للعراق في عهد السلطان سليمان⁴ لم يمه الصراع والنزاع العثماني الصفوي حول هذه البلاد فقد تأرجحت السيادة في العراق بين أيدي العثمانيين أحيانا والصفويين أحيانا أخرى، وكانت حرب الدولة الصفوية مع الدولة العثمانية هي حرب استنزاف للقوة الإسلامية⁵.

وقد أفضت الى هشاشة المقاومة⁶ الى درجة طمع الغرب في تخطي الحدود الشمالية للقوة الإسلامية بشكل تدريجي وكان ينبغي للدولة الصفوية أن تقف الى جانب الدولة العثمانية لصد العدوان الأوروبي الصليبي على الدول الإسلامية،⁷ بل العكس أقامت الدولة

¹ - عبد اللطيف هريدي، مرجع سابق، صص 64، 65.

²E. Clot,op.cit,p125.

³ - نيقولايف ايفانوف، مرجع سابق، ص 111.

⁴ - شرف خان البديسي، مصدر سابق، ص 38.

⁵ - عبد اللطيف هريدي، مرجع سابق، ص 65.

⁶ - ضد العالم المسيحي غيرت الأحداث بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية تاريخ الصراع المسيحي الإسلامي ويمكن القول أنها كانت سبب خلاص أوروبا، لقد صرفت نظر الأتراك العثمانيين عن المسيحية وأحدثت إنتقاصا في العالم الإسلامي لم يمكن حتى الآن حسمه.أنظر: جون سوندوز، مرجع سابق، ص 60.

⁷ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 43.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الصفوية اتفاقيات سياسية وإقتصادية و عسكرية مع أوروبا التي هي في حرب مع المسلمين، فشددت تلك الاتفاقيات الخناق على الدولة الإسلامية العثمانية بينما الموقف الشرعي يقتضي مقاطعة أوروبا لأنها في حرب مع المسلمين¹.

وعندما لجأت الدولة الصفوية الى التشيع في محاربة الدولة العثمانية المرتكزة في رأي الصفويين الى المذهب السني أعاد الصفويين بمساعدة رجال الدين صياغة التشيع واعادة بناء منظومة من الأفكار مرتكزة الى الخرافة وميثولوجية الاستغفال وتبني خطاب مظلل لدعم الاستبداد السياسي وصار في ظل الدولة الصفوية يستبيح قتل المسلم السني، ورغم علاقات طهاسب مع الدول الأوروبية الا أن تلك الدول لم تساعده على اقامة علاقات رصينة، هذا فضلا عن الحاجز النفسي الذي كان يفصله عن الدولة العثمانية بفعل وقائع الأحداث بين الجانبين، ولم يستطع الشاب طهاسب وضع حد للاضطرابات الحدود بين الدولتين أو حسم مسألة الخلافات السياسية والمذهبية بشكل تام.²

ومهما يكن من أمر، فان الانقسام مفض في كل الأحوال الى الضعف والهوان والأمر الأساسي أن الحروب العثمانية الصفوية التي استمرت³ منقطعة حوالي قرنين و نصف القرن (1500- 1743) كانت تندرج في سياق تاريخي عالمي يتسم بتشكيل نهضة أوروبا واستعداداتها التكوينية للثورة الصناعية الكبرى في القرن الثامن عشر الميلادي.

وكان أهم معالم التحول في هذا السياق العالمي التفوق الذي سجلته المجتمعات الأوروبية في تقنية الأسلحة العسكرية والسفن الحربية والتنظيم المؤسسي للدولة وأجهزتها، فبعد

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 43.

² - باسم حمزة عباس، مرجع سابق، ص 3.

³ - بعد أن استمرت الحروب بين الدولتين 35 عاما. أنظر: محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 250.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

اكتشاف رأس الرجاء الصالح¹ والعالم الأمريكي الجديد² وعلى مدى قرن ونصف من الزمن ، لم يعد الاقتصاد المتوسطي دوره السابق.

وظل الصراع يرمي بظلاله على العالم الإسلامي ترك العالم الإسلامي خلال كل هذه الفترة اللاحقة ساحة تقابل بين قوته الأساسيتين العثمانية والصفوية ، وكان الصراع بينهما ، وفي جزء كبير منه ، محاولة للخروج من أزمة الاقتصاد المتوسطي عبر السيطرة على الممرات والمرافئ المؤدية الى أوروبا التي تكسب في مدنها الذهب وفضة العالم الأمريكي الجديد³ ، ولما استنفذت القوتان ، كان اقتصادهما على درجة من الضعف لا تنتظر "انتعاشا" الا من خلال الامتيازات الأجنبية وتوسع التجارة الغربية فيهما⁴.

وأضحت حرفهما على درجة من الجمود والتراجع أمام زحف السلع الغربية لدرجة لم يعد معها الوضع المفارق على مستوى قوة الأعمال و الأسعار ورسوم الجمارك بين أوروبا والشرق الإسلامي مشجعا على أي تطوير في الجانب الثاني، وكل هذا يؤسس لتشكيل العلاقات اللامتكافئة بين الغرب والشرق الإسلامي ، أي بين المركز الذي رسخته الثورة الصناعية ونتائجها التوسعية وبين الأطراف التي خلفتها سياسات الحروب والاستتباع والارتهان الاقتصادي للإمتيازات الأجنبية.

¹ - إدريس الناصر رائسي ، مرجع سابق ، ص 247.

² - عباس حمداني ، مرجع سابق ، ص 3.

³ - إن البلاد العثمانية عانت أزمة اقتصادية كبرى تفاقمت ابتداء من النصف الثاني من القرن 16م / 10هـ بسبب تدفق كميات كبيرة من الذهب والفضة من جنوب أمريكا إلى المدن الإيطالية وخاصة جنوى ، وانسيابها منها إلى الولايات العثمانية مما كان له تأثيره على انخفاض قيمة الأقمعة العثمانية وارتفاع أسعار السلع والمواد الغذائية بالنسبة للمستهلك العثماني أنظر : F. Braudel, op. cit, T1, p495.

⁴ - عباس حمداني ، مرجع سابق ، ص 3.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

ومن الناحية الإقتصادية حققت الدولة العثمانية أهداف إقتصادية بالغة الأهمية تمثلت في مضاعفة مواردها الإقتصادية كما حققت الدولة العثمانية¹ أهداف استراتيجية على جانب كبير من الأهمية، فقد زادت مواردها الإقتصادية وحصلت على قواعد عسكرية جديدة وخاصة المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حتى أضحى البحر الأبيض المتوسط بحيرة عثمانية.²

لا شك أن الوصول الى هذه الأهداف لم يكن ليرضي الجانب الصفوي، بل كان مبعثا لحقده خاصة بعد سيادة العثمانيين على الطرق المؤدية للأراضي المقدسة من ناحية وعلى طرق التجارة الى البلاد الأوروبية من ناحية أخرى، وربما كان احكام العثمانيين سيطرتهم على طرق التجارة ومنافذها في البحرين الأحمر والمتوسط³ من أشد الضربات التي تلقاها الصفويين وتضييق الخناق على التجارة والحج، وهكذا بات حقد الصفويين على العثمانيين من الشدة بحيث يمنع الجانبين من الوصول الى تسوية سلمية نهائية⁴ بل إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية، التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول الي البحر، وكان مستعدا لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطرا على العالم الإسلامي⁵.

ومن آثار الصراع العثماني الصفوي أنه أضفى على المنطقة جوا من التسامح وتعايش المذاهب بسلام وقد حققت الدولة العثمانية في حربها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في

¹Ilhan Islamoglo, "The Ottoman empire and the world economy", *revue Francaise D'histoire d'outre mer*, n°287, 2^{eme} trimestre, Paris, 1990, p220.

² - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص 854.

³Andras RiedL mayer, *Ottoman-Safavid relation and Anatolian trade*, *the Turkish studies*, N°5-7, Turkey, 1981, p7.

⁴ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 61.

⁵ - عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص 226.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

العالم العربي نجاحا كبيرا من الناحية الدينية والمذهبية والتسامح بين المذاهب والطوائف¹ فعندما فتح السلطان سليمان القانوني العراق، ودخل بغداد حيث أقام أربعة أشهر هناك عمل خلالها على ارضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة² معا، ورصد أوقافا ينفق ايراداتها على أهل المذهبين³، وخرج من بغداد في رحلة تعرف فيها على قبر أبي حنيفة وأعاد بناء ضريحه⁴، وكان من الشيعة قد دنسوا رفاته وهدموا القبة والضريح وعلى الرغم من أن سليمان كان سنيا حنفيا إلا أنه زار العتبات المقدسة⁵ وعمل على ترميمها حيث كانت المنطقة التي تحيط بكربلاء تغمرها مياه الفيضان وتصل الى العتبات المقدسة فأمر ببناء سور يسمى السليمانية حول المدينة لوقايتها من مياه الفيضان التي تصل الى اليها، ثم وسع ترعة الحسينية كي تنساب فيها المياه على مدار السنة فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح، كما زار قبر الامام علي في النجف وهكذا انتهج السلطان سليمان القانوني اتجاه السنة والشيعة سياسة تنم عن الحكمة والحصافة ورحابة الأفق العقلي⁶، وأساسا الدولة العثمانية بنيت على التسامح مع جميع الأديان فليس بالبعيد أن تتسامح مع جميع المذاهب.

¹ - نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، ص 110.

² - وحتى الأقليات غير المسلمة عوملت بتسامح كبير وقليل من التعصب. أنظر: ستيفن لونكريك، مرجع سابق، ص 42.

³ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 822.

⁴ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 50.

⁵ - شرف خان البديسي، مصدر سابق، ص 137.

⁶ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 1، ص 25.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المبحث الثاني: العثمانيون في اليمن بين السيطرة والتحدى:

1- دوافع الضم العثماني لليمن:

أُلفت أخبار الانتصارات العثمانية في بلاد الشام ومصر بظلالها على شبه الجزيرة العربية فلا شك أن ورود أخبار من بلاد الشام عن انتصار العثمانيين في مرج دابق ومصرع قانصوه الغوري¹، أدى الى تغيير الوضع في جنوبي الجزيرة العربية تغييرا جذريا، حيث وجد المماليك أنفسهم في وضع لم يألفوه بعد سقوط دولتهم الأم، ولم يعد لهم أي مكان يلوذون به وأصبحوا مرغمين على البقاء في اليمن وتثبيت مواقعهم فيه، فأسسوا دولة مملوكية، وتخلت هذه الدولة عن سياسة المواجهة مع العثمانيين بل وأعلنت خليفة الأمير بارسباي² الذي توفي بعد الاستلاء على صنعاء بفترة قصيرة واليا على اليمن وبسط حمايته على المماليك، فوضع بذلك بداية موضوعية لوجود الباب العالي العسكري والسياسي في جنوب شبه الجزيرة العربية.

كما أقرت الدولة بقيادة اسكندر الشركسي³، اعترافها بالسيادة العلنية للبابا العالي، فارسل السلطان سليم الأول الى اسكندر المذكور امرا باستمراره واليا على اليمن⁴.

فتأسيس دولة جديدة تحت اشراف غير مباشر من الباب العالي ومدتها بالاسلح والتدخل في الشؤون الداخلية لبلدان حوض البحر الأحمر⁵، قادت الى تدعيم مواقع

¹ - ابن زنبيل الرمال، مصدر سابق، ص 99.

² - بارسباي: أمير من أمراء المماليك أنظر: ابن أجا محمد بن محمود الحلبي، مرجع سابق، ص 171.

³ - اسكندر الشركسي: وهو أحد أمراء المماليك في اليمن استطاع ضم صنعاء وبعد إعلان الطاعة للسلطان سليم الأول عقب فتح مصر، أبقاه السلطان واليا على اليمن، وعلى إثر وفاة سليم أعلن عصيانه، وأخيرا تمكن والي مصر خير بك من إرسال من يقتله بحيلة. أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 287.

⁴ G.W.F.Stripling, the Ottoman Turks and the Arab 1511-1574, Procupine Press, philade - phia , 1977 ,p28.

⁵ - البحر الأحمر تاريخيا لا يمكن فصله عن خليج عدن ومينائها والساحل الصومالي، كما لا يمكن فصله عن خليج السويس شمالا، فإذا ما نظرنا إلى الخريطة البحر الأحمر بصورة عامة نجد أهم الملامح البارزة فيه وهي قناة السويس ومضيق بابا المندب وخليج عدن، بينما تبرز عدة جزر متناثرة على طول البحر تختلف في درجة أهميتها من مجموعة لأخرى، وهناك عدد من الموانئ الهامة على طول ساحل هذا البحر بالإضافة إلى ميناء عدن. أنظر: عبد اللطيف

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

العثمانيين في تلك المنطقة وبدأ العثمانيون يتوافدون أفراد وجماعات للعمل مع الحكام المحليين وتقديم الخدمات لهم¹.

إن اهتمام العثمانيين باليمن يعود الى موقعه الاستراتيجي الهام² خلال الأزمنة الوسيطة والحديثة وكان لابد ان تبرز أهميته البالغة لكي يستفيد العثمانيون منه سياسيا واقتصاديا وفضلا عن جعله منطقة دفاع استراتيجية في جنوب الامبراطورية العثمانية الشاسعة الأطراف ولاسيما أنه يطل على البحار الشرقية³ ويستفاد كثيرا من مضيق باب المندب⁴ في التعامل مع الشرق والغرب⁵.

كما أرادت الدولة العثمانية من خلال امتدادها لليمن إقامة منها منطقة عازلة في أقصى جنوب الجزيرة العربية لحماية الأماكن المقدسة التي يستمد السلاطين العثمانيين شرعيتهم من خلال خدمة هذه الأماكن وهذا ما يعبر عنه اللقب الذي اتخذته السلطان سليم الأول ومن جاء بعده بخادم الحرمين الشريفين⁶.

=محمد، البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى. مكتبة العبيكان، الرياض، 1415هـ/1994م، ص12.

¹ - نيقولاي ايفانوف، مرجع سابق، صص 148، 149.

² - عثمان أباضة، تاريخ اليمن الحديث، الحكم العثماني في اليمن 1881 - 1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986 ص38.

³ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج1، ص66.

⁴ - باب المندب: الذي يبلغ اتساعه 21 كيلومترا في حين يبلغ متوسط عمقه 63 مترا هذا الممر البحري حرص العثمانيين على حمايته فهو جزء لا يتجزأ من استراتيجية حماية البحر الأحمر.أنظر: مهمة دفترى⁵، ص277، الحكم710، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، وأخر عهد السلطان سليمان القانوني، مرجع سابق، م2، صص36، 37.

⁵ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص125.

⁶ - نجد السلاطين العثمانيين يتلقبوا أحيانا بلقب حامي حمى الحرمين الشريفين أو اللقب المعتاد خادم الحرمين الشريفين أو اللقب الذي اتخذته السلطان سليم الأول واستمر طوال عصر الدولة العثمانية كلقب يضاف على سلاطين

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

لا شك أنّ توجه الدولة العثمانية الى اليمن جاء نتيجة جملة من الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والاستراتيجية، إذ يتمتع اليمن بمزايا عديدة فهو يمثل طريقا ومرا استراتيجيا إلى الهند فالسيطرة عليه تضمن للعثمانيين كذلك سلامة الحرمين الشريفين¹ في الحجاز والتحكم في البحرين الأحمر والعربي والإشراف على البحار الشرقية إضافة الى جعله قاعدة استراتيجية ضد القوى البرتغالية والصفوية، كمحطة اتصال في التعامل مع أجزاء العالم الإسلامي في كل من أعماق آسيا وأفريقيا²، ونظرا لموقع الجغرافي لعدن³ على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية قد حباها بعدد من المميزات مثل كونها ميناء طبيعيا ممتازا.⁴

وزاد من إجراءات العثمانيين على تدعيم حزام الأمن التقارب ما بين إيران والبرتغال، ولعل هذا العامل من أكثر العوامل فعالية في سبيل توجيه العثمانيين أنظارهم إلى عدن والاستلاء عليها، لأنّ ذلك يعني أنّ الأساطيل العثمانية بتحكمها في عدن يسمح لها الدخول إلى الخليج العربي لإغلاقه، وتطوير خصومهم الشيعة الصفويين في إيران من الجنوب ومن ثم إفساد أية محاولة قد يقوم بها هذان الطرفان⁵.

=آل عثمان صبغة دينية لها بريقها ووزنها في أرجاء العالم الإسلامي. أنظر: خالد عزب، "لقب خادم الحرمين الشريفين"، مجلة الاجتهاد، العدد 43، دار الاجتهاد، بيروت، 1420هـ / 1999م، ص 86.

¹ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، صص 862، 863.

² - عمر سالم بابكور، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن 10هـ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1986م، صص 11، 22.

³ - فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، ص 131.

⁴ - آغان أوغلو يلدريم، اليمن في العهد العثماني، منشورات ارسیکا، استانبول، 2008، ص 24.

⁵ - عمر سالم بابكور، مرجع سابق، ص 203.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

تخوفت السياسة الخارجية العثمانية من وقوعها في أيدي البرتغاليين والتي كانت بالنسبة لهم قاعدة مناسبة وقريبة لإغلاق البحر الأحمر نهائياً. ، وتحقيق أحلامهم بمد سيطرتهم شرقاً إلى أقاصي العالم الإسلامي.¹

ومن اسباب الفتح العثماني لليمن التغلغل البرتغالي² من أقوى العوامل المفسرة للفتح العثماني لليمن لتأمين الحدود الجنوبية للإمبراطورية بغلق البحر الأحمر أمام البرتغاليين، حيث كان البحر الأحمر يشكل ممراً حيويًا³ وعجزت القوى المحلية اليمنية (المملوكية والطاهرية والزيدية) من مواجهة الزحف والنشاط الاستعماري العسكري والاقتصادي الذي بدأه كل من البرتغاليين والاسبان في شرق إفريقيا وآسيا الجنوبية، بالإضافة إلى طلب الإمارات المحلية في تلك المنطقة بطلب العون من الدولة العثمانية⁴، وإغلاقه في وجه الدول الأوروبية، فكانت هذه القاعدة الأمامية هي اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة⁵

وقررت الدولة العثمانية اتخاذ اليمن قاعدة بحرية للدفاع عن البحر الأحمر⁶ ومنع السفن البرتغالية⁷ من دخوله ثم عممت هذا المنع على جميع السفن المسيحية، بحيث كان

¹ - فاروق عثمان أبابضة، مرجع سابق، ص 21.

² - السيد مصطفى سالم، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1971، ص 8.

³ - عبد اللطيف محمد هريدي، مرجع سابق، ص 11.

⁴ - نفسه، ص 12.

⁵ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص 71.

⁶ - عموماً المسلمين بعامه والمؤرخين خاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة السيادة على معظم الأقاليم التي تطل على ساحليه، وكان مرد هذه التسمية إلى أنّ البحر الأحمر هو الطريق البحري المؤدي إلى بلاد الحجاز حيث يأتي إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة. أنظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 1، ص 21.

⁷ - مهمة دفترية 14، ص 1515، الحكم 1398. نقلاً عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية عن قبوطان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي، الجزيرة العربية، ولاية الحبش، المحيط الهندي، المغرب العربي)، القاهرة، د.ت.ن، ص 73.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في ميناء المخا باليمن وتعود أدراجها إلى المحيط الهندي، وكانت حجة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز تطل على مياه البحر الأحمر، ويجب ألا تدنس مياهه بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر¹، وهذا حذرا من المخططات الصليبية التي كان البرتغاليون عازمون على تنفيذها² وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة، وفعلا نجح الأسطول البرتغالي في دخول البحر الأحمر وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة كانت الأولى في (1517/923م) والثانية في (1520/926م) ولكنه أخفق³.

2- التوسع العثماني في اليمن:

أ/ المرحلة الأولى: تثبيت الحكم العثماني في اليمن:

تميزت المرحلة الأولى من السياسة العثمانية اتجاه اليمن في ظروف تصاعد النشاط البرتغالي في المنطقة، الذي سيطر على المراكز الهامة في الخليج العربي مدة قرن من الزمن⁴، عانى خلالها سكان الخليج مرارة الحروب الشرسة والتدمير المستمر وأدرك البرتغاليون اثناء غزوهم لمراكز التجارة في الخليج العربي أن سيطرتهم على تجارة الهند المارة بالخليج العربي والبحر الاحمر⁵ لا تصبح شاملة إلا بالسيطرة على موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية ومن

¹ - وقد ظل معمولا به حتى القرن الثامن عشر. انظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص862.

² - ثم الزحف على الأماكن المقدسة في إطار الصراع الحضاري بين الشرق والغرب ومحطة من محطات الحروب الصليبية في الفترة الحديثة، ثم استئناف الزحف حتى الاستيلاء على المسجد الأقصى. نفسه، ج2، ص863.

³ - نفسه، ج2، ص863.

⁴ - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، مرجع سابق، ص481.

⁵ - ليلي الصباغ، مرجع السابق، ج1، ص66.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

أهمها شحر¹ المتحكمة في الطريق البحري بين الخليج العربي والبحر الأحمر حيث تعرضت الشحر لهجمات القراصنة البرتغاليين منذ قدومهم الى الشرق.

وعانى السلاطين الكثيرون² كثيرا من نهب المراكب في ميناء الشحر، وكان اول هجوم منظم قام به البرتغاليون سنة 929هـ / 1522م عندما جاءوا اليها³. بالإضافة الى حملات عديدة 1535- 1537م، ومن هنا بدأ السلطان بدر بن عبد الله الكثيري⁴ في مكاتبة السلطان سليمان القانوني طالبا منه الحماية من الغارات البرتغالية، وكان العثمانيون بدورهم يحاولون فرض سيطرتهم على جنوب شبه الجزيرة العربية للحد من نفوذ البرتغاليين على الملاحة في المحيط الهندي، وأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة 945هـ/ 1538م حملة الى الهند⁵ بقيادة سليمان باشا الخادم⁶ لقتال البرتغاليين ومرت الحملة العثمانية على اليمن⁷. مما زاد في توطيد نفوذها على هذا الإقليم.

¹ شحر: إحدى كبريات مدن ساحل حضرموت حيث تطلق التسمية على المنطقة الساحلية الواقعة ما بين عمان وساحل حضرموت جميعا ويطلق على ساحل حضرموت خاصة، تعرضت مرارا للغزو البرتغالي التي مازالت بصماته بارزة في بعض الأحياء القديمة. أنظر: إبراهيم المحففي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، 1988. ص 852.

² الكثيرون: بطن من قبائل منبة إحدى قبائل خولان ديارهم في بلاد صعدة، وأول من حولهم إلى دولة هو علي بن عمر بن جعفر ابن محمد بن كثير وأول حاكم ينصب سلطانا على حضرموت. أنظر: نفسه، ص 22.

³ محمد رجائي ريان، مرجع سابق، ص 26.

⁴ بدر بن عبد الله الكثيري: كان شرف الدين يلقب نفسه المتوكل على الله واسمه يحيى بن شمس الدين ابن أحمد. أنظر: قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكّي، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة المسمى البرق اليمني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1387هـ/ 1967م، ص 60.

⁵ Haji Khalifeh, op.cit, p71.

⁶ سليمان باشا الخادم: رجل دولة وقائد عثماني كبير حيث شهد كل من حكم السلطان بايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني حيث ضاع صيته في عهد هذا الأخير عندما عينه صدرا اعظم على مصر ما بين 1525 - 1538م وصدرا أعظم مابين في الفترة 1541 - 1544م. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية و العالم، مرجع سابق ص 87.

⁷ اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 98.

1- حملة سليمان باشا الخادم على اليمن 1538م 945/هـ :

شرعت الدولة العثمانية في تنفيذ مشروعها بالبحر الأحمر والهند موجهة الأوامر إلى والي مصر سليمان باشا الخادم ببناء اسطول جديد في السويس¹ وهي مهمة بدأ العمل بها عام 1537م وانتهى في ربيع العام التالي وكان الاسطول يتكون من 74 سفينة و20 ألف جندي من مصر والشام، على حين أن بحارته كانوا من البنادقة المقيمين بالإسكندرية². فقد كان لسليمان باشا مهمتان انهاء مظالم البرتغاليين التي استهدفت إخراج مسلمي الهند³ والتي كانت شبيهة بمظالم الاسبان التي ارتكبوها اتجاه العرب في الاندلس والمغرب⁴، وكان هذا دينا على الدولة العثمانية بحكم كونها دولة خلافة وبحكم كونها أقوى دولة عسكرية و الدولة الإسلامية الوحيدة التي تملك أسطولا قويا . أما المهمة الثانية فهي إعادة فتح طريق تجارة الهند⁵ أمام البحارة المسلمين وطرق المرور العثمانية وباعتبار مصر قطر عثماني، فقد كانت من أكثر الأقطار التي تضررت من توقف تجارة المرور التي كان

¹ - السويس: تعتبر السويس بالنسبة للعثمانيين قاعدة بحرية مهمة للحفاظ على سلامة السفراء القادمين من الشرق الأدنى والهند أثناء ذهابهم وعودتهم وكذلك الحفاظ على الحجاج والتجار والبحار أي السواحل الإفريقية والعربية ضد الهجمات البرتغالية. أنظر: مهمة دفترى³، ص 195، الحكم⁵⁵⁰. نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، صص 276، 277.

² - قطب الدين النهروالي المكي، مصدر سابق، ص 25.

³ - وفي نفس الوقت تلقى السلطان طلبا للمساعدة من حاكم كوجرات المسلم في غربي الهند ضد كل من البرتغاليين والمغول الذين كانوا تحت زعامة بابر أحد أحفاد تيمورلنك قد استولوا على معظم شمالي ووسط الهند ثم بدأوا يتحركون غربا وتلبية لطلب حاكم كوجرات توجه أسطول عثماني من قناة السويس صوب الشرق. أنظر: محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 98.

⁴ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 282.

⁵ - تجارة الهند: محور التجارة العالمية التي كانت تنطلق من الشرق الأقصى والهند مارة بجزيرة العرب وساحل إفريقيا الشرقية، متمثلة في التوابل والحريز والبخور والعمور والسلع الأخرى. أنظر: حسن صالح شهاب، "البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي، ندوة رأس الخيمة التاريخية²، مجموعة أبحاث،

10 - 16 ربيع الأول 1409هـ/19 - 21 نوفمبر 1988، مركز الدراسات والتوثيق، رأس الخيمة، 2001، ص 81.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

عاملا اقتصاديا هاما منذ عهد المماليك وقد كان استخدام المماليك للبحارة العثمانيين باستمرار¹.

وخرج سليمان باشا في جويلية 1538² على رأس هذه الحملة من السويس³ واستولى في أوت من هذا العام على عدن⁴ من حاكمها عامر بن داود⁵ وهو من بقايا بني طاهر وعين على عدن أحد سناجق الحملة وهو الأمير برام، ثم سار الى الهند ولكنه كسابقه الامير حسين الكردي عاد منها بعد قليل وتوقف سليمان باشا في اليمن في طريق عودته لإتمام فتح السواحل اليمنية فدخل ميناء مخا⁶ ثم انتقل منه الى ميناء الصليف ليستولى على مدينة زبيد⁷، وفي الأخير وحاول السيطرة على تعز⁸ مقر الامامة الزيدية لكنه فشل وتبع ذلك إخضاع ميناء جيزان وتحصينه وذلك أثناء عودته من الحملة الى جدة ثم السويس⁹.

مكث سليمان باشا في موانئ كل من الشحر، عدن ومخا بعد أن أخضع سواحل عمان وحضرموت للسلطة العثمانية، ثم قام بإرسال المدافع والبنادق الى مسلمي اريتيريا والصومال

¹ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص 228.

² Haji Khalifeh, op.cit, pp26-27.

³ - مهمة دفترى، ص696، الحكم 1922. نقلا عن: محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص14.

⁴ - عدن: بفتح العين مدينة كبيرة جنوب تهامة عند مضيق باب المندب نسبها الاخباريون إلى عدن بن سبأ بن ينسحب بن يعرب بن قحطان، وهي عاصمة الشطر الجنوبي من اليمن وكانت من أقدم أسواق العرب فتحها المسلمون 636م وضمها العثمانيون 1538م. أنظر: إبراهيم أحمد المقحفي، سبق ذكره، ص432.

⁵ - عامر بن داود: وهو آخر ملوك العرب في اليمن ولقبه الملك الطاهر صلاح الدين حكم كل اليمن مدة 20 سنة ابتداء من 1516 - 1538م أنظر: محمد قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص20.

⁶ - مخا: مدينة قديمة في حضرموت على ساحل البحر الأحمر الغربي أنظر: إبراهيم أحمد المقحفي، سبق ذكره، ص1445.

⁷ - زبيد: وكانت تسمى الحصب وغل عليها الأول لوجودها في واد زبيد، مؤسسها محمد بن زياد مؤسس أسرة بني زياد التي حكمت في الفترة ما بين 818هـ/1000م. أنظر: إبراهيم أحمد المقحفي، سبق ذكره، صص189، 190.

⁸ - تعز: مدينة مشهورة في سفح جبل صر الشمالي تبعد عن صنعاء ب256 كلم كانت تعرف قديما باسم العينية. أنظر: نفسه، ص69.

⁹ - قطب الدين النهروالي المكي، مصدر سابق، ص38.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

دعما لهم ضد البرتغاليين وحليفهم مملكة الحبشة ،وعين واليا برتبه فريق أول "بكلربك" ¹ على إيالة اليمن على ان يكون المركز زبيد وهكذا تأسست إيالة عثمانية جديدة وقد كانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين كلواء (سنجق) ² وأعلن الإمام الزيدي خضوعه.

2-نتائج حملة سليمان باشا الخادم على اليمن 945هـ / 1538م :

أدت حملة سليمان باشا الخادم على اليمن عام 1538م إلى نتائج مهمة خاصة بعد استغلاله الخلافات الناشئة بين الأسر المحلية الحاكمة واستولى على المناطق الساحلية وبذلك وفر للإمبراطورية قواعد عسكرية متقدمة للدفاع عن البحر الأحمر في وجه الهجومات البرتغالية في المستقبل ³ ، ثم سقوط عدن في أيدي العثمانيين.

ومن هنا فصاعدا حلت عدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام محل جدة ⁴ بالحجاز كخط دفاع أمامي وقاعدة بحرية متقدمة ضد البرتغاليين ، ولو أن ذلك لم يمنعهم من التوغل في البحر الاحمر من وقت لآخر ⁵.

وتعرف حملة سليمان باشا الخادم بالفتح العثماني الأول لليمن ، لأن السلطة هناك كانت تقوم على الولاءات من الأمراء المحليين فحسب دون حكم مباشر.

¹G.W.F.Spirtling,op,cit, p99.

² يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 329.

³ مصطفى عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 98.

⁴ جدة : كانت تعتبر بالنسبة للمسلمين أقرب نقطة للوصول إلى الأراضي المقدسة عبر الطريق البحري وهي أقرب إلى الأستانة ، فضلا على أن الطريق البحري إلى الهند عبر مصر أكثر ملائمة للعثمانيين من الطريق البري عبر العراق إلى الهند ثم إمكانيات السويس كميناء كانت أكثر وضوحا من إمكانيات البصرة . وكانت إمكانية انطلاق الأسطول العثماني إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر أكثر وضوحا من الخليج من إمكانية الخليج العربي في هذا الصدد خاصة وأنه لم تكن على ضفافه أية دولة معادية بعكس الحال في الخليج العربي حيث تطل عليه الدولة الصفوية ذات العلاقات الودية بالبرتغاليين لذلك كانت أهم الأهداف الاستراتيجية بالنسبة للبرتغاليين وكانت كل هذه العوامل سببا في أن يتخذ العثمانيون من السويس قاعدة بحرية للانطلاق إلى المحيط الهندي. أنظر: عمر سالم باكور، مرجع سابق، ص 42.

⁵ قطب الدين النهرواني، مصدر سابق، ص 147.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وكان من أهم نتائج هذه الحملة ، خضوع منطقة الساحل اليمنية من جيزان شمالا الى عدن جنوبا¹ للحكم العثماني ، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت الحكم الزيدي بزعامة الامام شرف الدين² ، و انتزاع عدن من أيدي الطاهريين³ وإخضاعها للسيادة العثمانية⁴ ونقل السلطة في زبيد والمناطق التهامية من أيدي المماليك إلى أيدي موظفين عثمانيين.

ولم يستقر الأمر طويلا للعثمانيين في اليمن حيث اشتدت المنازعات بينهم وبين بقايا المماليك والزعماء من أهالي البلاد حتى سنة 1538/945م حين تواترت الانباء الى السلطان العثماني سليمان القانوني بازدياد هجوم البرتغاليين على عدن،⁵ وفي اليمن استطاع سليمان باشا الخادم ان يخضع عدن للعثمانيين وبقتل حاكمها عامر بن داوود الطاهري⁶ ويولي واليا عثمانيا من اتباعه، وبعد عودته من الهند اخضع مدنا ساحلية مهمة⁷.

وتعد حملة سليمان باشا خادم والى مصر في عام (1538/945م) الحملة العثمانية الاولى التي هدفت الى السيطرة على بلاد اليمن سيطرة عثمانية واضحة والى تصفية الموقف

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص239.

² - الإمام شرف الدين: 1502 - 1572م/908هـ - 980هـ لقب بالمتوكل على الله واسمه يحيى بن شمس الدين ابن أحمد إمام الدولة الزيدية في اليمن من 1547 إلى 1572. أنظر: عيسى بن لطف الله شرف الدين، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق ابراهيم بن أحمد المقحفي، ط1، مركز عبادي، صنعاء، 1424هـ/2003م، ص19.

³ - الطاهريين: بطن من قبيلة لذراجن الحميرية من حبن في بلاد راع وهم آل طاهر بن معوضة بن تاج الدين الذين حكموا اليمن بعد بني رسول وكان أول حاكم منهم الملك الطاهر عامر بن طاهر الذي أنشأ إمارته في عدن سنة 858هـ. أما آخر ملوكها فهو عامر بن داوود وإليهم تنسب منطقة الطاهرية ومن مآثرهم المدرسة المنصورية في اليمن والمدرسة العامرية. أنظر: أحمد ابراهيم المقحفي، سبق ذكره، صص954، 955.

⁴ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص240.

⁵ Melin Kunt and Crhistine Woodhed, op.cit, p63 .

⁶ - قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص16.

⁷ - نفسه، صص70، 81.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

هناك لصالح الحكم العثماني للتفرغ بعد ذلك لمواجهة البرتغاليين والسيطرة على تجارة الشرق الأقصى،¹ كما حصن جزيرة كمران.²

والواقع أن مهمة سليمان باشا الخادم كانت تنقسم الى قسمين: وضع حد لطموح البرتغاليين الذين استهدفوا اخراج المسلمين من الهند³، ومن ثم اعادة فتح طريق التجارة الشرقية أمام العثمانيين⁴ لذا عمد سليمان باشا جاهدا الى تحقيق هذين الهدفين، إلا أنه كان عليه أن يثبت أقدام العثمانيين في اليمن لينطلق منها الى الهند.⁵

رمت السياسة الخارجية العثمانية وعلى رأسها السلطان سليمان القانوني التفرد بحكم اليمن حتى لا تستولي عليها البرتغال أو أية دولة أوروبية أخرى فتصبح حجر عثرة في سبيل تقدم الدولة العثمانية باتجاه الشرق.

وبعد فشل حملة سليمان باشا في الهند⁶، وأثناء عودته الى عدن مر في طريقه الى الشحر وهناك أعلن السلطان بدر خضوعه للعثمانيين. ووافق السلطان الكثيري على أداء مبلغ من المال للدولة العثمانية⁷ ومقدارها عشرة الاف دينار أشرفي وبذلك دخلت الشحر في حماية أقوى دولة اسلامية في ذلك الوقت، ونجحت بذلك عن النأي للخضوع للبرتغاليين⁸.

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 19.

² - كمران: جزيرة في البحر الأحمر قبالة مرفأ الصليف و تتكون الجزيرة من مدينة صغيرة لها ميناء صالح لاستقبال السفن المتوسطة. أنظر: محمود أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج 4، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1982، ص 187

³ - نفسه، ص 43.

⁴ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 328.

⁵ - عيسى بن لطف الله شرف الدين، مصدر سابق، ص 108.

⁶ - فتح أغلب الحصون التي أقامها البرتغاليون لكنه أخفق في حصن ديو. أنظر: محمد فريد بك الحامي، مرجع سابق، ص 240.

⁷ - إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 548.

⁸ - نفسه، ص 136.

² - المطهر ابن الامام يحيى شرف الدين: أحد أبناء الامام المتوكل يحيى بن شرف الدين الذي حكم أجزاء كبيرة من اليمن في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الخامس عشر أنظر: قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص 60.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وعلى الرغم من أن القوة التي صاحبت سليمان باشا الخادم إلى اليمن كانت مناسبة، إلا أن ظروف البلد قد تغيرت بسرعة خلال السنوات الماضية، فمع استمرار التفكك كانت القوى المحلية على وشك إكتشاف شخصية ملكية يمنية زيدية، قادرة على أن تجمع قوى عشائرية كبيرة حولها لتقاتل بها القوات العثمانية وغير العثمانية وإن ارتفع نجم المطهر ابن الإمام يحيى شرف الدين¹. الذي عمد إلى استخدام الأسلحة النارية ما جعل مهمة القوات العثمانية شاقة، فعمد سليمان باشا الخادم إلى استعمال الحيل للتخلص من القوى المناهضة له، وتمكن من فتح عدن بعد أن قتل أميرها مرجان ونصب عليها واليا عثمان²، وسيطر على مسقط والمناطق الساحلية، مزودا الدولة العثمانية لأول مرة بتلك المناطق³ التي تمتلك قواعد استراتيجية جديدة ومتقدمة وهامة في الدفاع عن منطقة البحر الأحمر في مواجهة الغارات البرتغالية العنيفة، وكان ذلك في الحقيقة أبرز نجاحات الحملة⁴.

ومن المعروف أن السيطرة العثمانية على اليمن لم تتحقق مرة واحدة بسبب الأوضاع الجغرافية والسياسية للبلاد، وعلى الرغم من المحاولات المستمرة لمد الحكم العثماني الفعلي في اليمن رغم ذلك لم يتحقق إلا في سنة 1539 حيث عهد إدارة المناطق المنضوية تحت الحكم العثماني وعلى رأسها منطقة زبيد إلى أمير سنجق⁵ غزو مصطفى بك ثم جرت مساعي الدولة بتوسيع نفوذها⁶.

²J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T6,p361.

³ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص 160.

⁴ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 375.

⁵ - سنجق: أحد الوحدات الإدارية والعسكرية في النظم العثمانية ويطلق هذا الاسم على الوحدة الإدارية التي تكونت تحت إدارة سيد اللواء والذي يرأس مجموعة من الجند والذين ينضون تحت لوائه، ويقوم بتأسيس الإدارة المدنية أيضا ويسمى قائدها بالسيد لواء أو سنجاق بك. انظر خليل ساحل أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين، إرسكا، استانبول، 2000، ص 501.

⁶ - فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية اواخر عهد سليمان القانوني، ج 3، إرسكا، استنبول، 2014، ص 34.

ب/ المرحلة الثانية: استكمال السيطرة العثمانية على اليمن:

وتتضح المرحلة الثانية من مراحل بسط السيادة العثمانية على اليمن بعد مرور السياسة العثمانية الخارجية اتجاه اليمن بالمرحلة الأولى التي حددت فيها كيفية التحكم في اليمن و تثبيت الاقدام هناك متبينة سياسة ضد الوجود البرتغالي¹ في المنطقة وعلى جميع المستويات للوقوف حائلا ضد أطماعه التوسعية،² ثم جرت مساعي الدولة العثمانية بتوسيع نفوذها إلى أن استولى أوزدمير باشا³ (1549- 1555) على صنعاء⁴ وبذلك تحققت للعثمانيين السيطرة على الأجزاء الداخلية لليمن، واستمرت المناطق اليمنية الخاضعة للعثمانيين ولاية واحدة الى سنة 1560م حيث صدر أمر بتقسيمها وهما ولاية صنعاء وولاية اليمن⁵.

¹ - وتعود جذور هذه الاستراتيجية إلى اتخاذ العثمانيين بعد استيلائهم على مصر مباشرة التدابير لطرد البرتغاليين من البحر الأحمر، ولما عاد إلى مصر سلمان ريس وكان الأتراك قد أرسلوه لخدمة المماليك ومساعدتهم قبل العام 1513م وأوصت مذكرة تنسب إلى سليمان ريس بضرورة الاحتفاظ بأسطول دائم في السويس للحيلولة دون دخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر وقطعهم التجارة عبره مع مصر. أنظر: أمين توفيق الطيبي، "المواجهة العثمانية - البرتغالية في القرن السادس عشر"، مجلة الاجتهاد، العدد 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت، 1420هـ / 1999، ص 167.

² - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 43.

³ - أوزدمير: وكان أوزدمير باشا واليا على اليمن وأول من تولى إيالة الحبشة عام 1555 واستطاع أن يحقق مكاسب سياسية للدولة العثمانية بهزيمة ملك الحبشة الذي تعاون مع البرتغاليين ضد الدولة العثمانية. أنظر: محمود خليل، مرجع سابق، ص 7.

⁴ - صنعاء: وأصبحت ولاية إلى جانب ولاية اليمن عام 1560 ويعزو المؤرخون العثمانيون هذا التقسيم إلى الخلاف الكائن بين بكربكي اليمن رضوان باشا وبكربكي مصر محمود باشا الذي كان في السابق يتولى ولاية اليمن، وقد نظمت ولاية صنعاء بعشر لواءات واسند بها إلى بكربكي اليمن رضوان باشا أنظر: مهمة دفترى 5، ص 277، الحكم 710 جمادى الثاني 973هـ/1565م. نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، م3، ص 37.

⁵ - نفسه، م3، ص 34.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

انطلق العثمانيون في توسيع مواقعهم تدريجياً في المناطق الجبلية لليمن حيث راح العثمانيون يوسعون مواقعهم تدريجياً وتكبد زعيم الإسماعيليين محمد بن إسماعيل¹ هزيمة على يد قوات الإمام يحيى شريف الدين، فطلب مساعدة العثمانيين واعترف بسلطة البابا العالي، وفي طائفة الزيدية² نفسها نشبت خلافات حادة ما لبثت ان تحولت الى نزاعات دموية بعد فترة قصيرة.

وفي عام 1545 انحاز المطهر ابن الإمام الى جانب العثمانيين بعد استيائه من قرار والده وكان سكان الجبل يتوقون لمجيء العثمانيين بعد ان أرهقتهم الاضطرابات والنزاعات التي لا تنتهي فقرر بكربك³ اليمن كويس باشا استغلال الوضع لبسط سلطة البابا العالي على المناطق الجبلية⁴.

ويجمع المؤرخون العثمانيون هذا التقسيم إلى الخلاف الكائن بين بكربكي اليمن رضوان باشا وبكربكي⁵ مصر محمود باشا الذي كان في السابق يتولى ولاية اليمن⁶، وتكشف الأحكام الأربعة التي صدرت بهذا الخصوص الجوانب المتعلقة بهذا التقسيم، حيث تعد ولاية

¹ نوال حمزة يوسف الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن 10/16م، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1983، ص162.

² الزيدية: فرقة من الفرق الشيعية القائلة بالإمامة في بيت علي وحصرها في أولاد فاطمة غير أنهم لم يتجاوزوا موقفهم هذا بحيث لم يخضعوا في القول به لتيارات سياسية ومذهبية. أنظر: صابر طعيمة، دراسات في تاريخ الفرق الشيعية، النصيرية، الباطنية، الصوفية، الخوارج، مكتبة المعارف، الرياض، 1400هـ، ص32.

³ بكربك: يمثل رأس الحكم في الإيالة فهو وكيل السلطان والمفوض لرعاية شؤون رعيته في إيالته وهو القائم على الشؤون العسكرية للإيالة أنظر: يلماز أوزوتونا، موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، سبق ذكره، م4، ص618.

⁴ G.W.F.Stripling ,op. Cit ,p98 .

⁵ عيسى بن لطف الله شرف الدين، مصدر سابق، ص116.

⁶ نفسه، ص127.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

اليمن من المناطق الحدودية للدولة العثمانية¹ وهي واسعة جدا بحيث لا يمكن حفظها وحمايتها إلا بتقسيمها الى ولايتين تكون كل واحدة منها ظاهرة للأخرى²، وتخلصت السياسة العثمانية اتجاه اليمن في المرحلة الثانية بإصدار عدة أوامر منها صدور الأمر إلى رضوان باشا بأن يكون على أتم وفاق مع بكربكي اليمن مراد بك في إدارة البلاد، وحماية الرعية كما صدر الأمر إلى بكربكي مصر لتجهيز اليمن بالمستلزمات اللازمة وإرسالها مع بكربكي مراد بك بأمان وسلام الى اليمن وأمر لتجنيد 300 انكشاري لاستخدامهم في حفظ الأمن باليمن وحمايتها، واشترط الامر في اختيارهم ألا يكونوا ممن يدر موارد مالية لهم³.

3- صعوبات العثمانيين في اليمن:

امتدت السيادة العثمانية بادئ ذي بدئ امتدادا سلميا الى أن قوى مختلفة كانت تتصارع على النفوذ، فهناك الولاة المحليون من اللاوند⁴، الذين قبلوا الخضوع للعثمانيين ولكنهم عارضوا استبدال باشوات عثمانيين لهم وهناك أيضا الزيديين⁵ بزعامة الإمام شرف الدين ثم بقايا الأسرة الطاهرية الحاكمة في عدن، وقد شجّع هذا تهديد البرتغاليين سواحل اليمن⁶.

¹ - ثريا فاروق، مرجع سابق، ص 87.

² - مهمة دفترى 5، ص 277، الحكم 710. نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، م 3، صص 36، 37.

³ - مهمة دفترى 5، ص 130، الحكم 711، نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 70.

⁴ - اللاوند: اسم أطلقه العثمانيون في مصادرهم على طائفة من العسكريين العاملين في الأسطول العثماني، يقول البعض ان التسمية جاءت محرفة عن الكلمة الإيطالية Levantino التي أطلقها البنادقة على العناصر الشرقية من الذين استخدموهم في أسطولهم، فاستعارها الأتراك عنهم، عظم شأن اللاوند في عهد السلطان بايزيد الثاني لكن ربما أخذ العثمانيون هذا اللفظ عن الفرس لأنّ اللاوند تعني الخادم. أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص 378.

⁵ - السيد مصطفى سالم، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 9.

⁶ - قطب الدين النهروالي المكي، مصدر سابق، ص 28.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

لقد كانت اليمن في حالة صراع اقليمي ومحلي ضد العثمانيين وقد حمل راية الصراع الأئمة الذين كان حكمهم قد ترسخ على مدى قرون طويلة، وفي المقابل قد ظفر بعض الولاة بتقدير من أبناء الشعب اليمني واستطاع العثمانيون دعم نفوذهم في مناطق يمنية أخرى كزيد وعدن، وكانوا يواجهون سلسلة من الهجومات القوية التي كان وراءها الأئمة فلقد وجد العثمانيون أنفسهم وجها لوجه أمام مقاومة عربية عنيفة في اليمن ونزاعا مسلحا مستمرا واستياء عاما من أبناء اليمن.¹

تكبد العثمانيون خسائر كبيرة خلال تلك العمليات في الأرواح والأموال، وذلك لعدم قدرة قواتهم على مجابهة حرب العصابات في المناطق الجبلية الصعبة². حيث استفاد اليمنيون من وعورة تضاريس بلادهم في حروبهم مع العثمانيين³ وشعر هؤلاء بالحساسية اتجاه الأوضاع الخاصة باليمن وذلك نظرا لطبيعة أوضاعه البشرية والطبيعية الخاصة، فزاد هذا من سلبية حكمهم هناك وذلك بالإضافة إلى طبيعة النظم العثمانية⁴، فمن الناحية الطبيعية أثر الطابع الجبلي لليمن على النواحي الاقتصادية والبشرية في البلاد ليس من ناحية تحديد نوعية هذه النواحي فحسب بل من ناحية طبعها بطابع خاص يحتاج إلى سياسة خارجية حكيمة ومعالجة خاصة للأمور⁵.

¹ - السيد مصطفى سالم، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 10.

² - سيار الجميل، مرجع سابق، صص 130، 131.

³ - حققوا النصر في الكثير من المرات لأنهم أدرى بمسالك جبالهم، وأقدر على الحرب وسط هذه الصخور الصماء من الجيوش العثمانية النظامية. أنظر: سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول 1538 - 1635م، ط3 منشورات المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1977، ص 225.

⁴ - محمد جميل بيهم، مرجع سابق، ص 48.

⁵ - سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول 1538 - 1635، مرجع سابق، ص 225.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وكان فقر المناطق الجبلية الوعرة اقتصاديا من أهم العوامل التي زادت من حساسية هذه المناطق ضد الحكم العثماني، والتي جعلتهم أكثر اندفاعا إلى الثورة والحرب، وذلك كما كان الحال في المناطق الجبلية الشمالية حيث توجد أغلبية زيدية، وكذا في المناطق الجنوبية¹، ولعبت التضاريس الوعرة دورا هاما في إلحاق الفشل بالعثمانيين فمن ناحية قللت هذه التضاريس من فعالية الأسلحة الضخمة الحديثة التي أحضرها العثمانيون إلى اليمن وخاصة المدافع، ومن ناحية أخرى فشل هؤلاء في تركيز جيوشهم حول المراكز الحربية الهامة، بل اضطروا إلى توزيع جيوشهم في ثنايا هذه المنطقة مما أضعف قدرتهم الهجومية².

في الحقيقة إنّ سكان الخليج العربي نظروا الى الدولة العثمانية على أنّها حامية الحرمين الشريفين³ وهي الملجأ آنذاك للعالم الإسلامي⁴، يضاف الى ذلك أنّ الدولة العثمانية في القرن 16م كانت دولة قوية⁵، إلا أنّ بعض القوى تحالفت مع البرتغاليين ضدها ومثلت عقبة في توسعها وسيطرتها على اليمن⁶ من بين هذه التحالفات اتصال علي بن سليمان بالبرتغاليين وطلب النجدة منهم لتقوية جانبه أمام العثمانيين، وقد رحب البرتغاليون من

¹ - سيد مصطفى سالم، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول، مرجع سابق، صص 14، 15.

² - سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول 1538 - 1635م، مرجع سابق، ص 225.

³ - وكان للحرمين الشريفين وأهلها مكانة خاصة عند سلاطين الدولة العثمانية وأرسلت المساعدات للحرمين الشريفين وقد عرفت هذه المساعدات المالية بالصرة وأوقفت الأوقاف الكثيرة على الحرمين الشريفين وحرص السلاطين العثمانيون على أداء هذه المهمة وانجازها على أكمل وجه، بل والحفاظ على سلامة الحج والحجاج في سفرهم وإقامتهم. أنظر: عايض بن خزام الروقي، "دور الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد رقم 42، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 2004-2005، صص 547، 548.

⁴ - وجيه كوثراني، مرجع سابق، ص 48.

⁵ - خالد زيادة، المرجع السابق، ص 6.

⁶ - عمر سالم بابكور، مرجع سابق، ص 42.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

جانبهم بهذه الفرصة، ولكن خاب أملهم لتأخر وصول أسطولهم إلى عدن إذ لم يصل إليها إلا بعد سقوطها في أيدي العثمانيين¹.

في حين خضعت بلاد الحجاز سلمياً للعثمانيين فإن اليمن كانت أشد البلاد العربية مقاومة لامتداد الحكم العثماني لها، وامتدت هذه المقاومة للفتح العثماني الأول لليمن خلال نفس الفترة (1538-1569) التي تخللتها تحولات حاسمة في الصراع العثماني البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي².

كان السلطان العثماني في كل مرة يرسل بعض القوات المسلحة لمساعدة القوات الموجودة في اليمن من أجل إعادة السيطرة على الأوضاع من أهمها حملة سنان باشا³. إن مهمة العثمانيين لم تكن سهلة نظراً لمقاومة اليمنيين لهذا الفتح، وكانت التجزئة الاجتماعية والسياسية بين القوى المختلفة المتصارعة على فرض سلطتها على كل أرجاء اليمن من أهم العوامل المشكلة لمصير اليمن وعلاقته بمصر المملوكية، ثم العثمانية فبقدر ما أثر الصراع بين الزيديين والطاهريين⁴ على إتاحة الفرصة للنفوذ المملوكي فقد أثر هذا الصراع الممتد بدوره على إمكانيات النفوذ العثماني⁵ في هذه المنطقة، ولقد أدت مقاومة

¹ - وكانت ثلاث سفن برتغالية قد تقدمت إلى عدن في صفر 955هـ/20 مارس 1548م قبل وصول باقي الأسطول البرتغالي إليها - وكان يتكون من ثلاثين سفينة - ففوجئت بوجود السفن العثمانية بميناء عدن وقد استطاعت السفن العثمانية أن تأسر سفينتين من هذه السفن الثلاث وتمكنت الثالثة من الفرار لتحذر باقي الأسطول البرتغالي الذي عاود بدوره إلى ميناء كشن العثماني. أنظر: سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635)، مرجع سابق صص 215، 216.

² - نفسه، ص 129.

³ - دفتر المهمة 7، ص 756، الحكم 2072، نقلاً عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 23.

⁴ G.W.F.Striplig,op.cit,p98.

⁵ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 132.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الزيديين¹ الحادة للنفوذ العثماني الى عدم تمكين العثمانيين من إحكام سيطرتهم على اليمن بأكمله وتوحيده تحت السيادة العثمانية خلال حكم سليمان القانوني أي خلال الفتح الأول (1539- 1555)².

ولقد تعددت العوامل التي أثرت على هذه المقاومة العنيفة من جانب الصفويين، فتشير بعض المصادر إلى الاختلاف المذهبي بين العثمانيين حماة السنة³ وبين الزيديين الشيعة، قد لعب الدور الاول في هذه المقاومة، وأن الصفويين قد صبوا حقدهم للعثمانيين في قلوب الزيديين من أهل اليمن وتشير مصادر أخرى إلى أثر اختلاف الجنس واللغة بين العرب والترک، هذا و تجمع العديد من المصادر على آثار مساوئ الحكم العثماني⁴ وقسوته وعنفه⁵. ومن الصعوبات التي اعترضت الحكم العثماني في اليمن هو تصادم صلاحيات القادة العثمانيين، فقد وقع الخلاف بين أوزدمير باشا ومصطفى النشار⁶ ترك أثره مباشرة على اليمن في أواخر سنة 1551/958، وذلك لما اتخذ مصطفى باشا منه مواقف خاصة، وما أقبل عليه من إجراءات عملية قبل أخذ رأي أوزدمير باشا، فقد أحاط مصطفى باشا نفسه

¹ - حسين خضير أحمددي، قيام الدولة الزيدية في اليمن، مكتبة مدبول، ط1، القاهرة 1996، ص26.

² - نادية محمود مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص49.

³ - خالد زيادة، مرجع سابق، ص33.

⁴ - تميز الحكم العثماني في البلاد العربية بالطابع العسكري، أي تسلط العسكر على مقاليد الحكم والحق انّ العسكرية الصارمة كانت الخصيصة الأولى للدولة العثمانية، وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكري العنيف. أنظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج1، ص49.

⁵ - سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن 1538 - 1635، مرجع سابق، ص173.

⁶ - مصطفى النشار: والي سابق على اليمن، وصل هذا الأخير إلى اليمن في أواخر سنة 1551/958م بناء على تكليف السلطان سليمان القانوني قد جعل له حق اتخاذ الخطوات اللازمة لإقرار الأحوال في اليمن بما في ذلك التفاوض مع المطهر من أجل الصلح وتحقيق السلام كما أعطاه خطاباً موجهاً إلى المطهر على لسان السلطان يحمل في طياته التهيب والترغيب معا ويدعوه فيها إلى الدخول في السلطة العثمانية. أنظر: قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص42.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

بمظاهر الأبهة والعظمة حتى ظنّ البعض الأمراء العثمانيين في اليمن أنّه الوالي الجديد وأن عليهم توجيه اهتمامهم إليه¹.

وإزداد ضعف موقف أوزدمير باشا في اليمن نتيجة حرص مصطفى باشا على إشاعة بعض الأقوال التي تخدم أغراضه الخاصة، فقد أشاع فور وصوله إلى اليمن أنّه جاء يبغى السلام والصلح مع المطهر، وأنّ السلطان قد أمر بإجلاء القوات العثمانية عن اليمن ونقلها إلى الحبشة لمحاربة البرتغاليين²، بل وكانت بعض أقوال مصطفى باشا تصور أوزدمير باشا يريد إشتداد الحرب في اليمن، وأنّه لولا جهوده الخاصة في استانبول لتخفيف حدة تقاريره عن اليمن إلى السلطان لأرسل الباب العالي جنودا أكثر مما أرسلت معه ممن يعجز اليمن عن القيام بكفائتهم³ بعد وصول الأخير، أو بالأحرى هناك عدة عوامل تجمعت في القرن السادس عشر أدت إلى الوضع المزري الذي وصلت إليه السلطنة في الأيام الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني⁴

لابد من اعتبار ضم العثمانيين لليمن هزيمة كبرى للبرتغاليين من زاوية الاستراتيجية الشاملة للقوى العالمية آنذاك، فبعد أن ثبتوا موقعهم في جنوب شبه الجزيرة العربية⁵ أصبح لهم رأس جسر مناسب من الناحية العسكرية يشكل تهديدا جديا لخطوط المواصلات الأوروبية البحرية، وأثبتت الأحداث أن غزو العثمانيين لليمن شكل خطرا حقيقيا على القواعد البرتغالية في الهند وسواحل إفريقيا الشرقية⁶.

¹ - سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص 175.

² - نفسه، ص 176.

³ - نفسه، ص 222.

⁴ - جب هاملتون وهاورلد بوون، مرجع سابق، ص 114.

⁵ - أمين توفيق الطيبي، مرجع سابق، ص 170.

⁶ - مهمة دفترتي 22، ص 792، الحكم 256. نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 84.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وفي المقابل قام البرتغاليون بتدعيم مواقعهم في حوض المحيط الهندي قرر البرتغاليون إحياء تحالف آخر مع إثيوبيا الذي علق عليه البرتغاليون آمالا كبيرة في أواخر القرن 15¹. ولكن العثمانيين قد استطاعوا إيقاف التوسع البرتغالي في البحر الأحمر، فإنهم قد أخفقوا في تحطيم السيطرة البرتغالية² في البحار الشرقية وتأمين المسالك البحرية الاستراتيجية أمام التجار العرب الدوليين هناك باتجاه الهند وجنوبي شرق آسيا، وكانت ثمة أسباب تقف وراء ذلك الاخفاق³ المرير وتمثل في مجموعة من الأسباب في مقدمتها الإهمال العثماني في استخدام القواعد الإستراتيجية في البحار العربية ومنها الجزر والسواحل الإفريقية، وعدم وجود تحالف عثماني - عربي لصد التوسع البرتغالي نتيجة للقسوة التي استخدمها القادة العثمانيون الذين تابعوا سياسة الغدر والعنف والقسوة تجاه اليمنيين، بالإضافة إلى الاعتماد على حوض البحر الأحمر فقط في صد التحدي البرتغالي دون الاعتماد البحري أيضا على كامل حوض الخليج العربي لإقامة توازن استراتيجي لتطويق الأطماع البرتغالية⁴.

¹ - نيقولايفانوف، مرجع سابق، ص 181.

لكن لا يعني هذا أنهم أثروا ولو جزئيا في المياه الشرقية تكمن في السيطرة على البحر الأحمر قد مكنت السلطان سليمان من استعادة قسط كبير من التجارة الدولية القديمة عبر مصر في الوقت الذي كانت تعوز فيه البرتغاليين القوة البحرية اللازمة لإحكام حصار الطرق القديمة. أنظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 99.

² - محمد رجاء ريان، "أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي 1546 - 1914م"، دراسات تاريخية، العددان 85 - 86، دمشق، آذار - حزيران، دمشق، 2004، ص 266.

³ - وجهت الدولة العثمانية حملات عديدة نحو الهند، رغم إخفاق تلك الحملات، إلا أنها استطاعت أن تحد من النفوذ البرتغالي في المياه الإسلامية حيث سارعت مملكة البرتغال بإرسال الرسل من أجل عقد الهدنة مع الدولة العثمانية.

أنظر: محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 9.

⁴ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 127.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

عند امتداد العثمانيين إلى البحر الأحمر والحجاز واليمن¹ كان البرتغاليون يسعون إلى التوغل إلى البحر الأحمر والسيطرة على أهم المراكز البحرية فيه²، وكانوا يمتلكون أسطولا حربيًا قويًا مكنهم من السيطرة على الطرق التجارية البحرية بين البحر الأحمر والخليج و البصرة وبين الهند،³ أما العثمانيون فكانوا يفتقدون الوسائل التي تتيح لهم التصدي لهذه القوة الزاحفة، ولم يكن بإمكان العثمانيين نقل أي سفينة إلى البحر الأحمر لعدم فتح قناة السويس، ولم يكن في صالحهم ترك الساحة للبرتغاليين⁴ ليكونوا اللاعبين الوحيدين فيها، ولهذا قاموا بتفعيل ترسانة السويس وتوسيعها لصناعة السفن الحربية، ف حتى طلب قاضي مكة المكرمة وأمين جدة من السلطات العثمانية العمل على التصدي للتحركات البرتغالية، وعلى إثره تمت بناء السفن في ترسانة السويس كما تم تجهيز السفن الجاهزة بالمقاتلين⁵.

يصعب في الحقيقة توضيح كيف بدأت العلاقة بين العثمانيين والإمام شرف الدين بعد حملة سليمان باشا الخادم على اليمن⁶ ورغم ذلك يمكن القول بأنّ العلاقة بين الطرفين بدأت سلمية بوجه عام، ويتضح هذا من المرسوم الذي أرسله السلطان سليمان إلى الإمام شرف الدين⁷ بإبقاء الأوضاع كما هي في اليمن، ولكن هذا المرسوم نفسه لا يبين بوضوح العوامل التي دفعت السلطان سليمان إلى إرساله هذا المرسوم إلى الإمام، فهو قد يعبر عن اعتراف الدولة العثمانية بسلطة الإمام في اليمن، وأنه يرغب في إقامة علاقة حسن جوار معه

¹ - عبد الله عودة وياسين الخطيب، مرجع سابق، ص 26.

² - نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 117.

³ Palmira Brummet, Ottoman seapower and Levantine diplomacy in the age of discovery, **new perspectives on Turkey**, n°14, spring, Turkey, 1996, p127.

⁴ J.S.Shaw, op. cit, p100.

⁵ - مهمة دفترتي 3، ص 195، الحكم 550.

⁶ Hadji khalifeh, op. cit, p71 .

⁷ - مهمة دفترتي، طوب قابي سرايبي 888، ص 320، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية أواسط القرن 10 هـ/ 16 م، م 2، ارسكا، اسطنبول، 2011، صص 283، 292.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

كما يبدو من المرسوم أنّ السلطان سليمان يعامل الامام وكأنّه قد دخل في طاعته¹ ورغم الخطابات التي تبودلت بين سليمان باشا الخادم أثناء إقامته القصيرة في زبيد وبين الإمام شرف الدين لم تؤدي إلى شيء، كما أنّها لا تعبر عن دخول الإمام في طاعة العثمانيين².

وعلى الرغم من قيام هذه العلاقات السلمية فإنّ العلاقات العثمانية الزيدية عند بدايتها لم تخل من العنف³، إذ حدثت بعض المناوشات بين الطرفين حول "تعز" أثناء إقامته القصيرة بزبيد ولكنه فشل، وكذلك قام أحد أبناء الإمام شرف الدين وهو الأمير عز الدين أمير صعدة ببعض المناوشات حول جيزان بغية الاستيلاء عليها لكنه فشل⁴.

كان الحكم العثماني في اليمن قويا في بدايته، ثم أخذ بالضعف شيئا فشيئا نتيجة للضعف الذي لحق بالدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر، والصعوبات التي واجهت العثمانيين هناك، خاصة اعتراضات الأئمة الزيدية وهم أصحاب نظام سياسي ديني قديم في اليمن، وقد ناصب نظام الأئمة في اليمن العثمانيين العداء وحاربوهم وسعوا إلى إخراج قواتهم من البلاد من أجل الحصول على الاستقلال⁵. كما امتدت السيادة العثمانية بدءا

¹ - مهمة دفترى، طوب قابي سرايى 888، ص 320، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية أواسط القرن 10/هـ 16م، 2م، ارسكا، اسطنبول، 2011، ص 283.

² - سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول 1538 - 1635، مرجع سابق، ص 199.

³ - ولم تظهر أي مقاومة للعثمانيين في شبه الجزيرة العربية باستثناء الزيديين بزعامة الامام المتوكل ابن شرف الدين حيث استمرت محاولات العثمانيين لإخضاع الزيديين بين فترة وأخرى بين أعوام 1547 - 1577 ورغم كل محاولات العثمانيين العسكرية للقضاء على الإمامة الزيدية إلا أنّها استطاعت الحفاظ على سلطتها وتوسيعها بين فترة وأخرى إلا أنّ توفى المطهر ابن الإمام المتوكل وشقيقه شمس الدين عام 1572 - 1573 واستولى العثمانيون على مناطق الإمام الزيدية. أنظر: نيقولاوي إيفانوف، 'الفتح العثماني للأقطار العربية'، مراجعة هيثم مزاحم، مجلة الاجتهاد، العدد 44، دار الاجتهاد، بيروت، 1999م، ص 215.

⁴ - عيسى بن لطف الله شرف الدين، مصدر سابق، ج 1، ص 174.

⁵ - قطب الدين النهروالي المكي، مصدر سابق، ص 133.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

امتدادا سلميا الى اليمن، إلا أنّ سيطرة العثمانيين ظلت صوريه مدة العشرين عاما الأولى ويرجع ذلك إلى اضطرابات أحوال اليمن¹.

لا شك أنّ السيطرة العثمانية المركزية على أهميتها في بعض جوانب الحياة وكذلك في بعض المناطق الجغرافية، لم تكن تشمل كل أراضي الإمبراطورية بالقدر نفسه من التساوي والانتظام، لذا فإن الاتصالات مع العالم غير العثماني كانت أكثر توافرا مما يبدو للوهلة الأولى، بل إن بعض الجماعات القاطنة في قلب الأراضي العثمانية مثل البدو المارقين المقيمين في الجبال والسهوب، وكانت تطلق السلطات عليها اسم القزل باش، ربما نجحوا في النأي بأنفسهم عن المسؤولين الإداريين المحليين، وخبأوا مبعوثين من الدولة الصفوية في بعض الظروف فاليمن منطقة نائية، لم يكن من الممكن ضمان السيطرة التامة إلا إذا كان المركز راغبا، في إرسال حملة كبرى كل بضع عقود أو نحو ذلك².

فسيطرة العثمانيين على مناطق اليمن الداخلية كانت تتم بالتدرج³، وفي عام 1547 تمت السيطرة على صنعاء، وفي نفس الوقت تحول أسطول البحر الأحمر إلى قوة كبرى كان يقودها أحد أبرز القادة البحريين العثمانيين في القرن السادس عشر وهو القبطان بييري رئيس (1465-1554)⁴، الذي برز في عهد بايزيد الثاني باعتباره قرصانا في البحر المتوسط وعمل قائدا عاما للأسطول العثماني في المحيط الهندي، وبعد وفاته تم تعيين

¹ - ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص 110.

² - نفسه، ص 110.

³ - وكان قرار العثمانيين باتخاذ السواحل اليمنية قاعدة لهم يتبع حتما مد سيطرتهم إلى باقي جهات اليمن للقضاء على أية أخطار قد تهدد قواتهم بالخطر من داخل اليمن، أو بالأحرى كان استيلاء العثمانيين على باقي جهات اليمن أمرا تحتمة حماية السيطرة العثمانية على السواحل اليمنية، ويؤكد هذا مجيء أويس باشا إلى اليمن بقوات كبيرة ومعدات ضخمة. أنظر: سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول 1538 - 1635، مرجع سابق، ص 201.

⁴Haji Kalifeh,op.cit, p73.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

سيدي علي رئيس¹ قبطانا لأسطول البحر الأحمر²، مع تكليفه بمهمة أخرى وهي فرض السيادة العثمانية على الخليج العربي والبحر الأحمر، فسيطرة العثمانيين عليهما قد منحها فوائد إستراتيجية واقتصادية كبيرة³.

المبحث الثالث: سياسة الدولة العثمانية اتجاه الحبشة.

1- بداية الاهتمام العثماني بالساحل الغربي للبحر الأحمر:

أ/ أهمية الحبشة في استراتيجية الدولة العثمانية:

برزت أهمية الحبشة مباشرة بعد حملة سليمان باشا الخادم على اليمن عام 1538م التي ضمت عدن إلى السيادة العثمانية⁴، في حين كانت تمثل الحبشة التي أبعد نقطة للدولة العثمانية في حدودها الجنوبية، وتشمل شريطا ساحليا طويلا، يمتد من الحدود الجنوبية لمصر حتى القرن الأفريقي، ويضم سواحل السودان وإريتريا وجيبوتي، والشريط الساحلي المطل على خليج عدن من الصومال وجزء من إثيوبيا، ولم تبقى حدود الإيالة ثابتة⁵ على مر العصور نظرا لإطلالتها على البحر الأحمر والمحيط الهندي.

¹ - علي رئيس: قبطان بحري وسياسي وملاح وجغرافي من القرن 16 كتب عن رحلاته إلى الهند وإيران كما قام بالعديد من المهام دون أن يتلقب بلقب سفير. أنظر: ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص352.

² Haji Khalifeh, op.cit, p73.

³ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص98.

⁴ Salih Ozbaran, Ottoman naval Policy in the south, Logman, London, 1995, p61.

⁵ - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص451.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وبهذا الموقع الاستراتيجي كانت الحبشة هدفا مهما في استراتيجية الدول الكبرى خاصة الدولة العثمانية¹ والبرتغال على حد سواء في امتلاك الطرق التجارية² أو بالأحرى دافع العثمانيون عن هذه المنطقة³ ضمن استراتيجية دفاعهم عن البحر الأحمر بشراسة نظرا لأن الأماكن المقدسة في الحجاز تطل على ذلك البحر⁴، وحاولوا انقاذ الخليج العربي من براثن البرتغاليين، بشن الحملات عليه من البحر الأحمر.

وكان لزاما على الدولة العثمانية مواجهة استراتيجية البرتغاليين في المنطقة⁵ الذين أدركوا بأن تأمين وجودهم في الخليج⁶ لا يأتي إلا بمهاجمة البحر الأحمر الذي يمثل أهم مراكز القوة العثمانية، فالحبشة تبعد كثيرا عن الدولة العثمانية في أقصى الجنوب على الساحل الشرقي لإفريقيا وعلى الرغم من أن السيطرة على الأراضي البعيدة كانت تتسم بالمغامرة والصعوبة مما كان، رغم هذا تمتعت الحبشة بمكانة مميزة وأدت دورا كبيرا في معادلة التوازن بين الشرق والغرب باعتبارها ولاية عثمانية مستثناة⁷، كانت عرضة للتغيرات تتوسع وتقلص حسب قوة الدولة العثمانية أو ضعفها في المنطقة.

ب/ دوافع السيطرة العثمانية على الحبشة:

¹ - وتعد هذه الاستراتيجية امتدادا لما قام به سليم الأول عندما أدرك بعد سقوط دولة المماليك سنة 923هـ/1517م أهمية المنطقة ومدخل البحر الأحمر بالنسبة لتجارة البرتغاليين، واصرارهم على مهاجمة الأماكن الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. أنظر: قطب الدين النهروالي، مصدر السابق، ص 33.

² J.S.Shaw,op,cit,p97

³ G.W.F.Stripling,op.cit,p96.

⁴ Salih Ozbaran,op.cit,p60 .

⁵ - حسن صالح شهاب، مرجع سابق، ص 183.

⁶ - ويعود وجودهم في الخليج الى أوائل القرن السادس عشر حيث عمل البرتغاليون على تدمير القوى البحرية العربية في الخليج العربي، فبعد أن احتل البرتغاليون مراكز التجارة في الخليج، تغيرت الصورة القديمة للملاحة فيه من الأحسن الى الأسوأ، كان هدفهم من ذلك جعل الخليج مخزنا للتجارة البرتغالية فقط، دون أن تكون له أسواق ومحطات تجارية هامة تعيد شحن البضائع الى شط العرب. نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 117.

⁷ - ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص 51.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

توجهت الدولة العثمانية لضم الحبشة الى ممتلكاتها رغم بعدها الجغرافي عن مركز الإمبراطورية بموجب مجموعة من الدوافع تتجلى في ما يلي:

أولا أهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية وبالتالي هناك دوافع استراتيجية من وراء ضم الحبشة، فالموقع الاستراتيجي للحبشة أغرى على الدوام العثمانيين، وركزت في أهدافها على هذه المنطقة مع الحرص في نفس الوقت الانفتاح على أوروبا فهي أهداف دائمة الحضور¹، طبعت السياسة الخارجية العثمانية في استعمال الموقع الجغرافي للحبشة إلى جانب الإسلام، و الأهالي الذين يسكنونها، يدينون بنفس المعتقدات الدينية التي يدين بها غالبية الأهالي الذين يشكلون سكان الدولة العثمانية².

وهذا في إطار الطموح الى لعب الدور الأول على صعيد منطقة البحر الأحمر وشرق إفريقيا والعالم الإسلامي، فتحدد الجغرافية سياسة البلد وفعلا موقع الحبشة بالشمال الشرقي لإفريقيا³، منفتح على بحرين، وبذلك مثل موقعا خاصا ومتميزا يؤثر بامتياز على مختلف جوانب السياسة العثمانية حيث نرى أن الدولة وجدت من الضروري إحكام السيطرة على مضيق باب المندب، وسد البحر الأحمر ضد أي اعتداء برتغالي من التوسع على الجانب الإفريقي، لذلك تم تأسيس إيالة الحبشة⁴.

أما الدوافع الاقتصادية⁵، فتكمن في أهمية البحر الأحمر فهو يشكل ممرا حيويا للبضائع والسلع القادمة من جنوب آسيا والهند إلى أوروبا وأسواق الدولة العثمانية، فكان

¹ - دونالد كواترث، مرجع سابق، ص9.

² - خالد أرن، عن السودان في العهد العثماني من خلال الوثائق الأرشيفية، ترجمة صالح السعداوي، منشورات ارسكا، استانبول، 2007، ص37.

³ - فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دتط، ص11.

⁴ - وكانت تابعة لولاية مصر ومكونة من أربعة ألوية هي ابرام محاسن القصير ألواح، ثم أصبحت عشرة ألوية في عهد مراد الثالث وهي: مصوع سواكن عقيق حرقيك سام بور ما تروهنبتة صراوة أنديا. أنظر: محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص7.

⁵ - نفسه، ص7.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

يحوز عند العثمانيين نفس الأهمية التي يحوزها في العالم الغربي¹، فتكمن أهمية هذه المنطقة في التجارة الشرقية² لا سيما بعد تحكم العثمانيين على سواحل البحر الأحمر ولا يتم ذلك إلا بتأمين الطريق البحري المؤدي إلى البحر الأحمر وخليج عدن³.

وانطلاقاً من موقع الحبشة الاستراتيجية مكنها أن تحتل موقعا فريدا ومهما من حيث سيطرتها على التجارة الشرقية لهذا بذل البرتغاليون جهودا كبيرة من أجل مد نفوذهم إليها، والجدير بالذكر أنّ كلا من الدولة العثمانية والبرتغال كانت تهدف إلى السيطرة على البحر الأحمر والهيمنة على المراكز التجارية فيه، وكان العثمانيون يحاولون قطع طريق التجارة على البرتغاليين بغية احتكار التجارة مع الهند،⁴ وكانت البرتغال بقيادة هنري الملاح حاكم سبته تبحث عن مدن في الساحل الشرقي لإفريقيا لتأسيس علاقات تجارية معها، ولهذا بدأ الصراع بين الدولتين للسيطرة على منطقة شرق إفريقيا⁵، وأسفرت هذه الجهود عن جعل الحبشة رأس جسر، وإقامة بعض المراكز على سواحل البحر الأحمر.

لا شك أن التخوف من التحركات البرتغالية الذين برزوا كقوة استعمارية في المنطقة، وتأسيسهم قواعد عسكرية⁶ لهم على سواحل الحبشة، وإقامتهم علاقات ودية بأساليب مختلفة مع ملكها المسيحي، وهوما اصطلاح عليه بالتحالف البرتغالي الحبشي المسيحي ضد القوى الإسلامية، ويعد هذا التحالف أثرا من آثار النفوذ البرتغالي في الخليج العربي والبحر

¹ - خالد أرن، مرجع سابق، ص 11.

² - وهي تجارة التوابل التي كانت تصل بشكل مباشر مع الهند واندونيسيا الى الامبراطورية العثمانية طيلة القرن السادس عشر، وعلى الرغم من النقص الطارئ أحيانا فقد كان يجري تبادل واسع للبضائع الهندية مع البضائع الأوروبية في أسواق حلب والقاهرة واستانبول وبورصة. أنظر: خليل انالجيك، مرجع سابق، ص 197.

³ - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب الحديث في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 425.

⁴ - نسبية عبد العزيز الحاج علاوي، البحار العثمانية محي الدين بيري ريس حياته وجهاده البحري 1465-1554م، مجلة التربية والعلم، م 6، العدد 4، الموصل 2009، ص 71.

⁵ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 19.

⁶ - عباس حمداني، مرجع سابق، ص 3.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الأحمر في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي،¹، وسعيهم إلى الامتداد إلى البحر الأحمر ودعم المسيحية² ونشرها في الحبشة بواسطة التنظيمات التبشيرية.

2- الامتداد العثماني على سواحل الحبشة وتشكيل

الإيالة 1555م:

لا شك أن الاهتمام العثماني بالمنطقة بدأ مع بداية الوجود العثماني في الشمال الإفريقي، حيث تحملت الدولة العثمانية أعباء جديدة، أهمها تأمين سواحل البحر الأحمر،³ ولم يتم ذلك إلا بالدخول في صراع مع القوات البرتغالية للسيطرة عليه، فاحتمد الصراع مع البرتغاليين الذين قضوا كذلك على تجارة العرب في الخليج والبحر الأحمر، كما سببت زيارات البرتغاليين للموك الحبشة قلقا كبيرا للعثمانيين الذين بادروا بالاستيلاء على سواكن وزيلع⁴، وأقاموا علاقات مع مسلمي مصوع التي كانت في تلك الفترة تحت الحكم البرتغالي⁵.

كما أولى الباب العالي اهتمامه الكبير بسلطنة عضل⁶ التي كانت تمثل القاعدة الأساسية للعملية الهجومية ضد الحبشة، بالإضافة إلى احتلالها موقعا استراتيجيا مهما على

¹ كانوا الأحباش المسيحيون دائما حلفاء طبيعيين للبرتغاليين ومتواطئين معهم، في البداية ضد المماليك ثم ضد العثمانيين أنظر: G.W.F.Stirpling,op.cit,p96.

² ولقد كثرت وفود الدعم على الحبشة أبرزها وفد دي ليما على هيئة حملة عسكرية، نزلت في مصوع وحولت مسجدها إلى كنيسة، ثم أخذت طريقها إلى داخل البلاد حتى وصلت إلى النجاشي، وبذلك تأسس الاتصال بين الحبشة والعالم المسيحي، وكان من نتائج هذه الحملة أن أرسل ملك البرتغال جون الثالث إلى نائب الملك في الهند لتجهيز حملة عسكرية وإيفادها إلى الحبشة لمساعدة النجاشي ضد الزحف الإسلامي ووصلت الحملة عام 1541م تحت قيادة كريستوفو دي جاما Christopher Di Jama وهذا من أجل تثبيت المسيحية في المنطقة كما حذت حذوها البابوية والدول الأوروبية الأخرى. أنظر: فتحي غيث، مرجع سابق، صص 145، 146.

³ مهمة دفترتي 22، ص 50، الحكم 256، نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 84.

⁴ - Ugur Unal,Osmanli idaresinde Sudan,Istanbul,2013,p21.

⁵ فتحي غيث، مرجع سابق، ص 151.

⁶Salih Ozbaran,op.cit,p62.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

مدخل باب المنذب، لذا تابع العثمانيون التطورات في سلطنة عضل¹، بكل اهتمام ودعموا بكل الوسائل حزب الجهاد برئاسة أحمد غران²، الذي ظل طيلة حياته السياسية يتلقى المساعدات الكبيرة من العثمانيين³ ولا سيما من بكربك مصر⁴، الذي وضع تحت تصرفه عددا من الجند وكمية كبيرة من الأسلحة النارية بما فيها المدافع⁵.

وفي عام 1529م استطاع العثمانيون بمساعدة الانكشارية من تشكيل جيش صغير الحجم لكنه انضباطي ومجهز بأسلحة نارية، ولم يشارك العثمانيون بصفة رسمية في العمليات الحربية ولم يرسلوا جيوشهم النظامية إلى عضل بل كانوا من وقت إلى آخر يرسلون إليها بعض تشكيلات المتطوعين والمجاهدين⁶، واستطاع ابراهيم أن يحقق نجاحا كبيرا بفضل هذه المساعدات⁷، كما طلب العون العسكري من الولاة العثمانيين في اليمن⁸.

¹ عضل: أولى الباب العالي اهتماما بسلطنة عضل التي كانت تمثل القاعدة الأساسية للعمليات الهجومية ضد إثيوبيا النصرانية، فضلا عن الموقع الاستراتيجي التي كانت تحتله على مدخل مضيق باب المنذب. أنظر: أحمد الظرافي، "الإمام جوري الصومالي فاتح الحبشة"، مجلة البيان، العدد 333، الكويت، 1436هـ / 2015م. ص 7.

² أحمد غران: هو من تولى قيادة جيش إمارة عدل ورفع راية الجهاد ضد الصليبية الحبشية خلفا للأمر محفوظ، وتزوج من ابنة سلفه وانفرد بتسيير الإمارة سياسيا وعسكريا واتخذ لنفسه لقب إمام. أنظر: نفسه، ص 8.

³ نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص 50.

⁴ إن قرب مصر الجغرافي من الحبشة أدى بالسلطين العثمانيين الى اصدار الأوامر الى ولاة مصر في كل مرة لدعم الأحباش المسلمين وهذا ما تثبتته وثائق المهمة دفترى، من أمثلتها الوثيقة مهمة دفترى 14، ص 633، الحكم 913 نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 150.

⁵ نيقولايفيفانوف، مرجع سابق، ص 196.

⁶ نفسه، ص 196.

⁷ محمود خليل، مرجع سابق، ص 7.

⁸ نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص 50.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وجد هذا الطلب استجابة خلال فترة وجيزة¹، إذ سارع مصطفى باشا بلكربكي اليمن بإنزال مركبه ومعه العتاد والتجهيزات الحربية، بينما قام أحمد بن إبراهيم بتحريك قوات المسلمين المحلية أيضا على دفارو وشوا وأمهره ولاستا، ووضع أراضي تيجرة تحت حكمه، فكل هذا الجهاد عرف أحمد بن إبراهيم بلقب المجاهد وكان النجاح الفائق الذي حققه بمساعدة الدولة العثمانية قد أدخل السرور على قلب خليفة المسلمين السلطان العثماني سليمان القانوني، ويدل على ذلك ما جاء في خطابه إليه تكريما بقوله: "السلطان أحمد الحاكم بولاية الحبشة"².

وقد هزم أحمد بن إبراهيم في الحرب التي قام بها ضد قوات التحالف البرتغالي الحبشي في فوانا داغا 1543م، ومات وهناك، استطاع ملك الحبشة غالادافوس أن يسترد الأراضي التي فقدتها قبل ذلك ويعود إلى حدوده القديمة، وكانت وفاة أحمد بن إبراهيم حليف الدولة العثمانية وفقده للكثير من الأراضي قد أوقع المسلمين القاطنين هناك في مشكلة عويصة، وظهرت أوضاع تحالف مصالح العثمانيين من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، ومن التطورات التي وقعت في المنطقة صدرت الأوامر إلى أوزدمير باشا³ للخروج نحو في أراضي الحبشة، فهو الرجل الذي حارب ببسالة كبيرة في فتح اليمن وأطرافها وعين بلكربكا عليها⁴.

ويبدو من المصادر التاريخية وجود معلومات مختلفة عن الأعمال العسكرية الأولى التي قامت بها القوات العثمانية في تلك المنطقة، وهذه المصادر تؤيد بعضها البعض، والمصدر الأساسي هو رحلة أوليا جلبي، إذ يقول فيها إن سليمان باشا الخادم في طريق عودته من

¹ - خالد أرن، مرجع سابق، صص 13، 14.

² - مهمة دفتري 22، ص 303، الحكم 698. نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 17.

³ - دفتر الرؤوس 213، ص 212، الحكم 92. نقلا عن خالد أرن، مرجع سابق، ص 14.

⁴ - قطب الدين محمد النهروالي، مصدر سابق، ص 147.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

حرب الهند نزل بقوة قوامها 40 ألف رجل على ميناء القصير في البحر الأحمر، ثم عاد إلى مصر تاركاً قادراً من العساكر في معية أوزدمير باشا الذي كان يرافقه في الحرب¹.

وقام بإرسال القوة التي وضعت في الجنوب، قسم عن طريق أسطول نهري يعمل في نهر النيل والقسم الثاني ذهب برا، وهناك كان يوجد قدر كبير من القبائل العربية يعيشون حياتهم على صورة بدو متنقلين أو على صورة حضر متوطنين، فأعلنوا دخولهم تحت طاعة العثمانيين وكانوا قد استولوا على قلعتي أبريم²، والدر و على مدينتي مغرق وساي من دولة الفونج، وأقاموا قلعة في ساي، وشيدوا قلعة في أبريم و مسجدا باسم السلطان العثماني سليمان القانوني³، وكانت سواكن ذات الموقع الهام من الناحية الاقتصادية والعسكرية مكانا لا بد من الاستيلاء عليه، لأجل تحقيق الاستراتيجية العثمانية التي صاغها أوزدمير باشا،⁴ ولحماية مصالح الدولة العثمانية ضد القوى الاستعمارية، وفيها قام الأمراء المسلمون الذين يحكمونها بإعلان طاعتهم أثناء تلك العمليات لأوزدمير بك ممثل السلطان العثماني، ومن ثم دخلت سواكن تحت النفوذ العثماني⁵.

كان الخطر البرتغالي يزداد في المنطقة يوماً بعد يوم بشكل لافت للنظر، لا سيما بعد سنة 1550، ولم يكن بوسع العثمانيين البقاء متفرجين أو مكتوفي الأيدي، فقاموا بعمليتين بحريتين، الأولى بقيادة بيري رايس والثانية بقيادة سيدي علي رايس⁶.

¹B.Lewis,V.L.Menage,Ch.Pellat and J.Schacht,the encyclopedia of Islam,op.cit,p11.

² - إبريم: كانت قلعة إبريم قد وقعت تحت سيطرة ملكي الفونج وبربرستان، فتم إرسال أوزدمير باشا إليها من طرف السلطان سليمان القانوني وفتحها.أنظر: .: Evliya Çelebi,op.cit,p841

³.Ibid,pp840-849.

⁴ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص71.

⁵Evliya Celebi,op.cit,p93

⁶ Haji Kalifeh,op.cit, pp71-72.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

إلا أنّ هاتين العمليتين أخفقتا في تحقيق الهدف المرجو منهما، وعلى الرغم من هذا لم تتخل السياسة العثمانية عن هذه المسألة، بل أصبحت تتعامل معها بجدية أكثر ففي نيسان 1554 استدعت بكربكي اليمن أوزدمير باشا¹ إلى استانبول الذي تم عزله من ولاية اليمن بعد أن نجح في فرض النفوذ العثماني في اليمن²، من أجل التداول معه بشأن الاجراءات اللازم اتخاذها للحيلولة دون دخول التجارة الشرقية بيد البرتغاليين، وكذلك تقديم الدعم المطلوب لمسلمي الحبشة، الذين أصبح الخطر يدهمهم في عقر دارهم.³

كان أوزدمير على معرفة جيدة بالمنطقة، فقد فضل العودة إلى استانبول عن طريق سواكن ومنها إلى مصر وليس عن طريق جدة كما هي عادة ولاية اليمن، فلمس بنفسه أهمية سواكن الاستراتيجية⁴ وأهمية تدعيم السيطرة العثمانية في الأقاليم المحيطة بها، وقد وافق السلطان سليمان على اقتراح أوزدمير باشا بفتح هذه الأقاليم⁵، وفي نهاية المطاف قررت الحكومة إرسال حملة إلى الحبشة⁶ بقيادة أوزدمير باشا، وبعد وصوله إلى مصر، باشر في التحضير للحملة، فأمر والي مصر بتجهيز جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف جندي للزحف

¹ - غير أنّ عزل أوزدمير باشا من ولاية اليمن لم يكن انتقاماً أو غضباً منه، فقد أحسن السلطان استقباله عند وصوله إلى استانبول، وقدره حق قدره، ثمّ ولاء أمر ميناء سواكن الذي يقع على الساحل الإفريقي المواجه لليمن وذلك بناء على طلبه حتى ييسر السيطرة العثمانية في الأقاليم الحبشية. أنظر: سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن 1538 - 1635. مرجع سابق، صص 232، 233.

² - قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص 126.

³ - مهمة دفترى 40، ص 303، الحكم 698.

⁴ - كان الاستيلاء على سواكن قد شكّل مرتكزا قويا في أيدي العثمانيين ونقطة البداية لحملة الحبشة التي خططوا للقيام بها، فتم وضع نظام إداري لسواكن بحيث تصبح تلك المدينة مركزا لسنجق يكون تابعا لمصر، وعين عبد الباقي بك ليكون أول أمير على هذا السنجق (10 ابريل 1554م) وكان أمير سنجق مساويا في الدرجة لأمير سنجق جدة، ويحصل على قدر مساو لما يحصل عليه من الجراية والعليق. أنظر: دفتر الرؤوس، الرقم 211، ص 78. نقلا عن خالد

أرن، السودان في العهد العثماني من خلال الوثائق الأرشيفية، مرجع سابق، ص 17

⁵ - نفسه، ص 233

⁶ Evliya celebi, op.cit, p91

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

مع أوزدمير باشا برا من مصر إلى سواكن لفتح الأقاليم النوبية الحبشية وضمها إلى الدولة العثمانية¹، وتقرر أن تصرف رواتب الجند القادمين من مصر من خزانتها أيضا².

وفي سنة 1555م توجه عن طريق نهر النيل إلى المنطقة، إلا أنه لم يتمكن من مواصلة حملته بسبب الظروف الجوية، واضطر إلى العودة، وعلى الرغم من عدم انضواء المنطقة تحت الحكم العثماني، إلا أن إقامتها بشكل رسمي في 15 شعبان 962هـ/2 أوت 1555م³، بمصادقة من السلطان سليمان القانوني⁴ وجرى خلال مدة وجيزة وضع النظم اللازمة في الإيالة، وتأسس نظام يعتمد سيادة القضاء، وتم في تلك المرحلة تعيين البكربكي مباشرة (30 نوفمبر 1555م)، فكان أول قاض على إيالة الحبشة هو المولى عبد الوهاب أفندي، وتدل الوثائق أن مكان المحكمة سوف يكون في سواكن، ويخصص للقاضي مائة وثلاثون أجرة يوميا⁵ وتتمتع الأجهزة المالية ضمن تشكيلات الدولة بأهمية كبيرة فهي التي تراقب النشاط الاقتصادي للبلاد، وتتخذ القرارات المجدية التي تنفع الدولة، وتقوم بتطبيقها، وتمسك حسابات كل ذلك.

في البداية تم تشكيل جهاز مالي باسم نظارة الأموال وعين على رأسه أحمد بك أغا في مصر، وذلك بمخصصات سنوية تساوي ما يصرف لأمرء سناجق مصر من الجراية والعليق (15 نوفمبر 1555 م)⁶، ولما اقتضت الضرورة توسيع أراضي إيالة الحبشة وتعيين حدودها

¹ - فتحوّل سواكن منذ ذلك الحين من نيابة صغيرة إلى ولاية كبيرة يتولى أمورها والي خاص، وليس نائبا من مصر. أنظر: قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص 118.

² - دفتر الرؤوس، ص 15، الحكم 214. نقلا عن محمد نور، إضاءة على جانب كبير من تاريخ السودان على ضوء الوثائق العثمانية (1840- 1861)، مجلة كلية الآداب، الخرطوم، د.ت.ن، ص 4.

³ - دفتر الرؤوس، ص 112، الحكم 213، . نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 137.

⁴ - نفسه، ص 6

⁵ - دفتر الرؤوس، ص 24، الرقم 214. نقلا خالد ارن، السودان في العهد العثماني، ص 18.

⁶ - دفتر الرؤوس، ص 13، الحكم 214. نقلا عن نفسه، ص 19.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

بصورة أكثر وضوحاً، والتعرف على تعداد السكان من الرعايا والبرايا بشكل سليم وتنظيم مسألة الضرائب وغير ذلك مما يلزم القيام به في إطار من العدالة تم تعيين دفتردار¹ واسع الصلاحيات والنفوذ بالنظر إلى ناظر الأموال².

سعى أوزدمير باشا جاهداً لوضع أسس بناء الإيالة على أرض سليمة من ناحية إيالة الحبشة، فواصل من الناحية الأخرى كفاحه من أجل عمليات الفتح والتصدي لتجاوزات الخصوم، وكللت حملاته بانتصارات كبيرة هذه المرة، فتمكن من السيطرة على جميع السواحل الإفريقية بداية من مصوع وزيلع³، وبسط سلطته على الجزء الشمالي لإفريقيا⁴. وواصل أوزدمير باشا انتصاراته، فتوجه في المرحلة الثانية من عملياته العسكرية إلى ولاية تكره الحبشية واستطاع التحكم بالمنطقة، وتوالى سقوط المناطق المختلفة، كما سقطت جزيرة بوري بأيدي القوات العثمانية، وجعلت الأخيرة بعد فتحها مركزاً للإيالة، شيد فيها أوزدمير قصرًا وجامعاً باسمه، وبدأت اجتماعات ديوان الباشا تنعقد في ذلك القصر⁵.

¹ - الدفتردار: وتتكون من كلمتين دفتر ودار بمعنى القابض على الدفتر وهو أكبر منصب للشؤون المالية في الدولة العثمانية يقابله في الوقت الحالي وزير المالية كانت له مزايا وصلاحيات عديدة. أنظر: سهيل صابان، سبق ذكره، ص114.

² - ومنحت أول وظيفة دفتردارية في إيالة الحبشة إلى شخص يدعى حسن كان قد عمل ناظرًا في مصر مقابل إقطاع يدر عليه ب150 ألف أقة. أنظر: دفتر الرؤوس، ص563، الحكم 74. نقلاً عن خالد ارن، السودان في العهد العثماني، مرجع سابق، ص19.

³ - وفي عام 1557 بالضبط سيطر العثمانيون على ميناء مصوع وتعاون أهل البلاد معهم ومع تجار القطلان المنافسين للبرتغاليين في طرد هؤلاء الأخيرين الذين اتسم حكمهم بالوحشية، وكانت النتيجة طرد البرتغاليين نهائياً من المنطقة واستقرار السيطرة العثمانية على طول شواطئ البحر الأحمر. أنظر: مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص100.

⁴ J.V. Hammer-Purgstall, op.cit ,T6,p 363.

⁵ - وكان الباشا خلال هذه الاجتماعات يجلس في الديوان وريشة الحكم على رأسه فيستمع إلى شكاوي الناس وينظر في القضايا المهمة ويفصل في النزاعات، وتتواصل جهود المجتمعين لحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية الخاصة بالإيالة ونظراً لأن القصر كان واقعا في ميناء مصوع فقد كان يجري استخدامه في الوقت نفسه للمعاملات الجمركية، فكانت سفن التجارة المارة تقترب منه وتدفع ما عليها من رسوم. أنظر: -EvliyaCelebi, op.cit, pp940- 945.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وانضوت مدينة دياروا وأرجاءها عام 1559م تحت الحكم العثماني،¹ ويبدو أنّ أوزدمير أحس بأهمية موقع المدينة فأخذها قاعدة للعمليات العسكرية اللاحقة، وأنشأ فيها قلعة محكمة وجامعا كبيرا، وعددا كبيرا من المساجد واعتنق الكثير من النصارى والوثنيين الأحباش الدين الإسلامي²، ويبدو أنّ الشيء الوحيد الذي كان أوزدمير باشا يفكر فيه بعد وصوله إلى المنطقة هو إطلاقه العنان لفتوحاته وتعزيزها وإدخال ما يمكن إدخاله من المناطق تحت نفوذه،³ فانطلق في عملية عسكرية استهدفت المناطق التي تقيم فيها قبائل البجة في الجهة الشمالية الشرقية التي تتميز بوعورتها وطقسها الحار، إلاّ أنّه لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف، فاضطر إلى التخلي عن العملية والعودة إلى دياروا، بعد أن أصيب بالمرض إلى جانب الكثير من جنوده بسبب رداءة الظروف الجوية وعاجلته المنية سنة 1560م⁴.

3- الأوضاع العامة في إيالة الحبشة بعد ولاية أوزدمير باشا:

أدت وفاة أوزدمير باشا إلى ظهور اضطرابات بين أفراد قواته التي بقيت من دون قائد، الأمر الذي استغله ملك الحبشة ليقوم بهجمات مضادة على العثمانيين والقوات المتحالفة معهم، فاضطر الجيش العثماني للانسحاب من تكرة والمناطق الأخرى نحو الساحل، واحتل

¹J. V. ammer-Purgstall,op.cit,T6,p363.

² - كانت الحروب التي امتدت عدة قرون بين الاسلام الناشئ والمسيحية القديمة في بلاد الحبشة التي انتهت بالغزوة الكبرى في عهد الامام أحمد قد اتخذت طابعا من القسوة والوحشية من الجانبين، فلقد درجت جيوش المسيحيين كلما أتاحت لهم الفرص عند دخول بلاد المسلمين أن يخربوا المساجد وأماكن العبادة بالإضافة إلى الإفراط في القتل، كذلك حذت جيوش المسلمين حذوها وطاردت في أثناء زحفها رجال الدين المسيحي وخرّبت الكنائس وأفرطت في القتل والانتقام، ولم تكن جيوش البرتغاليين ببعيد من كل هذا فقد عملت على تحطيم المساجد منذ دخولها مصوع. أنظر: فتحي غيث، مرجع سابق، ص 157.

³J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,T6,p363.

⁴ - محمد قطب النهروالي، مصدر سابق، ص 150.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الجيش الحبشي مدينة دباروا التي حصنها أوزدمير باشا، وقاموا بتدميرها فاضطرت القوات العثمانية للتمركز في مدينتي مصوع وأركيكو¹.

ويعود التراجع العثماني والقوات الإسلامية المتحالفة معهم إلى بقاء القيادة شاغرة، وعندما علمت الدولة العثمانية بما آل إليه الوضع، سارعت إلى تعيين والي جديد من الموجودين في الولاية ولهم معرفة جيدة بها، فوقع الاختيار على ابن أوزدمير باشا عثمان باشا، فصدرت الأوامر بتعيينه واليا جديدا على الحبشة في عام 1561م، والذي كان يعمل كسنجاق² في ولاية مصر، وقد قام من قبل بإمارة الحج المصري³.

سار عثمان باشا على نهج والده في إدارة الولاية وتوسع أراضيها على حساب أراضي ملك الحبشة⁴، واستعادة الأراضي التي فقدتها العثمانيون، وتمكن بالفعل في كانون من عام 1562م من إدخال دباروا وأرجائها تحت الحكم العثماني مرة أخرى، كما استطاع إلحاق هزيمة كبرى بملك الحبشة ميناس في موقعة أندرتا بأراضي تكرة (20 أبريل 1562)، وشاركت إلى جانب القوات العثمانية قوات حبشية، ولم يمر وقت طويل حتى استعيدت كافة الأراضي التي سبق لأوزدمير باشا أن سيطر عليها، وفرضت القوات العثمانية والمحلية الحليفة سيطرتها على أماكن جديدة أيضا، فأقيمت الإدارة العثمانية من جديد⁵.

تعتبر فترة أوزدمير باشا وابنه عثمان هي فترة التأسيس بهذه الولاية، التي امتدت أراضيها من البحر الأحمر شرقا إلى داخل إفريقيا، إلا أنه لا يعلم على وجه التحديد

¹ - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق، مرجع سابق، ص 454.

² - عيسى بن لطف الله شرف الدين، مصدر سابق، ص 150.

³ - مهمة دفترتي⁴، ص 226.

⁴ - طارق محمد نور، مرجع سابق، ص 4.

⁵ - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، م 3، صص 454، 455.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

حدودها الداخلية، وتواصل من بعدهم الولاة، أمثال حسين باشا 1567، ثم أحمد بن اسكندر باشا 1570م ومن بعده رضوان بك 1573م وتوالى الولاة على سياسته¹. بعد إعلان بعض القبائل العربية تبعيتها لأوزدمير باشا، ورضيت بالدخول تحت السيادة العثمانية تمردت سنة 1564م وقامت بالهجوم على سواكن مركز الإيالة،² وراحت تمارس عمليات تقتيل واسعة ضد المسلمين، ثم وضعت يدها على الآبار الموجودة هناك وفرضت العطش على الأهالي حتى بيعت المياه بأسعار غالية، ونظرا لأن البكلربكي كان يقيم في مصوع فقد تقرر تعيين أمير سنجق مستقل على سواكن، وبهذه الطريقة كان الهدف هو توفير الأمن والحماية لمدينة سواكن، ثم مكافحة المتمردين³، كما تقرر تشييد قلعة حول المكان الذي توجد فيه مصادر المياه والقيام بحراسته وحمايته⁴، وتم تعيين أحد جاویشية مصر ويدعى يعقوب أمير سنجق على سواكن لقاء تصرفه على إقطاع يدر "مائتي ألف أقة (21 مايو 1564)⁵.

وكانت المعلومات الواردة إلى استانبول كثيرة حول الأعمال والانجازات التي حققها عثمان باشا والأماكن التي فتحها، ويظهر من الفرمانات⁶ التي أرسلها إليه السلطان العثماني أنها كانت تطالبه ببذل أقصى الجهد للمحافظة على الأراضي المفتوحة، والعمل

¹ - طارق محمد نور، مرجع سابق، ص 4.

² - عيسى بن لطف الله شرف الدين، مصدر سابق، ص 142.

³ - خالد أرن، السودان في العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف العثماني، مرجع سابق، ص 21.

⁴ - دفتر الرؤوس، ص 168، الحكم 218. نفسه، ص 22.

⁵ - دفتر الأحكام، الرقم 74، ص 225. نفسه، ص 22.

⁶ - الفرمانات: مفردها فرمان وتعني الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادر في قضية من القضايا، أنظر: سهيل

صابان، المعجم الموسوعي، سبق ذكره، ص 164.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

على راحة الأهالي وضمان أمنهم،¹ وصدر الأمر بتحويل مبلغ ثلاثمائة ألف أقرجه من خزانتي مصر واليمن إلى إيالة الحبشة بقصد دفع الضيق وسوء المعيشة الذي ظهر في الأراضي المفتوحة (1565)².

وقد استمر عثمان باشا على رأس إيالة الحبشة سبع سنوات، وسار خلال تلك المدة على نهج والده، فبذل جهده لتوفير الأمن في البلاد والعمل على رفع مستواها، غير أنّ العمار النسبي الذي بلغته إيالة الحبش كان سببا في تعرضها للغارات المستمرة من القبائل المغيرة من حولها، كما كان الكفاح الذي خاضه أمراء الحبشة المحليين من الأمور التي استنفدت بعض الجهود من عثمان باشا، وقام هو نفسه بتوسيع سنجق أبريم³، وجعل منه بكلربكية قائمة بذاتها، وهدفه من وراء ذلك هو جعل إيالتي الحبش ومصر وحدة إدارية واحدة، ورغم أن إيالة أبريم قد ألغيت بعد ذلك إلا أنّ فكرة عثمان باشا في هذا الصدد لم تمت، وظلت ديار النوبة تحت نفوذ ولاية مصر⁴.

3- آثار الضم العثماني على الحبشة:

أ/ الآثار الثقافية والدينية:

من آثار التوسع العثماني على إيالة الحبشة التأثير بما كان يجري في دول الجوار ثقافيا ودينيا، ومن أهم هذه الروافد التي استتقت منها الحبشة هي السودان، فبعد دخول السودان في دائرة النفوذ العثماني بشكل عام، اتسعت عمليات تعريب البلاد وأسلمتها، فأدى انضواء السودان تحت لواء سلطة الباب العالي إلى تقوية العلاقات مع مصر والساحل الغربي للجزيرة العربية، وازدادت مكانة العرب وأهمية اللغة العربية هناك، حيث يذكر آدمز أن الآثار

¹ مهمة دفترى، الرقم 5، الحكم 740. نقلا عن خالد أرن، السودان في العهد العثماني مرجع سابق، ص 22

² مهمة دفترى، الرقم 5، الحكم 1163، نفسه ص 40

³ أبريم: منطقة الصعيد المعروفة بمصر العليا. نفسه، ص 22.

⁴ خالد أرن، مرجع سابق، ص 22.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الكثيرة للكتابات العربية العائدة للقرن السادس عشر التي عثر عليها في أبريم تظهر المستوى الرفيع للغة العربية بالمنطقة¹.

كما ساهم التواجد العثماني في المنطقة - سواحل البحر الأحمر - التي تطل عليه بدورها الحبشة على حماية الأماكن المقدسة الإسلامية من المخططات الصليبية البرتغالية، فهي أعظم خدمة قدمتها الدولة العثمانية للإسلام، أنها وقفت وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي في البحر الأحمر منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي، إلا أنها نجحت في منع تغلغه في الحجاز²، حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مشروع صليبي³، حيث تصدت للمسيحية من الملاحة في مياه البحر الأحمر⁴.

ومن آثار التوسع العثماني في الحبشة تثبيت دعائم الإسلام ونشره على نطاق واسع بدعم القوة الإسلامية هناك، كما تمكنت الدولة العثمانية أن تنشر الإسلام في المنطقة وتدعم القوى الإسلامية هناك في حربها ضد القوى المسيحية المناهضة للوجود الإسلامي، والمدعومة من طرف البرتغال⁵ بل من طرف أوروبا المسيحية جمعاء.

ب/ الآثار الاقتصادية :

¹ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص 207.

² - هو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ثم الزحف على مكة المكرمة، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم استأناف الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى، وبذلك تقع المساجد الثلاثة بيد البرتغاليين. أنظر: عمر سالم بابكور، مرجع سابق، صص 79، 87.

³ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 862.

⁴ - نفسه، ص 863.

⁵ R .B.Merriman ,op.cit,p254.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

إنّ انتقال الحبشة إلى السيادة العثمانية أدى بالضرورة إلى انتقال مرافئ البحر الأحمر إلى سلطة العثمانيين وتطبيق نظامهم في البلاد ولو بصورة شكلية إلى إحياء جزئي لطرق التجارة الدولية القديمة التي كانت¹ تمر عبر أراضي السودان ومصر²، وتحولت سواكن من جديد إلى أهم مراكز الترانزيت التجاري، فأخذت تؤمها القوافل المحملة بالذهب والعاج من إثيوبيا وفونجستان،³ والأهم من ذلك كله بدأت ترتادها السفن التجارية العربية المجازفة⁴، بعد الالتفاف حول المخافر البرتغالية، ناقلة إلى سواكن كميات كبيرة من المستحضرات الطبية والأدوية والعطور والتوابل، حيث كانت تلك البضائع تباع بصورة غير شرعية في كامبيا وبيغو وملفا⁵.

وتمكنت الدولة العثمانية من خلال سياستها الخارجية أن تحقق نتائج اقتصادية مهمة رغم الصعوبات التي لقيها العثمانيون في تجهيز أساطيلهم للتصدي للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي، نظرا لبعده هذه المناطق عن مراكز الأساطيل العثمانية الكبرى في البحر المتوسط⁶، وعلى الرغم من المنافسة الشديدة للبرتغاليين إلا أنّهم استطاعوا بدون شك عرقلة النشاط التجاري للبرتغاليين⁷، وأدى ذلك إلى فشل محاولات البرتغاليين السيطرة الكاملة على تجارة السلع المارة عبر موانئ مصر والشام⁸، فالعثمانيون

¹ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص 207.

² J.S.Shaw.op.cit,p107.

³ F. Braudel,op.cit,T1,p17.

⁴ - اتبع البرتغاليون سياسة منع العرب من المتاجرة مع الهند والشرق الأقصى بكل الوسائل، بما في ذلك مهاجمة السفن في الخليج، وتدمير السفن الراسية في موانئ الخليج العربي وقام البوكيرك بتنفيذ هذه السياسة، منذ دخوله الخليج لأول مرة سنة 1507/913م وأحكم البرتغاليون السيطرة على السفن التجارية بواسطة الحصون التي أنشأوها في كل مركز تجاري استولوا عليه، ووضعوا فيها حاميات عسكرية للاشراف على الطريق البحري، كما منعوا أية سفينة عربية في الخليج من ممارسة التجارة دون إذن رسمي بالملاحة من البرتغاليين.أنظر: نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 162.

⁵ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، ص 207.

⁶ - نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 168.

⁷ Melin Kunt and Christine Woodhed,op.cit,p61.

⁸ - نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 168.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

استطاعوا أن يكبدوا البرتغاليين هزائم في حرب التوابل في أواسط القرن السادس عشر ميلادي، فرغم هزائم الأسطول العثماني هناك إلا أنه تمكن من فتح اليمن والسيطرة على سواحل البحر الأحمر الإفريقية، الأمر قد أنزل ضربة قاضية لمحاولات البرتغال احتكار التجارة الشرقية الهندية.¹

وفي هذا الإطار شكلت حملة أوزدمير باشا انتصارا للمسلمين في الحرب من أجل كنوز الشرق الأقصى، وقد أبرز فرنان برودال آلاف الوثائق التي تثبت على نحو قاطع أن طريق التوابل القديمة عادت إلى كامل نشاطها في الفترة 1550-1570م².

وبدأت أوروبا الغربية بأسرها، باستثناء إسبانيا والبرتغال ومقاطعات فرنسا الأطلسية من جديد تمون بالبهارات من بلدان الشرق³، حيث أن الموانئ مثل مصوع وسواكن وبيلول وما تدره من حاصلات جمركية هي التي تشكل القدر الأكبر من موارد الإيالة، وهذه الموانئ كانت من مراكز عبور التجارة بين الشرق والغرب، وكانت تجارة التوابل والرقيق تمثل الجانب الأعظم فيها، والمعروف أنّ التوابل كانت من حيث الماهية والوصف أثن مواد التجارة وأكثرها عوائد، فكل سفينة محملة بهذه المادة عليها أن تدفع شيئا من الرسوم عند كل ميناء تمر به، والتي تدخل سواكن كان عليها أن تدفع العشر والواقع أنّ الرسوم التي تتركها السفن المارة تمثل المورد الأساسي للموانئ⁴ أما المصدر الثاني للدخل فهو تجارة الرقيق⁵، وكان صيد اللؤلؤ أيضا واحد من مصادر الدخل الهامة في المنطقة.

¹J.S.Shaw,op.cit,p98.

²F. Braudel,op.cit,T1, pp423-226.

³ نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، 208.

⁴ مهمة دفترى، الحكم 109، ص 39. نقلا: خالد أرن، السودان في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 44.

⁵ تجارة الرقيق: حيث كانت تلبى حاجة المغرب وتونس وطرابلس الغرب ومصر وإيران وتركيا وشبه الجزيرة العربية وغيرها من الدول الإسلامية في آسيا يتم توفيرها من تلك المناطق وتجري تجارة الرقيق من طريقتين، أحدهم عن طريق البحر والثاني عن طريق البر وكان أربعة أخماس الأسرى القادمين في قوافل تتراوح أعمارهم بين 6-30 عاما، وتشكل الأغلبية منهم من الإناث والفتيات في سن 10-15 عاما، وكان العبيد المجلوبين للعمل في السراي العثماني وفي دوائر رجال الدولة يتم جلبهم جميعا تقريبا من هذا الطريق، فقد كان هناك أغوات دار السعادة الذين يحتلون موقعا خطيرا باعتبارهم خدام دائرة الحريم في بلاط الحاكم، وهؤلاء كان يتم اختيارهم بوجه عام من الزوج ذوي الأصول السودانية والحبشية، وتجري تربيتهم وتنشأتهم بعد ذلك. أنظر: نفسه، ص 45،

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

بالإضافة إلى إحياء الطرق التجارية، كانت الدولة العثمانية تسعى جاهدة إلى تأمينها وتأمين المارة من التجار¹ بغية تمكينهم من ممارسة التجارة دون عوائق، ولم تكن تتردد في إرسال قوات عسكرية إلى المناطق التي تشهد اضطراباً أمنياً، لتأمين مرور القوافل التجارية المتوجهة من وإلى أراضيها من أي تهديد محتمل، داخليا كان أو خارجياً بأمن وسلام، حيث حرصت كل الحرص على إبقاء الطرق التجارية سالكة وآمنة أمامها، والمعروف أن البرتغاليين سيطروا قبل الامتداد العثماني على منافذ الجزيرة العربية وعلى الطرق البحرية المؤدية من البحر الأحمر والخليج إلى الهند²

¹ - دفتر الرؤوس، الحكم 1163، نقلا عن محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 148 .

² - مهمة دفترى، ص 122، الحكم 257، نقلا عن فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية أواخر عهد السلطان سليمان القانوني، مرجع سابق، م3، ص 190.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المبحث الرابع: السياسة الخارجية العثمانية
اتجاه المغرب الأقصى 1520-1566م:

1- أوضاع المغرب الأقصى في القرن السادس عشر
ميلادي:

شهدت المغرب تحت حكم الأسرة الوطاسية (1471 - 1544)¹ حالة من الضعف، الانقسام والعجز عن فرض السلطة المركزية على جميع أنحاء المغرب، ومواجهة الاعتداءات الخارجية المتمثلة في الاحتلال البرتغالي² والاسباني الذي استمر منذ أواخر القرن الخامس عشر وتصاعد في مطلع القرن السادس عشر، فالأوضاع السياسية الداخلية تنم على مدى التجزئة التي وصلت إليها البلاد مما ساعد تزايد الفتن الداخلية وشجع الاسبان والبرتغاليون في عمليات الاحتلال والتفكير في السيطرة الشاملة على مجموع المغرب³ ولم يقف الأمر عند الوضع السياسي المغربي منذ مطلع القرن السادس عشر والحقبة اللاحقة بل عانى المغرب لفترات طويلة من الجفاف والمجاعات .

ولم يكن القرن الثاني أحسن حالا⁴. فقد عرف المغرب 27 سنة من الجفاف، كما عرف القرن نفسه انتشار الأوبئة والأمراض ، كل ذلك أعجز المغرب وأضعفه عن مقاومة الاحتلال البرتغالي والاسباني⁵.

¹ - الأسرة الوطاسية: فرع من بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية، تأسست عام 1471م على يد محمد الشيخ الوطاسي. أنظر: أبو عباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولد المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4، الدار البيضاء، 1955، صص96-97.

² - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص73

³ - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، ط3، الرباط 2006، ص18.

⁴ - ابراهيم حركات، "الأوضاع في المغرب"، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد12، الرباط، 1986، صص46، 15.

⁵ - محمد على داهش، الدولة العثمانية والمغرب اشكالية الصراع والتحالف، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2011،

ص27.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

إنّ هذا العجز المغربي في العهد الوطاسي قاد إلى ظهور حركات شعبية مجاهدة في مناطق متعددة من البلاد¹ نذرت نفسها للدفاع عن الثغور المغربية ومواجهة التحديات البرتغالية والاسبانية² وأسهمت تلك الأوضاع في بروز قيادة شعبية في الميدان أهلتها مكائنها الدينية والاجتماعية لتلعب الدور القيادي في المغرب منذ مطلع القرن السادس عشر،³ وقد تمثلت تلك القيادة بالأشراف السعديين⁴ الذين ظهوروا في الجنوب الغربي وأسسوا⁵ دولة عربية قوية هي دولة الأشراف السعديين (1509 - 1658) وكان قيامها رد فعل مباشر لتوغل البرتغاليين في منطقة السوس الاطلنطي، حيث أفلت زمام المنطقة من يد الوطاسيين الذين ضعف سلطانهم وسعى إليهم الانحلال.

وكانت الدعوة التي قامت على أساسها الدولة الجديدة الدولة السعدية هي طرد البرتغاليين⁶ في منطقة السوس تمهيدا لطردهم من البلاد كلها⁷، بقيادة الشريف أبي عبدالله محمد القائم

¹ - إمارة مراكش وإمارة شفشتاوان العلمية المناستين لسلطنة فاس، كذلك تتراوح العلاقات في هذه الأحداث -اتفاقا وتعارضا- بين قوى الحركة الفكرية الجهادية وقد تنوعت القوى الواقعة وراء الحركة الفكرية الجهادية بين رجال البحر وبين رجال البوادي لا سيما من المحيطين بالزوايا الصوفية وبين أجنحة من طبقة الأشراف التي تصدرت الدعوة الجزولية الى تجديد الدور التاريخي للدولة المغربية. أنظر: حسن ابراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 119.

² - عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 6.

³ - حسن ابراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 119.

⁴ - أبو عباس الناصري السلاوي، مصدر سابق، صص 6، 7.

⁵ - أبي فارس عبد العزيز بن عمر ابراهيم محمد الفشتالي، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء، ج 2، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1384هـ / 1964م، ص 249.

⁶ - سرعان ما تألفت حكومة شبيهة بالحكومات التحريرية في منطقة السوس على رأسها أبو محمد ابن عبد الله أول الملوك السعديين، وتألّف معها جيش وبدأ القتال بينه وبين البرتغاليين عام 1511، أحرز السعديون انتصارات متوالية على البرتغاليين، إلى أن تولى الأمر السلطان ابو عبد الله الشيخ الذي تمكن من طردهم إلى خارج المحيط الأطلسي عام 1541، واستطاع السعديون أخيرا الاستيلاء على البلاد كلها وتخليص معظم المدن الساحلية من البرتغال. أنظر: المصادر الدفينة، مصدر سابق، ص 77.

⁷ - عبد الكريم رافق، مرجع سابق، صص 73، 75.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

بأمر الله¹ (1509- 1519) ومواجهة المؤسسة الحاكمة والعاجزة للعمل على قيادة حركة جهاد لتحرير الموانئ الجنوبية، وتحقيق وحدة البلاد وتعبئتها لمواجهة التهديدات المستمرة للبرتغاليين والاسبان².

و من القادة الأشراف الذين تزعموا عملية التحرير أو العباس أحمد الملقب بالأعرج (1517- 1539م)، والذي واصل عمليات التحرير فيما استمر الصراع السعودي الوطاسي في عهد خلافة محمد الشيخ³ حتى منتصف القرن السادس عشر ميلادي⁴. وخلال هذه الفترة ذاتها تسلم السلطان سليم الأول مفاتيح الكعبة سنة 1517م⁵ فكرس دوره كخليفة للمسلمين وبذلك أصبحت للسلطان سليم سلطتين سياسية ودينية على المشرق العربي، وكان يطمح إلى توسيع هذه السلطة على غربه، حيث كان يريد استكمال شروط الخلافة بضم بقية دول شمال إفريقيا لنفوذه، فالسلطان العثماني الذي

¹ - أبي عبد الله القائم بأمر الله: هو أبو عبد الله محمد بن محمد ابن مخلوف بن زيدان الملقب بالقائم بأمر الله، عميد الأسرة السعدية، كان من أهل العلم والدين، أخذت له البيعة عام 916هـ / 1510م، وحكم المغرب إلى غاية 1517. أنظر: محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق هوداس أنجي، مطبعة باردين، باريس، 1888، ص 16.

² G.W.F.Stripling,op.cit,p31.

³ - محمد الشيخ: وهو أبي عبد الله ويلقب بالشيخ وأمغار بالبربرية ويلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي أخ أبي عبد الله القائم بأمر الله، أخذ البيعة في 896هـ/، عمل محمد الشيخ على تقوية دولته على حساب الوطاسيين في فاس وإقامة حكم مركزي قوي داخلي، أما خارجيا فاصطدم مع حكام الجزائر، حيث أبدى محمد الشيخ تقربا من الاسبان بل وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين، وعلى إثر هذا قرر العثمانيون التخلص من محمد الشيخ بأية وسيلة، فقد تجاوزت حياته في وجهة نظرهم الحد الذي لا يمكن السكوت عنه فدبروا مؤامرة للتخلص منه بإرسال السلطان العثماني جماعة من الجند دخلوا في خدمته بحجة أنهم هاربين من الجيش العثماني حتى اطمأن إليهم وانتهى الأمر بقتله في عام 964هـ/1557م. أنظر: أبو عباس أحمد خالد الناصري، مصدر سابق، ص 19.

⁴ - محمد على داهش، مرجع سابق، ص 28.

⁵ - محمد بن أحمد ابن اياس، مصدر سابق، ج 5، ص 193.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

أضاف إلى ألقابه لقب خادم الحرمين الشريفين¹ أصبح مسؤولاً عن حماية المسلمين شرقاً وغرباً، ثم إنَّ واجب السلطان كخليفة للمسلمين كان يحتم عليه الدفاع عن الحوض الغربي للمتوسط وحمايته من المد المسيحي².

ولكي يتمكن السلطان من الاضطلاع بهذه المسؤولية فإنَّ الواجب كان يقضي أن تكون هذه المناطق خاضعة للسلطة العثمانية، وعلى هذا الأساس جاء تدخل العثمانيين في منطقة المغرب³، وكان ينبغي لدول المغرب طاعة السلطان العثماني ليتمكن من مواجهة التحدي المسيحي في غرب البحر المتوسط⁴.

كما سعى الوطاسيون بعدما فرض العثمانيون سيادتهم على مصر⁵ إلى التقرب منهم وعليه فقد أرسل السلطان المغربي أبو عبد الله محمد الثاني الوطاسي مبعوثاً له إلى القاهرة وهو الحسن الوزاني مهنتاً السلطان العثماني سليم الأول، وطالبا منه المساعدة، لكنه لم يتلق المساعدة التي طلبوها من السلطان العثماني، ففقدت الدولة مبرر وجودها وانتهت على يد الأشراف السعديين⁶.

ويبدو أن ذلك راجع إلى انشغال العثمانيين بفتوحاتهم في أوروبا ومجابهة القوى الأوروبية في البحر المتوسط إلا أنه مع استقرار السيادة العثمانية على الجزائر، تصاعد

¹ - ثريا فاروقي، حجاج و سلاطين، مرجع سابق، ص 211.

² - فهد بن محمد السويكت، "مواقف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، مجلة جامعة الملك سعود، م 19، الرياض، 1426هـ/2006، ص 181.

³ - زهراء النظام، "العثمانيون والصراع المسيحي في غرب المتوسط"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2003، ص 67.

⁴ - نفسه، ص 71.

⁵ - محمد بن أحمد ابن اياس، مصدر سابق، ج 5، ص 172.

⁶ - عبد الكريم محمود غرايبية، مرجع سابق، ص 38.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الصراع البحري مع الاسبان¹ وغيرهم في البحر المتوسط وفي طرابلس الغرب وتونس²، أوحى للعثمانيين ضرورة دعم القوى المحلية لكي تكون سندا لهم في مواجهة الاحتلال والنفوذ الاسباني والبرتغالي في غربي البحر المتوسط³.

أما في النصف الثاني من القرن السادس عشر بدءا من مقتل محمد الشيخ السعدي عام 1557 4 وخلافة ابنه عبد الله الغالب بالله برزت تطورات هامة خاصة ما يتعلق ببناء الدولة وتثبيت وجودها وتوسيع نفوذها نحو الجنوب،⁴ في ظل ما كان يتهدها من أخطار خارجية استهدفت القضاء على حكم السعديين، أو فرض التبعية و الولاء لهذه الدولة أو تلك، إلى اضطراب أحوالها الداخلية أحيانا بسبب القيام بالعديد من الثورات والاختلاف حول السلطة بين السعديين، أنفسهم مما كان يؤثر على علاقاتهم الخارجية ونوعية تلك العلاقات⁵.

2- بداية الاحتكاك العثماني - السعدي :

من المتعارف عليه بداية العلاقات العثمانية المغربية بدأت بتقديم الدعم العثماني للوطاسين في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني منذ عام 1535، وقد شمل ذلك الدعم الأسلحة والمدافع والذخائر الحربية التي ضمت آليات لحصار المواقع الاسبانية والبرتغالية، وقد أرادوا من وراء ذلك كسر شوكة البرتغال والاسبان ومنعهما من تحقيق خططها لاحتلال المغرب، الذي أرادوه لهم إمتدادا، ولما لم يكن بمقدورهم تحقيق ذلك في

¹Ernest Mercier,Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules-jusqu'à la conquête Francaise,T3,Ernest Leroux Editeur,Paris,1868,p2.

²Ernest Mercier,op.cit,T3,p2.

³ محمد علي داهش، المرجع السابق، ص28.

⁴ عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص175.

⁵ عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هـ/السادس عشرم، ج1، الأمل

الجزائر 2006م/1427هـ، ص 119.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

تلك الفترة، فقد مدوا الوطاسين بالأسلحة للقيام بهذا الدور كما أنهم سوف يحصلون بالنتيجة على التأييد الشعبي، وتأييد علماء الدين ذوي النفوذ الكبير في المغرب¹ للدعاية لهم، وبما يخدم تسهيل هيمنتهم على المغرب وقبول المغاربة للسيادة العثمانية.

وفي الوقت الذي كانت الامدادات العسكرية العثمانية تصل إلى المغرب كان الصراع الوطاسي² السعدي على أوجه³ وعليه أرسل السلطان سليمان خطابا دون أن يكون له علم عن قوة سلطان مراكش فجاء الرسول إلى مراكش بتاريخ 1548/954م،⁴ ودخل على المهدي بدون استئذان فغضب المهدي من تصرف السفير كذلك من دياجة السلطان سليمان ومضمون الرسالة أزعج محمد الشيخ كثيرا وخاصة مناداته بشيخ العرب وصيغة الأمر الموجهة اليه ومطالبته بدفع التعويض، ولشدة غضبه صمم على قتل السفير⁵ لكن عدل عن ذلك ووصل الغرور به إلى التفكير بالذهاب إلى مصر لطرد العثمانيين منها وأخذ السلطنة لنفسه،⁶ وبعد أن أبلغ السفير رفضه لمطالب السلطان سليمان أمر بطرد السفير العثماني من مجلسه⁷.

¹ - حسن ابراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص38.

² - هذا الصراع الوطاسي السعدي الذي بدأ منذ 1533 م وبلغ ذروته عام 1549 م فقد دارت الدائرة على الوطاسيين. أنظر: محمد علي داهش، مرجع سابق، ص29.

³ - محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي الافراني، مصدر سابق، ص42.

⁴ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص177.

⁵ - نفسه، ص176.

⁶ - فهد بن محمد السويكت، مقال سابق، ص178.

⁷ - عبد الكريم كريم، مرجع سابق، صص75، 76.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

رغم التوسع العثماني في البلاد العربية التي نتج عنه انضواء معظم البلاد العربية تحت لواء الدولة العثمانية، إلا أن منطقة واحدة وهي المغرب حافظت على استقلالها بحماسة ضد النصارى والعثمانيين تحت حكم السعديين العائلة الجديدة، لقد لعبت هذه العائلة دورا في العالم الإسلامي شبيها بدور مدينة البندقية في العالم النصراني.

وفي حلول عام 1554 م تمكن السعديون في مراكش وقبلها في عام 1549 م من السيطرة على صافي وأزمور، ودخل الشريف المهدي الثاني (1517 – 1557م) في علاقات تجارية مع بريطانيا، وبدون تردد عارض التقدم العثماني في مناطقه وهكذا صد مسير الأتراك باتجاه الأطلسي وكذلك آمالهم في عبوره إلى العالم الجديد، وقد بدأ شعور الإحباط لدى العثمانيين واضحا في اغتيال الشريف الذي حمل قاتلوه رأسه إلى استانبول¹، لكن لم يتغير شيء يذكر بهذا العمل وبقيت المغرب مغلقة في وجه العثمانيين.²

كما أضحى حوض المتوسط ساحة جديدة خلال القرن 16م للصراع الممتد والعنيف ولقد انتقلت أعباء هذه الجولة ذات الطبيعة المتجددة على العثمانيين منذ 1517 بصفة خاصة وذلك في مواجهة اسبانيا في البحر المتوسط والبرتغال في المحيط الهندي والبحر الأحمر،³ معتبرين أنفسهم حماة المسلمين اتجاه ما تقوم به هذه الدول من عمليات عدائية تجاه العرب والمسلمين. وقد بدأ الاهتمام العثماني بفاس في عهد السلطان سليمان القانوني، ولا سيما بعد أن ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية.⁴

¹ - الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، 1972، ص30.

² - عباس حمداني، مرجع سابق، ص6.

³ - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص34.

⁴H.D.De Gramont,Histoired'Alger sou la domination Turquie(1515-1830),Ernest Leroux , Paris,1887,p30.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

ويبدو أن السعديين لم يكونوا مرتاحين من الوجود العثماني في المنطقة في بداية الأمر¹، إذ أن السلطان السعدي مولاي محمد استغل انشغال بكربكي الجزائر حسن باشا² بمسألة وهران،³ التي كانت محتلة من قبل الاسبان، وسيطر على تلمسان، التي كان يحكمها⁴ أحمد الثالث الزياني⁵، والذي تقلد الحكم بمساعدة العثمانيين وطرده السلطان السعدي الجنود العثمانيين الموجودين فيها الى الجزائر (1551/957)، وقد بايعته قبائل بني يزناسن.

برز التعاون جليا حيث دخل في تعاون مشترك مع أهالي تلمسان⁶ بعض شيوخ القبائل ضد الأتراك العثمانيين في المنطقة، واستقبل محمد الشيخ وفودا من شيوخ قبائل مديونة وأهالي

¹ - فاضل بيات، "المغرب الأقصى بين الإستقلال والتبعية العثمانية، العهد السعدي"، بحوث الندوة الدولية حول المغاربة والبحر الأبيض، منشورات إرسكا، استانبول، 2013، ص 79.

² - حسن باشا: هو الذي تبناه خير الدين باشا بربروس استخلفه على الجزائر عندما ذهب إلى الباب العالي سنة 1533م لاعتقاده بأنه سيدير البلاد إدارة جيدة، ثم عزل سنة 1545 قبل وفاة والده بربروس ونصب مكانه حسن باشا الثاني وهو ابن بربروس الحقيقي عاش ما بين (1500 - 1572)، حيث توفي في عهد السلطان سليم الثاني. أنظر: مهمة دفترى، ص 696، الحكم 1922. ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 320.

³ H.D.Grammont, op.cit, p77.

⁴ - تلمسان: مدينة جزائرية تقع على نهر ملوية غربا تمتد إلى صحراء نوميديا جنوبا وكانت هذه المملكة يحكمها يغمراسن بن زيان وورثته لمدة 300 سنة، غير أنهم اضطهدوا من ملوك بني مرين، الذين احتلوا مملكة تلمسان 10 مرات وكان مصير بني زيان إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات. أنظر: الحسن بن محمد الوزان المدعو ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تحقيق عبد الرحمان حميدة، المملكة العربية السعودية، 1399هـ، صص 7، 8.

⁵ - لبنى بنجلون، "العلاقات المغربية التركية في القرن 16 من خلال المصادر الدفينة"، المغرب والعالم المتوسطي، دراسات في تاريخ العلاقات الدولية المغربية ما بين 16م و20م، ط1، دار الأمان، الرباط، 2014، ص 42.

⁶ - كانت لتلمسان مكانة حدودية هامة لدى كل القوى سواء المسيحية أو الإسلامية المتمثلة في العثمانيين والسعديين فتلمسان بالنسبة للسعديين هي مفتاح الجبهة الشرقية للمغرب، أما العثمانيين فكانت تعتبر نقطة أساسية لتقوية نفوذهم بالجزائر واستكمال السيطرة على شمال إفريقيا. أنظر: سعيد عدي، المغرب والعالم المتوسطي، دار الأمان، الرباط، 2014، ص 42.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

تلمسان والجماعات الأندلسية المقيمة بها الذين أكدوا له انضمامهم إليه ومساعدتهم على ضم تلمسان¹.

أمام كل هذه التشجيعات وجه الشيخ السعدي حملة على دبدو² وطرده أميرها المولى عمر. ويعتبر الضم المغربي لتلمسان مرحلة جديدة في العلاقات السعدية - العثمانية، لأن كل فريق كان يقدر استراتيجية المنطقة وأهميتها في توطيد النفوذ الداخلي والانطلاق نحو ما جاورها من البلاد، وإذا كان السعديون يرون في ضم تلمسان عاملا قويا في توطيد سيطرتهم على كل المغرب الشرقي وبالتالي لصد كل تدخل في المغرب، فإن الأتراك العثمانيون بدورهم كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب، لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من دور رئيسي وفعال في تهديد المواصلات البحرية الإسبانية - البرتغالية وغزوهم في عقر ديارهم³،

ولهذا السبب كان رد العثمانيين، قويا فلم يتأخر حسن باشا بكربكي الجزائر في إرسال قوة لاستعادتها،⁴ وتقابلت هذه القوة مع الجيش السعدي في موقعه بين وهران وتلمسان، أين وقعت معركة ضارية بينهما انتهت بهزيمة الجيش السعدي،⁵ واضطر السعديون على إثرها إلى إخلاء تلمسان لتدخلها قوات حسن باشا⁶.

¹ - لبنى بنجلون، مرجع سابق، ص 42.

² - دبدو : تقع غير بعيدة من واد ملوية والتي تعد نقطة هامة في المغرب الشرقي، وقد اتخذها المرينيين الذين زحزحوا عن فاس مركزا جديدا لامارة صغيرة هي كل ما بقي لهم من حكم المغرب. أنظر: عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 17.

³ - لبنى بنجلون، مرجع سابق، ص 43.

⁴ - ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 321.

⁵ - نفسه، مرجع سابق، ص 321.

⁶ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، صص 125، 127.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

هذا الاصطدام العسكري في تلمسان يعتبر الأول من نوعه في تاريخ العلاقات العثمانية السعدية، وهو صراع لا متكافئ بين أسرة حاكمة لم يمض على ظهورها على مسرح الأحداث سوى فترة قصيرة من وصولها إلى فاس، وطمحت في امتلاك أراضي نحو الشرق وقوة تعود جذورها إلى القرن ثالث عشر ميلادي¹.

ولكن ما إن رجعت هذه القوات إلى الجزائر حتى قام حسن أخو أحمد الثالث بالاستيلاء على تلمسان بعد أن تلقى دعماً عسكرياً من الإسبان ويظل يحكمها حتى سنة 1555م، لكن يستولى عليها صالح باشا نهائياً وجعلها سنجقاً تابعاً إلى إيالة الجزائر وانقضى بذلك حكم بني زيان بعد 319 سنة من قيام دولتهم، ويبدو أن الدولة العثمانية لم تكن ترغب في تصعيد الموقف مع سلطة فاس رغم ما حدث، بل ظلوا يجارونهم حتى يتمكنوا من التفرغ لهم².

لا شك أن ما كانت ترمي إليه السياسة الخارجية العثمانية هو احتواء المغرب الأقصى لكن بتريث واستغلال الفرص، والدليل على ذلك هو الرسالة التي بعثها السلطان العثماني إلى الشريف محمد حاكم فاس سنة 959هـ³، حيث يستعرض السلطان العثماني قوته في بداية الرسالة ويلمح أنه السلطان والخليفة على جميع البلاد الإسلامية ولا بد أن يخضع لسلطانه حكم فاس السعدي، ويخبره بتغيير والي الجزائر لعدم احترام جيرانه أصحاب فاس مما أدى إلى التناحر وعدم الاتحاد ضد العدوان البرتغالي، وترتب عن ذلك تعيين والي جديد

¹ - لبنى بنجلون، مرجع سابق، ص 41.

² - ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 320.

³ - مهمة دفترى، ص 9، الحكم 888، نقلاً عن نفسه، صص 329، 330.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

على الجزائر بدلا من حسن باشا وهو صالح باشا¹، كما يأمر حاكم فاس بحسن الجوار والمعاشرة²، إذ أدرك العثمانيون خطر التوجه المغربي نحو الاسبان والبرتغاليين ومحاولة عقد هدنة بين الطرفين.

لذا ساد ميل عثماني إلى تهدئة الأحوال مع المغرب انطلاقا من التحديات المشتركة، وإفشالا لمحاولات عقد الهدنة، في الوقت الذي كان الصراع على أشده بين العثمانيين وأوروبا برا وبحرا. وانطلاقا من ذلك، بعث السلطان العثماني سليمان القانوني سفارة إلى السلطان المغربي برئاسة أبي عبد الله الخروبي³ المقيم في الجزائر، لتهدئة الحالة بين الجانبين، فأكرم السلطان المغربي وفادته، إلا أن اللقاء لم يثمر عن نتيجة، فقد كانت مواقف السعديين واضحة من العثمانيين كما سلف القول⁴. وقد وقف السفير العثماني في طريق رحلته على صورة العلاقات المحيطة بتلك الأحداث، ووطد أواصر العلاقات العثمانية بكبار الشيوخ المرابطين المغاربة⁵.

لكن اعتبر هذا تكتيكا من طرف السلطان سليمان القانوني الذي كان منشغلا بجهات أخرى، وسرعان ما جهز صالح باشا الذي خلف حسن باشا في إيالة الجزائر قواته للقيام بحملة عسكرية ضد السعديين، واجتاز صالح باشا في الأيام الأولى من عام 1533 م الحدود العثمانية الفاسية القريبة من تلمسان، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته من تشتيت الجيش

¹ - صالح باشا: أو صالح ريس كان أحد رفاق خير الدين بربروس، كما شارك في مسيرة الأسطول العثماني في بروزة وإليه يرجع الفضل الكبير في الإطاحة بأسطول أندري دوريا ودحره. أنظر: نفسه، ص 322.

² - محمد محمود خليل، مرجع سابق، ص 67.

³ - حسن إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 142.

⁴ - مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التاكدارية، تصحيح جورج كولان، الرباط، 1934، ص 27.

⁵ - إبراهيم حسن شحاتة، المرجع السابق، ص 142.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

الفاسي¹، وسيطر على مدينة تازة². وفي 8 كانون الثاني 1554 م دخل إلى فاس وسط ترحيب الأهالي، ووصلهم وفد من نبلاء فاس يعلنون تأييدهم.

اضطر السلطان السعدي محمد للانسحاب إلى مراكش، وبقي صالح باشا الى جانب جيشه في فاس أربعة أشهر³، وحدث في فترة مكوثه أن استبدل الباشا العثماني أبا حسون⁴ بالشريف الإدريسي الراشدي بناء على إيعاز بعض المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، غير أن ثورة أهل فاس عادت بالباشا العثماني إلى إعادة بوحسون إلى حكم فاس⁵، وأذعن هذا الأخير لشروط العثمانيين وأجريت فيها كل المعاملات باسم السلطان العثماني، وإقامة حامية عثمانية في مقر بلاطه وزاد صالح راييس من هذه الترتيبات بالحصول على فدية كبيرة من أعيان وتجار فاس⁶، وأحیی بذلك حكم المرينيين فيها، ولكن بعد عودة القوات الجزائرية إلى الجزائر عاد محمد المهدي إلى فاس واستعادها وقتل أبا حسون".

23 ايلول 1554م.⁷

ومن هذا الإطار يسهل القبول بحجم الهزيمة التي نزلت بالقوات السعدية، وحلفائها التلمسانيين والعرب أمام العثمانيين وحلفائهم الزوايين وغيرهم من البربر في وقعة بوعزون قرب تلمسان سنة 1551م، كما يسهل تفسير اجتياح العثمانيين لكل شرق المغرب في

¹ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص305.

² - تازة: الواقعة على الطريق المؤدي لفاس على مسافة ستين كلم شرقا. أنظر: نفسه، ص305.

³ - فاضل بيات، المغرب بين الاستقلالية والتبعية، مرجع سابق، ص80.

⁴ - أبو حسون: اسمه الحفتوي أبو الحسن علي بن محمد وهو من سلالة الوطاسية، حيث أعلن نفسه حاكما على فاس بعد وفاة أخيه الأكبر محمد البرتقالي سنة 1524. أنظر: عزيز سامح آلتر، مرجع سابق، ص187.

⁵ - حسن إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص147.

⁶ - بلغت ألف مئقال فضلا عما تركه وراءه الشريف السعدي من ثروة وحريم. أنظر: نفسه، ص147.

⁷ - عبد العزيز الفشتالي، مصدر سابق، ج1، ص109.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

السنوات التالية ودخولهم فاس باسم الوطاسيين في حملة صالح رايس¹ وإجلاء السعديين منها، وهنا بدأ العداء يستحكم بين السعديين والعثمانيين واتجاه السعديين إلى اعتبار العثمانيين عدوهم الأول في علاقات المغرب الدولية².

أثبتت الاحداث بعد عام، أن النوايا العثمانية تجاه المغرب لم تكن صادقة وجادة في تحقيق السلام وسيادة حسن الجوار، وأن طموح العثمانيين في ضم المغرب بقي قائما، وأنهم ميالون إلى تحقيق ذلك من خلال أبي حسون الوطاسي الذي تعهد لهم بذلك. وقد اشترط والي الجزائر الجديد صالح رايس على أبي حسون الوطاسي أن يدعو للعثمانيين على منبر جامع القرويين في العاصمة المغربية فاس، وفي سائر مساجد المغرب تعبيرا عن الولاء والطاعة للسلطان العثماني، فضلا عن نقش رسم السلطان العثماني على العملة المغربية لقاء تقديم العون له لاقتحام المغرب وإسقاط الحكم السعدي هناك³، ولما أدرك السلطان محمد أنه غير قادر على تحدي العثمانيين والصمود أمامهم بالاعتماد على إمكاناته الذاتية أقدم على الاستنجاد⁴ بالإسبان⁵.

كما سعت الإدارة العثمانية منذ البداية ليتحول تقارب حكام المغرب إلى تبعية ويترجم في خضوع للسيادة العثمانية، مع ما يترافق ذلك من إعلان ولائهم لسلطانهم والدعوة لهم على

¹A. Williams, Mediterranean conflict, Longman, London, 1995, p50.

² حسن إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 140.

³ سامح عزيز التري، مرجع سابق، ص 176.

⁴ فاضل بيات، "المغرب بين التبعية والتحدي"، مرجع سابق، ص 80.

⁵ توترت اسبانيا والبرتغال لرؤية بداية السيطرة العثمانية على بعض الموانئ المغربية خصوصا القريبة من مراكزهم الاستعمارية، والعاصمة فاس مما سيمهد لهم بلا شك لمحاولتهم لاسترداد الأندلس، وقد بعث الملك البرتغالي جيان الثالث إلى الإمبراطور الاسباني شارلكان ما يدل على القلق والخوف، ويحثه على التدخل السريع لمواجهة العثمانيين قبل توطيد حكمهم في المغرب مما سيكون له تهديد كبير على النفوذ الاسباني والبرتغالي. أنظر: عبد الله لتازي، التاريخ الدبلوماسي، مرجع سابق، ص 24.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

المنابر، لكن سلاطين المغرب تمسكوا بعلاقتهم بالدولة العثمانية دون التنازل عن سيادة بلادهم والمس بحقوقهم المشروعة في الحكم¹.

3- الدولة العثمانية وسياساتها التوسعية نحو

المغرب الأقصى:

أ/ تصاعد الصراع المغربي - العثماني في عهد محمد الشيخ :

لا شك بأن استعادة فاس إلى حكم السعديين في 23 سبتمبر 1554 كانت نقطة تحول هام في تاريخ الدولة السعدية الناشئة، فمحمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للأتراك العثمانيين خاصة بعد الدعم العسكري العثماني لأبي حسون الوطاسي، كان له أثر كبير في ازدياد حدة التوتر بين العثمانيين والسعديين²، ومن أهم المعارضين لسياساتهم التوسعية في بلاد المغرب، هو محمد الشيخ بل والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس منتصرا بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك،

كان التنافس السعدي - العثماني على شمال إفريقيا بل وعلى الخلافة الإسلامية في صالح الاسبان والبرتغال، الذين رحّبوا بهذا الموقف من السعديين، وأرسلوا رسولا إلى محمد الشيخ بشأن عقد اتفاق بينهما يهدف إلى طرد العثمانيين من شمال إفريقيا³، ويتضح جليا بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى فاس، حيث أصبح على اتصال مباشر مع كل من الاسبان⁴، حيث تطابقت وجهات النظر لديه مع خصوم العثمانيين بشأن طردهم من بلاد المغرب، وعزمه على تكوين دولة مغربية عظمى كما كانت في عهد الموحيدين.

¹ - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 71.

² - محمد علي داهش، مرجع سابق، ص 38.

³ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 193.

⁴ - رشيد القنبي، مرجع سابق، ص 24.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

إذ أنه كان يرى أنّ المغاربة في عصره لا يقلّون عن المغاربة في عصر الموحدين ، ولهذا رفض دعوة السلطان سليمان القانوني إلى عقد معاهدة يعترف فيها بالخلافة العثمانية ، لقد اعتبر محمد الشيخ بأنّ العثمانيين يشكلون خطرا عليه ، فذهب إلى أبعد من التحالف مع أعدائهم وهو محاولة فرض الهيمنة السعدية على المناطق الصحراوية الجنوبية¹ ، والسيطرة عليها وحكمها باسم التبعية للخلافة الإسلامية² ، أثناء الفترة الممتدة من : 1555- 1557م ، والتي هدأت فيها الأحوال بين الطرفين ، وفي 1557م وصلت سفارة من السلطان العثماني سليمان القانوني إلى السلطان المغربي محمد الشيخ ، ورسالة بتاريخ 10 اذار - مارس - 1557م تقترح على محمد الشيخ عقد هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، يقدم خلالها العثمانيون للشريف السعدي مساعدات عسكرية لمحاربة المسيحيين ، شريطة إعلان التبعية للباب العالي ، ووضع اسم السلطان العثماني على النقود السعدية³ .

ذكر المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية تفاصيل السفارة العثمانية بقوله : " ... فإنه لما كان محمد الشيخ بفاس ، وفد عليه رسول للسلطان سليمان ليهنئه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين _ يقصد الوطاسيين _ من الهدايا والوداد والمحبة والميل إليه والرغبة فيه وأنه في نصرتهم. فسكت ولم يجبه بشيء ، وبقي عنده إلى أن طال جلوس الرسول فطلب منه أن يسرّحه"¹ . لكن هذه المحاولة باءت بالفشل بعد الرفض السعدي الذي كان شديد اللهجة ، إذ

¹ - عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 192.

² - غير أنّ أهم الشروط التي تركز عليها الخلافة وهي الانتماء لآل البيت ، التي لم تتوفر لدى العثمانيين ، وهو ما دفع بالقوة الصاعدة في المغرب ، الذي شدّ عن قاعدة الخضوع للعثمانيين ، إلى رفض الامتثال للطرح العثماني والتأسيس لأحقية محلية للخلافة ، وخاصة أنّ السعديين يتمتعون بشرف الانتماء لآل البيت ، هذا التعارض بين المشروع العثماني والطموحات السعدية أسس لصراع قوي في المنطقة. أنظر: رشيد القنبي ، مرجع سابق ، ص 24.

³ - لبنى بنجلون ، مرجع سابق ، ص 55.

¹ - يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، م 1 ، ص 307.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

لقب السلطان العثماني بسلطان الحوامة وأمير القوارب¹، فقال له محمد الشيخ: "سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام".

ومن هذا يستدل على أن السلطان المغربي كان يشعر بالاستياء من السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربي "وأنه لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية²، كما يعكس لنا الجواب أيضا طموحه في إمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها³، وكانت نتيجة هذا الفشل في المساعي العثمانية للتوصل إلى الصلح والمهادنة مع محمد الشيخ، شريطة أن يعترف بالخلافة العثمانية أن ازداد التقارب بين الأشراف السعديين والاسبان، فقد كان الاسبان يترقبون التعاون التام مع محمد الشيخ السعدي، والعثمانيون يهيئون أنفسهم لهذا الطرف الجديد خاصة أنهم يعلمون أن هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الأساسيتين: الثغور المحتلة⁴ والقضية الموريسكية⁵.

ب/ التقارب السعدي - الاسباني:

ما يميز مرحلة التقارب السعدي - الاسباني تكثيف الاتصالات بينهما وتميزت بوقوع اتصالات مكثفة بين الاسبان والسعديين، وظهر في هذه الاتصالات دور ابن الشريف

¹ - سعيد عدي، مرجع سابق، ص 25.

² - رشيد قنبي، مرجع سابق، ص 24.

³ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 307.

⁴ - أحمد سالم، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16، مؤسسة شباب الجامعة، اسكندرية، 2011، ص 173.

⁵ - نزوح الأندلسيين، المورسكيين الذين فروا بدينهم نحو السواحل المغربية - العربية، وكانوا ناقلين على الاسبان وذلك للممارسات القمعية ومحاكم التفتيش ضد المسلمين واليهود معا. سيار الجميل، مرجع سابق، ص 115.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

السعدي عبد الله الغالب، بحكم مركزه كحاكم لإقليم فاس، ودور المنصور بوغانم مزوار¹، وتحمس دالكويت حاكم وهران لهذه الاتصالات²، وقد أرسل فعلا إلى فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص للإتفاق مع محمد الشيخ حول مقترحات سلام وتعاون جديد في أوائل مارس 1557م، وهي الموافقة على سلام بين المغاربة والاسبان لمدة معينة، يتفق عليها ويلتزم عبد الله بالتموين الغذائي للقوات الاسبانية البالغة عشرة آلاف، ودفع أجورها، بدءا من تاريخ نزولها على الشاطئ الإفريقي، والتعهد حول تحضير حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد العثمانيين.

قام العثمانيون بأول رد فعل نتيجة التقارب السعدي الاسباني، فشددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة النجاحات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة³.

لقد فشلت جميع المحاولات الدبلوماسية التي قام بها العثمانيون لدى محمد الشيخ للدخول في طاعتهم، و الرسائل التي بعث بها السلطان سليمان القانوني إلى المغرب هي عبارة عن فرامانات⁴، اعتبر فيها السلطان من خلالها بأن محمد الشيخ خادما⁵ من خدامه بمعنى أن المغرب من منظور السلطان يعد ولاية عثمانية ومحمد الشيخ مجرد حاكم¹ و كما

¹ - المنصور بوغانم: شخصية هامة في بلاط محمد الزياني، عمار بن خروف، مرجع سابق، ص34

² - إبراهيم حسن شحاتة، مرجع سابق، ص149.

³ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص173.

⁴ - فؤاد طيطح، العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن السادس عشر، أواخر القرن 18، مجلة دورية كان التاريخية، العدد14، ديسمبر، 2011، صص106، 112.

⁵ - نفسه، صص106، 112.

¹ - فهد بن محمد السكويث، مرجع سابق، ص188.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

اتضح للعثمانيين مدى تواطؤ السعديين مع الاسبان والبرتغاليين ضدهم، مما جعلهم يفكرون في غزو المغرب ويهيئون الاستعدادات لذلك.

لكن لما تأكد العثمانيون من مسألة الهدنة بين المغرب ودولتي شبه جزيرة إيبيريا، عدلوا عن فكرة الغزو العسكري، واكتفوا بتدبير مؤامرة الاغتيال¹. وقد استطاع أعضاء الجماعة "الفارة" أن يكسبوا حظوة لدى السلطان المغربي، وانضموا إلى الحرس العثماني الخاص به بقيادة صالح كهية أحد أتباع صالح راييس، وهم جزء من القوات العثمانية التي فضلت البقاء في فاس والتعاون مع محمد الشيخ بعد مقتل أبي حسون الوطاسي، وكسبت الجماعة ثقة السلطان المغربي فقربهم إليه، لكنهم سرعان ما نفذوا به مهمتهم الموكلة لهم، فاغتالوا السلطان محمد الشيخ يوم 23 أكتوبر 1557م، وفروا به عن طريق تلمسان إلى العاصمة العثمانية استانبول².

برز طموح العثمانيين بوضوح عند اغتيال السلطان المغربي محمد الشيخ لإخضاع المغرب من أجل استكمال سيطرتهم على المغرب الإسلامي، وإلا بماذا نفسر تلك الحشود البحرية والبرية لمهاجمة المغرب في حين كانت مدينة وهران الجزائرية الخاضعة للحكم الاسباني وتونس (الحفصية)³ تعانيان وطأة الاحتلال الاسباني⁴ والقوى المحلية المتعاونة معهم، فيما حلت الفوضى والاضطرابات في المغرب واصبح المغرب أبوابه مفتوحة أمامهم حيث بدا والي الجزائر حسن خير الدين يستعد ويتطلع للقفز على البلاد وضمها¹.

¹ - محمد بن الصغير الحاج المراكشي الأفراني، مصدر سابق، ص 43.

² - عبد العزيز الفشتالي، مصدر سابق، ص 30.

³ - محمد عبد الله عودة و ابراهيم ياسين الخطيب، مرجع سابق، ص 12.

⁴ Ann Williams, op.cit, p44 .

¹ - محمد علي داهش، مرجع سابق، ص 39.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

كان هذا مصير محمد الشيخ الذي رفض بقوة الدخول تحت السيادة العثمانية، ورفض في أواخر عهده حتى السلام مع العثمانيين، ولو لفترة محدودة، ومضى في التقرب من الاسبان وانتهاز الفرص للتدخل في الغرب الجزائري، ولا سيما في تلمسان والتآمر مع الاسبان للقضاء على الوجود العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعل العلاقات بينه وبين العثمانيين في الجزائر، والدولة العثمانية يغلب عليها طابع التوتر، والعداء أكثر من طابع الدبلوماسية.

ج/العلاقات العثمانية المغربية في عهد عبد الله الغالب:

بعد مقتل محمد الشيخ السعدي من طرف الأتراك تولى الحكم بعده في المغرب ابنه السلطان عبد الله الغالب بالله (1557 - 1574م/964 - 981هـ)، وبتوليته بدأ فصل جديد في العلاقات السعدية بالدولة العثمانية، وأول ما قام به داخليا هو إخماد الثورات الداخلية، مثل ثورة سيدي حمو قائد تطوان والذي التجأ إلى العثمانيين، لما علم بخروج عبدالله الغالب من مراكش في اتجاه تطوان¹، وقد حاول العثمانيين مساعدة سيدي حمو، والاستيلاء على نقاط مهمة على السواحل المغربية، وانشاء قاعدة بحرية في القصر، وربطها بالمرسى الكبير حتى يتمكنوا من السيطرة على هذا الخط البحري، والتحكم في السفن المارة عبر مضيق جبل طارق².

ويمكن القول ان تلك العلاقات استمرت عدائية، متوترة بضع سنوات أخرى كما كانت في السنوات الأخيرة من عهد محمد الشيخ، وذلك أن عبد الله بدأ عهده بالانتقام من

¹ - لبنى بنجلون، مرجع سابق، ص 23.

² - نفسه، ص 17.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

العثمانيين قتلة والده، فحاصروهم في قلعة تارودانت¹، إلى أن تمكن من قتلهم جميعا، إلا أن هناك من تمكن الإفلات منه برأس والده، وإيصاله إلى تلمسان فالجزائر، لينتهي به المطاف في استانبول².

وفي عام 1557 تحرك حسن بن خير الدين باشا من الجزائر في جيش كثيف³، وصل إلى قرب عمالة فاس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب ودارت الدائرة على الجيش العثماني في موقعة اللبن، حيث تمكنت القوات المغربية من تحقيق انتصار حاسم، وانتهت المعركة بهزيمة العثمانيين، وفرار حسن باشا إلى باديس⁴. وقام بتحصينها خوفا من هجوم مغربي أو اسباني وبرتغالي، واستغل الإسبان هزيمة القوات العثمانية فشنوا من وهران هجوما على مدينة مستغانم إلا أنهم فشلوا في احتلالها وكان ذلك في أوت 1558م⁵.

إنّ تخوف مولاي عبد الله الغالب من المطامع العثمانية في المغرب جعله يتخذ منذ البداية سياسة التقارب مع العاهل الاسباني فليب الثاني، باذلا جهودا كبيرة لتحسين دولته من أي مخاطر عثمانية قادمة من البحر، وهو ما جعله يبادر في اتفاقية السلم الموقعة مع اسبانيا في جمادى الأولى 964 هـ / مارس 1557م إلى اقتراح شروط تتضمن التزامه بحظر مهاجمة أي مركب اسباني، وحظر تزويد أي قرصان بالمؤونة¹.

¹ - عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هـ / السادس عشر م، جزئين، دار الأمل، الجزائر، 1427هـ / 2006م، ص 176.

² - المجهول، مصدر سابق، ص 28.

³ - استطاع عبد الله الغالب حشد قوات كبيرة قدرت 45 ألف جندي و30 ألف فارس و10 آلاف مشاة و4 آلاف حملة بندق ومدفعية. أنظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 307.

⁴ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص 173.

⁵ - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م 1، ص 307.

¹ - عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص 96.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

وهذا الموقف المعادي للمصالح العثمانية جعل سياسة عبد الله الغالب حيال النشاط البحري العثماني تتسم بالتوجس والحذر ، فيما لم يؤد ذلك إلى تبيد مخاوف اسبانيا ولا قواعدها المحتلة ، وإنّما ظلت تنتظر حجم رد الفعل العثماني على التقارب المغربي - الاسباني ، والذي لم تكن تتصوره إلا كاسحا للمغرب ، كما يدل على ذلك البلاغ الصادر في سبتة في 3 يونيو 1557م / 6 شعبان 964 هـ ، الذي يشير إلى خروج أمير البحر طورغوت باشا¹ من استانبول باتجاه المنطقة على رأس قوة بحرية مؤلفة من 80 سفينة ، لتصل إلى 150 سفينة حربية عند انضمامها إلى سفن الجزائر ، مكهنا بزحف أسطول طورغوت باشا لاحتلال سلا وبناء التحصينات لفصل الشتاء ، لا سيما وقد سبق ذلك قيام ثمان بوارج عثمانية بتفحص موانئ المغرب وبخاصة باديس وسلا².

لا شك أن العلاقات العدائية لم تكن الغالبة بين البلدين ، فقد تأرجحت بين العداء والسلم ، ومن بين مظاهر العلاقات السلمية هي رؤية عبد الله الحكيم أنه لا يمكن لإمارته الصغيرة الصمود بين العثمانيين والاسبان ، بل عليه أن ينحاز إلى أحدهما ، فاختار العثمانيين الذين كانوا يعززون مواقعهم في الشمال الإفريقي بوتيرة متسارعة ، ولم يتردد في الدخول تحت خيمت القضاء على الدولة العربية في الأندلس ، وسيفقد أراضي إمارته شيئا فشيئا

¹ - درغوث: الرئيس دارغوت مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس الغرب خاصة والشمال الإفريقي عامة ، ولد على الأرجح عام 890هـ ، اشتغل منذ الصبا مساعدا ومرشدا ومدفعا ، ولما بلغ عام 910هـ ، العشرين من العمر أصبح بحارا ذو خبرة وتجربتين كبيرتين ويظهر من هذا أنّ درغوث زاول الملاحة والقرصنة قبل الأخوان عروج وخير الدين ، عمل طورغوت مساعدا للأخوان بربروس وزوج ابنته لحسن نجل خير الدين ، استشهد أثناء الحصار على مالطا عام 1565. أنظر: أحمد سالم ، مرجع سابق ، ص 155.

² - عبد الهادي التازي ، مرجع سابق ، ص 30.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

لاستغلالها من قبل القوات الإسبانية، كما عليه أن يترك جيشه في خدمة الاسبان ومحاربة بني جلدته في المناطق الأخرى من الشمال الإفريقي بوتيرة سريعة¹.

والحقيقة أنّ عبد الله الغالب كان بعيد النظر في تفكيره، لأنه رأى أن الاسبان سيوسعون من احتلالهم للأراضي المغربية عاجلا أو آجلا ودخوله تحت خيمتهم يعني تبعيته لدولة مسيحية برزت إلى الوجود بالقضاء على الدولة العربية في الأندلس²، وسيفقد أراضي إمارته شيئا فشيئا، لاستغلالها من قبل القوات الإسبانية، كما كان عليه أن يترك جيشه في خدمة الاسبان ومحاربة بني جلدته في المناطق الأخرى من الشمال الإفريقي³.

ولهذا لم يكن أمامه إلا الخيار الثاني وهو إعلان تبعيته للدولة العثمانية، وبإعلانه هذه التبعة لن يخسر قلاعه ونفوذه وجيشه، بل بالعكس من ذلك سيستفيد من قوات هذه الدولة، وسيتمكن من الصمود أمام الغزو الإسباني، فأرسل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني يعلمه بذلك ويطلب منه إقراره أميراً على ولاية فاس، ولم يتردد السلطان من تلبية طلبه، فأصدر مرسوماً بذلك وأقره أميراً وحاكماً على ولاية فاس و ديار مراكش وبلاد السوس¹.

¹ - فاضل بيات، مرجع سابق، ص 81.

² - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 58.

³ - وتجنباً لمعارضة داخلية والمتمثلة في الحركة الفكرية الجهادية بالمغرب لم يظهر فيها ما يدل على رفض قاطع للدور العسكري (الجهادي) للعثمانيين، وهذا يعني أن ثبات أقدام العثمانيين بالمغرب قد تعلق بمصير علاقاتهم السياسية والحربية بالاسبان، إذ أن الحركة الفقهية (الدرعية - السجلماسية)، لم تستطع أن تقطع هي الأخرى بإدانة الدور العثماني على إطلاقه، وكانت الدولة السعدية ترجمة سياسية لهذا الفكر الفقهي، غير أنّ النجاح السياسي للدولتين في لم شمل الدولة المغربية وحفظ وحدتها ومن ثم استقلالها كان الفضل فيه للحركة الجهادية التي بها أيضاً كان احتفاظ العثمانيين بإمبراطوريتهم الكبرى ونجاحهم في التمسك بوحدتهم أنظر: حسن إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 8.

¹ - ولكن مما يؤسف له أن معلوماتنا عن علاقة عبد الله الغالب بالسلطان سليمان القانوني لا تتعدى إلى أكثر من حصوله على هذا المنشور منه كما لا يعرف متى حصل هذا المنشور، وكل ما يعرف أنّه بعد وفاة السلطان سليمان

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

ومن مظاهر العلاقات السلمية ما حدث من تقارب سعدي عثماني، وذلك ما جاءت به رسالة مؤرخة بتاريخ 30 يونيو 1565 م من هبرت هوجان الى ببيستر يؤكد فيها الاتفاق الذي كان بين الشريف السعدي عبد الله الغالب وباشا الجزائر، للسيطرة على وهران، الشيء الذي جعل الملك الاسباني يبعث بعدد من جيشه بلغ 1000 محارب لتعزيز قواته بالمنطقة، إلا أن هذا التقارب سرعان ما سيتوقف ويتحول إلى صراع عثماني سعدي مرة أخرى، خاصة عندما يزداد الوضع تازما في المغرب، وهذا عندما أسند عبد الله الغالب الخلافة لابنه محمد المتوكل، حيث ثار ضده إخوته الذين تم التنكيل بهم وقتلهم، باستثناء عبد الملك وأخوه اللذان التجأ إلى استانبول، كي لا يكون مصيرها كمصير المولى عثمان عند استنجد عبد الملك بالعثمانيين¹.

4-تقييم الوجود العثماني في المغرب الاقصى:

الوجود العثماني في المغرب لم يستطع تثبيت دعائمه رغم كل محاولات من أطراف الدولة العثمانية للاستحواذ فعلا على المغرب، لكنها لم تنجح، أو بالأحرى لم يتمكن السلطان سليمان القانوني الذي بدأ الاهتمام بالمغرب الأقصى في عهده، من خلال سياسته الخارجية حيث فشلت محاولاته وهذا أمام التأسيس القوى للدولة السعدية التي كانت قوتها متجسدة بعاملين أساسيين المتمثل فيأنها كانت تملك جيشا قويا¹ مجهزا بأحدث الأسلحة، كما وكانت له تجاربه الميدانية التي خاضها ضد البرتغاليين والاسبان. كما كان بيت المال السعدي مزدهرا

=القانوني 1566م أرسل هذا المنشور إلى السلطان الجديد سليم الثاني لتجديده أي إقراره هو الآخر حاكما على الولاية، وبالفعل أصدر سليم الثاني مرسوما بذلك وأرسله إليه. أنظر: مهمة دفتري، 7، تسلسل 187،68.فاضل بيات، مرجع سابق، ص81.

¹ - لبي بنجلون، مرجع سابق، صص45، 46.

¹ - إبراهيم حركات، مرجع سابق، صص15، 46.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

واققتصاد الدولة متكاملًا، بفعل الموارد الداخلية الكبيرة والمصادر الخارجية، التي كانت أبرزها تجارة السكر وحركة القرصنة الفعالتين¹.

كما كان بيت المال السعودي مزدهرًا واقتصاد الدولة متكاملًا، بفعل الموارد الداخلية الكبيرة والمصادر الخارجية، التي كانت أبرزها تجارة السكر وحركة القرصنة الفعالتين².

وفعلا بقي المغرب الأقصى الدولة العربية الوحيدة في شمال إفريقيا التي لم يحكمها الأتراك العثمانيين، وكان يواجه على حدوده الشرقية مصادمات مسلحة يذكيها العثمانيين لفصائل المقاومة ضد العلويين من إيالة الجزائر³، ونتيجة للتدخلات الإسبانية والبرتغالية⁴ في المنطقة، أخفق العثمانيون في ضم المغرب الأقصى أو استعصى عليه، ذلك ويظهر تأثير الأسباب والبرتغاليين، الحريصين على عدم امتداد النفوذ العثماني إلى المغرب، في العلاقات بين حكام هذا الأخير وحكام الجزائر ولا سيما العثمانيون منهم فتغذية الشكوك والمخاوف لدى الحكام المغاربة من نوايا العثمانيين في ضم المغرب تحت لوائهم، وقد دعم تهديد السلطان العثماني محمد الشيخ مزاعمهم¹، رغم عدم تنفيذ السلطان العثماني لتهديده.

وتتجلى في مساعي التقرب من الوطاسين والسعديين من بعدهم، وتوقيع الهدنات معهم حتى يبعدوا العثمانيين في الجزائر، ولا يتيحوا لهم فرص التدخل في المغرب بل إنهم ذهبوا إلى

¹ - فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 613.

² - نفسه، ص 613.

³ - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 136.

⁴ - لكن السعديين بعدما أدخلوا معظم أرجاء المغرب الأقصى تحت حكمهم قاموا بانتهاج سياسة ودية مع العثمانيين لأنهم كانوا يعرفون جيدا استحالة المحافظة على كياناتهم السياسي ببقائهم محايدين في المنطقة أي دون التحالف مع الاسبان أو العثمانيين وتحالفهم مع الاسبان يعني اتخاذهم جبهة معادية من الدولة العثمانية لهذا نجدهم يؤثرون العثمانيين على الاسبان. أنظر: فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 613.

¹ - أبو عباس أحمد خالد الناصري السلاوي، مصدر سابق، ص 31.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

حد عدم استغلال فرص انهزام الوطاسيين أمام السعديين للتدخل في المغرب¹، وتحقيق أطماعهم فيه حتى لا يندفعوا هؤلاء في طلب العون العثماني²، وبالتالي حتى لا يجد العثمانيون فرصة للتدخل في المغرب القريب منهم جدا. ونتيجة لهذه السياسة البرتغالية والاسبانية وتشبت المغرب السعدي باستقلاله، وكشف الدولة العثمانية عن نواياها في احتوائه، فإن العلاقات بين حكام الجزائر الممثلين في العثمانيين والحكام المغاربة الوطاسيين والسعديين لم ترق إلى مستوى التعاون والتضامن الفعالين مما كان له نتائج هامة منها.

استمرار الاسبان في احتلال كثير من المواقع والمدن الساحلية وتأخر توحيد أجزاء البلدين تحت حكم السعديين في المغرب والعثمانيين في الجزائر، وعدم تمكن الدولة العثمانية من تحقيق مبتغاها في استيعاب المغرب الأقصى ضمن إمبراطوريتها، وتكوين كتلة إسلامية ضخمة في الشمال الافريقي تقف في وجه المشروعات المسيحية الأوروبية، وبصفة خاصة البرتغال واسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وعدم توحد البلدين تحت سلطة واحدة بل عدم تحالفهما¹.

ولأن إنشاء ولاية عثمانية في الجزائر ساعد على التقارب العثماني المغربي، وسهل التواصل بين حكامها فان وجود باشوات عثمانيين في الجزائر لم يكن يخلوا من مضايقات ومتاعب، كان المغرب يجد نفسه مرغما على مواجهتها، وبكل قوة، منها رغبة الباشاوات في توسيع

¹ - فؤاد طيطح، مرجع سابق، صص 106، 112.

² - وكان هذا التدخل الاسباني والبرتغالي لحماية مصالحهما في المغرب إذ أن رسالة التاجر البرتغالي Jeronimo Diez Sanchez في ص 133 من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب تؤكد هذا التخوف نقلا عن لبنى بنجلون، مرجع سابق، ص 39.

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، صص 92، 93.

الفصل الثاني: السياسة العثمانية اتجاه القوى الإسلامية

حكمهم¹، وفرض إرادتهم السياسية على المغرب، وهو ما كان يقابل بحزم من قبل الباب العالي، الذي كان يحرص أن تبقى علاقته بالحكام المغاربة بعيدة عن أهواء الباشوات وتهديداتهم والحفاظ على علاقات ودية² معهم.

¹ - محمد عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقات المغربية العثمانية في القرن 16، المجلة التاريخية المغربية، العدد2، تونس 1974، ص131.

² - محمد عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقات المغربية العثمانية في القرن 16، مرجع سابق، ص134.

الفصل الثالث

الاستراتيجية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط
خلال القرن السادس عشر ميلادي

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المبحث الأول: معالم السياسة البحرية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر ميلادي.

1- الجذور التاريخية للبحرية العثمانية:

اعتمدت الدولة العثمانية منذ نشأتها القوات البرية ولم يكن لها أية قوة بحرية تذكر، فكل حروبها في أوروبا وفتوحاتها الأولى كانت تعتمد على الجيش البري¹، ذلك لأن كل أعداءها في ذلك الوقت كانوا يعتمدون على القوة البرية من مشاة ومدفعية وفرسان، أمثال الصرب والمجر،² ولكن بمضي الوقت وبامتداد الأراضي والسواحل العثمانية بعد فتح أدرنة سنة 762هـ/1361م³ من طرف مراد الأول واتخاذها عاصمة للسلطنة العثمانية.

ظهرت الحاجة لأسطول بحري للربط بين شطري السلطنة الممتدة من آسيا إلى أوروبا، فهو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثماني إلي جانب سياسة التوسع الإقليمي في البلقان⁴ حيث فتحت بلغاريا وصربيا ثم خلفه ابنه الذي طهر شواطئ بحر إيجه الآسيوية من بقايا الروم، وبذلك حاز العثمانيون على أعظم موانئ بحر إيجه وهي أيدين ومنتشة⁵، كما

¹ بدأت الإمارة العثمانية كإمارة برية في ظل الدولة السلجوقية عندما أقطع علاء الدين السلجوقي أرطغرل وقومه أرضا تقع بين الروم والبيزنطيين وإمارة قونيا السلجوقية، ثم توفي أرطغرل وخلفه ابنه عثمان الأول الذي وسّع إمارته، ومنحه علاء الدين لقب بيك ثم اتخذ من مدينة يني شهر عاصمة له سنة 1301م ثم نقل أورخان العاصمة إلى بروسا بعدما اعتنق حاكمها الدين الاسلامي وصار قائدا عثمانيا ومنح لقب بك وبهذا أصبحت العاصمة العثمانية دولة بحرية لوقوعها على الساحل الجنوبي الشرقي لبحر مرمرة، وامتدت سواحل السلطنة العثمانية من سواحل مرمرة إلى سواحل البحر الأسود. أنظر: محمود السيد الدغيم، أضواء على البحرية العثمانية الاسلامية، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994م / 1414هـ، ص384.

²P.Caules,op.cit,p30.

³ منجم باشا أحمد بن لطف الله، مرجع سابق، ص54.

⁴ عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص881.

⁵ أيدين ومنتشة: مدينة تقع جنوب غرب الأناطول أما الثانية فتقع شمال أزمير على بحر إيجه. أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص115.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

برز أسطول أورخان ونفذ من سواحل منتشه إلى البحر الأبيض المتوسط¹، وحاصر استانبول سنة 1397م/794هـ ذات الموقع الاستراتيجي.²

الى أن تعرضت الدولة العثمانية للغزو المغولي بقيادة تيمورلنك الذي أسفر على أسر السلطان بايزيد الأول اثر معركة أنقرة³، وهي مرحلة⁴ لكن محمد جلبي الأول استقل بمدينة توقات وآماسيا، وبدأ مقاومة التتار فحرر أخاه موسى، ثم وحد السلطنة من جديد، وخاض الأسطول العثماني معركة جنق قلعة سنة 1416م ضد أسطول البندقية وانتصر عليه⁵، لكن على الرغم من انشغاله في ترتيب البيت العثماني، لم يخل عهده من حضور ميداني للأسطول العثماني الحربي.

وما إن اعتلى ابنه مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م) كرسي الحكم، حتى أعاد الدولة على ما كانت عليه قبل وقوع كارثة أنقرة سنة (804هـ/1402م) وتمكن من تقوية أسطوله مما أهله أن يؤدي دورا كبيرا في حوض البحر المتوسط⁶، كما حاصر مراد الثاني شخصيا مدينة القسطنطينية 825هـ/1422م حصارا شديدا، وهذا هو الحصار الرابع إلا أنها امتنعت عليه لخصانتها⁷، ووصل الأسطول العثماني إلى البحر المتوسط واستولى مراد الثاني على جميع القلاع والحصون الرومية على شواطئ البحر الأسود وسواحل الروملي، ومنها عبر السلطان بجيشه نهر الدانوب⁸، فبدأ الشعور بضرورة إنشاء

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص378.

² - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، م1، مرجع سابق، ص129.

³ - خليل انالجيك، مرجع سابق، ص30.

⁴ - سيار جميل، مرجع سابق، ص55.

⁵ - يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م1، ص117.

⁶ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص153.

⁷ - محمد رفعت، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، لجنة البيان، مصر الجديدة، 1949، ص41.

⁸ - محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص386.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

أسطول قوي لتأمين فتوحاتهم في البلقان¹، والاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم والقضاء على باقي ممتلكات البيزنطيين، وطرد البنادقة والجنويين²، الذين كانوا يعتمدون على القوة البحرية في المناطق المتعددة التي كانوا قد تغلغلوا فيها³.

والحقيقة أن انتصار البنادقة على العثمانيين في غاليبولي⁴ عام 1416م هو الذي حملهم جدياً على إنشاء أسطول بحري، ولكن محمد الثاني هو أول من أورث تقاليد بحرية، وقوى الأسطول بسبب سياسته حيث استخدم الجنويين الساكنين في غلطة بعد أن أتم الفتح لتطوير أسطوله⁵، كما أن فتح القسطنطينية⁶ تطلب بناء عدد كبير من السفن⁷.

تطور عدد السفن إذ يذهب بعض المؤرخين اليونانيين إلى أنّ عدد السفن العثمانية قد بلغ أربعة مئة وعشرون سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة⁸، وهذا ما يلاحظ عام 1464م، حيث انطلقت مئة وثمانون سفينة شراعية من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه بغية تدميرها⁹، وخاض السلطان محمد الثاني حروباً بحرية ضد الجمهوريتين في البحرين الأبيض

¹ - محمد فؤاد كوبريلي، مرجع سابق، ص31.

² - محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص385.

³ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص97.

⁴ - غاليبولي: مدينة ذات أهمية استراتيجية تقع على ضفة بوغاز الدردنيل الممر الوحيد بين بحار أوروبا وبحر مرمرة وتقع على مسافة 140 كلم من مدينة أدرنة في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الأوروبي، فقد اكتسبت مدينة غاليبولي هذه الأهمية الاستراتيجية من موقعها. أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، صص126، 127.

⁵ - جب هاملتون وهارولد بوون، مرجع سابق، ص141.

⁶ - وحاول قبله السلطان مراد الثاني فتح القسطنطينية لكنه أدرك لا بد من إعادة النظر في الاستراتيجية العسكرية خاصة على المستوى البحري ومن هنا بدأ الإهتمام ببناء السفن وتعد مرحلة بداية الاستراتيجية البحرية العثمانية.

أنظر: اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، صص17، 18.

⁷ Melin Kunt and Christine Woodhed, op.cit, p39.

⁸ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص883.

⁹ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، صص468، 469.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المتوسط والأسود، إذ احتل القواعد البحرية التابعة لجمهورية جنوة¹ في البحر الأسود، وغدا البحر الأسود أشبه ببحيرة عثمانية² وخاصة بعد أن امتدت حركة التوسع العثماني هناك.

أما في البحر المتوسط فقد سيطر محمد الفاتح على بعض ممتلكات البندقية في أرخبيل اليونان، وميناء أوترانت في جنوب إيطاليا³، والواضح أن اهتمام العثمانيين بمحاربة البنادقة ومطاردتهم سواء في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أو في البحر الأدرياتيكي كان عاملا حاسما في اهتمام الدولة بالسلح البحري، وحرصا على أن يظل في مستوى عال سواء في التسليح أو التدريب.⁴

ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد، أنه يصعب الحديث عن قوة بحرية عثمانية قبل القرن السادس عشر، ذلك أنّ البحرية العثمانية في هذه المرحلة ارتبطت بسياسة السلاطين، ولقد كان اهتمام بايزيد بأسطوله⁵، لا يقل عن اهتمام سابقه من سلاطين بني عثمان، حيث ساهم أسطوله في تمكين الجيوش العثمانية من السيطرة على مضيق الدانوب والدينيستر على البحر الأسود سنة (889هـ/1484م)، وبين سنتي (909هـ/1503م) حققوا انتصارا على البندقية وانتزعوا منها أراضي واسعة ومدنا كبرى،⁶ مثل ليبانتومودون وكورون ونافارينو دورازو في ألبانيا، مما مكن العثمانيين في البلقان وشرق أوروبا كله⁷، وفشل

¹Leopold Von Ranke,op.cit,p20.

² - سالم الرشيدى، مرجع سابق، ص142.

³Melin Kunt and Christine Woodhed,op.cit,p41

⁴ - يلماز أوزوتونا، مرجع سابق، م1، ص180.

⁵Kemal Karpat with Robert Zens, Ottoman border lands,publication of the center of Turkish studies publication,the university of Wixonsin ,Madison ,sded,p33.

⁶ - محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص390.

⁷ - نفسه، صص390، 393.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

التحالف المسيحي في عرقله تقدم العثمانيين في البحر وفتح مدينة رودستو، وعلى العموم وصل الأسطول العثماني ضعف ما كان عليه في العقود السابقة¹.

أثر عصر الكشوفات الجغرافية على الأحداث العالمية وما ميزه استمرار الصراع الحضاري بين العالم المسيحي والإسلامي في البحار والمحيطات²، وهو عصر صراع مرير وطويل واعتمد هذا الصراع من الجانب الإسلامي على العثمانيين بشكل كامل تقريبا وقد كان للمماليك أسطولا إلا أنهم وجدوا أنّ المحافظة عليه مكلفة، بسبب حاجتهم لاستيراد كل الخشب لبناء السفن، كما أنهم أزيحوا من قبل العثمانيين عام 1517م³، وهكذا انتقل عبء منازلة الاسبان في البحر المتوسط، والبرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى السلاطين العثمانيين، إذ لم يكن الصفويون ولا المغول يشكلون قوة بحرية، ولا اقتربوا من ذلك.

وأدرك السلاطين العثمانيون الأوائل أهمية القوة البحرية فعملوا جاهدين على إمتلاك قوة بحرية من أبرزهم السلطان سليم الأول الذي أدرك أهمية امتلاك قوة بحرية⁴، فاهتم بتطوير وتحديث الأسطول ودار الصناعة وتوسيعها لتجاري اتساع الدولة شرقا وغربا⁵، فأمر بإنشاء عدة سفن ضخمة حتى وصلت البحرية في عهده إلى ما يعادل قوة البنادقة

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 185.

² - جون سوندوز، مرجع سابق، ص 154.

³ - محمد بن أحمد ابن اياس، مصدر سابق، ج 5، ص 175.

⁴ - جون سوندوز، مرجع سابق، ص 145.

⁵ - فهمي توفيق، "تساؤلات حول أسباب غياب المنافسة في الكشوفات الجغرافية للعالم الجديد"، مجلة عصور، د.م.ن.

، د.ت.ن، ص 9.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

والاسبان مجتمعة،¹ إن لم يكن متفوقة عليها وهكذا أصبح لدى العثمانيين أسطولاً بحرياً مكّنه من السيطرة على البحر المتوسط و منافسة عنيد في المحيط الهندي².

2- البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

أدى التوسع العثماني في البلاد العربية ونتيجة امتلاك الدولة العثمانية لمصر والشام امتدت على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، و بات ضمن مسؤوليتها حمايته³. وكان هذا حافزاً للسلطان سليمان القانوني الاهتمام بتقوية الأساطيل العثمانية في البحر المتوسط، ونتيجة لاعتداء الفرسان قام بفتح رودس⁴، وسواحل إفريقيا الشمالية، وبذلك أصبحت سيادة الدولة العثمانية على شرق المتوسط بل تجاوزت غربه أيضاً⁵.

وبفضل سياسة السلطان سليمان القانوني التي اتسمت بالفطنة والحرص على بناء أسطول حربي يستعمله في مواجهة أعداء الدولة العثمانية وحماية رعاياها المسلمين في أملاكها الواسعة⁶، خاصة تصديه للبرتغاليين⁷، واضعاف سلطتهم بعد أن استقدموا واشتدوا تسلطاً على البحر الأحمر⁸ وحاكهم الاسبان بطشا وضاوة على السواحل الغربية في شمال

¹ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 528.

² - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 66.

³ - أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له والنشر، الزهراء للإعلام العربي، ط 1، القاهرة، 1995م/1414هـ، ص 259.

⁴ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 287.

⁵ - خالد زيادة، مرجع سابق، ص 17.

⁶ Jean Pierre Bois, op.cit, p141.

⁷ G.W.F.Stripling, op.cit, p21 .

⁸ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 699.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

افريقيا، فإنه استطاع طول حكمه أن يجعل من الأسطول العثماني صاحب اليد العليا في البحر الأحمر بالإضافة إلى البحر المتوسط وبحر ايجيه وبحر مرمرة والبحر الأسود.¹

فضلا عن هذا أتم السلطان سليمان القانوني تأمينه الجزيرة العربية من الخطر الأوروبي الذي يهددها²، ويبدو واضحا أن العثمانيين من كثرة نشاطهم البحري في عهد السلطان سليمان القانوني أقاموا لأنفسهم دولة بحرية من الدرجة الأولى بفضل جهود رجال البحر، الذين اشتهروا بالمهارة والروح الدينية التي كانت تدفعهم إلى الجهاد البحري، وأبرزهم خير الدين بربروس الذي أدخل الجزائر إلى السيادة العثمانية ومن أبرز ما قام به العثمانيين تحصين المدينة ببناء أسوار وتقويتها ما بين 1516- 1529، و تحصين مينائها وطردها الاسبان منها³، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى الإخوة بربروس، بمساعدة الدولة العثمانية حيث عملوا على تأسيس قاعدة الجزائر⁴ التي شكلت عاصمة الجهاد⁵، البحري ومركزا إشعاعيا لباقي المراسي البحرية المغاربية شرقا وغربا⁶.

وماهي إلا سنوات معدودة حتى تحولت إلى دولة ذات حدود سياسية مرسومة وعاصمة حصينة وقوة بحرية نشيطة أكسبها وزنا دوليا مرموقا، وذات نظم سياسية جديدة

¹ - محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص 434.

² - شهدت بداية الامتداد العثماني الى منطقة الخليج وبحر العرب توترا شديدا في العلاقات العثمانية البرتغالية، وكان البرتغاليون الذين احتلوا معظم المراكز الحيوية في الخليج ينظرون الى جيرانهم الجدد من العثمانيين نظرة عداوة وحقد وتخوف وحذر، ولم تخل هذه العلاقات من تصادم مسلح. أنظر: نوال حمزة يوسف الصيرفي، مرجع سابق، ص 160.

³ Fray.Diego De Haédo.Abbé De Fromesta,Histoire Des Rois D'Alger,traduite et annoée par H.D.Grammont,Adolphe Jourdan librairie Editeur,Alger,1881,p16.

⁴ F.Braudel,op.cit,T2,p200.

⁵ Moulay Belhmissi,La marine Algerienne,E2,Enal,Alger,1986,p107.

⁶ - عزيز سامح آلتر، مرجع سابق، ص 127.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

بالنسبة لما كان مألوفاً في أوروبا، ويضاف إلى كل هذا أنّ الحكم الجديد تحدى الدول المسيحية، التي اضطرت إلى محاربتها أو مهادنتها ومحالفتها.

كما ضم خير الدين تونس تحت السيادة العثمانية ودورغوت باشا¹ الذي جعل من طرابلس الغرب طرابلس الغرب² ولاية عثمانية³.

ومنذ أن أصدر السلطان سليمان القانوني فرماناً بترقية خير الدين بربروس إلى منصب قائد عام الأسطول العثماني لخبرته وحنكته البحرية وخدماته الكبيرة التي قدّمها للدولة العثمانية، أصبح هذا المنصب رفيع المستوى ذو شأن خاص لم يصله أحد من قبل، فمنذ تعيينه رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة الوزير⁴، ومنح الشخص الذي يتولى هذا المنصب ثلاثة أطواخ⁵ ورتبة الباشوية⁶.

¹ - للريس درغوت باشا مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس الغرب خاصة والشمال الإفريقي عامة، ولد على الأرجح عام 890 للهجرة اشتغل دارغوت منذ الصبي مساعدا ومرشدا ومدفعا، ولما بلغ العشرين من العمر أصبح بحارا ذا خبرة وتجارب ويظهر أنّه مارس زاول الملاحة والقرصنة قبل الأخوان عروج وخير الدين كما عمل مساعدا لهم وزوّج ابنته لحسن نجل خير الدين، استشهد أثناء الحصار العثماني لجزيرة مالطا عام 1565م/973هـ. أنظر: أحمد سالم، مرجع سابق، ص 155.

² - ظل الاسم مستخدماً لسنوات طويلة في نظام الإيالة العثماني للتعبير عن كل أراضي دولة ليبيا الحالية وقد ورد هذا الاسم في بعض الوثائق العثمانية على شكل طرابلس فقط، ووضعت فيه كلمة غرب للتفريق ما بين طرابلس ليبيا وطرابلس الشام في لبنان. أنظر: أوغور أونال، طرابلس الغرب في الوثائق العثمانية، سجل أوفست، اسطنبول، 2013، ص 7.

³ - محمد رفعت بك، مرجع سابق، ص 44.

⁴ - وأصبح يطلق عليها قبودان باشا، وكانت له الأسبقية على جميع الوزراء الآخرين، وكان ترتيبه يأتي مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وعين عضواً في الديوان الهمايوني. أنظر: أحمد سالم، مرجع سابق، ص 99.

⁵ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 917.

⁶ - الباشوية: مفردة باشا وهو لقب عثماني أطلق على رتب متعددة عسكرية ومدنية. أنظر: سهيل صابان، سبق ذكره، ص 52.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

في حين اتضحت معالم الاستراتيجية العثمانية عام 1533م، وهو العام الذي استدعى فيه السلطان سليمان القانوني خير الدين بربروس إلى العاصمة العثمانية.

إن التفوق البحري العثماني في البحر يعود لإقامة خير الدين الشتوية في الترسانات البحرية¹، ويعد هذا التعيين إحدى اللفتات الحكيمة والصائبة للسلطان سليمان القانوني، إذ عيّن الشخص المناسب في المنصب المهم، وأدى دوراً مهماً في الصراع العثماني الهابسبورغي في البحر المتوسط، لقد ارتفع خير الدين بالأسطول العثماني إلى درجة كبيرة، ونفّذ مهمة لا تقبل الفتور الاستراتيجية العثمانية التي أفرغ فيها طموحه الشخصي وخبرته في البحر المتوسط².

يدل هذا على أهمية الأسطول العثماني ودوره في تلك الفترة، خاصة منذ تولي الرجال البحريون أمر هذا الأسطول وأمر الصراع البحري ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط، التي أعطت سيطرة شبه مطلقة للقوات العثمانية على الطرق البحرية، ومن الأدلة التي تؤكد سيطرة الأسطول العثماني شبه المطلقة على الملاحة في الحوض الغربي للمتوسط³ هو طلب فرانسوا الأول ملك فرنسا الذي اشتعلت الحرب بينه وبين غريمه الإمبراطور شارل الخامس من السلطان سليمان القانوني⁴، لتخليص ثغر نيس من قوات شارل الخامس، والذي استطاع خير الدين تخليصه من تلك القوات⁵.

¹ - الترسانات البحرية: وهي كلمة مقتبسة من اللغات الأوروبية وفي اللغة التركية من دور الصناعة أو دور الماء.

أنظر: يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م2، ص434.

² - جاسم محمد شطب، "الاستراتيجية العثمانية في شمال إفريقيا في القرن السادس عشر"، كلية التربية، د.ت.ن،

د.م.ن، ص42.

³ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج1، ص78.

⁴ Gilles Vein Stein, op.cit, p36 .

⁵ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص892.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وتوالى انتصارات الأسطول العثماني على عهد السلطان سليمان القانوني منذ أن عين بيالة باشا¹ في منصب قبوطان باشا عام 1533، وهو من ألمع القادة الذين جاءوا بعد خير الدين بربروس، فقد هاجم الساحل المحيط بنابولي سنة 1555² واستولى على رجيو وأسر سكانها، وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة، ضم عام 1556 ميناء بنزرت في تونس، في العام الموالي قاد 150 سفينة دمر بها ميورقة، وأحرق سورنتو بالقرب من نابولي.³ وفي عام 1558 ظل رابضا بأسطوله المكون من تسعين سفينة أمام ولونة على ساحل ألبانيا يراقب الأساطيل الأوروبية⁴، التي كانت تتأهب لمهاجمة جربة وطرابلس الغرب⁵، ثم أحرز في 31 من شهر يوليو عام 1560م⁶ أعظم انتصاراته البحرية وهي ضم جزيرة جربة وكانت قد سقطت قبل ذلك في أيدي الإسبان، وكان أسطوله وقت ذاك يتكون من مئة وعشرين سفينة، وقاد حملة موفقة على جزيرة خيوس⁷، وكانت آخر جزيرة في بحر إيجه استعصت على العثمانيين، فسقطت الجزيرة ومينائها في يوم واحد عام 1565م⁸.

تميز عهد سليمان بالفتوحات البحرية الكبيرة، حيث تقدمت في عهده تقدما كبيرا لم تصل إليه بعده شرقا وغربا، وأصبحت السيادة العثمانية غير مقصورة على الشرقي البحر

1- بيالة باشا : من القيادات البحرية وأميرال عثماني كبير من تولايا في هنغاريا كما قيل أنه من أصل كرواتي، وتقريبا كل المعاصرين يذكرون أنه من أصل كرواتي، تقلد منصب أميرال في عام 1554م، وورقي بعد أربع سنوات إلى بيلرباي تقدير الأعمال. أنظر: C.E.Bosworth,E.VanDonzel,W.P.Heinrichs and G.Lecomte,Encyclopedie of Islam,V8,E.J.Brill,Lieden,1995,P316

2- إميل خوري واسماعيل عادل، مرجع سابق، ص8.

3- عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص896.

4- نفسه، ص895.

5- أوغور أونال، مرجع سابق، ص7.

6Gurkan Emrah Safa,op.cit, p267.

7Haji Khalifeh,op.cit,p40.

8- عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص896.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المتوسط بل تجاوزه إلى الغرب¹ ومع ذلك لا نراه يعير اهتماما لنشاط الأساطيل الأوروبية فيما وراء المحيطات، وبالتالي لا يجتهد في البحث عن دور لأسطوله الضخم في هذه الكشوفات الجغرافية التاريخية.

وفي عهده بلغ الأسطول قوة فعلية هائلة سواء في عدد المراكب أو التجهيز بالمدفعية والمعدّات، بإنشاء دار للصناعة البحرية، فاستطاع السيطرة على البحر المتوسط سيطرة تامة، وجابته أساطيله حتى بلغت المحيط الهند² رغم قوة البرتغال البحرية، أليس من المستهجن في ضوء هذه الحقيقة أن لا نرى أشرعة الأسطول العثماني تناطح أشرعة الأساطيل الأوروبية خصوصا الأسطول الإسباني وتزاحمها سباقا إلى القارة الجديدة³.

لكن من المنصف أن السلطان سليمان القانوني فعلا تطلع إلى العالم الجديد، واقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إليه⁴، والحصول على مستعمرة فيها لكن الباشا أفاد أنّ لديهم أعمالا مهمة وكثيرة⁵ في البحر الأبيض المتوسط تغنيه عن هذه المغامرة، حيث

¹ - محمد رفعت، مرجع سابق، ص 43.

²Maribel Fierro,op.cit,p336.

³ - فهمي توفيق محمد مقبل، مرجع سابق، ص 17.

⁴ - هناك دليل على أن العثمانيين استعملوا الموريسكيين من اسبانيا كعملاء استخبارات في أوروبا وعلى الأغلب أن هؤلاء الموريسكيين خدموا السبب نفسه في متابعة أثر الإستكشافات البرتغالية والاسبانية في المحيط الأطلسي كل هذا يبين أنّ العثمانيين وفي وقت مبكر كانوا على علم واهتمام بالكشوفات الجغرافية في العالم الجديد الذي أشير إليه في خريطة بييري باسم ولاية أنتيليا أنظر: عباس حمداني، مرجع سابق.ص5.

⁵ - إنّ العثمانيين كانوا منشغلين في ردع الحملات الصليبية في المحيط الهندي وفي البحر الأبيض المتوسط ضد القوى نفسها التي اكتشفت الأراضي الجديدة فقد أبدوا استعدادهم لملاحقة عدوهم في الأطلسي لكنهم فشلوا في كسب الساحل الأطلسي للمغرب الذي ساهم في فقدان العثمانيين الإهتمام بالعالم الجديد وهناك مشاكل أخرى في جبهات الإمبراطورية العثمانية في أوروبا، وجنوب الجزيرة العربية.نفسه، ص5.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

أنه يجب كف يد الاسبان عن المغرب بصورة مطلقة ، وإلا فسوف تفعل اسبانيا في المغرب ما فعلته في الأندلس ¹ ، وسوف تسعى إلى كتلة شمال إفريقيا بكامله من الأطلسي إلى مصر ² .

3- المجالات البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط :

لا شك أن الدولة العثمانية كانت تهدف إلى السيطرة على الطرق الملاحية في البحر المتوسط ³ ، وبالتالي لم تكن عشوائية في سياستها البحرية بل استمدت قوتها من خلال استراتيجية دقيقة وواضحة المعالم والأهداف ، وتتمثل هذه الاستراتيجية في فتح السلطان سليمان القانوني جبهة بحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط تقديرا منه للأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ⁴ ، لهذا البحر وإدراكا منه أن من يسيطر على المحطات البحرية والقواعد العسكرية القائمة في حوضه مثل إزمير ⁵ ذات الأهمية الكبيرة في الإقتصاد العالمي وقاعدة عسكرية للسفن الحربية ، وثغر ⁶ أمامي متميز في الاستراتيجية العثمانية ، من

¹Ann K.S.Lambton and P.M.Holt, "the further Islamic lands, Islamic society and Islam", V2, Cambridge at the university press, London, 1970p227.

² - يلماز أوزتونا، مرجع سابق، تاريخ الدولة العثمانية، م1، ص290.

³ - حتى القرن 16م مثل هذا البحر بحر الروم القلب النابض للعالم القديم فكان، أهم مجال للحرب والسلم والمبادلات منذ أقدم العصور وحسب ابن حوقل ليس في البحار أعرض نسبة من هذا البحر لأن العمارات من جنبيه ممتدة غير منقطعة ولا ممتعة وفي هذا الإطار كانت الحدود تنتقل وتتغير باستمرار بين دار الاسلام ودار الحرب.

أنظر: ابراهيم جدلة، إفريقيا والغزو البحري في العصر الوسيط من القرن 4/هـ 10م إلى القرن 10/هـ 16م، مجلة البحث العلمي، الرباط، د.ت.ن، ص55.

⁴ - فرنان بروديل، البحر المتوسط، ترجمة عمر بن سالم، منشورات أليف، تونس 1990، صص8، 9.

⁵Daniel Gofman, Izmir and the Levantine world, 1550-1650, Seattlecefu of Washington press, Washington, 1990, P236.

⁶ - ثغر: ويقصد بها منطقة الحصون التي بنيت على التخوم لصد غزوات العدو ، وقد فرق الجغرافيون بين الثغور الشامية وثغور الجزيرة وثغور شمال إفريقيا، وقد تحدث قدامة بن جعفر عن الثغور وقال ، إنَّ منها ما هو برى وهو ما يلقي بلاد العدو ويقابله من جهة البر، ومنها ما هو بحري حيث يلقي العدو ويقابله من ناحية البحر، ومنها ما يجتمع فيها

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

بينها¹ ساقز² إلى استانكوي³ يستطيع من خلالها أن يضيق الخناق على دول أوروبا، وخاصة اسبانيا والكيانات السياسية القائمة في شبه الجزيرة الإيطالية، وكانت ايطاليا واسبانيا تملان في ذلك الوقت جناحي امبراطورية شارل الخامس العدو للدود لسليمان القانوني⁴.

وتعد الدولة العثمانية دولة متوسطة من دول البحر المتوسط وكان يطلق عليها العثمانيون آق دنيز، إذ باتت تطل على معظم شواطئ هذا البحر، على الساحل الشرقي بكامله والساحل الجنوبي بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش والساحل الشمالي في ثلثه تقريبا حتى البحر الأدرياتيكي.⁵ الذي تطل على مدخله ألبانيا⁶.

وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكري والسياسي والديني في البحر المتوسط باستلائها على عدد من الجزر الهامة القائمة في حوضه الشرقي مثل رودس عام 1522م⁷،

=الأمران أما عواصم هذه الثغور فهي ما وراءها من بلدان الإسلام، وكل منها يعتبر عاصما لأنه يعصم الثغر ويمدّه في أوقات النفير.أنظر: حسن الضيقة، مرجع سابق، ص 57.

¹Berray Kollugli and Melten Toksoy,cites of the Medittraniene from the Ottomams to the present day,T.B. Tauris,London,2010,p61.

² - ساقز: وهي جزيرة كبيرة مواجهة لجشمة.أنظر: يلمازأوزوتونا، موسوعة التاريخ السياسي والعسكري، مرجع سابق، م 4، ص 717.

³ - استانكوي: وهي جزيرة من جزر رودس الواقعة في الحوض الشرقي للمتوسط.أنظر: AkifArdagru, the island of Rhodes Ottoman rule ,military situation,trade and taxation ,Zahgoom,1996 ,p30

⁴ - حسن أميلي، العلاقات الجهادية المغربية - الجزائرية(ق16 - 17م)بين التكامل والتعارض، الندوة الدولية حول المغاربة والبحر المتوسط، منشورات ارسكا، استانبول، 2013، ص 30.

⁵ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 1، ص 17.

⁶P. Coles,op.cit,p32.

⁷ - منجم باشا، مرجع سابق، ص 309.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وإن كانت أخفقت في الاستلاء على جزيرة مالطا¹ عام 1565م في أواخر حكم السلطان سليمان القانوني².

إن تتبع حركة النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن 16 يؤكد أن هذه الدولة لم تكن عشوائية في أعمالها العسكرية والبحرية منذ فترات التأسيس وإلا وكيف يمكن تفسير فتح مدينة القسطنطينية³ من طرف محمد الفاتح عام 1453م رغم خصائصها الطبيعية⁴ وموقعها الهام⁵

فلا شك أن ما يدعم فرضية امتلاك الدولة العثمانية لاستراتيجية بحرية في البحر المتوسط امتلاكها لمجالات بحرية كبرى بهذا البحر، سواء في المشرق أو في المغرب أو في الضفة الأوروبية أو شمال افريقيا⁶، حيث كان الساحل الافريقي الشمالي أقرب إلى الأستانة وكانت الامدادات من الدولة العثمانية ومصر ترسل إلى ميادين القتال بسرعة أكثر، كما كانت صورة التطورات في حوض المتوسط لدى المسؤولين العثمانيين أكثر وضوحا عن تلك التي كانت لديهم عن ميادين القتال في المياه الإسلامية الجنوبية.

وكانت قواعد العثمانيين في شمال افريقيا أكثر ثباتا من تلك التي كانت لديهم على السواحل العربية الممتدة من البصرة إلى اليمن⁷، وهي المجالات التي أسست فيها الدولة العثمانية قواعد بحرية بهدف الأعمال الحربية والصناعية خاصة صناعة السفن.

¹ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص323.

² - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج1، صص 17، 18.

³ Kemal Karpat with Robert Zens, op.cit, p15.

⁴ - خالد أرن، مرجع سابق، ص37.

⁵ Ogier Chislen De Busbecq ,op.cit,p23.

⁶ Haji Khalifeh, op.cit, p45.

⁷ - عبد العزيز عمرنوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص110.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وفي بداية القرن السادس عشر لم تكن البحرية العثمانية ذات شأن كبير، إلا أن إصرارها على مواجهة مع القوى الأوروبية المسيحية في البحر دفعها إلى بناء أسطول بحري قوي¹ مدعوم بفرقة برية (الانكشارية)²، والرياس³ الكبار وهو ما مكنها من القيام بعمليات بحرية كبيرة في المتوسط⁴.

وكان لا بد لاستراتيجية الدولة العثمانية من مواجهة إسبانيا فهي الأخرى سعت إلى تبني ضد العثمانيين، فمنذ تولي شارل الخامس حتى فليب الثاني الحكم قامت إسبانيا بكل المساعي للوقوف حائلا ضد الهيمنة العثمانية بالإيالات الغربية⁵، ومن أجل ذلك وفضلا عن الهجومات العسكرية التي قامت بها خلال القرن السادس عشر تبنت سلاحا آخر تمثل في

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص 316.

² - الانكشارية: بمعنى القوات الجديدة، مصدرها الحاج بكتاش ولي، ويقال أورخان هو أول (727 - 761 هـ) من اصطحاب الفرقة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن هذا الشيخ ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم اسما، وأنبكتاش وضع كمه فوق رأس أحد الواقفين في الصف الأول ثم قال للسلطان "إنّ القوات التي أنشأتها ستحمل اسم بني جري وستكون وجوههم بيضاء وضيئة و ستكون أذرعهم اليمنى قوية وسيوفهم بتارة وسهامهم حادة وسيوقفون في المعارك ولن يبرحوا ميادين القتال حتى وقد انعقدت لهم ألوية النصر" وتخليدا لبركة بكتاش كان الإنكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من اللباد الأبيض شبيهة بقلسوته تتدلى منها من الخلف قطعة من الصوف بوصفها رمزا لكم الشيخ الذي بارك به رقبة زميلهم وهي فيالق تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم ما بين السادسة والخامس عشر من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوروبا في وقت معين من السنة. أنظر: سهيل صابان، سبق ذكره، ص 41.

³ - الرياس: اللقب الذي أطلق على أمير البحر حتى القرن السابع عشر ثم استبدل به لقب قبطان وقد كان للطائفة كأى مؤسسة بحرية أخرى رتب وطريقة للترقية تدرج إلى رتبة الكابتن. وليم سبنسر الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006 ص 74.

⁴ - فرنان برودال، " صعود الإمبراطوريات وانهارها"، مجلة الاجتهاد، ترجمة مروان أبي سمرا، السنة 7، العدد 26، 27، بيروت، 1995، ص 237.

⁵ - الإيالات الغربية: وهي الجزائر، ليبيا (طرابلس الغرب)، تونس. أنظر: وليم سبنسر، مرجع سابق، ص 65.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الحرب النفسية، وهدفها تحويل اهتمام المورسكيين¹ عن الدولة العثمانية والتي كانوا ينظرون إليها على أنها القوة العسكرية الوحيدة القادرة على تقديم الدعم والعون لإنقاذهم من العبودية الإسبانية التي وقعوا فيها².

وبالنظر إلى أهمية الجهاد البحري³ من حيث هي أسلوب مكمل للحروب الكبرى في البحر المتوسط فقد تبنت الدولة العثمانية ذلك الأسلوب ضد أعدائها⁴، ناهيك عن أهميتها الاقتصادية⁵. والواقع أنّ الدولة العثمانية لم تكن لتقوى بحريا لو لا تبنيتها لأعمال الجهاد البحري في استراتيجيتها العسكرية والبحرية خاصة خلال فترة عروج وخير الدين بروس⁶.

¹ - المورسكيين : مصطلح تاريخي حديث يقصد به المهاجرون الأندلسيون إلى بلاد المغرب كما استعمل للإشارة على المسلمين الاسبان الذين كانوا تحت مختلف أنواع التعذيب أي محاكم التفتيش ما بين 1526 - 1499 والتحول إلى

المسيحية التي ينحدرون منها للبقاء في اسبانيا وكان الطرد النهائي لهم في 1609 أنظر: B.Lewis,CHPellatandJ.Schagt,Encyclopedia of Islam,op.cit,p242.

² - عبد الجليل التميمي، "الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسيين"، ط1، المجلة التاريخية المغربية، العدد 23-24 منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1989، ص 11.

³ - القرصنة: أطلقت عليه القوى المحلية تسمية الجهاد البحري ضد القوى الصليبية والاستعمارية أما لفظ قرصان الذي أدخله العرب في كلامهم وجمعه على قرصنة، واشتقوا منه القرصنة مصدرا واسما لم ينقلوه من اللفظ اللاتيني pirata الذي هو المغامر في عرض البحر يجوبها أيام السلم والنهب والصوصية والذي اشتقت منه بالفرنسية piraterie وبالانجليزية piracy، وانحصر معناها في لصوص البحر وانما عرفوا في أول الأمر اللفظ الفرنسي corsaire الذي كان يطلق في الأصل على كل سفينة مسلحة رخص لملاحيتها بأن يجوبوا البحار ويقاتلوا سفن الأعداء المغيرة على سواحلهم. أنظر: زكي مبارك، "الجهاد البحري في الغرب الإسلامي والمفهوم الغربي"، مجلة البحث العلمي، العدد 45، الرباط، 1998، ص 31.

⁴ - فرنان برودال، صعود الامبراطوريات وانهارها، مرجع سابق، ص 197.

⁵ F.Braudel,op.cit,T2,p190.

⁶ D.E.Pitcher,op.cit,p118.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وعلي علي¹ وصالح ريس الذين كانوا بمثابة خبراء في شؤون البحر والاستراتيجية البحرية².

لاشك أن المجالات العثمانية في البحر المتوسط كثيرة وشاسعة، فهي تتوزع على القارة الإفريقية والقارة الأوروبية بشكل يجعلها تحاصر البحر المتوسط من كل الجهات فالأراضي العثمانية في إفريقيا تحدها شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وجنوبا بالصحراء الكبرى وشرقا بالبحر الأحمر، وغربا بالمغرب الأقصى³، الذي ظل خارجا عن نفوذها رغم المحاولات العديدة والمتكررة للسيطرة عليه.

وقد لعبت إفريقيا دورا هاما في ذلك نتيجة موقعها المشرف على مضيق صقلية والفاصل بين الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط⁴، الذي فتح لها الأبواب للسيطرة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر⁵.

أما في شمال إفريقيا فقد سبقتها إسبانيا في الشمال الإفريقي حين استهل القرن السادس عشر، وشعر الإسبان أن الظروف سانحة لتطأ أقدامهم أرض المغرب، بعد أن

¹ - علي علي: من القيادات البحرية المتفردة، لا يقل كفاءة ولا مهارة عن الريس خير الدين وطورغوت باشا، تصر المراجع الأوروبية على أنه كان مسيحيا في بداية حياته ومن جنوب إيطاليا، بينما تقر المراجع التركية أنه عثماني إسلامي المولد والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه، اشترك مع طورغوت باشا في صد حملة الامبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس، ثم رقي إلى منصب بكلربك طرابلس ثم بكلربك الجزائر كما اشترك في معركة ليبانتو البحرية حيث كان قائدا للجنح الأيسر للأسطول العثماني، ورفقي بعدها قبودان باشا تقديرا لبطولته في المعركة، ظل يشغل هذا المنصب طيلة 15 عاما. أنظر: أحمد سالم، مرجع السابق، 157.

² - مصطفى عبد الله الغاشي، "البحر الأبيض المتوسط في الاستراتيجية العثمانية خلال القرن السادس عشر، العثمانيون والعالم المتوسطي"، منشورات كلية الآداب، ط1، الرباط، 2003، ص39.

³ - نفسه، ص39.

⁴ - ابراهيم جدلة، مرجع سابق، ص55.

⁵ - مصطفى عبد الله الغاشي، مرجع سابق، ص39.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

سقطت غرناطة سنة 1492م¹ احتلوا المرسى الكبير سنة 1505، ووهران سنة 1509م، وبجاية والبنين 1510م،² وأخذ البرتغال المدن الساحلية الجنوبية³، فلم يكتفوا بالأندلس وراحوا يواصلون الزحف إلى المغرب الأقصى أولا ثم الأوسط ثانيا، بدعوى محاربة القرصنة ولكن الهدف كان خنق ما تبقى من حركة إسلامية، وتحويل الحوض الغربي إلى بحيرة إسبانية برتغالية بموجب معاهدة توردلاس⁴ سنة 1492 وحددت أقسام سواحل المغرب الأقصى والأدنى بينهما⁵.

كما حظي الشمال الإفريقي في الاستراتيجية العثمانية اهتماما كبيرا، فالساحل منها ظل هو القاعدة الرئيسية للنفوذ العثماني، ففي ليبيا سيطر العثمانيون على طرابلس⁶، فقد كانت طرابلس الغرب⁷ إحدى موانئ إفريقيا الهامة، وكان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الإفريقية⁸، أما في مطلع القرن السادس عشر فقط كانت طرابلس

¹ - فرنان برودال، صعود الإمبراطوريات وانهارها، مرجع سابق، ص 237.

² H.D.De Grammont, op.cit, p15

³ - حيث استولى البرتغاليون على سبتة عام 1415 وآسفي عام 1510 وأزمور عام 1553م واحتل إسبانيا مليلة وطنجة عام 1471م وجعلوا تونس مستعمرة إسبانية تحت وصاية أمراء بني حفص. أنظر: جون.ب. وولف، مرجع

سابق الجزائر وأوربا 1500- 1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، ط5، الجزائر، 2009، ص 26

⁴ - توردلاس: تم توقيع معاهدة بين إسبانيا والبرتغال Tordeslos سنة 1495 التي أعطت حق الكشوفات غربا لإسبانيا وحق الكشوفات شرقا للبرتغال. أنظر: توفيق المدني، أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1572)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.ن، ص 33.

⁵ - مولاي بلحميسي، البحر والعرب في التاريخ والأدب، منشورات ANEP الجزائر 2005، صص 131، 137،

⁶ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 45.

⁷ - أوغور أونال، مرجع سابق، ص 7.

⁸ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص 130.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

منطقة استراتيجية خطيرة بالنسبة لحركة التجارة مع داخل إفريقيا، وهي المأوى الوحيد والمفضل للقوافل الصحراوية الوافدة من السودان، والحملة بالتوابل والذهب وتجارة العبيد.

كما تعد طرابلس الغرب على صعيد المواجهة البحرية، خطا ساحليا ذا أهمية قصوى لتأمين حرية التجارة والنقل في عرض البحر المتوسط، كما أن واجهتها القريبة من مالطا وإيطاليا وحتى الجزر الشرقية، قد أعطى لهذا الإشراف العسكري حيوية كبيرة¹، كما استطاع العثمانيون ضم تونس فقد تم سنة 1534 في عهد السلطان سليمان القانوني بعد الانتصار على الاسبان² الذين كانوا يسيطرون عليها³.

أما في الجزائر ففي وثائق مهمة دفترية⁴ بينت بوضوح كيف أن الدولة العثمانية قد قررت انتهاج سياسة تقضي بتقوية المقاومة ضد الهيمنة الاسبانية معتمدة في ذلك أساسا على إيالة الجزائر⁵، والتي كانت تعتبرها محورا استراتيجيا في هذه المقاومة ونتيجة ذلك سجل وصول العشرات من البعثات السرية والأوامر إلى إيالة الجزائر الذين شكلوا للمجاهدين قاعدة مثبتة⁶.

¹ - عبد الجليل التميمي، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية - المغربية في القرن 16م"، مرجع سابق، ص 74.

² - ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 42.

³ - حيث أن محاولات الاسبان لم تتوقف عن استرداد نفوذهم على تونس. أنظر: F.Braudel, op.cit, T2, p422.

⁴ - مهمة دفترية: التي سجلت فيها الأوامر السلطانية المهمة والموجهة الى كل بايلريبات الدولة العثمانية ابتداء من

النصف الثاني من القرن السادس عشر. ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق.

⁵ H.D.Grammont, Histoire d'Alger sous la domination Turque, op.cit, P30.

⁶ - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكين و الأندلسين"، مرجع سابق، ص 10.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

بالإضافة إلى مدينة شرشال¹ من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة وقد حصّنها عروج²، فأحسن تحصينها وأقام بها قلعة ذات شأن وأقام فيها مصنعا للعتاد الحربي ومؤنه، ومعملا لصناعة الأخشاب، تعتمد على غابات الونشريس وغيرها من الغابات الكثيفة³، ومن المدن المهمة ذات المواقع الاستراتيجية التي أدت دورا كبيرا في عملية الصراع الطويلة الدائرة بين الاسبان والعثمانيين وهران، تلمسان، مستغانم، بجاية ودلس⁴ وغيرها من المدن.

خلال المراحل الأولى من التوسع العثماني شمل المناطق الساحلية، تم توسعت وغدت تشمل جميع أراضي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب⁵، وتداخلت مجموعة من الأسباب في ذلك أهمها الموقع الاستراتيجي المطل على البحر المتوسط⁶، والمنافسة مع اسبانيا التي احتلت موانئ المدن الساحلية، وأقامت مراكز محصنة في أهم الموانئ على طول الساحل⁷.

¹ - شرشال : كانت مهجورة مدة ثلاثة قرون ، وقد أحيها وعمّرها بعد ذلك أهل غرناطة.أنظر: حسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص345.

² - عروج: كان في البداية بحارا مسترقا في احدى السفن التي قبض عليها فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس و بعد فديته أو هروبه جهزه هو وإخوته أمير مصري كقراصنة بحارة يغيرون على التجار المسيحيين ، وهكذا فان ولي نعمته الأول لم يكن هو السلطان العثماني بل أمير مصري ستقع أملاكه بعد ذلك بقليل في قبضة ذلك السلطان وجيوشه و في القرن 16م وصل عروج وإخوته إلى تونس ليبدأوا حرفتهم في غرب البحر الأبيض المتوسط ، لقد كانوا بحارة قراصنة ومجاهدين ضد المسيحية، وكان عروج أيضا يجارب حرب ثأر ضد الرجال الذين استرقوه في سفن فرسان القديس يوحنا، وقد رحب الحاكم الحفصي لتونس بهؤلاء المغامرين وسمح لهم باستعمال موانئه في مقابل سهم في الغنائم المؤخوذة من السفن المسيحية.أنظر: جون.ب.وولف، مرجع سابق، ص28.

³ - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 222.

⁴ - نيقولاوي إفانوف، مرجع سابق، ص120.

⁵ - يشكل الشمال الإفريقي ساحلا طويلا يبدأ من خليج السلوم وحتى مملكة فاس بطول 3900كلم، وهو ساحل تكثر فيه الخلجان، وغدت فيما بعد موانئ طبيعية لأوجاقات المغرب. أنظر: عزيز سامح التر، مرجع سابق، صص15، 16،

⁶ - فرنان برودال، البحر المتوسط ، مرجع سابق، ص12.

⁷ Haji Khalifeh,op.cit,p40.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

ويكاد الوقت الذي بدأ فيه الاسبان في انشاء المراكز بشمال إفريقيا هو نفسه الوقت الذي ظهر فيه عروج وإخوته الذين تمكنوا من تحرير الكثير من المدن الساحلية بمساعدة الدولة العثمانية¹، التي اتخذتها قواعد دفاعية عسكرية متقدمة.

لا شك أن الخيرات التي كانت تتوفر عليها دول شمال إفريقيا وتحكمها في أهم الطرق التجارية العالمية كانت محل أطماع العديد من المراقبين سواء الاسبان أو العثمانيين²، وفي الأخير إن التحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان له أثر كبير على المجال الجغرافي للعثمانيين، أهلها موقها الاستراتيجي لأن تقوم بدور مهم في توسيع رقعة السلطة العثمانية في غرب البحر المتوسط،³ التي تزامن ظهورها مع سقوط غرناطة 1492م⁴ وخروج المسلمين منها، وبذلك فقد أصبحت في البداية ملجأ للمهاجرين الأندلسيين، ثم حصنا منيعا لهم، وفي ضوء هذه التفاعلات الجغرافية والتاريخية من جهة، والسياسية والعسكرية من جهة أخرى شهدت الجزائر نموا سريعا وأصبحت عاصمة للإقليم العثماني الجديد⁵،

كما أدى إلى اتساع مجالات هذه الأخيرة في البحر المتوسط، فمدت جناحيها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبسطت نفوذها على ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان

¹ - جون ب. وولف، مرجع سابق، ص 27.

² - نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، ص 256.

³ Albert Devoulx, La marine de la regence d'Alger, revue Africaine, Bastide librairie, 13^{eme} années, n°77, Alger, 1869, p3.

⁴ Fray Diego De Haédo, topographie et histoire generale d'Alger, traduit de l'Espagnol par : M.M. Monnerau et A. Berbrugger, Valladolid, Alger 1870, p19.

⁵ - وقد سارع في ذلك النمو، مناخ الأمن الذي ساد بفضل جهود الأخوين عروج وخير الدين وحملات إغاثة اللاجئين وإستقدامهم التي نظماها تحت عين السلطان بالآستانة. أنظر: أحمد بن حمشوش، المدينة و السلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في العهد العثماني"، دار البشائر، دمشق، د.ت.ن، ص 231.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وجزر البحر المتوسط المهمة والكثيرة¹ كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من القوقاز شمالا حتى الصحراء الإفريقية جنوبا وحدود المغرب الأقصى غربا²

وأضحى الشمال الإفريقي، خاصة الساحل منه هو القاعدة الرئيسية للنفوذ العثماني كما تحول المغرب الاسلامي إلى قاعدة للجهاد البحري³، أو ما يسمى عند البعض القرصنة⁴.

أما على المستوى الأوروبي فقد تحقق المشروع العثماني بعد مناوشات وحروب مكنت السلطان سليمان القانوني من السيطرة على أوروبا الشرقية واليونان فاستعادت أوروبا ذكريات السطوة الأوروبية من جديد⁵ وجزر البحر المتوسط، مما أمكن الدولة العثمانية الإشراف على أهم البحار كبحر مرمرة، وبحر إيجه، والبحر الادرياتي والمضائق الحيوية ذات الأهمية الإستراتيجية⁶.

وبفضل يقظة سليمان القانوني وحرصه على بناء أسطول حربي لا يقهر في مواجهة أعداء الدولة العثمانية ورعاياها المسلمين في أملاكها الواسعة فإنه استطاع طول حكمه أن يجعل من الأسطول العثماني صاحب اليد العليا في البحر المتوسط⁷ وبحر إيجه وبحر مرمرة والبحر الأسود فضلا عن تأمين سواحل الجزيرة العربية من أي خطر أوروبي يهددها، وتحديدًا بالبحر الأبيض المتوسط الذي شهد حروبا ما بين التحالف المسيحي: اسبانيا،

¹F. Braudel,op.cit,T2,p136.

² - عثمان أباطة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994، صص 73، 79.

³ - نيقولاوي إيفانوف، مرجع سابق، ص 200.

⁴ - حسن أميلي، مرجع سابق، ص 17.

⁵J.V.Hammer-Purgstall,op.cit,V16,pp134-167 .

⁶R.De Lucinge,op.cit,p207.

⁷D.E.Pitcher,op.cit,p118 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

النمسا، البندقية¹، وجنوة²، من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى لم تتوقف عن سياسة التوسع الإقليمي على حساب مراكز القوى المتوسطة سواء العربية في الضفة الجنوبية، أو الأوروبية في الضفة الشمالية³

¹ - ومن النتائج التي عادت على المدن الإيطالية المشاركة في الصراع العثماني الإسباني تثبيت أقدامها في الحوض الغربي للمتوسط وتكوين مراكز تجارية محاذية لسواحل المغرب العربي واحتكار التجارة داخل اسبانيا ذاتها ويعود جذور الصراع والدخول في مواجهات حربية طويلة الأمد ضد العثمانيين ولا سيما بعد نجاحهم في مد نفوذهم إلى البوسنة عام 1463 وما تمخض عن ذلك من نتائج تمثلت في تحكم السلطان العثماني في المضائق الأمر الذي أقلق البندقية، وقد حملها ذلك على الإشتراك في التحالف المشترك بقيادة بابا روما بيوس الثاني ضد الدولة العثمانية، إلا أنّ الحلف سرعان ما انهار بفشل الحملة الصليبية عندما توفي بابا روما في العام التالي وهو في طريقه إلى القسطنطينية، ومن ثم تراجع دوق البندقية عن استكمال سير الحملة أنظر: يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، م2، ص154، 158.

² - جنوة: كان لها دور كبير في احتدام الصراع في البحر المتوسط بعد القضاء على مراكزها التجارية بالشرق الأدنى مما أثر سلبا على مكانتها التجارية بالإضافة إلى تمتعها بحضوة كبيرة ومكانة متميزة في الحوض الغربي للمتوسط منذ العصور الوسطى، حيث كانت تربطها مع بلاد المغرب معاهدات لكنهم اصدموها مع البرتغاليين، ونتيجة لذلك رأى الجنويون أنفسهم مضطرين إلى الإرتقاء في اسبانيا بقصد الحماية مما أتاح لهم الفرصة في ممارسة القرصنة فضلا عن استمرار اسبانيا في مخططها التوسعي الذي من خلاله رمت إلى بسط سيطرتها على بلاد المغرب بإعتبار أنّ ذلك يعد في نظرها امتدادا لحرب الاسترداد التي تبنتها اسبانيا منذ فترة طويلة ومن الراجح أنّ الجنويين انتهزوا الفرصة في مخططها التوسعي، وذلك بتقديم كل العون والمساعدة كي يضمّنوا لأنفسهم تحقيق المكاسب، ومن أمثلتها احتلال جيغل سنة 1513. أنظر: ابراهيم سعيود، مرجع سابق، صص145، 155.

³Kamal Karpat with Robert Zens, Ottoman border lands ,op.cit,p59

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المبحث الثاني: تثبيت النفوذ العثماني في الحوض الشرقي للمتوسط .

1- أهمية جزيرة رودس¹ في الاستراتيجية العثمانية :

تتخذ سياسة سليمان القانوني الخارجية، منذ الأشهر الأولى، اتجاهات مختلفة عن اتجاهات سياسية أبيه، فقد أخضع السلطان سليم الأول كل شيء للصراع المستميت ضد الصفويين²، وهو صراع سأم الجيش من مواصلته³، وقد رأى السلطان وصدرة الأعظم أن من الحكمة توجيه هذا الجيش ضد خصوم آخرين كانوا بالنسبة له خصوم طبيعيين أكثر، هم خصومه الأوروبيين ، وكان من اللائق على أية حال مراعاة الشاه، وسوف يجري إرسال مفاوض إلى تبريز سرا، وإذ يبدى الأمل في تطبيع العلاقات، فإنه ينجح خلال أكثر من سنة في ثني الشاه عن كل عمل غير مناسب ضد الأراضي العثمانية، محرزا في الوقت نفسه نجاحين باهرين على الساحة⁴، التي كان جده الأكبر محمد الفاتح⁵، قد اضطر إلى التخلي عنها، بعد أن أرسل أسطولا على عدة دفعات لفتح جزيرة رودس التي لم تسقط⁶ كذلك

¹ - رودس: دولة بحرية قوية يتصرف بها فرسان أخوية القديس إيوان يوحنا الأورشليمي، أسست هذه الأخوية منذ 1033م حين شيد التجار من أمالفا(إيطاليا الجنوبية) مشفى ورباط للمرضى والمقدسين المتجهين إلى القدس، في عام 1306 احتل أعضاؤه هذه الأخوية جزيرة رودس التي كانت آنذاك تتبع لأحد القراصنة الفينيزيين ولو أنها كانت تابعة اسميا للإمبراطورية البيزنطية منذ ذلك الحين صارت جزيرة رودس تحت سيطرة أخوية القديس إيوان وأضحت قاعدة بحرية قوية بيد الفرسان المسيحيين. إيرينا بيتروسيان، مرجع سابق، ص 141.

² - سيار الجميل، مرجع سابق، ص 80.

³ . R.B.Merriman,op.cit,p51.

⁴ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 217.

⁵ - والواقع أنّ محمد الثاني قد تخلّى عنها لأنّ الأحداث العسكرية و السياسية في أوروبا الشرقية وآسيا منعت السلطان الفاتح من التفرغ لمجابهة رودس، واقتصر الصدام بينه وبين فرسان الاسبتارية في السنين الأولى من حكمه على المناوشات البحرية والغارات البحرية المتبادلة على الشواطئ، لم يكن لها من أثر إلا أنّها حملت الفرسان على مضاعفة جهودهم في تحصين جزيرتهم وسد الثغر. أنظر: سالم الرشيد، مرجع سابق، صص 244، 245.

⁶ - يلماز أوزوتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، م 4، ص 719.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

خلال عهد السلطان سليم الأول¹، قد فكر في القضاء على هذا الجيب الصليبي ولم تغب خطورة الأوضاع القائمة في تلك الجزيرة عن أذهان الأستانة،² وأعد حملة بحرية كان قوامها مائة وخمسين سفينة، ولكن عاجلته المنية في الثاني والعشرين من سبتمبر 1520م قبل تنفيذ المشروع، فاحتضنه ابنه السلطان سليمان من بعده³.

ومع السنوات المتتالية أصبح حصار رودس وضمها يأخذ أكبر أهمية في السياسة الخارجية العثمانية⁴، فقرر السلطان سليمان القانوني السيطرة على المخفر الأمامي التابع للمسيحيين بصفة عامة وفرسان القديس يوحنا بصفة خاصة⁵.

فأهمية موقع الجزيرة جعلتها محل تطلعات وأنظار الساسة العثمانيين، فعلى الرغم من كثرة الجزر اليونانية المعروفة، إلا أنّ جزيرة رودس حصلت على الشهرة لما تتمتع به من موقع استراتيجي في منطقة جنوب بحر ايجه، ولما لها من تاريخ عريق ترك آثاره واضحة على رجال السياسة⁶ وعلى فرسان رودس الذين جعلوها أكثر تحصينا ومنعة⁷.

¹ - والحقيقة أنّ الجزيرة قد شغلت بال سلاطين الدولة العثمانية طويلا والذين لم يهملوا شأنها ولكن قوّة تحصيناتها ودفاعاتها وقفت حائلا أمام كل من يفكر منهم في فتحها وهكذا بدأت تحصينات الجزيرة تقوى سنة بعد سنة وعاما بعد حتى أصبحت حين تولى السلطان سليمان القانوني الحكم 1520م من أقوى المراكز الدفاعية.

أنظر: J.S.Shaw,op.cit,p88.

² Haji Khalifeh ,op.cit, p24.

³ - ابراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 85.

⁴Haji Khalifeh, op.cit ,p25.

⁵ - إيرينا بتروسيان، مرجع سابق، ص 141.

⁶ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 287.

⁷L.S.Stavrianos,op.cit,p73.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

ورغم صغر جزيرة رودس لكن خطرها كان عظيماً على مسار الدولة العثمانية، وقد كانت عقبة ساحلية¹ تعيق توطيد النفوذ العثماني في شرق البحر الأبيض المتوسط، وهي أكبر الجزر اليونانية في الجنوب الشرقي لبحر إيجه، إلا أن المسافة بين رودس والدولة العثمانية قريبة جداً فلا يفصل بينهما وبين الساحل العثماني سوى ممر مائي صغير، أما المسافة التي بينها وبين الأراضي اليونانية فهي شاسعة مترامية الأطراف، والناظر إليها لا يمكن أن يصدق بشيء إلا أنها جزء من الأراضي العثمانية، ويعد موقعها ذات أهمية استراتيجية خاصة حيث أنها نقطة التقاء على مسافة عشرة أميال² من الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وبهذا أصبحت أقرب الجزر إلى الدولة العثمانية³.

ووصفها سرهنك فقال: "قلعة رودس هي جزيرة في وسط البحر ما بين استانبول ومصر بناها الكفار⁴ حصناً منيعاً⁵"، ووصفها آخر: "هي جزيرة في وسط البحر ما بين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصناً حصيناً فكان في غاية الاستحكام مكيماً جعلوه لأخذ المسلمين"⁶.

¹ - رويبرمانتران، مرجع سابق، ص 218.

² - في منتصف المساحة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص وتبعد عن المياه الإقليمية 10 كلم. أنظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، سبق ذكره، ص 278.

³ - وهي عاصمة ذو ديكسانيا 12 جزيرة يونانية افتتحها جناة بن أبي أمية عنوة في خلافة معاوية أو هي تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المساحة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص وتبعد عن المياه الإقليمية التركية حوالي 10 كلم. أنظر: نفسه، ص 278.

⁴ - جزيرة رودس جزء من امبراطورية بيزنطا احتلت بأمر من القديس جون، من قبل فرسان يوحنا في فترة الحروب الصليبية الأولى. Melin Kunt and Christine Woodhead, op.cit, p41.

⁵ - اسماعيل سرهنك، مرجع السابق، ص 533.

⁶ - السيد أحمد بن زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، ج 2، استانبول، 1997، ص 151.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

2- حملة سليمان القانوني على جزيرة رودس 1522م وأبعادها:

أ/ الأهداف الاستراتيجية المنشودة من الفتح

وكان السلاطين قد تسامحوا مع هذا الحصن لوجود الفرنجة في شرقي البحر المتوسط متى كانت مصالح إمبراطوريتهم لا تفرض عليهم احتكار السيطرة على البحار المجاورة، وقد خلف فتح مصر¹ ظروفًا جديدة، فقد أصبحت المواصلات بين العاصمة، وموانئ المشرق والاسكندرية مشكلة عثمانية داخلية، وإذا تركنا جانب القرصنة بين المسلمين والمسيحيين في بحر إيجه، فإن العبقة الأخيرة في وجه أحلامه في ذلك العصر، وهي عقبة ساحلية فقط كانت تتمثل في جزيرة رودس² التي يسيطر عليها دائما فرسان القديس يوحنا.

وتضاف إلى تلك الأسباب الشكايات التي يمكن السلطان تبنيها اتجاه اتحاد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، كان كبار قادته قد تأمروا مع الإمبراطورية، الشاه الصفوي والسلاطين المماليك وأهم ما ميز سياسة السلطان سليمان الخارجية هو اهتمامه بتقوية أساطيل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، بعد أن أقلقته أخبار قراصنة جزيرة رودس الذين واصلوا الاعتداءات على السفن التجارية العثمانية العاملة ما بين مصر واسطنبول،³ كما اعتدوا على سفن الحجاج.⁴

وقد حدث في سنة 928هـ/1522 أن اغتصبوا بعض سفن المسلمين وأسروا ركابها، وقتلوا بعضهم، فتكدر السلطان سليمان وقرر فتح جزيرة رودس⁵، ومن الأهداف

¹ محمد بن أحمد محمد ابن اياس، مصدر سابق، ج 5، ص 178.

² نفسه، ص 217.

³ محمد أبي السرور البكري الصديقي، مرجع سابق، ص 14.

⁴ ابراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 88.

⁵ محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص 23.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الاستراتيجية هو جعل الجزيرة حلقة اتصال بين استانبول ومصر من جهة البحر، ومنع الإقامة مركز حصين للمسيحيين في وسط بلاده تلجأ إليه أساطيل الدول المعادية للدولة العثمانية زمن الحرب¹، ولما كان موقع الجزيرة يتزايد خطورة يوماً بعد يوم، وخاصة بعد فتح الديار المصرية، فقد صمم السلطان على فتحها وضمها إلى الدولة العثمانية مهما كلفه الأمر، نظراً لتحدي أهلها من جهة وللمحافظة على طريق التجارة والحج إلى الأراضي المقدسة من جهة أخرى².

ب/ أسباب الفتح العثماني لجزيرة رودس:

كانت جزيرة رودس جزيرة مشاكسة، إذ كانت حصناً منيعاً لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين العثمانيين إلى الحجاز، فضلاً عن أعمالهم العدوانية³ الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية بين الأستانة وموانئ الشام ومصر، فجزيرة رودس شوكة في جانب الدولة العثمانية⁴، وكان من الممكن أن تستغل أوروبا جزيرة رودس فتجعل منها قاعدة عسكرية أوروبية من الطراز الأول، تهاجم منها المراكز الإسلامية في الأناضول والشام ومصر.

إن الدور الذي قامت به جزيرة رودس كبير جداً، فهذه الجزيرة كانت مركزاً للحرب الصليبية⁵ ومقراً للمقاومة، ووكراً للقرصنة المسيحية في بحر إيجه تقطع الطريق البحري من الأستانة إلى مصر ومصدر تهديد مستمر للشام، وكان يجب أن تسقط هذه الجزيرة أو تتخلى

¹ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 204.

² J.S.Shaw, op.cit, p88 .

³ - يوسف آصاف، مرجع سابق، صص 74، 75.

⁴ J.S.Shaw, op.cit, p88.

⁵ - محمد رفعت بك، مرجع سابق، ص 142.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الإمبراطورية العثمانية أن تكون دولة بحرية¹، وبذلك شكلت مصدر قلق كبير لتجارة العثمانيين بين اسطنبول وموانئ البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط والبحر الأحمر²، فقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله: "...جزيرة رودس التي أذهلت بشرها العقول وحيرت الألباب،... كانت شرك الشرك، وحبالة الإفك، ومقر الظلم والعدوان ومستودع الخزي والبهتان، طالما سيقت إليها الزمر من المسلمين أسارى، مكبلين في الحديد فتراهم من الكرب سكارى، وما هم بسكارى، ويستعملون في الأعمال الشاقة، ويكلفون فوق الجهد والطاقة، ويقتسمون أموالهم كالأنفال، وهم ينظرون ولا يغنون بحال..."³.

تمثلت الأسباب الاستراتيجية لفتح رودس الشكايات التي تبناها السلطان العثماني سليمان القانوني طالبا⁴ من قاداته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات وافية عنها، وحجم الأسطول فيها وأنواع السفن التي يملكها أهل الجزيرة، فجاء الرد سريعا، والشرح وافيا عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر التابعة لحكومة البندقية، فهناك خمسة عشر سفينة تابعة لجزيرة رودس، وجزيرتان تابعتان للبندقية هما اسكاثوس واسكيروس، والأول منها عبارة عن قلعة حصينة ملاذا لسفن اللصوص وقطاع الطرق من هؤلاء القوم، وفي الجزيرتين أعداد كبيرة من اللصوص النصارى، الذين يهاجمون قرى المسلمين ويقطعون الطريق

¹ - خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، الفتح العثماني لجزيرة رودس 929هـ/1523م، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1977، ص 19.

² - خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، مرجع سابق، ص 17.

³ - عبد الرحيم عبد الرحمان العباسي، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق فيصل بن عبد الله الكندري، منشورات جامعة الكويت، الكويت، 1418هـ/1998م، صص 93، 94.

⁴ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 218.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

عليهم¹، فيأخذون النساء والأطفال أسارى ويقتلون الرجال وينهبون الأموال، والتعاون قائم ومعروف بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين، وأن أعمال القرصنة والسلب والنهب تنطلق معظمها من جزيرة رودس²، وما يتبعها من جزر، وقد سبق لأهل هذه الجزيرة أن قبضوا على زوجة و أبناء أحد طائفة السباهية العثمانيين وسجنوه لمدة عامين، وفي عام 927هـ خرجت ثلاثة سفن من قلعة رودس واستولت على سفينتين عثمانيتين³.

وتشهد هذه السنة عملية مركبة، برية وبحرية ضد جزيرة رودس⁴، ففي رجب 928هـ/1522م عاد السلطان إلى العاصمة وقدم الأوامر بتحضير أسطول⁵ ضخم وعدد كبير من البحارة⁶ تحت قيادة الوزير الثاني مصطفى باشا⁷، وبها 10 آلاف مقاتل، ثم خرج السلطان بجيش بري كبير برا قاصدا فرضه مرميس الواقعة بساحل الأناضول اتجاه جزيرة رودس للإمداد والوقوف على حركات الحملة، وفي اليوم الرابع من شهر شعبان (1522/928م)⁸ وصلت الأساطيل إلى الجزيرة المذكورة أمام المكان المسمى الآن جم باغجة⁹ في فرضة (او كوزيورونو) الواقعة غربي الجزيرة، ثم نقلت السفن السلطان سليمان

¹J. S. Shaw, op. cit, p88.

²Ibid, p88.

³ عبد الرحيم عبد الرحمان العباسي، مصدر سابق، صص 143، 144.

⁴ اتخذها عصابة من الفرسان عرفوا باسم فرسان القديس يوحنا قاعدة لأعمال القرصنة البحرية وكانوا شوكة في جنب الدولة مما جعل فتح هذه الجزيرة أمرا حيويا بالنسبة للدولة العثمانية من ناحية وللنشاط التجارة الإسلامية من ناحية أخرى. انظر: عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق، ص 61.

⁵ ابراهيم حلیم بك، مرجع سابق، ص 88.

⁶Haji Khalifeh, op. cit, p25 .

⁷ منجم باشي أحمد، مرجع سابق، ص 709.

⁸ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 205.

⁹Haji Khalifeh, op. cit, p24.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

مع الجيش إلى الجزيرة،¹ وبعد أن شاهد حصونها شرع في ترتيب أمر الحصار بنفسه وأصدر الأوامر بتشديد الحصار برا وبحرا ومداومة الهجوم واستعمال المدافع الجسيمة².

ويؤكد أحد المؤرخين العثمانيين هذه الحقائق بقوله: "إنّ جزيرة رودس وقلاعها العسكرية كانت مأوى ومقرا لطائفة الإفرنج، وقراصنة البحر منهم، وكانت قريبة من الممالك العثمانية، وكان أهلها لا يتخلون عن إيصال الضرر لأهل الإسلام، خصوصا التجار والحجاج والمسافرين الذين يذهبون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج عن طريق البحر، كذلك عندئذ يتعرض هؤلاء القوم من أهل رودس للمسافرين والحجاج من المسلمين ويطردون لهم الطرق، ويضربوهم بالمدافع، وينهبون أموالهم ويأخذونهم أسارى ويضربون عليهم السلاسل والأغلال ويدخلوهم في السجون، ويعرضونهم لأصناف الإهانة والأذى، فيقتلون الرجال ويستعبدون النساء والأطفال حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. لما عرض الأمر على العتبة السلطانية بكل تفاصيله ودقائق أخباره، أخذته الحمية الدينية وأعلن الحرب عليهم وتسخيرهم ورد شرورهم، لأنّ ذلك من مهمات الدين والدولة، فجهّز لهم أسطولا³"

من هنا يتبين لنا أنّ جزيرة رودس كانت مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين اسطنبول وموانئ البحر⁴ المتوسط وغيرها كما كانت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة

¹ - هارولد لامب، مرجع سابق، ص 72.

² - محمود السيد الدغيم، مرجع سابق، ص 24.

³ - همايونيا: كلمة تعظيم خاصة لسلطين الدولة العثمانية فكلمة هما بالفارسية وأما باللغة التركية تعني طائرا أسطوريا ذا حظ وقدرة وقد اتخذها السلطين الغز الأتراك رمزا لهم وانتقل منهم إلى السلطين العثمانيين كان يستخدم مضافا للمتعلقات الخاصة بالسلطين فيقال الذات همايوني، الطغراء همايوني، الجيش همايوني، سهيل صبان مرجع سابق، ص 226.

⁴ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص 218.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط كالإسكندرية¹ والبحر الأحمر، ومصدر خطر عظيم للحجاج العثمانيين² الذين يخرجون من عاصمة الدولة العثمانية -اسطنبول- إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر المتوسط وموانئه، ومن ثم عن البحر الأحمر وموانئه، هنا كان قرار السلطان سليمان القانوني بتجهيز قوة بحرية قوية³.

واستهل السلطان سليمان الأول مشروعه بإرسال رسالة إلى رئيس جماعة القديس يوحنا يدعوها فيها لتسليم قلعة الجزيرة⁴، متعهدا له باحترام الحرية الدينية للفرسان والمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم وأموالهم⁵، ثم بدأ التحرك ولما انتشر خبر التجهيزات المذكورة وما عزم عليه السلطان تخوف فرسان القديس يوحنا⁶.

فأسرع رئيسهم وأرسل سفراء من قبله إلى البابا بأنه مستعد لدفع الجزية السنوية للدولة العثمانية قاصدا بذلك تحويل السلطة عن أمره حتى يتيسر لأوروبا امداده، لأن السلطان طلب منه إخلاء الجزيرة وأن يأخذ معه كافة أمواله وكل من يريد الهجرة⁷، وعند رفضه أقلعت الأساطيل تحمل الجنود ومدافع الحصار الضخمة⁸، وكانت آنذاك مركبة من 300 سفينة حربية و400 سفينة نقلية تحت قيادة القبودان⁹ بيلان و10 آلاف مقاتل تحت

¹ الاسكندرية: تقع على الساحل الشمالي لمصر تربط البحر الأحمر والمحيط الهندي. Haji Khalifeh, op.cit, p5.

² ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، مرجع سابق، ص164.

³ خلف بن دبلان الوديناني، مرجع سابق، صص62، 105.

⁴ MelinKunt and Christine Woodlod, op.cit, P42.

⁵ S. laine-Poole, op.cit, p170.

³ Akif Ardagru, op.cit, p31.

⁷ هارولد لامب، مرجع سابق، ص73.

⁸ ايرين بيتروسيان، مرجع سابق، ص141.

⁹ القبودان: أي أميرالالغة من أميرالالبحري اللغة العربية أما إصطلاحا فقد أطلقت على قائد الأسطول الحربي أو على قائد القوى البحرية عند العثمانيين أنظر حسان حلاق و عباس صباغ، المعجم في المصطلحات العثمانية، مرجع سابق، ص27.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

قيادة الوزير الثاني مصطفى باشا¹، وبدأت مراوغة الجيش حيث أخذت السفن أمام قلعتها الحصينة ذهابا وإيابا فأطلق عليها المحافظون قنابل كثيرة، ثم رتب الحصار حول مدينة رودس. وبينما كان مصطفى باشا يحاصر المدينة وصل السلطان سليمان القانوني برا مع الجيش إلى الجزيرة، وبعد أن وقف على حصونها شرع في ترتيب أمر الحصار بنفسه ولما رأى متانة القلاع التي شيدها الفرسان وما أظهره من شجاعة وإقدام في الدفاع أصدر الأوامر المهمة بتشديد الحصار برا وبحرا ومداومة الهجوم، واستعمال المدافع الجسيمة وغير ذلك من الترتيبات، ومع هذا فقد استمر الحصار مدة سبعة أشهر متوالية².

وقد أدرك الفرسان أن التضيق عليهم وتخریب قلاعهم أضر بهم، وعلموا أن السلطان لا يرجع عن منازلهم إلا بالاستيلاء على المدينة، سيما وأنه القائم بنفسه على قيادة جيوشه وأنه ليس بإمكان أوروبا إمدادهم بادرؤا بالخضوع³، وطلبوا بتسليم المدينة للسلطان فعندئذ أصدرت الأوامر للأساطيل والجيوش بالكف عن الحرب وأرسل إليهم زغري باشا رئيسا لعقد شروط التسليم⁴، وفي تلك الأثناء وصلت سفن من أوروبا لمساعدة الفرسان، فلما رأوها ظنوا أنهم صار بإمكانهم صد القوات العثمانية فعادوا للدفاع والمقاومة⁵.

وأمر السلطان سليمان بزيادة التضيق والإكثار من الهجوم عليهم فلم ينجحوا وعادوا وطلبوا الأمان من السلطان وقدم آدم بنفسه إلى خيمة السلطان لعقد شروط التسليم التي كان من ضمنها التصريح لكافة أمراء الفرسان ومن تبعهم بمبارحة الجزيرة،⁶ وأن

¹ - منجم باشا، مرجع سابق، ص 709.

² Eric Brodman, The siege of Rhodes 1480-1522, Jhon Marray, London, 1969, p148.

³ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 534.

⁴ - نفسه، ص 534.

⁵ Haji Khalifeh, op.cit, p24 .

⁶ F. Braudel, op.cit, T1, p105.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

يأخذوا أمتعتهم وأسلحتهم الخصوصية فقط¹، ولما تم عقد الشروط استولى السلطان على قلاع المدينة المذكورة يوم ودخلها جنوده،² أما فرسان القديس يوحنا فإنهم ذهبوا إلى جزيرة مالطا³، ومنح السلطان الأمان للأهالي وصرح باحترام أعمالهم وإجراء رسوم دينهم بكل حرية، واتفق فرسان القديس يوحنا التوجه إلى جزيرة مالطة⁴.

في حين كان الخلاف والشقاق قائمين بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وبين شارل الخامس إمبراطور النمسا،⁵ وكانت أوروبا بسبب ذلك وصلت إلى درجة كبيرة من الانقسام، فلما وصلوا أعطاهم شارل جزيرة مالطة واشترط عليهم أن يداوموا قتال المسلمين⁶ وبعد أن أتم السلطان سليمان القانوني فتح رودس أرسل فرقة من الدونما تحت قيادة قرة محمود رئيس لفتح الجزر التابعة لرودس⁷، ففتحت جزيرة هرقة وانجيرلي⁸ القريبتين من رودس، ولما وصلت تلك الفرقة إلى جزيرة تحتالوا واستانكوي سلمتا للعثمانيين

¹ F. Braudel, op. cit, T1, p108.

² حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 289.

³ مالطة: جزيرة تقع جنوب إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط وتتمتع بأهمية بحرية كبيرة لموقها الاستراتيجي، وقد تنازعتها الملوك والأمم على مر التاريخ، وقد استقر بها فرسان القديس يوحنا حتى عام 1798م، ثم احتلها نابليون بونابرت عند مجيئه إلى مصر، وفي سنة 1800م احتلها الانجليز ليسودوا بها ومن خلالها على البحر المتوسط، وقد آيد مؤتمر فيينا سنة 1815م احتلالهم لها. أنظر: محمد رفعت، مرجع سابق، ص 128.

⁴ E. Charriere, op. cit, T1, pp92-93 .

⁸ Gille Vein stein, Les preparations de la campagne naval de 1552 FrancoTurque a travers les orders du divan Ottoman, revue de l'occident Musulman et de la Mediterranée ,n°39, Paris, 1985, p 35.

⁶ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 206.

⁷ Haji Khalifeh, op. cit, p24 .

⁸ يلماز أوزوتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، م 4، ص 710.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

دون قتال، وكذا فعلت قلعة يدروم المقابلة للاستانكوي، وعاد السلطان العثماني إلى دار السلطنة¹.

2- نتائج الفتح العثماني لجزيرة رودس وتداعياته على السياسة الأوروبية:

أسفرت النتائج على حملة رودس بعد استسلامها، لكن الاستسلام كان بشروط مشرفة² بعد صراع طويل قادته طائفة فرسان القديس يوحنا وبسالة كبيرة ومن أهم هذه الشروط القائد الأكبر ورجاله يمكنهم الرحيل إلى أوروبا،³ وفيما عدا قبرص التي تدفع البندقية الجزية عنها، أصبح شرقي البحر المتوسط بحيرة عثمانية آمنة⁴، وفي مكان أبعد من ذلك منذ سنة كانت قوات السلطان سليمان القانوني قد استولت على سفن القراصنة⁵، وهكذا تخلص سليمان من هؤلاء القراصنة الذين كان عملهم أسر العديد من السفن التي كانت تجلب الخنطة والذهب من الولايات العربية الجديدة، وتنقل الحجاج إلى الأماكن المقدسة الإسلامية⁶.

وسارع السلطان العثماني سليمان القانوني من مركز قيادته في قلعة رودس بنقل أخبار هذا الفتح الاستراتيجي إلى قاضي بورصة، مؤكدا له حرصه الشديد والمستمر على نصرته

¹ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص355.

² - ولكن في نفس الوقت لم يسمح بالمغادرة بشرف الحرب إلا أن قواته كانت غير قادرة حقا على تحقيق إنتصار قاهر، وقد فهم الأتراك أن أحد شروط السلام موافقة الفرسان على عدم مهاجمة التجارة العثمانية، ولكن عندما وُظّنهم شارل على جزيرة مالطا سنة 1529م وعلى ساحل طرابلس استأنفت سفن الذين كما كانوا يقومون بمهاجمتها للسفن التركية ونزلت على الأراض التركية لأخذ الأرقاء. جون.ب. وولف، مرجع سابق، ص78.

³ R.B. Merriman, op. cit, p72 .

⁴ J.S. Show, op. cit, p88 .

⁵ - روبر مانتران، مرجع سابق، ص217.

⁶ - سعيد البرجاوي، مرجع سابق، ص105.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الدين الإسلامي، ورفع راية الإسلام وقمع وقلع آثار المسيحيين، وفي مقدمتهم أهالي رودس الذين يقطعون طريق المسافرين بالبحر،¹ وشرح السلطان في رسالته تلك مراحل الاستعداد للمعركة وبدايتها وأسماء القادة الذين شاركوا فيها ومهامهم، وما قام به السلطان نفسه في هذه المعركة الحاسمة.²

كما أكد السلطان العثماني سليمان القانوني في رسالته هذه نجاح الدولة العثمانية وجيشها المظفر في تأمين الطريق البحري للحجاج القادمين من عاصمة الدولة العثمانية وأطرافها إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث قال: "واضحت معابر بيت الله الحرام آمنة من عبث الكفرة الفجرة"، وهو بذلك يقصد أهالي رودس والجزر المماثلة لها في البحر المتوسط، التي ينطلق منها اللصوص وقطاع الطرق لمهاجمة قوافل الحجيج البحرية التي تجوب مياه البحر المتوسط، في طريقها إلى موانئ مصر، الشام سواحل البحر الأحمر.

وفي ختام هذه الرسالة السلطانية التي تعطي الدليل الواضح على مهمة هذه الحملة البحرية وأهداف هذا الفتح الإسلامي الكبير يشير السلطان سليمان القانوني إلى أنّ كافة الجزر وقلاعها قد أضيفت إلى أملاك الدولة العثمانية، وأنّ العفو والأمان قد منح لأهل هذه الجزر وتلك القلاع، على أرواحهم وأموالهم وأولادهم وعيالهم، وأنّ كافة أسرى المسلمين في هذه الجزر قد أطلق سراحهم، وصاروا أحراراً بعد أن فك الله قيدهم، وتحقق النصر لدولتهم الإسلامية والمرجو إظهار الفرح والمسرات والدعاء لدوام الدولة والسلطنة"³.

¹ - إبراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص 88.

² - سعيد البرجاوي، مرجع سابق، ص 106.

³ - عايض بن حزام الروقي، مرجع سابق، ص 547.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

ومما يذكر أن السلطان سليمان القانوني وجد في جزيرة رودس الأمير مراد لاجئا سياسيا لدى الفرسان، فأمر بالقبض عليه¹، وهو ابن الأمير جم، الذي خاض صراعا ضد أخيه السلطان بايزيد الثاني حول وراثة الحكم والتجأ إلى أعداء الدولة العثمانية. كما اكتسب العثمانيون بفتح رودس أول قاعدة بحرية لهم في البحر الأبيض المتوسط، داعمة لقوة بحريتها في الحوض الشرقي².

بعد عودة السلطان سليمان من جزيرة رودس لاستانبول بدأت الوفود من سفراء الدول الأجنبية تفد على السلطان³، غايتهم التقرب منه وتهنئته بالنصر، وكان من بين هؤلاء سفير روسيا وسفير البندقية⁴ ويدل هذا أن فتح جزيرة رودس من قبل العثمانيين في عهد سليمان القانوني⁵ التي كانت قلعة للمسيحية تعود جذورها إلى الحروب الصليبية⁶ وقع أليم في أوروبا الغربية لدى البابا وملوكها المسيحيين⁷، إذ انتابهم الشعور في ذلك الوقت بأهمية الخطر الذي أصبح يهددهم، فتوالت عقد المؤتمرات في مدينة روما للبحث والاتفاق على الطريقة المثلى لوضع حد للخطر العثماني والتصدي له، حتى أن الإمبراطور شارل الخامس بعث بتاريخ 16 نيسان 1533 إلى سفيره في إنجلترا برسالة جاء فيها: "نبعث اليك بكتاب اعتماد خاص مرسل الى هنري وولزي⁸ ترفعه إليهما اولاً..... وعليك أن توضح

¹E. Brocdman, op. cit, p154.

²J. V. Hammer-Purgstall, op. cit, T5, p42.

³Haji Khalifeh, op. cit, p26.

⁴ - فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 206.

⁵ - يلماز أوزوتونا، موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية، مرجع سابق، م 2، ص 719.

⁶ - هربرت فيشر، مرجع سابق، ص 90.

⁷E. Brocdman, op. cit, p155.

⁸ - هنري وولزي: ((1509 - 1547م) اعتلى العرش بعد وفاة والده 1509 ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا بينا حيث قام بأعمال خارجية ميزته عن أبيه وكان المحرك الأساسي لسياسته توماس ولزاي، وقد خاض عدة

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

للملك وللكردينال مبلغ الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي والذي نشأ عن سقوط جزيرة رودس¹ بيد العثمانيين، ونكاد نجزم أنّ العثمانيين سيقومون بمهاجمة العالم المسيحي هذه السنة وستكون أرض المعركة إما في إيطاليا أو في هنغاريا أو البلدين معا وفي الوقت ذاته

ورجح الأوروبيين أنّ الهجوم الأول سيكون موجها نحو إيطاليا، وسيقضي على نابولي وصقلية وبالتالي سيهاجمون ممتلكات الكنيسة وإمارات الحكام المسيحيين ذلك من شأنه أن يعرض كرامة شارل الخامس بصفته إمبراطورا وحاميا للكنيسة²، إلى الإهانة كما أنه يعرض كرامة البابوية كما جاء في الرسالة "إن تغاضينا فانه سيكون وصمة عار تلحق بنا الى الابد من جهتنا فإننا نتردد كثيرا في امر ايقاف الحرب التي اعددنا لها ضد فرنسا ولكن الآن وبالنظر الى الضرورة القصوى للوقوف بوجه الاتراك وبالنظر الى الخطر الداهم الذي يتعرض له العالم المسيحي، ذلك الخطر الذي نشعر بأن مسؤوليته تقع على عاتقنا فإننا سنسأل الفرنسيين اذ كانوا يرون رأينا"³.

فتخوف كبير ساد أوروبا⁴ وتحرك ديبلوماسي كبير في استانبول ومن أمثلة ذلك طلب ميمو سفير البندقية مواجهة السلطان لتنهته وعبر عن هذا الموقف هارولد لامب

=حروب ضد فرنسا، كما ناصر هنري الثامن شارل الخامس انطلاقا من مبدأ المحافظة على التوازن الدولي في أوروبا.أنظر: عبد الحميد البطريق و عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص186.

¹ - كما صرح شارل أنه لم يتم فقدان شئ في العالم بطريقة أحسن من رودس فحتى ذلك الحين كان هناك على الأقل ادعاء بأن الأوروبيين يتمكنون من الاتحاد بحرب صليبية عند الضرورة، وكان هناك شعور بأنه بالرغم من الخلافات الداخلية، فإنّ أوروبا المسيحية تؤلف كتلة من نوع ما وبعد أن تركت رودس تستسلم وأرسل الفرسان الجرحى بالسفن بعناية السلطان، أصبحت صورة الوحدة طيف من الماضي مثل ذكريات قياصرة روما وشارلمان.أنظر: هارولد لامب، مرجع سابق، ص76.

²E.Brocdman,op.cit,p155.

³ - سعيد البرجاوي، مرجع سابق، ص106.

⁴ - نفسه، ص106.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

¹ بقوله: "..... وشعر سليمان بالاحتقار لميمو الذي كان يتشدد بالمديح للنصر التركي -فقد كان ميمو يكب بطلاقة وتذلل وعجب سليمان القانوني لسماع الأكاذيب وهي تصاغ بهذا الحذق -كما كان ابراهيم يترجمها دون انفعال -وقد حرك كبرياؤه الكامن في قرارة نفسه مرأى دولة أوروبية كانت قوية يوما ما يؤدي فروض الخضوع لمنجزاته ، ولكنه كان يشعر بنوع من الكره لمظهر ميمو." ²

كما هاجم العثمانيين فعلا العالم المسيحي وذلك بإصدار السلطان أمرا لولي الديار المصرية سليمان باشا الخادم بتجهيز أسطول³ كافي بدار صناعة السويس للمحافظة على سواحل البحر الأحمر من تسلط الأعداء، وتأمين طريق الهند، وكان أن نفذ الوالي المذكور الأمر وأرسل السلطان لمساعدته من الأستانة سليمان رئيس⁴ سنة 944هـ / 1537م، وأصبح الأسطول العثماني سيد البحر الأحمر، بالإضافة إلى شرق البحر الأبيض المتوسط وبحر ايجه وبحر مرمرة والبحر الأسود⁵.

ومن نتائج فتح جزيرة رودس التي كانت تمثل مفتاح شرق البحر المتوسط من أيدي الفرسان القديس يوحنا⁶، ضمن السلطان سليمان القانوني الحصول على قاعدة يستطيع أن يوجه عملياته مباشرة ضد شارل الخامس، وحتى يكون الهجوم أكثر دقة أعطى السلطان الأوامر لخير الدين بربروس لمناوشة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وباسم الدولة العثمانية

¹ - وبعد عودة السلطان سليمان إلى اسطنبول وفد إليه سفراء من قبل الروس والبندقية لتتهنته بالنصر وأرسل إليه حاكم الصفويين سفيرا لهذا الغرض. محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 200.

² - هارولد لامب، مرجع سابق، ص 78.

³ - مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص 134.

⁴ - ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 74.

⁵ - محمد السيد الدغيم، مرجع سابق، ص 24.

⁶ - حسن ابراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص 227.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وجه خير الدين بربروس نشاطه غرب المتوسط حيث كان القائد لقوة جديدة¹، وبالتالي صعود الإمبراطوريات في البحر الداخلي العثمانيين في الشرق والهابسبورغ في الغرب². وقد زاد فتح رودس من سيطرة الأسطول العثماني على سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر، كما استعان السلطان من جزيرة رودس في تطهير بحر إيجه من الجزر والمحطات البحرية، التي كان يتخذها البنادقة وغيرهم جيوبا عسكرية لهم ضد الدولة العثمانية³، وكان ترك الفرسان في رودس يواجهون مصيرهم أمام العثمانيين إعلانا مدويا للغرب بأن الأسطول العثماني قد غدا صاحب السيادة في بحر إيجه، وتحولت جزيرة رودس من دار حرب إلى دار سلام بهذا الفتح⁴.

¹ - ادريس الناصر رائسي، مرجع سابق، ص 69.

²Fernand Braudel, op,cit,T2 ,p9.

³ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 888.

⁴ - خلف بن دبلان خضر الوذيني، مرجع سابق، ص 22.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المبحث الثالث: الصراع العثماني - الاسباني في البحر المتوسط

1 - البعد الديني للصراع العثماني - الاسباني في البحر الأبيض المتوسط

شهد حوض البحر المتوسط مع البحر الأحمر والمحيط الهندي ساحة جديدة خلال القرن السادس عشر للصراع العنيف، والممتد بين الإسلام والمسيحية وهو الصراع الذي انتقل إلى البحار والمحيطات منذ الكشوفات الجغرافية وانتقلت أعباء هذه الجولة ذات الطبيعة المتجددة على العثمانيين منذ ، بصفة خاصة وذلك في مواجهة الاسبان في المتوسط والبرتغال في شواطئ المتوسط والبحر الأحمر.¹

كان البحر المتوسط هو الساحة الثانية بعد أوروبا التي انعكست عليها ما كان للتوازنات الأوروبية بين الهابسبورغ و البوربون² من آثار على العلاقات العثمانية الأوروبية، فلقد شهد هذا النسق الفرعي صداما قويا ومباشرا بين العثمانيين والاسبان، وكانت أدواته الأساسية القوة البحرية³ وذلك في نفس الوقت الذي عجزت فيه الممالك الأوروبية بقيادة شارل الخامس عن توجيه ضربة فاعلة لجيوش السلطان سليمان على أراضي أوروبا⁴.

وكان أهم أبعاد الصراع المشتعل في القرن السادس عشر الفتوحات العثمانية للقواعد المسيحية في حوض المتوسط الشرقي رودس⁵ مالطا،⁶ استمرار تهديد اسبانيا والبرتغال

¹F. Braudel,op.cit,T2,p354

²E.Clout,op.cit,p170 .

³Paul Coles,op.cit,p133.

⁴Maribel Fierro,op.cit,p337

⁵ L.S.Stavrianos,op.cit,p73

⁶Sir Valentine Chirol and Lord Eversley,op.cit.p127.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

لشمال إفريقيا وامتداد النفوذ العثماني إليه استكمالا لضم الدول العربية، وأخيرا استمرار تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس¹ ومحاولة النصر العثمانية².

لاشك أن الصراع على إقامة القواعد في المناطق الاستراتيجية على طول ساحل شمال إفريقيا وحرص الأسبان على إخضاع سواحل شمال إفريقيا لتتم لهم السيادة على الحوض الغربي للمتوسط،³ ومنافسة الأساطيل العثمانية التي صارت لها السيادة في حوضه الشرقي، كما شهدت بعدها سواحل غرب المتوسط صراعا مسيحيا إسلاميا اتسم بطابع جديد حيث انتقلت المواجهة فيه من البر إلى البحر⁴، ومن الصعب فصل الدين عن السياسة في القرن السادس عشر، إذ أن الدين كان صبغة دائمة لكل الفعاليات والتحركات السياسية، والاقتصادية وحتى مظاهر الحياة اليومية كانت مشبعة بالدين⁵.

ويندرج الصراع في المتوسط بين القوة العثمانية والقوى الغربية المختلفة في إطار صراع حضاري بين الإسلام والمسيحية، فهو إذا مجرد حلقة ضمن سلسلة طويلة عرفت تاريخيا بالحروب الصليبية، أنتجت تجاذبات قوية على المستويين العسكري والسياسي وحتى الاقتصادي، وأدت إلى تغيير واضح في الخريطة السياسية على سواحل البحر المتوسط وفي غرب أوروبا وجنوبها⁶.

¹ - عبد الحكيم الذنون، آفاق غرناطة، دار المعرفة، ط2، دمشق، 1408هـ/1988م، ص52.

² - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص34.

³ Ann Williams, op.cit, p44.

⁴ - إدريس الناصري رائي، مرجع سابق، ص66.

⁵ - عبد الجليل التميمي، "الخليفة الدينية للصراع الأسباني العثماني على الأيالات المغربية في القرن 16"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10/11، زغوان، 1978م، ص8.

⁶ - كمال صحراوي، "الصراع الإسلامي المسيحي ومؤثراته في البحر المتوسط خلال القرن 16م"، مجلة الحضارة الإسلامية، منشورات كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، العددان 20/21، الجزائر، 1435هـ/2014م، ص24.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

تمكنت إسبانيا من كسب المعركة العسكرية والسياسية بداية من سقوط غرناطة عام 1492¹، فبدأت في شن حملاتها على السواحل الشمالية لإفريقيا²، مدفوعة في ذلك بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام،³ وتنفيذا لوصية الملكة إيزابيلا الداعية لمواصلة الحرب ضد الكفار في شمال إفريقيا⁴. فالتعصب الديني والرغبة الجارحة في نشر المسيحية وكذلك الرغبة في زحزحة حدود الإسلام دفع الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر إلى التدخل في البلاد الإسلامية الواقعة شمال إفريقيا⁵.

ورغم الاتفاقيات والعهود إلا أن إسبانيا الكاثوليكية لم ترى بدا من مطاردة المسلمين من بلدهم، تحت ضغط الكنيسة، كما استخدم ملوك إسبانيا كل الآليات لإزالة الإسلام إلى الأبد من تفتيش⁷ وقمع وقتل واستفزاز وشتى أنواع لإهانات، وبالتالي لم يكن الخيار متاحا أمامهم إما الارتداد أو الإجماع⁸، وعليه فالصراع الذي شهده الغرب الإسلامي طيلة القرن السادس عشر ميلادي يعود في الأصل إلى فترة حروب الاسترداد التي قادتها الدول

¹Paul coles,op.cit,p82.

²F. Braudel,op.cit,T2,p20.

³ التي زادت حداثتها بعد الفتح العثماني للقسنطينية 1453م.أنظر: A.Charles, « Catholic and Sultans », *revue Française histoire d'outre mer*, T72, n° 268, 3^e trimstre, 1985,p367.

⁴ عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية، مرجع سابق، ص 74.

⁵F.Braudel , « les espagnoles et L' Afrique du Nords de 1492à1577 »,in *revue Africaine*, T69, Alger,1928, p,198.

⁶ - من بين هؤلاء الملوك فرديناند Ferdinand d' Aragon 1516-1479 الذي تعهد باحترام كل حقوق المنهزمين والاتفاقيات التي اشترطت احترام الدين الإسلامي وعاداتهم وتقاليدهم لكن لم يلتزم فرديناند بكل تلك العهود، حيث منع على النساء ارتداء الحجاب وعلى الرجال إطلاق اللحى وأجبرهم على أكل لحم الخنزير وجلب الأطفال إلى الكنيسة وحرق القرآن على رؤوس الأشهاد، ومنع صيام رمضان، والمساجد حوّلت إلى كنائس وتثبيت نواقيس على المآذن. أنظر: Moulay Belhmissi,op.cit,p131.

⁷ - ومهمة محاكم التفتيش مراقبة المسلمين، فكلما اكتشف أحد منهم مازال على إسلامه حكم عليه بالحرق حيا. أنظر علي مظهر، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، د.م، د.ت، ن، ص 15.

⁸Moulay Belhmissi,op.cit,p131.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المسيحية¹ ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس، من أجل استرجاع الأراضي المسيحية من يد المسلمين.

والجدير بالذكر أن الأمم المسيحية تحركها ضد المسلمين ردا على احتلالهم للأندلس الذي استمر ما يقرب 800 سنة²، وعلى أية حال فإنّ هذه الأوضاع وغيرها عكست بصورة واضحة مدى التفوق الذي كانت تتمتع به أوروبا عموما واسبانيا بصفة خاصة، والذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باتحاد مملكتي أراغون وقشتالة واستيلائهم على غرناطة سنة 898/1492هـ³ آخر معاقل المسلمين في الأندلس⁴، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الاسبان لمواصلة هجماتهم على سواحل المغرب الإسلامي من المحيط إلى طرابلس الغرب، يدفعهم في ذلك حقد ديني موروث ورغبة جامحة في التوسع وتنصير هذه المناطق⁵.

ويظهر ذلك جليا في تصريح الراهب خمينيس أسقف طليطلة أنّه أول من فكّر في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة⁶، لم يكن من هم للإسبان سوى نقل الحرب إلى إفريقيا⁷ بعد أن كانت البلاد الاسبانية مسرحا لهذه الحرب طيلة قرون، وإرغام المسلمين من أهل الأندلس على اعتناق المسيحية بواسطة السلاح⁸.

¹Juan Sanchez Montes, « Franceses, Protestantes, Turcos, los Espanoles ante la politica internacional », *Bultein Hispanique*, T54, n°2, Espagne, 1952, p209.

² - زهراء النظام مرجع سابق، ص 57.

³ - أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص 3.

⁴ - علي حسين الشطاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة 2001، ص 97.

⁵ - إبراهيم سعيود، مرجع سابق، ص 147.

⁶ - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 82.

⁷ Fray Diego De Haedo, op. cit, p19 .

⁸ - أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1988، ص 199

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

هذه الوضعية والنزعة الدينية اقترنت مع وصول شارل الخامس¹ إلى الحكم في اسبانيا، الذي سيتخذ معه الصراع المسيحي الإسلامي بعدا أكبر في غرب المتوسط²، وهو الذي تلقى تعليما وتنشأة مطبوعين بطابع الولاء الديني، هذه التنشأة هي التي بلورت سياسته التي كان محورها الأساسي وحدة العالم المسيحي، وهذا ما جعله يعتبر الإسلام والمروق البروتستانتي يهددان المسيحية برمتها، وأن واجبه يتمثل في انقاذ المسيحية ودعوته الأمراء الأوروبيين للاتحاد في صف واحد³.

سيطرت فكرة محاربة المسلمين في الأندلس وملاحقتهم واجتثاث الإسلام من المناطق التي سيتم غزوها على سياسة المسيحيين،⁴ وتبلور هذا الجانب في سياسة شارل الخامس الذي ورث هذه المسؤولية⁵، وكان يعتبر نفسه حامي العقيدة المسيحية، وجعل من توحيد المسيحيين لمحاربة المسلمين قضيته الكبرى والأولى خاصة مع التطورات التي ميّزت سياسة العثمانيين الخارجية خلال هذه الفترة⁶.

إلى جانب التوجه الديني للملوك المسيحيين، شهدت اسبانيا خلال القرن 16 ظاهرة تشدد عامة الناس بالدين المسيحي، وتجلّى ذلك في تفنن المواطنين الإسبان في مراقبة المورسكيين والتضييق عليهم، بالإضافة إلى تخصيص قسط كبير من أموالهم لخدمة الدين المسيحي، وهذا ما يدفع للاعتقاد بأن دور الجماهير الإسبانية كان فعّالا في بلورة السياسة

¹ - لقد خلف شارل الخامس فرديناند على حكم إسبانيا منذ 1519م وفي عهده تغيرت الظروف في حوض المتوسط وتغيرت معها سياسة إسبانيا اتجاه شمال إفريقيا. أنظر: F.Braudel, op.cit, T2, pp21-22

² - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 68.

³ - عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الإسباني، مرجع السابق، ص 10.

⁴ Moulay Belhmissi, op.cit, p131 .

⁵ Leopold Von Ranke, op.cit, p116.

⁶ - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 68.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الاسبانية، ومنحها الأرضية السليمة لتقرير حركتها الصليبية، وتعميق رسالتها الدينية المسيحية في أرجاء العالم¹.

ومن المحفزات التي أدت إلى احتدام الصراع الديني الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط هو دور الكنيسة وبابواتها في دعم البحارة الأوربيين² والسياسة الأوروبية العدوانية خاصة البابا بيوس الخامس³، الذي رأى في هذا الصراع حربا صليبية جديدة واستطاع إقناع فليب الثاني بأن المصالح الاسبانية تتطلب حربا جدية ضد الدولة العثمانية، إن هذا المناخ الديني المتطرف الذي ساد أوروبا المسيحية وطبع ملوكها خاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية كان وراءه الكنيسة الكاثوليكية، التي طالما نادى إلى تعزيز الحملات البحرية ضد السواحل الإسلامية سواء المتوسطية أو الأطلسية⁴.

وفي هذا الصدد يقول فرناند برودال: "إنّ الحروب الاسبانية في إفريقيا قد أخذت صبغة الصليبية الحقيقية، وذلك نظرا للدور العظيم الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت فالكنيسة باسبانيا قد ساهمت بجميع ما لديها من الحماس ومن الجرأة في هذه المعركة ضد المسلمين، بل إن الكنيسة قد أرادت في الكثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها⁵، هي مجمل الدوافع الدينية التي كان يمتطيها الاسبان والبرتغال لتبرير غزوهم لبلدان الضفة الجنوبية للمتوسط⁶."

¹ - عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الاسباني، مرجع السابق، ص7.
² René De Lucinge, op.cit, p166.

³ - بيوس الخامس : (1404 - 1572 م) بابا وقديس في الكنيسة الكاثوليكية ، يعرف بدوره في مجلس ترينت ومكافحة الإصلاح الديني ودوره في معركة ليبانتو. أنظر: هربرت فيشر، مرجع سابق، ص172.

⁴ - كمال صحراوي، مرجع سابق، صص31، 32.

⁵ F, Braudel, Les Espagnoles et L' Afrique du nord, op.cit, p20 .

⁶ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص71.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

أمام هذا الوضع كان لابد للعثمانيين من اتخاذ موقف حيال هذا المناخ وخاصة قضية الأندلسيين، التي أثبتت سيطرتها على أحداث البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، ولا شك أن ارتباطها وتأثيرها على البلاد الإسلامية كان أشد وأقوى¹، ففي الوقت الذي اشتهر فيه العثمانيون بأنهم القوة الحقيقية للإسلام وأن قدرتهم أصبحت إحدى المعطيات المميزة للسياسة والفكر الإسلامي²، منحت للموريسكيين مناخا للمقاومة الشديدة ضد تعميدهم ودمجهم في المجتمع الإسباني³.

وإذا ما عدنا إلى الوثائق العثمانية العائدة إلى تلك الفترة، نجد أن العامل الديني كان له الدور الأول لتدخل العثمانيين⁴ في غرب المتوسط وتوجهات الدولة اتجاه شمال إفريقيا وسعيها للدفاع عنها وحمايتها من الغزو الإسباني، وطبقا لما ورد في الحكم الهمايوني عندما بلغ قيام الإسبان⁵ حشد القوات العسكرية لاستعادة طرابلس الغرب من العثمانيين، أصدر أمرا بإعادة الأسطول العثماني إلى المنطقة وتجهيزها بمستلزمات المواجهة مع الأسطول الإسباني⁶.

¹ - إدريس الناصري رائي، مرجع سابق، ص71.

² - نفسه، ص71.

³ - عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص190.

⁴ Itizchak Weisman and fruma ZachsK, Ottoman reform and Muslim regeneraton, I.B. Tauris, London ,sd,p18 .

⁵ - الإسبان ورد اسمهم في الوثيقة الكفار أي مقصود بهم الإسبان ثم فرسان مالطة، كانوا قد استولوا على طرابلس الغرب وتجاوزوا على أهاليها، ولم تكن أي قوة تتمكن للتصدي لهم إلا العثمانيون الذين تمكنوا من رد المتجاوزين على أعقابهم، وفتحوا طرابلس الغرب وأحقوها إلى بلادهم ولم يقبل الكفار بهذه الهزيمة فأعدوا العدة لاستعادة طرابلس، وبالمقابل قام العثمانيون بتجهيز حملة عسكرية للتصدي لهم. أنظر: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، م3، ص242.

⁶ - مهمة دفترى 3، ص223، الحكم625. فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، ص243

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

ومن هذه الوثائق¹ ما يشير إلى اهتمام الباب العالي بالرعايا في شمال إفريقيا، وإعلان الجهاد على الكفار، ولم يرد في هذه الوثائق ذكر لأهداف توسعية واقتصادية²، ومما يمكن قوله أن تحول سلاطين الدولة العثمانية منذ بداية القرن السادس عشر نحو المتوسط كان من أجل حماية الإسلام، ورغم ما يثار حول مطامع العثمانيين الاقتصادية في المنطقة فإن الجانب الديني يبقى الحافز الأساسي لهذا التحول، لذلك سخرت الدولة العثمانية أساطيلها القوية³ للدفاع عن الأراضي الإسلامية في شرق وغرب المتوسط⁴.

2- دوافع الصراع الاسباني- العثماني الاستراتيجية والاقتصادية:

لعبت الجغرافيا والبيئة دورا بارزا في التطور التاريخي والاقتصادي للشعوب فربط المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل بين المجالين الجغرافي والاقتصادي، ورأى أن من يتحكم بالبحر المتوسط هو من يتحكم بالثروة، من هنا كان هذا البحر الموجه الأساسي لتاريخ المنطقة واللاعب الأساسي فيها، والشريان الحيوي للدول والإمبراطوريات الاستعمارية، والجسر الذي يربط الشرق والغرب والممر الطبيعي إلى آسيا وإفريقيا، وهو ملتقى الأديان السماوية وازدهار حضارات المنطقة وثقافات ولغاتها وطرق تجارتها⁵.

¹ - على سبيل المثال لا الحصر أنظر الوثيقة رقم مهمة دفترتي³، ص 209، الحكم 579. فاضل بيات، البلاد العربية

في الوثائق العثمانية، مرجع سابق، ص 247.

² - عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص 66.

³ Gurkan EmrahSafa, op.cit, p 265 .

⁴ - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 66.

⁵ - عبد الجليل التميمي، "العثمانيون والبحر المتوسط"، الإشكاليات والمقاربات الجديدة، العثمانيون والعالم

المتوسطي، مقاربات جديدة، تنسيق عبد الرحمان المودن/عبد الرحيم بن حادة، منشورات كلية الآداب، الرباط،

2003، ص 20.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

يكتسي البحر المتوسط أهمية اقتصادية بالغة إذ أنّ الاقتصاد القائم على المجال البحري دورا مهما في صعود الممالك والإمبراطوريات في المتوسط وأفولها، ففي القرن التاسع والعاشر الميلاديين فرض المسلمون سيطرتهم الكاملة على البحر المتوسط، وبعد حروب الفرنجة، انتقلت السيطرة عليه إلى المدن الإيطالية، واستمرت حتى نهاية القرن السادس عشر، فعملت هذه على إيصال السلع الشرقية إلى الحواضر الأوروبية، وعقدت في الوقت نفسه اتفاقيات تجارية مع نيابات شمال إفريقيا.

وفي إطار إقامة إمبراطوريات شرقية احتل البرتغاليون والاسبان عدة نقاط على ساحل شمال إفريقيا¹ وعلى المحيط الأطلسي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وبفعل الاكتشافات الجغرافية بهدف غزو أسواق الشرق الأقصى والقضاء على الوساطة العربية الإسلامية تحول الثقل الاقتصادي إلى المحيط الأطلسي، لكن هذا لم يفقد المتوسط دوره في الحياة الاقتصادية للدول المطلة عليه، وخاصة الدولة العثمانية التي أصبح فضاءها الجغرافي السياسي منذ مطلع القرن السادس عشر².

تبنّت الدولة العثمانية استراتيجية دعم الجهاد البحري³، خاصة عروج وخير الدين بربروس، ولا سيما عند وصولهم إلى المغرب الأوسط والأدنى،⁴ أين نشطوا ما بين طرابلس شرقا والجزائر غربا لحساب الدولة العثمانية في إطار صراعها مع إسبانيا⁵، ما أدخلهم في منازعات مستمرة مع الدول الأوروبية البحرية على رأسها إسبانيا⁶. كما أسهم طرد المسلمين

¹ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص928

² - فرناند بروديل، صعود الإمبراطوريات، مرجع سابق، ص182.

³ - امتهنت القرصنة منذ العصور القديمة ولم تقتصر على عروج وخير الدين وسكان إفريقيا الشمالية بل امتهنتها قبلهم فرسان القديس يوحنا انطلاقا من جزيرة رودس ومالطا وأوربيين ضد بعضهم البعض وضد السفن الإسلامية، فكانوا =حتى القرن الرابع عشر أسياذ المتوسط يعيشون من نهب البضائع وتجارة الرقيق. أنظر: Stanly lane- Poole, the Barbary corsaire, London, 1890, pp.25-26

⁴ D.E.Pitcher, op.cit, p118 .

⁶ Fray Diego De Haedo, op.cit, p20.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

من الأندلس نهاية القرن الخامس عشر إلى امتهان البحارة منهم وكانت تدر أرباحا كثيرة، فقد حوّل التجار الاسبان كل من وقع في قبضتهم من سكان إفريقيا الزنجية وسخروهم للأعمال الشاقة، وعمّرت بهم أمريكا الوسطى والجنوبية بالأسرى المسلمين¹، ومهاجمة السفن التجارية الأجنبية والاستلاء عليها أو على حمولتها وأسر ملاحها وأخذ الأتاوى منها²، فدخلت القرصنة والحركة التجارية من خلال المنهوبات والأتاوى بذلك في صلب اقتصاديات إيالات شمال إفريقيا استثمارا وعائدات، بعدما تحولت إلى قطاع إنتاجي وحيد وأسهمت في تنشيط الحركة التجارية من خلال بيع المنهوبات أو فرض الفدية على الأسرى أو استعبادهم³.

إن سقوط غرناطة عجل بانطلاق الطاقات الاسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار بعد أن كانت حتى ذلك الوقت منسوب بالمعركة حول شبه الجزيرة، ولقد كانت إفريقيا بفعل قربها الشديد الاختيار المنطقي الأول لاسترجاع الثروات الأساسية، وفي الوقت نفسه فإن هجرة المورسكيين⁴ وفرت سببا لتبرير التدخل الاسباني هناك.

أدى اكتشاف أمريكا إلى شعور الاسبان بالقوة والسيادة،⁵ كما رغب الاسبان في احتلال قواعد الشمال الإفريقي لامتلاك الموانئ والأسواق التي يستطيعون منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد من وسط إفريقيا، وكذا مزاحمة المدن الإيطالية جنوة والبندقية التي احتكرت التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة، فسعت للسيطرة على

¹Moulay Balhamissi, Les Captifs Algeriens et L'Europe chritiennes 15181830, entreprise nationale du livre, Alger, 1988, p68.

² زهراء النظام، مرجع سابق، صص 62، 63.

³ نفسه، صص 49، 50.

⁴ وليام سبنسر، مرجع سابق، ص 75.

⁵ ليلي الصباغ، مرجع سابق، ج 1، ص 73.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المغرب¹ مما يمكنها من جعل الحوض الغربي للبحر المتوسط بحرا اسبانيا بحتا، خاصة و أنها كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من إيطاليا، وتمتلك كذلك أهم الجزر التي فيه (صقلية وسردينيا كورسيكا و الباليار)، فهي بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه².

بدأت تلك الحروب حربا صليبية لكن بأهداف وأساليب جديدة، فوجدت تلك الحرب تشجيعا من الدوائر التجارية الناشئة في غرب أوروبا، والتي كانت تهدف إلى السيطرة على التجارة العالمية وطرق ووسائل نقلها واشتركت رغبات رجال المال والأعمال الأوروبية الناشئة مع آمال الكنيسة في السيطرة على الشواطئ الإفريقية، ثم النفاذ إلى داخلها، حيث يمكن للحركات التبشيرية أن تؤدي دورها في خدمة المسيحية في الوقت الذي يمكن فيه تحقيق الأهداف التجارية³.

وقد عززت من هذا الاتجاه الأوضاع الداخلية في البلاد، إذا كان لاسبان ومن قبلهم البرتغاليين الأسباب الكافية لمحاولة مد نفوذهم إلى المغرب فقد اشتدت المخاوف في اسبانيا⁴ من هجوم المسلمين المضاد على إثر ثورة المسلمين القصيرة المدة في الجبال المحيطة

¹ - لم يكن شمال إفريقيا من وجهة النظر الاسبانية غاية في حد ذاته بل جزء من الامبراطورية الاقتصادية الممتدة الأطراف التي كانت اسبانيا تعمل على تكوينها بسواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ونمو الحركة التجارية في أوروبا الحديثة ورغبة اسبانيا في السيطرة على الطرق التجارية في إفريقيا التي كانت تزدهر بتجارة ريش النعام والتمر والعبيد والجلود وهكذا سيطرت على معظم الموانئ في إفريقيا الشمالية التي تعتبر بوابة أوروبا ومنها تصدر المواد السالفة الذكر وأصبحت التجارة العابرة لإفريقيا بيدها. أنظر: جاسم محمد شطب، مرجع سابق، ص 44.

² - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، صص 88، 89.

³ - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 163.

⁴ - والمغرب بقربه من اسبانيا باعتباره أرضا صالحة لاحتواء وإيواء المورسكيين سنجده يبرز دائما في الوثائق الاسبانية كملجأ منتظر لهؤلاء المورسكيين. أنظر: المورسكيون في المغرب، الندوة الثانية، شفشاون، 1421هـ/2000م، ص 42.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

بغرناطة، وكذلك اكتشاف المؤامرة المنسوبة للمورسكيين في إشبيلية، حيث كان يعتقد أن الاتصال بالسلطان العثماني وكان الأتراك يمثلون بدورهم خطرا ممكنا في مساعدة الموريسكيين¹ يفوق الخطر الذي يمثله حكام شمال إفريقيا بقصد التهيئة لغزو إسلامي وقد انطلقت في سنة 1505 الأرمادا² الإسبانية للعمل كي تسبق هذا الاحتمال³،

اندست خلفية في أكناف الواجهة الدينية للصراع العثماني المسيحي وراءها خلفيات ودوافع استراتيجية وأخرى اقتصادية ألا وهي السعي إلى السيطرة على البحر المتوسط، وهذا ما أدى بتسميته بالمناش المتوسطي⁴ حيث كان البحر المتوسط الموجه الأساسي لسياسة المنطقة واللاعب الأساسي فيها والشريان الحيوي للدول والإمبراطوريات الاستعمارية⁵ فاشتداد التباين بين الدول الأوروبية لتكوين إمبراطوريات واسعة خصوصا بعد اكتشاف العالم الجديد وكذلك طريق التوابل.

في حين كانت الدول الأوروبية التي بدأت تعرف نهضة علمية لم يسبق لها مثيل، تطلعت إلى خارج قارتها الضيقة⁶، فراحت تتسابق للوصول إلى بلاد التوابل، ونتج عن ذلك اكتشاف الطريق الجديد إلى الهند وكذلك اكتشاف الأمريكيتين، ومع مرور الوقت

¹ - المساعدة جاءت بصورة غير مباشرة في عهد سليمان القانوني عن طريق تضييق الخناق على إسبانيا في البحر المتوسط. أنظر: نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص 43.

² - الأرمادا: كلمة إسبانية تعني الجيش البحري الكبير من حيث العدد والعتاد. أنظر: وليام سبنسر، مرجع سابق، ص 35.

³ - نفسه، ص 35.

⁴ F. Braudel, op. cit, T1, p107 .

⁵ - عبد الجليل التميمي، "العثمانيون والبحر المتوسط"، مرجع سابق، ص 20.

⁶ F. Braudel, op. cit, T1, p16 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

سيطرت الدول الأوروبية على معظم أنحاء العالم بما في ذلك العالم الجديد¹، تشجعت الحكومة الإسبانية في الوقوف أمام الجبهة الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية حيث أنّ السياسة العثمانية تحركت نحو هذه المنطقة في نفس الوقت الذي نشطت فيه رجال البحر المغاربة² لحماية موانئهم وسواحلهم وتأمين وصول المهاجرين من الأندلس³.

جاء هذا التحرك على ضوء حساباتها الضرورية في تحقيق تفوقها البحري لدعم سلطانها في أوروبا وآسيا وإفريقيا⁴، وهذا التفوق كان ضروريا لمواجهة تفوق الإسبان في المتوسط⁵، وكذلك البرتغال في البحار الجنوبية نظرا للعداوة الشديدة بين العثمانيين والهابسبورغ، ووصلت إلى أوجها بين السلطان سليمان القانوني وشارل الخامس⁶، ومن ثم فقد ارتبط خضوع ليبيا والجزائر للحكم العثماني بالصراع الكبير الذي نشب بين الطرفين،

¹ - يلماز أوزوتونا، موسوعة الامبراطورية العثمانية، مرجع سابق، م4، ص423.

² - في مقدّماتهم الإخوة بربروس عروج وخير الدين كان وصولهم إلى الحوض الغربي للمتوسط، وتأسيسهم لتجربة قاعدة الجزائر الجهادية ولقد بدا خيار الجهاد البحري بالمغرب آنذاك كشكل من أشكال التبادل الإجباري مع أوروبا، وكنوع من إعادة الغنمة لوصفه الاعتباري في التفاعل معها ارتفعت معها مراسي المنطقة لتصبح مراكز تجارية نشيطة بمغانم العمليات. أنظر: حسن أميلي، مرجع سابق، ص17.

³ Ann Williams ,op.cit,p2.

⁴ - برنارد لويس، مرجع سابق، ص25.

⁵ - الإسبان الذين تمكنوا من ضم المغرب وكانوا يصارعون للحفاظ على مكتسباتهم وذلك يجعل الحوض المتوسط بحرا اسبانيا بحثا التي كانت تعمل على توسيع أملاكها بالإضافة إلى سواحل جنوب إيطاليا إضافة جزر صقلية سردينيا كورسيكا البليار لتشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال وجنوب البحر المتوسط. أنظر: أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص89.

⁶ V.J.Parry, "the reigns of Sulaiman the Magnificent 1520-1566", Cambridge history of Islam, Cambridge university press, London, 1976, p83 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

¹ ولعبت فيه القوة البحرية دورا أساسيا على ساحة المتوسط وفي حين نجح العثمانيون في وقف الزحف الاسباني على شمال إفريقيا فلقد فشل في تقديم النصر لمسلمي الأندلس.²

كانت سياسة الدولة العثمانية تهدف إلى إتمام السيطرة على الطرق الملاحية في البحر المتوسط وإحكام السيطرة على شرقي هذا البحر وغربه مما يؤمن حرية التجارة الإسلامية وسلامتها إلى جانب تأمين طريق الحج الرئيسي بشكل كامل³، وبالطبع لن يتسنى لهم السيطرة على هذا الجزء الاستراتيجي الهام سوى بإتمام السيطرة على الجزر الهامة في البحر المتوسط، هذا إلى جانب الحد من نشاط السفن الأوروبية مثل اسبانيا والبندقية وقراصنتهم الذين انتهكوا أكثر من مرة حدود الدولة العثمانية⁴.

كانت الأوضاع في غرب المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الإسلامي، ويمثل جبل طارق نقطة التقاء تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ميدانا هاما لتكثيف حركة الجهاد خاصة بعد أن تمكن المسلمون في بعض السنوات من إقفال طريق الملاحية في جبل طارق، ومنعوا سفن جنوة⁵ من الوصول إلى الأراضي المنخفضة في شمال غرب أوروبا،

¹ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص972.

² - وفقا لبعض المصادر الاسبانية أضحى الموريسكيون الطابو الخامس الإسلامي داخل إسبانيا على أساس اكتشاف المراسلات بين اسطنبول والغرناطين والبلنسيين التي ترجع إلى 1560م والتي ناشد فيها الموريسكيون مساعدتهم وذلك في الوقت الذي ترددت فيه توقعات عن تحالف عثماني سعدي ضد فليب الثاني ملك اسبانيا وتزايد أعمال القرصنة للموريسكيين. أنظر: نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص45.

³ V.J.Parry, op.cit,p79.

⁴ - عبد الجليل التميمي، مرجع السابق، ص96.

⁵ F.Braudel,op.cit,T1, p129 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وقد تكونت نتيجة لذلك مجموعة من المراكز البحرية الإسلامية امتدت من جربة إلى مراكش¹.

3- آثار الصراع العثماني - الاسباني في البحر المتوسط.

أ/ تأمين سلامة سواحل شمال إفريقيا:

إنّ حضور العثمانيين في غرب المتوسط²، كان له أثر كبير على سير الأحداث التي كانت تشهدها منطقة المغرب الإسلامي خلال القرن 10هـ/16م فإذ كانت نتائج قوة الدولة العثمانية في تفاعلاتها حول شمال إفريقيا قد حفظت لها مركزها السياسي والعسكري المتفوق في العلاقات الدولية الإسلامية المسيحية بصفة عامة، والعلاقات بين الدول الإسلامية بصفة خاصة فإن هذه القوة العثمانية قد حمت شمال إفريقيا كله من الاحتلال الاسباني، وتصدت لموجة العداء الصليبية التي حركها شارل الخامس والتي كانت استكمالاً لحركة فرديناند الثاني³.

فيشير بعض المستشرقين إلى أنّه مع صمود القوى البحرية العثمانية أمام محاولات الاسبان المتكررة للسيطرة على الجزائر وتونس وليبيا تخلى الاسبان عن أي محاولة جديدة لغزو شمال إفريقيا، و القوة التضامنية بين العثمانيين وبين بربروس⁴ وُلد قوة مكنت من

¹ - حسن أميلي، مرجع سابق، ص 20.

² - زهراء النظام، مرجع سابق، ص 57.

³ Ernest Mercier, op. cit, p4.

⁴ - حسن أميلي، مرجع سابق، ص 19.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

استعادة الكثير من الأراضي من الاسبان¹، كما وُحِدَت معظم دويلات شمال إفريقيا بحيث أضحت خط الدفاع لأهالي الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط².

هذا كما شكلت إيالات شمال إفريقيا الثلاث أوجاقات الغرب³ وكانت الإدارة العثمانية عن مختلف بقية إيالات الدولة، إذ اعتمدت فيها الدولة العثمانية فيها فضلا عن الانكشارية على أعمال الجهاد البحري الموجه ضد الممالك الأوروبية⁴ لا سيما اسبانيا انتصافا للمأساة التي قاساها الموريسكيين،⁵ وكانت هذه الأوجاقات تشارك في دعم خزانة الدولة بفروض على شكل هدايا تقدم كل سنتين أو ثلاث سنوات مقابل ما تقدمه الدولة من منح على شكل سفن ولوازم حربية لهذه السفن من ترسانة الدولة العامرة⁶.

تعد الجزائر خير مثال على ذلك فلم تبسط الدولة العثمانية نفوذها عن طريق الغزو العسكري كما حدث في المشرق، بل جاء تدخل العثمانيين نتيجة اشتداد الصراع بين العثمانيين والمسيحيين في البحر، وهذا لا ينطبق على حال هؤلاء وعلى حال مهاجري الأندلس إذ لم يكن غرضهم سوى استرداد ما اغتصبه منهم الاسبان وإعلاء كلمة الدين، وكان تأسيس نيابتي طرابلس وتونس نتيجة الصراع الاسباني العثماني في البحر المتوسط⁷.

¹ Colin Imber, op.cit, p288.

² - نادية مصطفى وآخرون، مرجع سابق، ص42.

³ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص932.

⁶ - حسن أميلي، مرجع سابق، ص19.

⁵ - هارولد لامب، مرجع سابق، ص181.

⁶ - جاسم محمد شطب، مرجع سابق، ص76.

⁷ - أحمد طربين، التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث، كاليفورنيا، 1970، ص11.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وبالتالي استطاعت السياسة العثمانية عثمانة الموانئ والضفاف المتوسطية العربية ما عدا المغرب الأقصى¹ وكذلك مئات الجزر والموانئ الأوروبية في الحوض الشرقي للمتوسط، مؤكداً بذلك دورهم في جعل تلك الفضاءات مرتبطة بالمحور العثماني² والذي منحها مناخاً فاعلاً للترابط التاريخي والتجاري والديني والحضاري معها.

لا شك أن دخول العثمانيين الفضاء المتوسطي لم يكن يسيراً إذ لم يدخلوه للتجارة والتبادل المعرفي والحضاري فقط وإنما كان دخولهم في إطار مد نفوذ دولتهم ولم يقتصر الأمر على السواحل العربية وإنما شمل موانئ الجزر والسواحل الأوروبية التي تعثمت ومن هنا فإن الوجود العثماني في المتوسط أدى إلى تغيير جغرافيته،³ وإلى حدوث العديد من المواجهات والصدامات المسلحة بين الطرفين، فالعثمانيون تحملوا المسؤولية الأولى في تحصين المدن والموانئ المتوسطية العربية ومنعوا دحرجتها وسقوطها في العالم اللاتيني⁴.

ب/ أهم محطات الصراع العثماني - الإسباني في البحر المتوسط

1- الضم العثماني لتونس 1534م :

كان الفتح العثماني لتونس انذاراً مبكراً للإمبراطور والبابا وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ومالطا اللتين يعدّهما المسيحيون حصني دفاع متقدم عن أوروبا المسيحية ولذا ليس من باب الصدفة أن قاد الإمبراطور حملة عسكرية ضخمة في جوان 1535 م⁵ شارك فيها مقاتلون من كل أمم الإمبراطورية المقدسة⁶

¹ - فاضل بيات، المغرب الأقصى بين الإستقلالية والتبعية العثمانية، مرجع سابق، ص 77.

² Colin Imber, the Ottoman Empire, 1300-1650; structure of Power, Pgrave, London, 2009, p333.

³ Haji Kalifeh, op. cit, p-

⁴ - ادريس ناصر الرائي، مرجع سابق، ص 432.

⁵ Ernest Mercier, op. cit, p37.

⁶ - بلغ تعداد الحملة 30 ألف رجل حملوا على 500 سفينة. أنظر: اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 420.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

كانت تونس تعد من أبرز آثار الصراع العثماني الاسباني في المنطقة وهدفا استراتيجيا للدولة العثمانية لتثبيت نفوذها في الشمال الإفريقي بعد ما لمستته من تلاعب الأسر الحاكمة هناك وإمالتها للإسبان مقابل مصلحتها الخاصة¹.

هذا بالإضافة إلى أن الدولة العثمانية أوكلت هذه المهمة على عاتق خير الدين³ لقد كانت ثقة السلطان في خير الدين هي الركيزة التي أطلقت يده في كيفية استخدام الأسطول العثماني⁴ إلى جانب استخدام سياسته الخاصة الرامية لإخضاع الشمال الإفريقي، ومحاولة خلق بعد استراتيجي للدولة العثمانية في الجانب الغربي للبحر المتوسط⁵

بعد أن أصبحت تونس تابعة للدولة العثمانية⁶ لم يعد لاسبانيا أمل في عزل الجزائر لأن الوضع الجديد سوف يعزز النفوذ العثماني بالحوض المتوسط الغربي ويمنع الاسبان من التحكم في مفاتيح البوابة بين شرق المتوسط وغربه، بحيث لم يبق لهم سوى الشق الشمالي المتمثل في صقلية وفي هذا الإطار سارع مجلس شارلكان إلى إتخاذ إجراءات عسكرية فورية من

¹ - ومن الأسر الحاكمة الأسرة الحفصية نسبة إلى محمد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص، ولي إمارة تونس في 10 شوال 603هـ ولما توفي سنة 618هـ خلفه ابنه زكريا يحيى، وفي سنة 647هـ مالك يعدد ابنه أبو عبد الله محمد ولقب بالمستنصر ودعي بأمير المؤمنين، استمرت هذه العائلة على حكم تونس حتى فتحها العثمانيون نهائيا 981/ 1574 م أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 232.

² - ومن الحكام الذين تعاملوا مع الاسبان حفاظا على مصالحهم الخاصة مولاي حسن الحفصي الذي تحالف مع الاسبان كما تنازل لهم على ميناء حلق الوادي وقد وافق مولاي الحسن على أن يحكم تونس باسم شارلكان وتحت حمايته. أنظر: عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 119.

³Petitjean Johann,op.cit.p265 .

⁴ - على الرغم من الاتصال المبكر للرياس بها على رأسهم عروج خير الدين وبعد مروره بتونس قبل وصولهما إلى الجزائر، تخوّف السلطان الحفصي منهما ورفض السماح لهما بالبقاء فيها، مع العلم أنه سمح لهما بذلك من قبل أي قبل أن يشتد بأسهما ويصبح اسمهما منشرا في جميع البحر الأبيض المتوسط، ويبدو أنه قد خاف منهما بحيث رفض تزويدهما بالبارود عام 1514 عندما كانا يحاصران بجاية. أنظر: حاجي خليفة، مصدر سابق، ص 16.

⁵ - أحمد سالم، مرجع سابق، ص 123.

⁶ - جب هاملتون و هارولد بوون، مرجع سابق، ص 142.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

شأنها الدخول في مضيق صقلية¹ وتقرر إرسال حملة قوية لطرد العثمانيين وإعادة الحكم الحفصي الموالي له .

وتتمثل أهمية تلك الحملة بالنسبة لشارل الخامس² من إصراره على قيادتها بنفسه حيث كانت الحملة الأولى له على إفريقيا وقد ضمت هذه الحملة قوات ألمانية وإيطالية إضافة إلى فرسان مالطة إلى جانب القوات الإسبانية الأكثر عددا ، وقد تحركت من برشلونة عام 1535م³ وكانت هذه الحملة الأولى على شمال إفريقيا⁴

بالرغم من ضخامة حملة شارلكان إلا أن خير الدين قرر مواجهتها والتصدي لها⁵، لكنه اضطر إلى الانسحاب مع قواته⁶ أمام قوة القصف المكثف والمركز من طرف الإسبان وعدم تمكنهم من استخدام مدافعهم، ودخلت القوات الإسبانية تونس بقيادة شارلكان الذين قاموا بأعمال النهب و القتل والتدمير وهذا ما عبر عنه خير الدين في مذكراته بقوله: "كانت تونس إحدى أكبر المدن الإفريقية، وعندما اقتحمها الصليبيون قاموا بذبح ثلاثين ألف مسلم عربي واسترقاق عشرة آلاف امرأة وطفل، وخرّبوا المساجد والمدارس والمقابر ونهبوا محتويات القصور، كما قاموا بحرق آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزخر بها مكاتب تونس، فقصوا بذلك على شتى أنواع الفنون والعلوم النادرة وعندما أدرك الكفار أنني قد أفلت من أيديهم قاموا بإفراغ جام غضبهم على البؤساء من الأهالي المسلمين ، وتفنن الإسبان في التعبير عن أبشع ما تحمله نفوسهم الشريرة من سوءدخل الملك كارلوس

¹ - نعيمة بوحشوش، البحرية الجزائرية والقضية التونسية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 7- 8، السداسي الأول، الجزائر، 2010، ص320.

²R.C.Anderson,op.cit,p4.

³ - أحمد سالم، مرجع سابق، صص124، 125.

⁴ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص917.

⁵Haji Kalifeh,op.cit,p33 .

⁶ - اظطر خير الدين الانسحاب إلى الجزائر.أنظر: ibid,p 33

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المدينة بعدما حولها إلى خراب، لقد اصطبغت أرجل فرسه بلون الدم المتدفق من أشلاء الضحايا المتناثرة في أزقة وشوارع المدينة"¹ ومنذ ذلك الحين أصبحت تونس لأكثر من نصف قرن في تنازع مستمر بين العثمانيين من جهة والحفصيين والاسبان من جهة أخرى ، وكان على خير الدين أن يرد ضربة تونس بضربة مماثلة ، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية وعلى سواحلها الجنوبية فاجتاز مضيق جبل طارق وأطلق العنان لسفنه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية المحملة بالذهب والفضة إلى جانب أخذه لأكثر من ستة آلاف أسير مسيحي عاد بهم إلى الجزائر².

2- معركة برفيزا والتحكم في البحر الأبيض المتوسط 1538م :

برزت برفيزا³ كمحطة من محطات الصراع المسيحي - الاسلامي في منطقة البحر المتوسط في القرن السادس عشر فقد دعى البابا بول الثالث الجيوش الأوروبية للاتحاد ضد العثمانيين⁴ وتكوين تحالف مسيحي.⁵

لاشك أنّ الأهمية الإستراتيجية للجزيرة في البحر الأبيض المتوسط جعل الدولة العثمانية تحددتها ضمن أولوياتها تقوم بمهاجمتها بقيادة خيرالدين بربروسا ومجموعة من القادة البحريين ذات الخبرة في عمليات الجهاد البحري في البحر الأبيض المتوسط الذي كان مجالا مهما في

¹ - مجهول، خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص 178.

² - أحمد سالم، مرجع سابق، 126.

³ - برفيزا: مدينة تقع على رأس الخليج في ألبانيا.أنظر: عايض بن خزام الروقي، مرجع سابق، ص 558.

⁴ - هذا التحالف البحري الأوربي ضم 300 مئة قطعة بحرية مسيحية كان يقودها أشهر قائد بحري وهو أندري دوري مقابل أسطول عثماني كان مكونا من 120 قطعة بحرية يقودها خير الدين بربروس.أنظر: محمد حرب، حملات سليمان القانوني، مرجع سابق، صص 229، 241.

⁵ Jurien De LA Graviere, Doria et Barbaroussa, Plon, Paris, 1886, p206 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

لنشاط الرياس¹ وهذا بمواجهة قيادات أساطيل الدول المتحالفة². جاء البنادقة إلى كورفو أولاً ثم تبعتهم أساطيل البابا، ولم يعرف شيئاً عن تحرك أسطول شارلكان، وفي نفس الوقت قام الأميرال الأسطول البابوي بالهجوم على قلعة بروزة الواقعة جنوبي يانيه³ ثم حاصرها⁴، ولما لم يوفق بعد حصاره لها، عاد إلى كورفو فور علمه بوصول الأسطول العثماني وبعد ذلك وصل أندري دوريا في 22 سبتمبر⁵ ولدى تحققه من وجود الأسطول العثماني في خليج أرثا عمد الأميرال أندري دوريا إلى الاستعداد للمعركة فأعطى أوامره لقادة الأساطيل التي كانت تحت إمرته ليكونوا على أتم الاستعداد في أعمالهم العسكرية وهذه الأساطيل⁶ كانت متفوقة على العثمانيين في عدة نواحي خاصة العدد وكانت مؤلفة من 200 سفينة تحمل 60000 ألف مقاتل، 250 مدفعا وهكذا تقدمت السفن البابوية في الطليعة بأعلامها الحاملة رسم مفاتيح القديس بطرس، تليها السفن الإسبانية وبعدها البندقية والجنوية فالبرتغالية ولكن بعد أن تردد دوريا بإجتياز المجال الضيق المحمي بحصن برفيزا والحاجز الرملي⁷.

¹ - وهم على التوالي: طورغود، سنان باشا، صالح رايس ومراد رايس أنظر: إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 540.

² - وهي في مقدمتها إمبراطورية شارلكان، البندقية، البابوية والبرتغال أنظر: محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 261.

³ Jean Pierre Bois, op.cit, p143 .

⁴ - إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 541.

⁵ Jurien De La Graviere, op.cit, p296 .

⁶ Paul Coles, op.cit, p9 .

⁷ - سعيد البرجاوي، مرجع سابق، ص 118.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

إلا أنّ التفوق العثماني كان في جوانب أخرى أهمها مقدرة بربروسا في التحكم بوحدة الأساطيل¹ وهذا ما عبر عنه في مذكراته: "فقد كان بإمكانني أن أطلب أي قادرغة مهما كانت بعيدة، وبإزاء هذا العدو على خلاف ذلك، إذ لم يكن في وسع دوريا أن يتحكم في الأساطيل التي وضعت تحت يده، بل حتى أجنحة قواته كان عاجزا عن إدارتها والسيطرة عليها"²

ولما لم يتمكن أندري دوريا³ من الصمود أمام السفن العثمانية الكثيفة، قرر التراجع بما معه من سفن المتحالفين وانتهت المعركة في 28 سبتمبر 1539 الموافق لجمادى الأولى 945ه⁴ ويعود التفوق العثماني إلى عامل آخر حسب خير الدين بربروسا: "وأما عامل تفوقنا الآخر فيرجع إلى كون مدافعنا أطول من مدافع العدو، ودون أن ننسى ذلك لحظة واحدة، يجب أن أذكر بأنني كنت قد جعلت أسطولي في موقع يمكن دك مواقع العدو، بينما تهوي قذائفه على مسافات بعيدة من سفن متوازية في أعماق البحر، لقد كان ذلك يجعل قباطنة الكفر يتذمرون من الغيظ دون أن يكونوا قادرين على فعل شيء"⁵

استطاع بربروسا من خلال تكتيك حربي وليس عن نتائج صدام دام جاد أن يهزم أسطول التحالف في بروزة، وعلى ذلك يكون العثمانيون قد كشفوا عن بداية تفوقهم في غرب البحر

¹ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص 541.

² - مجهول، خير الدين بربروسا، مصدر سابق، ص 186.

³ - أندري دوريا (1466 - 1560) من جنوا وهو أمير بحر يمرتق، وكان يملك أسطولا من سفن الحر بالمعدة لخدمة الحكام الذين يقدمون المال والنقود، وكان في أول الأمر في خدمة فرانسوا الأول، ملك فرنسا ثم انضم إلى شارل الخامس وخلال بقية حياته كان أهم أمير بحري إسباني في البحر المتوسط ويقول البعض أنّه كان يفر من أي اشتباك قد يؤدي إلى تحطيم سفنه. أنظر: جون ب. وولف، مرجع سابق، ص 41.

⁴ - محمد فؤاد متولي، مرجع سابق، ص 261.

⁵ - مجهول، خير الدين بربروسا، مصدر سابق، ص 188.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المتوسط¹ وكانت نتيجة المعركة أن فقد دوريا سمعته كببحار لا منافس له وسيطرة العثمانيين على البحر الأبيض المتوسط لسنوات طويلة وهذا يدل على تفوق إستراتيجية العثمانيين على منافسيها خاصة إسبانيا² بقيادة شارلكان الذي سيتخذ إجراءات أخرى إنتقامية تظهر جليا في قيادته لأسطوله ومهاجمة الجزائر الإيالة العثمانية ذات الأهمية الاستراتيجية سنة م1541 لكنه سيتلقى هزيمة فادحة في سواحل الجزائر.³

3- حملة شارل الخامس على الجزائر 1541:

لا شك أن نمو القوة البحرية العثمانية وتهديدها الذي اقترب من سواحل نابولي وصقلية بل واسبانيا نفسها ولقطع تلك الجبهة البحرية الاسلامية في البحر المتوسط قرر شارل الخامس تشييد قاعدة اسبانية بين الجزائر واسطنبول ،وبالفعل كان تحقيق ذلك في تونس، الا أنه لم يتابع ذلك النجاح لعدم امتلاكه للقوة البحرية اللازمة لذلك، مما أتاح المجال لخير الدين بارباروسا في تنظيم غارات جديدة ضد جزر البليار⁴.

ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس⁵ فقد أعد حملة جرارة لغزو الجزائر وكان من أهداف الحملة اجتثاث النفوذ العثماني⁶ من غرب البحر المتوسط وعزل فرنسا بمنع النجديات العسكرية عنها عن طريق حليفها الدولة العثمانية⁷ وهو التحالف الذي أطلق عليه في أوروبا التحالف المدنس " لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال .

¹ - إكمال الدين إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص42.

²Petitjean Johann,op.cit,p265.

³ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص158 .

⁴Fray Diego De Haedo,abbé de Formesta,op.cit,p58 .

⁵ Ibid,p50.

⁶Nicolas Durand De Villegaignon,Relation de l'expédition de Charles-Quint contre Alger ,traduit par Pierre Tolet,Auguste Aubry,Paris1874,p112.

⁷ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص95.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

وكان شارل الخامس يعتقد أنّ لو لا الوجود العثماني في شمال إفريقيا لاستطاع انشاء مملكة مسيحية هناك لاسبانيا وكان هذا الإمبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على اسبانيا¹ وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية في أوروبا أنّ عزيمته قد استقرت على الانتصار للمسيحية والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار² وساحل فالنسيا و سواحل ايطاليا الجنوبية .

كما حاول شارل أن ينظم هجوما على العثمانيين بواسطة انجاز حلف مسيحي مع البابوية و البندقية³ ، وبدون أسطول البندقية فان العصبة لم يكتمل هذا الحلف وتفككت العصبة بعد أن تحالفت البندقية⁴ مع الدولة العثمانية 947/1540م ، والتي فضّلت مصالحها التجارية لدى الدولة العثمانية ، وبدون أسطول البندقية فان العصبة المسيحية لا تستطيع مواجهة البحرية العثمانية ، فقرر شارل الخامس أن يركز جميع مصادره وموارده المتاحة في الغرب ليهزم القبضة القوية للدولة العثمانية في الجزائر وبذلك يستكمل برنامجه في تأمين الجناح الأيمن لامبراطوريته⁵ ، وقاد شارل الخامس بنفسه حملة على الشمال الإفريقي هدفها الجزائر في 948/1541م⁶ .و لم تعترف إسبانيا بتبعية الجزائر⁷ إلى الدولة العثمانية فقامت بمهاجمتها سنة 1541 م⁸ ، حيث شاهد سكان مدينة الجزائر أشرعة الأسطول العثماني

¹Leopold Von Ranke,op,cit,p116 .

² - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج2، ص 918 .

³Leopold Von Ranke.op.cit,p116 .

⁴ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 97 .

⁵Nicolas Durand De Villegation,op.cit,p114.

⁶J.S.Show,op.cit.p.

⁷ - الجزائر بقيت الوحيدة كالشوكة في جنب الاسبان ، وهذه الحقيقة هي ما أظهره خير الدين في الحال وبطريقة دراميتكية، فبينما كانت الإمبراطورية الاسبانية تحتفل بانتصار ملكها في تونس أنظر: جون.ب. وولف، مرجع سابق، ص50.

⁸H.D.De Grammont,op.cit,p59 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

تغطي الأفق كله ، كان عدد السفن كبيرا جدا بحيث يصعب تعدادها وقد علم حسن آغا حاكم الجزائر أنّ الإسبان يستعدون للحملة إتخذ كل التدابير والإستعدادات اللازمة لمواجهةهم من تحصينات وغيرها¹ بعد المواجهة إنهزم شارلكان² نتيجة العاصفة والأمطار الغزيرة ثلاثة أيام بلياليها مما أرغم شارلكان الإنسحاب وأسر العديد من الجنود الإسبان³ وفقدان العديد من السفن .

كان من أهم العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية وحملته القوية هو إلتفاف الجزائريين حول حسن آغا وأهم من ذلك النجدة العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان إلى حسن آغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلموا اسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزا لشوكة المسلمين وهذه الهزيمة هي أكبر هزيمة مني بها الامبراطور شارلكان في حياته، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فقالوا في رسالة أرسلوها إلى السلطان سليمان، أنّ الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده "بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحا عاصفا و موجا قاصفا ، فجعلهم بسواحل البحر بين أسير وقتيل ، ولا نجى منهم من الغرق إلاّ قليل " ⁴ وكانت مغامرة استعراضية غير محسوبة النتائج فتظافت عدة عوامل للقضاء على هذه الحملة قضاء مبرما دون تحقيق أي هدف من أهدافها منها الصلابة والدفاع المستميت وسياسة الكر والفر التي أبداها الجنود المحليون ، والرياح الشديدة والأمطار المصاحبة لها التي عصفت بالأسطول ولم تعط مجالا للغزاة حتى الفرار ، تلك العواصف عندما هدأت كانت

¹ - نيقولاي إيفانوف، مرجع سابق، 139.

² - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، مرجع سابق، ص32.

³H. de Grammont,op.cit,p65.

⁴ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، صص919، 920.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

الكارثة التي حلت بالحملة التي لم ينجوا منها إلا من حالفه الحظ في الإفلات من القتل أو الأسر وكان الامبراطور من بين الناجين.¹

وترتب عن الحملة نتائج عديدة ليست الخسائر الكبيرة التي منيت بها الحملة في الأرواح والعتاد أو الغنائم الكثيرة التي حصل عليها الجزائريون، والتي صار يضرب بها المثل، أو الأحران التي تلتها في أوروبا المسيحية، أو ما ناله حسن آغا و أعيان الجزائر، وأهلها من تقدير السلطان العثماني² لكن هزيمة الإمبراطور شارل الخامس في الجزائر أدت إلى سيادة خير الدين المطلقة ومن ورائه الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي وترسيخ دعائمها في المنطقة وتزعزع مركز الاسبان في وهران وبقية الجيوب الأخرى .

وكان انسحاب البرتغاليين من أمام السعديين الذين تلقوا مساعدات عثمانية قيمة من سلاح المدفعية والآلات الحربية الأخرى من حصن سانتا كروز وآسفي كما أدى إلى توثيق التعاون الفرنسي العثماني ، لا سيما في البحر المتوسط وتعهد خير الدين بحماية الشواطئ الفرنسية المتوسطية إلى اسراع الملك الفرنسي بخرق معاهدة نيس في عام 1544 ، ومهاجمة إيطاليا بالتعاون مع خير الدين³ الذي أثار وجوده على رأس الأسطول العثماني مشاعر الهلع في عموم شبه الجزيرة الإيطالية⁴ كانت فاتحة صراع طويل ، غالبا ما كان غير محدد الشكل⁵ ، بين إمبراطورية الهابسبرغ في البحر الأبيض بقيادة شارل الخامس ثم ابنه فليب الثاني من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى ولقد لعبت الجزائر دورا هاما بقيادة خير الدين وإبنه والجدير بالذكر أنّ الشعور المشترك لرد العدوان المسيحي هو الذي قوى الرابطة بين العثمانيين وسكان الجزائر فالعلماء والمرابطون يزكون الوجود العثماني بالجزائر وفي المقابل

¹ - عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 164 .

² - عمار بن خروف ، مرجع سابق ، ص 31 .

³ Petitjean Johann, op. cit, p265 .

⁴ - جاسم محمد شطب ، مرجع سابق ، ص 71 .

⁵ Albert Devoulx, op. cit, p3 .

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

العثمانيون يعفونهم من الضرائب ويخصونهم بالكثير من الامتيازات¹ وبقي يطلق عليها مسرح الحروب والقاعدة الغربية للدولة العثمانية ، لقد كانت الجزء الإسلامي القريب من الجزيرة المحصنة لفرسان القديس يوحنا في مالطة²

4- التصدي العثماني لفرسان مالطا في ليبيا 1551:

تعد ليبيا محطة من محطات الصراع العثماني الإسباني³ في المتوسط ومجابهة فرسان القديس يوحنا⁴ الذين أرادوا أكثر من مرة نقل عاصمتهم إلى طرابلس وكانت مدينة عظيمة الأهمية لمختلف القوى المتصارعة إذ عدها الفرسان يوحنا موقعا متقدما في الدفاع عن العالم المسيحي على الشرق الإسلامي ، وإن استبقاء الاستكمان منها يؤمن الحماية لممتلكاته في إيطاليا ولا سيما جزيرة صقلية القريبة⁵ ، فضلا عن تأمين الملاحة في البحر المتوسط ومنها يمكن تقديم الدعم للحكم الحفصي الموالي له في تونس.

أما أهميتها بالنسبة للاستراتيجية العثمانية فإنها تشكل نقطة ارتكاز القوى تقع بين الممتلكات العثمانية وهي للجميع مدينة ذات أهمية إقتصادية قصوى⁶ وهذا ما قام به دون خوان دي فيقا عام 1550⁷ والذي استطاع من خلالها إحتلال المهديّة حيث طلبت النجدة من الدولة العثمانية واستجابت الدولة العثمانية لطلب النجدة واعتبر سليمان ذلك إنتقاضا للهدنة وقرر إستئناف العمليات العسكرية وتمت الاستعدادات بسرية تامة عندما خرج الأسطول العثماني

¹ - كمال بن صحراوي ، مرجع سابق ، ص 28 .

² - حيث كان هؤلاء الفرسان يعيشون في جماعة من الحكام المحاريين ويحكمون الجزيرة ويكونون قاعدة لنشاط البحارة ذي الطابع الصليبي. أنظر: جون.ب. وولف ، مرجع سابق ، ص 60.

³ - ظلت طرابلس تحت الحكم العثماني مدة عشرين عاما حتى ألقى الامبراطور شارلكان عبئ الحفظ على المدينة على عاتق فرسان القديس يوحنا كي يتفرغ لمواجهة تونس والجزائر وخطط سليمان القانوني في أوروبا الوسطى.

أنظر: عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 928.

⁴F. Bruadel,op.cit,T2,p239 .

⁵ - عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 928.

⁶ - جاسم محمد شطب ، مرجع سابق ، ص 71.

⁷ - نيقولاي إيفانوف ، مرجع سابق ، ص 265.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

قوامه 140 سفينة إلى عرض البحر بقيادة القبطان يوسف سنان¹ في 5 أوت ظهر الأسطول العثماني قبالة مدينة طرابلس²، وحقق العثمانيون إنتصارا كبيرا³ وهكذا فتح العثمانيون ليبيا خلال أسبوع واحد وعين مرادآغا⁴ زعيم المنتفضين أول بكلكريك على ولاية طرابلس الغرب الجديدة وأقسم على إحترام القوانين العثمانية وتطبيقها.

ومن نتائج وقوع طرابلس الغرب في يد العثمانيين، تصاعد الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط عامة وفي الشمال الإفريقي خاصة ولقد استفاد العثمانيون كثيرا من وقوع طرابلس في أيديهم، فقد تحولت تجارة إفريقيا التي تتركز في تاجوراء⁵ إليها، حيث ازدادت حركة التبادل التجاري المتمثلة في التوابل والعبود والذهب بين طرابلس وداخل إفريقيا⁶، كما أنّ سقوط طرابلس في يد العثمانيين قد نبّه أوروبا المسيحية إلى الخطر الكبير الذي تمثله هذه القوة الصاعدة التي تسعى إلى مزيد من الإنتصارات العثمانية على الساحل الإفريقي والذي من شأنه تهديد الدول الأوروبية، فضلا عن تهديد آخر المعازل الإسبانية في حلق الواد ووهران، لكن لم تظهر طرابلس الغرب ولن تلعب دورها السياسي والعسكري إلا في عهد الرئيس طورغوت الذي تولى إمارة طرابلس عام 1558 م بفرمان سلطاني⁷.

¹ - وهو أميرال بلاط الباب العالي والأخ الشقيق للوزير الأكبر رستم باشا. أنظر: نفسه، صص 265، 266. ²Haji Kalifeh, op. cit, p70 .

³ - عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 929.

⁴ - نفسه، ص 929.

⁵ - وصفها الوزان فيقول تاجورة بادية بعيدة على نحو ثلاثة أميال شرق طرابلس وتوجد فيها عدة قرى مع بساتين مغروسة بالنخيل وفيرة بالأشجار المثمرة، وقد عادت حصينة لأن عدد من المدنيين لجأوا إليها. أنظر: حسن الوزان، مصدر السابق، صص 110، 111.

⁶ - محمود تاجي، تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس، 1970، ص 146.

⁷Haji Kalifeh, op. cit, p70.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

قامت عدة محاولات مسيحية لإعادة احتلال طرابلس بعد سيطرة العثمانيين عليها،¹ فنادى البابا بيوس الرابع الدول المسيحية، بأعداد جيش صليبي ضد العثمانيين، ولقد لقي هذا النداء استجابة، فقامت مدن إيطاليا، وكذلك اسبانيا وصقلية بالتحضير للحملة، وكان التخطيط المرسوم لها، أنه سيتم احتلال طرابلس ويترك فيها أسطول مالطة وصقلية وذلك لمنع السفن العثمانية من العبور الى غرب حوض البحر المتوسط.

وبذلك لا تستطيع الجزائر أن تتلقى النجدة من العاصمة، وتعتمد على قواتها الخاصة، ثم تهاجر الجزائر ويتم إخراج العثمانيين من إفريقيا الشمالية، خاصة بعد أن تمكن الاسبان من استمالة حكام المغرب إلى جانبهم وقرروا أن يقوموا باحتلال أقاليم الجزائر الغربية²، أما تونس فأنها كانت تابعة لاسبانيا.

وبعد التأكد من ذلك من طرف الدوائر العثمانية استنفرت قواتها وأخذت بعض المراكب من أسطول رودس لمضاعفة قواته وحراسة تلك الجهات، وأمام تلك الاستعدادات العثمانية لمواجهة الحلف الصليبي، لقي المسيحيون هزيمة ساحقة سنة 968هـ/1560م³ إلا أنهم مع ذلك استطاعوا احتلال جزيرة جربة⁴، بعد أن قضى على معظم قواتهم عندما تخلى عنهم أسطولهم وبذلك صار للعثمانيين قاعدة مهمة في طرابلس⁵، وحلقة أخرى في سلسلة مع الجزائر، كما صار لدى الدولة العثمانية مواقع ونقاط أمامية أخرى على ساحل شمال إفريقيا⁶ وقعت بالتدريج في أيدي المسلمين، واستمر السلطان يرسل أساطيله القوية لتهاجم سواحل البحر المتوسط المسيحية، ولكن كانت نقاط ضعف لم تمكن السلطان من الضغط

¹ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص553.

² Haji Kalifeh,op .cit,p70 .

³ - اسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص552.

⁴Ogier Ghislen DE Busbecq,op.cit,p115.

⁵W.E.P.Allen,op.cit,p38.

⁶ Colin Imber,op.cit,p288.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

المتواصل ، ومنها انشغاله بالحرب مع الصفويين¹ وشعوره بعدم الثقة من التعاون مع فرنسا، إذ أنه عبرت الأساطيل العثمانية المسافات الواسعة للبحر المتوسط ، ولم تستطع تلك الأساطيل على تحقيق السيادة والتفوق البحري في غرب المتوسط لقد كان عامل المسافة أكسب اسبانيا مهلة واستراحة ومع ذلك لا زال السلطان العثماني يواصل جهوده في تقوية أساطيله البحرية ، التي أثبتت من خلال ما سبق على مقدرتها في تطوير نفسها ، لتنفيذ مشاريع الدولة في استراتيجيتها الخاصة بقضايا البحر المتوسط².

5-حصار مالطا 1565:

لا شك أنّ مالطا مظهر بارز من مظاهر الصراع الإسباني العثماني في المتوسط وآخرها في عصر السلطان سليمان القانوني فبعدهما أشار عليه مجلس الشورى المنعقد في إستانبول والذي أكد على طرد الإسبان من شمال إفريقيا نهائيا وفتح مالطا ، أولا لأنها قاعدة تعرقل حركات الأسطول العثماني على طريق إفريقيا الشمالية وقيامهم بكل أنواع القرصنة³ في حوض البحر الأبيض المتوسط

فبعد استتباب الأمن في شرق البحر المتوسط شعر المسلمون بالأمان بعد استلاء العثمانيون على رودس⁴ ، بدأ فرسان يوحنا الخروج عليهم مرة أخرى من جزيرة مالطا⁵ ، لكنهم هذه المرة أكثر تحصينا وأقوى عتادا إلى جانب أنّهم أصبحوا حلفاء للإمبراطور شارلكان⁶ ، الذي اتخذهم أداة من ضمن أدواته لشل حركة الملاحة الاسلامية بين حوضي البحر المتوسط بعد أن

¹Haji Kalifeh,op.cit,p24.

² - محمد رفعت، مرجع سابق، ص42.

³ - والقرصنة كانوا يقومون بها في رودس قبل أن ينتزعها منهم سليمان القانوني في أوائل حكمه وهو الآن في أواخرها أراد أن يأخذ قاعدتهم هذه الأخرى. أنظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع السابق، ص342.

⁴ - حاجي خليفة، مصدر سابق، ص289.

⁵ Ernle Bradford, The Great Siege, Hardford and Stoughton, London, 1961, p21

⁶ Ibid, p21.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

تمركزوا في مالطة¹ ذات الموقع الاستراتيجي، فضلا عن وقوعها بالقرب من الساحل الإفريقي ودعمها على آخر المعامل الإسبانية في حلق الواد ووهران والمرسى الكبير² وثانيا الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به الجزيرة في حوض المتوسط وتحديدًا بين الضفتين الشمالية والجنوبية، تونس وإيطاليا والسيطرة عليها توفر السيطرة والتحكم على البحر المتوسط.³

جمع سليمان وزرائه وقادة البحرية لاستشارتهم في التهديدات المنطلقة من مالطا فأشاروا عليه بفتح مالطا⁴ ورصد لذلك قوة بحرية كبيرة⁵ حيث أبحر من استانبول في ربيع عام 1561م أسطول يحمل القوات التركية ومن ضمنها آلاف الانكشاريين وبلغ سواحل مالطا قبل وصول أسطول طورغوت، لكنه مع هذا وقف موقفا معارضا هو والقائد قلج علي باشا اللذان ألحا على توجيه الحملة إلى قلعة حلق الوادي ووهران، باعتبارهما امتدادا للقرعة العثمانية وأن خطرهما أشد تأثيرا، هذا فضلا على أنّ مالطا التي تعتبر أحد القلاع المحصنة المسيحية، والبعيدة عن الأراضي العثمانية، مع أنّ هذا فإنّ الرؤية العامة للاستراتيجية العسكرية والبحرية العثمانية حولت اهتمامها إلى مالطا في البداية⁶ الذي كان يدرك جيدا حساسية موقع جزيرة مالطا وخطرها على الملاحة العثمانية وسلامة الولايات العثمانية في الشمال الإفريقي لم ينتظر السردار التركي وصوله فأنزل الجيش في خليج مارسا شاوك وبدأ

¹Haji Kalifeh,op.cit,p26 .

² - أحمد سالم، مرجع سابق، ص140 .

³ - محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص97.

⁴Ernel Bradford,op.cit,p15.

⁵ - تكونت هذه القوة من 40 قردعة و10 ماوتات و20 سفينة مدورة و10 سفينة للنقل من نوع فره وكانت قيادة

الأسطول بقيادة بيالة باشا، أما قيادة الجيش فكانت موكلة إلى الوزير مصطفى باشا. أنظر: F.Braudel ,op .cit,T2,p323.

⁶ - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية، مرجع سابق، ص74.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

حصار قلعة¹ سانتا ماريا ولما وصل طورغوت باشا، بسفنه إلى سواحل مالطا كانت أعمال الحصار في أوجها².

على الرغم من الإستلاء على القلعة برأي القائد الخبير لأسطول البحر المتوسط، لم يكن ذات أهمية إذ لم يتم فتح الجزيرة برمتها بحيث ظهرت طلائع الأسطول العثماني في 18 ماي 1565م وكان لها أثر ووقع العاصفة في النفوس في الغرب، ومع هذا انسحب الأسطول دون فتح الجزيرة في 8 سبتمبر من العام نفسه³ ومن أسباب فشل الحملة يعود إلى القحط وتفشي الأمراض في صفوف الجيش العثماني الذين استولوا على أرض الجزيرة⁴ وتوقفوا أمام حصن سانت ألم إذ حاصروه ولم يتسن لهم فتحه واقترب موسم الشتاء ولم تصلهم النجدة ولا الذخائر من استنبول.⁵ بينما السبب في فك الحصار عن جزيرة مالطا هو استبسال فرسان القديس يوحنا في الدفاع عن الجزيرة مما كلف العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وهو ما أرغمهم على فك الحصار.⁶

وكان لفشل العثمانيين في الاستلاء على جزيرة مالطة⁷ عدة نتائج أهمها، بداية الاتجاه الأوروبي بتكتيل القوى المسيحية للعمل المشترك للقضاء على العثمانيين، وهذا ما سوف يؤدي إلى الحلف المقدس الذي تزعمه البابا، وقد كان إنتصار فرسان القديس يوحنا دافعا قويا لهم

¹Ernle Bradford,op.cit,p58 .

² - إيرينا بيتروسان، مرجع سابق، ص 162.

³Melin kunt and Christine Woodhed,op.cit,p53 .

⁴ - هارولد لامب، مرجع سابق، ص 331.

⁵F.Braudel,op.cit,T2.p322.

⁶ - عايض بن خزام الروقي، مرجع سابق، ص 560.

⁷Sir Valentine Chirol and Lord Eversley,op.cit,p127.

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

على استرجاع طرابلس الغرب التي عهد بولايتها إلى قلع علي باشا بعد استشهاد الرئيس طورغوت.

وقد أدى هذا الانتصار أيضا إلى تعزيز معنويات الاسبان وعملهم على زيادة تحصينات قلاعهم في الشمال الإفريقي وزيادة حركتها البحرية وتركيزها على البحر المتوسط¹ ولم يكن انتصار مالطا منفصلا عن الانتصارات المسيحية فسيكون له تأثير قوي على زيادة التحرك العثماني في مياه المتوسط خاصة الغربية لتدارك النتائج السلبية لهذه المعركة على الصعيد المتوسطي والشمال الإفريقي.

¹ - أحمد سالم، مرجع السابق، ص 146.

الخاتمة

تناول هذا العمل موضوع السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني خلال القرن 10هـ / 16م وهي فترة مفصلية في تاريخ الدولة العثمانية وصل فيها العثمانيين إلى قمة مجدهم وجبروتهم ومن بعدها مباشرة بدأ الضعف ومن ثم الانحطاط وبالاعتماد على المصادر والوثائق التي توفرت لدينا عن هذه الحقبة بالخصوص مجموعة الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ، حاولنا دراسة الموضوع من بعض جوانبه وتأثيره على مسار العلاقات الدولية آنذاك حيث توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط التالية :

- هناك اعتبارات جغرافية وايدولوجية تحكمت في السياسة الخارجية للدولة العثمانية فلقد أدت الجغرافيا دورا هاما في قيام الدولة العثمانية بالإضافة أنّ الأقاليم التي فتحت كانت بفضل سياسة سلاطينها المتحمسة لسياسة الفتوحات المرتكزة على مفهوم الغزو والجهاد المستمدة من المرجعية الإسلامية كما أنّ روح الشجاعة الحربية المقترنة بالحنكة والمرونة و الحكمة مكنتهم من التغلب على خصومهم وتأسيس دولة قوية استطاعت استيعاب ما سبقها من حضارات و إدارتها في فلكها لعدة قرون.

- يعتبر السلطان سليمان القانوني من أعظم السلاطين العثمانيين وآخر العشر السلاطين الأقوياء حيث قامت على جهودهم عظمة الدولة العثمانية ومجدها من حيث التوسع الإقليمي ووضع الأنظمة السياسية والعسكرية والإدارية ثم جاء من بعدهم جيل من السلاطين لم يرتقوا إلى المكانة التي وصلها العشر الأوائل.

- استحق السلطان سليمان لقب القانوني لأنه أفضل من قام بتحرير القوانين و تطبيقها بتحري سياسة العدل بين مختلف الطوائف العرقية والمذهبية كما أدخل العديد من الإصلاحات في أنظمة الدولة أهمها الإصلاحات التي أدخلت على نظام الجيش ، القضاء ، الإدارة والعلماء والمدرسين ، بهدف حفظ كيان الدولة وتنمية مصالحها وزيادة نفوذها في

النظام العالمي ووضعها في موضع الإنطلاق إلى العالمية وبالتالي المساهمة الفعالة والكبيرة في إبراز الوجه الحضاري العثماني.

- تعاضم الموقع الجيوسياسي للدولة العثمانية باتساع رقعتها الجغرافية في عهد السلطان سليمان القانوني فقد وصلت إلى أقصى اتساع لها بعدما كانت مساحة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم قد بلغت 6.5 م/كلم² ويرجع ذلك إلى امتداد حدودها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بوصولها إلى الحدود السويسرية وبسط نفوذها على جل أوروبا الشرقية وجزر البحر الأبيض المتوسط واليمن والحبشة والعراق وبلاد المغرب الإسلامي باستثناء المغرب الأقصى.

- اخترق العثمانيون الصف الأوروبي باستغلال الورقة الاستراتيجية البروتستانتية على مستوى سياستهم الخارجية وكسبوا خلالها مزايا عديدة وأصبحوا قوة مهيمنة وفاعلة في المنطقة لمدة طويلة تزيد عن ثلاثة قرون خاصة بعد فتح المجر، كما انتصرت الجيوش العثمانية على النمسا في عدة مواقع وحوصرت العاصمة فينا مرات عدة رغم ذلك لم تستطع تجاوز عقبة النمسا للمرور إلى أوروبا الغربية وإيطاليا مركز البابوية بسبب تعدد جبهات القتال خاصة الجبهة الشرقية التي أوقفت مرارا المد العثماني نحو أوروبا عند فينا.

- فيما يخص الصراع مع العالم الإسلامي حاول سليمان أن لا يتورط في المستنقع الصفوي كثيرا فعقد معهم اتفاقيات صلح أهمها صلح أماسيا، وعامل الشيعة في العراق بعد ضمها معاملة حسنة حيث قام بترميم مقدساتهم كما رمم مقدسات السنة على حد سواء في موقف استعابي كبير للمكونات الحضارية على إختلاف انتماءاتها الطائفية والمذهبية التي ميزت المجتمع الإسلامي .

- جعل السلطان سليمان القانوني في عهده اليمن قاعدة استراتيجية ضد القوى البرتغالية ومحطة اتصال في التعامل مع أجزاء العالم الإسلامي في كل أعماق إفريقيا وآسيا .

- دافع العثمانيون عن البحر الأحمر بشراسة نظرا لأنّ الأماكن المقدسة في الحجاز مطلة عليه وإزاحة القوى التي تهددها هناك وإقرار الأمن على حدودها في إفريقيا الشرقية ولذلك قاموا بضم الحبشة ذات الأهمية الاستراتيجية حيث نظرت إليها السلطات العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني معبر إلى إفريقيا الإستوائية، وحلقة بين الدولة العثمانية وشرق إفريقيا عن طريق دعم الإمارات الإسلامية وحماية المسلمين في المنطقة باعتبار السلطان سليمان القانوني زعيم العالم الإسلامي والحامي لهم .

- بدا واضحا في منتصف القرن السادس عشر أنّ البرتغاليين عجزوا عن حماية مراكزهم في الخليج والبحر الأحمر لحماية تجارتهم وتمكن العثمانيون بعد سيطرتهم على البحر الأحمر من إحياء مسالك التجارة الدولية القديمة عبر اليمن والحبشة وانتعشت من جديد تجارة التوابل و سلع الشرق عبر البحر الأحمر بل أدى نشاط الأسطول العثماني في المياه الشرقية إلى تخليص المنطقة من الخطر البرتغالي وتأمين الأماكن المقدسة في الحجاز.

- بذل العثمانيون جهودا كبيرة لبناء أسطول قوي لمواجهة تحديات الاسبان في البحر المتوسط كما اتبع العثمانيون استراتيجية مضبوطة في مجال البحرية بفضل رجال البحارة الذين اختارهم السلطان سليمان القانوني على رأسهم خير الدين بربروس مما مكن الدولة من السيطرة على البحر المتوسط غربه وشرقه طيلة مدة حكمه والحفاظ على الكيانات الإسلامية في شمال إفريقيا وبرزت الجزائر كقوة سياسية وقاعدة عسكرية فعالة في مواجهة الاسبان .

- تمكن العثمانيون من تثبيت أقدامهم في الممرات الحيوية والسيطرة على المنافذ البحرية مما أدى إلى إحراز مكاسب إقتصادية واستراتيجية وسياسية وأداروا الصراع بتفوق لا سيما أنّ اسبانيا كانت منافس عنيد في غرب البحر المتوسط فوجهوا اهتمامهم للأسطول واستولوا على جزر عديدة أهمها القلعة الحصينة رودس وسواحل إفريقيا الشمالية بعد

تحريرها من الاحتلال الإسباني وبذلك أصبحت سيادة الدولة العثمانية البحرية غير مقصورة على شرق المتوسط بل تجاوزته إلى الغرب كذلك.

- رغم هذه المظاهر الإيجابية للسياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني فإن سياسته لم تخلوا من بعض السلبيات وبالرغم من بلوغ الدولة العثمانية في عهده أوج مجدها من النفوذ الدولي والقوة السياسية والعسكرية والتوسع الإقليمي إلا أنّ مقدمات ضعف الدولة قد برزت في عهده أهمها العواقب الوخيمة الناتجة عن النزاع ضد الصفويين الذي ساعد بشكل مباشر في إضعاف قوة العالم الإسلامي ولم يستفد من هذا النزاع إلا القوى الأوروبية المتربّصة بالمنطقة على رأسها إسبانيا و البرتغال اللتان كانتا محركان مجريّات الصراع الدولي الشرس ذو الآثار الخطيرة ، كما أنّ زيادة الثروة بسبب الفتوحات أدت إلى الكثير من الترف والدعة بالإضافة إلى التغيير على مستوى قيادة الجيوش ناتج عن إيقاف السلطان سليمان القانوني تقليدا عثمانيا مهمة قيادة السلطان بنفسه الجيش الانكشاري مما أثر على مسار الفتوحات العثمانية .

كما أثر ابتعاد السلطان سليمان في آواخر حكمه و السلاطين الذين جاءوا من بعده عن مجريّات الأحداث الداخلية والخارجية إلاّ ما ينقل لهم من وشايات وبالضبط عندما ترك السلطان سليمان القانوني حضور الديوان و إدارة شؤون الدولة بمنح الصدر الأعظم صلاحيات واسعة دون الرجوع في الكثير من الأحيان إلى استشارة السلطان. ناهيك عن الامتيازات الأجنبية التي حطّمت إقتصاد الدولة العثمانية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الخارجية .

الملاحق

رسالة من السلطان سليمان القانوني إلى المطهر شرف الدين 1544م

اجداد علويت شاد صاحب شهر يار بدنه سلطان سليمان خان ابيهم خان حضرتي
جاننده بيده مطهر ابي شرف الدين بعت بولشه اولو نامه له ايوته شوكت
مقدون جلا نظامك صورت منقسي بسمه تاريخه زنده كور طله تينا بروجه
نقل ونتمه

هذا شأن الشريف السلي وخطابنا اليه السلطان الخاقاني العالي البكري النصري
الهامي المطهر الشريف الحسيني شيخ البصرة الزكي وطرز العصاة العلوية نسوا لعدالة
الاشيية الشريف المطهر ابي شرف الدين فخصه بالعلم اتم وتناو اعلم ونحو لعلمه الكريم انه
لا يزال يتضمه سامعنا الشريفه اخلاصه لدينا وقيامه بقلبه وقالبه بمرضات سلطاننا وانقياده
الى ضابنا ومقتضى ذلك انه حصل شكرنا التام والتناء العلم على مناصحته ومطابته ولما برزت
وامرنا الشريفه سامعيه طبيعيه ووزيرنا الاعظم سليمان باساقمه اه برصته نقضالى البلاد
الهنديه لفتح تلك الولاية الهنديه احياء لسة الجهاد وقطع وابرفساد والعباد واستبريدك
كل مسلم وصاروا مسرورا ودفع ما قدره وكان امره قدرا مقدورا فرجع وزيرنا المشار اليه
فوجد طائفة اللوده تملو بلاد زبيد من المملعة البمانية وحصل منهم غايه المنفعة بالابناء
للدعيه وازداد ظلمهم على العباد والبلاد وعم ضررهم كل واحد وناد فتبع آثارهم وقطع ابرهم
واستنفذ الرعايا من ايديهم وصارت مملكة زبيد من حمله مالك الشريفة وعادته الى اعنابنا المنيفه
وابرز منه يده مكولكم وكولب والدم يتضمه فيهم الاخلاص في سلطاننا وانها صاروا من اعنابنا
ومنه اللانديه باعنا تم عقب مكاتبة والده على باب سعادتنا وبلغت بعدنا واسأل ذلك
وصولنا وحصل عندنا لهم زيادة المحبة والمصادقة والموافقة وتحققا ما كانه بلغ عنهما على السنة
المتردين على اعنابنا الشريفه من تلك الديار وانها صاروا من اعنابنا ومملكتها من حمله مالكنا
ديفعا الان عنهم خلاف ذلك وتغير ما كاننا نابه في الساحة كل غير مطابته وانه دفع بيننا
وبينه امرنا الشريف وعكروا بيننا الحيف تلك البلاد ضاعه كثير حيف ودفاعهم عم ضررها
الايبر والمهور وهذا عبه الخطا المحض المترتب عليه وهاب الارواح لمه فان له عقل وضمم رايه

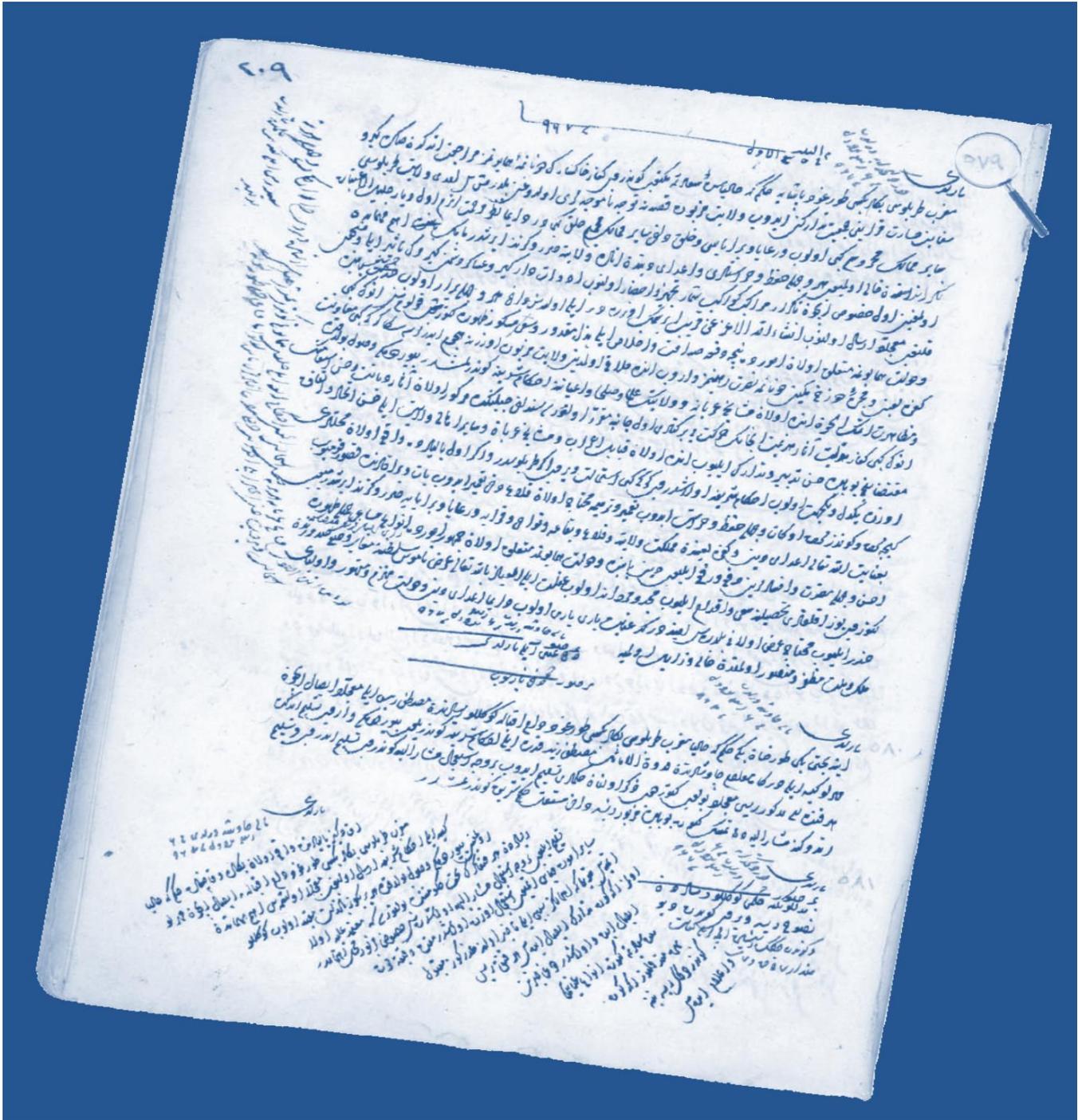
94/2

لويغير بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم « فالآن شأننا الشريف المنصف قد صلبت بساط الاصله شرفنا
 وغربنا وبعدا وثربنا وصارت سلطاننا الفاهرة الشريفه كابرير المصفا والخاصة المنصفا ونتم سبل
 سعادتنا هذا بايات النصر وفتحنا العز في شرفنا والعز على الهد العصر واستتم فخرنا على سائر
 الملوك على جواد الجلال الى يوم العصره « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وامانا يرفع الله من يشاء من الارضه
 وعانكنا المنصوره انما انخرطت فرطه وانما سقطت لقطت وحيثما كنت ملكت وانما سقطت عقدت
 وانما سقطت فقلت لا يعجزكم صغر ولا كبير ولا عيب ولا خفي ولو سئلنا لقمنا معه كمننا المنصوره شرفه
 قديون نحو ماة الف اوزيون شاتا وركبنا من البحر والبر لا وامرنا وامرنا فمتلون ونقوى عدومهم الاقطه
 وشرفهم بالفضة والآلة والزراد ونسج العسكر العسكر وعلى البحر والبر ونحوه الجيسه بالجيسه من كل اسود واجر
 حتى يصل اول عسكرنا باخرهم وواردهم بصاردهم ويكون اولهم في البلاد العماليه واخرهم في مملكتنا المحليه
 ولا يحتاج لغزهم على قدر سلطاننا وتيسر اركان دولتنا وشهد بغيرنا فان الملوك ذوى التجار وصحاح القعود
 والامطان لا يزالون خاضعون لسيبتنا الشريفه فهدا عليهم مطا طمبه رؤسهم خشية مما جعل بهم عند الخالفه
 وذلك شهور ومعلم ظاهر ليس بمقوم فلهذا علمنا عليه من تعبد الطايه اليه كونه سلاة سيد المرسلين
 ومن آل بيت النبوة المطهرين وللازم على ناول سلطاننا الشريفه وحيثما ان نبيه قبل تواع الخمره عليه
 وان تعرفه بقضا الامور مما يحل به ويصير اليه وكونه الى الخيال تجصده على عهد الزوال وزعم ان ذلك يحبه
 وهذه حليه الخيال وتبديه تبيره على كل حال وامر بطول عليه في كل حال صرح ذلك اعلم « لا اعلم
 اليوم من امره الامه صم « ايه المضر كلالا لوزر وللا ربه من سلطاننا الشريفه فمر وقد اقتضت
 ارزنا اليه واورنا الشريفه بتعبه افتخار الامرار الكرام ذوى القدر والاهتمام صاحب الف والاهتمام
 المحض بتبدير رعاية الملك العليم مططفه باننا ذات معدته وصرت حضرتته ونفذت كلمته لا باننا
 المحض بتبدير رعاية الملك العليم مططفه باننا ذات معدته وصرت حضرتته ونفذت كلمته لا باننا
 على العسكر عيه وصحة قدر ثلاثة الاف من خدمنا المنصوره بالله تعالى منبر شاتا ورماتا وحماتا
 وكماتا معونة لا يبر الامرار الكرام ذوى القدر والاهتمام ازدر باننا ذات معدته وصرت حضرتته
 وكماتا ايضا قسلا بعدتوا وعلقتوا واحيا على منبر فضيه على ما مضى الشريفه مططفه باننا الى
 بان نوض فخرنا الجول المذكوره الى حبه يومه الى تلك المرحلت البينه والنظر في الازوال وما اهل تلك
 الاقطار عليه من ذلك فاذا وقع من هذه خلاف واصحاب الجول المذكوره فبجبه البنا بطمبه وطلبه
 اليه على ما يجب الى ما يجب فاخرنا ذلك الى ان يعود الجواب بتخصيه هذه الاخبار عنه الامام وولده

٧٠٤٤

مؤمن بلدين طاش، اليمن في العهد العثماني، ترجمة صالح السعداوي، ارس استانبول، 2008، صص 246، 247.

حكم إلى طورغوت باشا بكربكي طرابلس الغرب حول ضرورة التحرك بمشاركة القبائل العربية
والمشايع وسائر أهالي الولاية من أجل حمايتها ضد تعديت العدو 1559م



أوغور أونال، مرجع سابق، ص 26

البيليوغرافيا

أولا : الوثائق العثمانية المنشورة.

أ/ الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة.

- بيات فاضل (إعداد وترجمة ودراسة)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية (النصف الأول من القرن 10هـ/16م) المجلد الثاني، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2010.

-، البلاد العربية في الوثائق العثمانية أواخر عهد سليمان القانوني، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2014.

ب/ دفاتر الرؤوس :

- خليل محمد محمود ، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي، الجزيرة العربية، ولاية الحبش، المحيط الهندي، المغرب العربي)، الجزء الأول، الأكاديمية المصرية للتاريخ والتراث والفنون، القاهرة، د.ت.ن.

ثانيا : المصادر

- باللغة العربية والمعربة :

1. ابن إياس محمد بن أحمد (ت.930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4 و5، تحقيق محمد مصطفى، مطابع الشعب، القاهرة، 1960.
2. ابن بطوطة أبو عبد الله اللواتي (ت.797هـ/1377م)، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، المكتبة التجارية المصرية، القاهرة، 1958.

3. ابن زنبيل الرمال أحمد(ت.1572م) ، آخرة المماليك ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الطبعة الثانية ، مطابع الهيئة الحديثة للطباعة والنشر ، مصر ، 1998.
4. ابن طولون الدمشقي محمد(ت.953ه) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1998 .
5. الإشبيلي اللخمي علي بن محمد ، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، تحقيق هانس ارنست ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر1962.
6. الأفراني أو الوفراي محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي(1151ه) ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تحقيق هوادس أنجي ، مطبعة باردين ، باريس ، 1888.
7. البديسي شرف خان(ت.1543) ، شرفنامه ، في تاريخ سلاطين آل عثمان ومعاصريهم من حكام إيران وتوران، ترجمة محمد علي عوني ، دار الزمان ، دمشق، 2006.
8. بن لطف الله شرف الدين عيسى (ت.1048ه/1638م) ، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، تحقيق ابراهيم بن أحمد المقحفي ، الطبعة الأولى ، مركز عبادي ، صنعاء ، 1424 ه / 2003م.
9. حاجي خليفة ، تاريخ ملوك آل عثمان ، تحقيق السيد محمد السيد ، مؤسسة العالي آتاتورك للثقافة واللغات والتاريخ ، أنقرة ، 2009.
10. الحلبي ابن أجا محمد بن محمود ، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار ، تحقيق محمد أحمد الدهان ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، 1986 .

11. الحنبلي رضي الدين بن محمد ، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب ، جزئين ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1973.
12. الخطيب لسان الدين (ت.767هـ، 1313م) ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عنان محمد عبد الله ، جزئين ، دار الكلمة ، القاهرة ، 1988.
13. السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولد المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري ، تسعة أجزاء ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955.
14. طاشكبري زادة عصام الدين (ت.968هـ، 1561م) ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1395هـ/1975م.
15. العباسي عبد الرحيم عبد الرحمان (ت.963هـ/1556) ، منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق فيصل بن عبد الله الكندري ، منشورات جامعة الكويت ، الكويت ، 1418هـ، 1998م.
16. الغزي نجم الدين (ن.964هـ/1561) ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، ثلاثة أجزاء ، مطبعة الجامعة الأمريكية ، بيروت ، 1945.
17. الفشتالي أبي فارس عبد العزيز بن عمر ابراهيم (ت.1031هـ/1621م) ، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا ، جزئين ، تحقيق عبد الله كنون ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط 1384هـ / 1964م.
18. القلقشندي أبو العباس ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، أربعة عشر جزءا ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1914.

19. المقري أبو العباس أحمد ابن محمد (ت.1041هـ/1584م) ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق إحسان عباس ، ثمانية مجلدات دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1968.
20. ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق محمد السقا ، خمسة أجزاء ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة 1939.
21. مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة السعودية التاكداربية ، تصحيح جورج كولان ، الرباط ، 1934 .
22. مؤلف مجهول ، بربروس خير الدين ، مذكرات خير الدين ، ترجمة محمد دراج ، ط1 ، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1431هـ/2010م .
23. النهروالي المكّي قطب الدين محمد بن أحمد (ت.990هـ/1582م) ، غزوات الجراكسة والأترّك في جنوب الجزيرة المسمى البرق اليماني في الفتح العثماني ، الطبعة الأولى ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، 1387هـ/1967م.
24. الوزان الحسن بن محمد المدعو ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، تحقيق عبد الرحمان حميدة ، المملكة العربية السعودية ، 1399هـ .

– باللغة الأجنبية :

1. De Busbecq(Ogier Ghiselin),The Turkish letters of Ogier Ghiselin;imperial ambassador at Constantinople 1554-1552 , Luisiana state University press,U S A,2005.
2. De Haédo(Fray Diego),topographie et histoire generale d'Alger, traduit de l'Espagnol par Monnereau (M.M) et Berbrugger (A), Valladolid,Alger 1870.
3.,Histoire des rois D'Alger,traduite et annoée par Grammont (H.D),Adolphe Jourdan Librairie Editeur ,Alger , 1881.

4. De Lucinge (Renée), De la naissance dure et chute des etats, edition critique par Michael , J. Heath Dros S. A, Genève, 1984.
5. Evliya (Celebi),Narrative of travels in Europe Asia,and Africa in the seventeenth century,translated by Hammer-purgstall (J.V.),The roiyal library,Munich,2011.
6. Kalifeh (Haji),History maritime wars of the Turks,translated by James Mitchell,London ,1831.

ثالثا: المراجع

-باللغة العربية:

1. أباضة عثمان، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994.
2.، تاريخ اليمن الحديث، الحكم العثماني في اليمن 1881 - 1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986.
3. أبو العلا محمود، جغرافية شبه الجزيرة العربية، جغرافية اليمن الشمال والجنوب، أربعة أجزاء، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1982.
4. آرلوند توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسين ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين و اسماعيل النجاوي، مكتبة النهضة المصرية، 1971.
5. آلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة محمود علي عامر، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت 1409هـ / 1989م.
6. أرن خالد، السودان في العهد العثماني من خلال الوثائق الأرشيفية، ترجمة صالح السعداوي، منشوات إرسكا، استانبول، 2007.
7. آصاف حضرة بك يوسف عزتلوا، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، الطبعة الأولى، تقديم محمد زينهم و محمد حرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

8. الأقداحي هشام محمود، السياسة الخارجية والمؤتمرات الدولية، مؤسسة شهاب الجامعية، الإسكندرية، 2012.
9. أندرية مايكل، الاسلام وحضارته، ترجمة زينب عبد العزيز منشوات المكتبة العصرية، صيدا، 1981.
10. الأنصاري سعد، العلاقات الايرانية العراقية، دار الهدى، بيروت، 1987.
11. أنيس محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1514- 1914)، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1993.
12. أوزوتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، جزئين، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول، 1988.
13.، المدخل إلى التاريخ التركي، ترجمة أرشد الهرمزي، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005.
14. أوغلي إحسان إكمال الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جزئين، الطبعة الثانية، ترجمة صالح سعداوي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2010.
15. أونال أوغور، طرابلس الغرب في الوثائق العثمانية، سجل أوفست، اسطنبول، 2013.
16. إيفانوف نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، منشورات أنيب، الجزائر، 2004.
17. إينالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، م2، الطبعة الأولى، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002.
18. بابكور عمر سالم، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن 10هـ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1986.
19. باموك شوكت، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب عبد اللطيف حارس، الطبعة الأولى، المدار الإسلامي، بيروت، 2005.

20. البرجاوي أحمد سعيد ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري ،
الأهلية للتوزيع و النشر ، بيروت ، 1993 .
21. برنارد لويس ، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، تعريب رضوان السيد
علي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1982 .
22. ، اكتشاف المسلمين لأوروبا ، ترجمة ماهر عبد القادر محمد ،
الطبعة الأولى ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، 1996 .
23. برودال فرناند ، البحر المتوسط المجال والتاريخ ، ترجمة يوسف شلب الشام ،
الطبعة الثانية ، حمص ، 2001 .
24. ، البحر المتوسط ، ترجمة عمر بن سالم ، منشورات أليف ،
تونس 1990 .
25. بروكلمان كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البلعكي ،
دار العلم للملايين ، بيروت ، 1988 .
26. البطريق عبد الحميد و نوار عبد العزيز التاريخ الأوروبي الحديث من عصر
النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1947 .
27. بلحميسي مولاي ، البحر والعرب في التاريخ والأدب ، منشورات ANEP ،
الجزائر ، 2005 .
28. بن خروف عمار ، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هـ/
السادس عشر م ، ج 1 ، دار الأمل ، الجزائر ، 1427 هـ / 2006 م .
29. البنا سونيا محمد سعيد ، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من
خلال المصادر التركية ، الإبداع للنشر والتوزيع ، مصر ، 2006 .
30. بنجلون لبنى ، "العلاقات المغربية التركية في القرن 16 من خلال المصادر الدفينة"
المغرب والعالم المتوسطي ، دراسات في تاريخ العلاقات الدولية المغربية ما بين 16م
و 20م ، الطبعة الأولى ، دار الأمان ، الرباط ، 2014 .

31. بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
32.، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003.
33. بيتروسيان ايرينا، الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة جمعة الراشد، مركز جمعية الراشد للثقافة والتراث، دبي، 2006.
34. بيهم محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، 1954.
35. تاجي محمود، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة محمد الأسطي وعبد السلام آدهم، طرابلس، 1970.
36. الثقفي يوسف علي ربيع، أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا، د.م.ن، 1989.
37. ج.س. كولان، الأندلس، ترجمة ابراهيم مخور رشيد، عبد الحميد يونس و حسن عثمان، الطبعة الأولى، دار الكتب اللبنانية، بيروت، 1980.
38. بديع محمد جمعة، عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
39. جانبولات أورهان صادق، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، بيروت، 2012.
40. جورافيسكي أليكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف الجراد، عالم المعرفة، الكويت، 1996.
41. جون سوندوز، العالم الإسلامي عشية توسع أوروبا، ترجمة محمد ظافر الصواف، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، عمان، 1994.
42. حتي فليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت، 1950.
43. حرب محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، 1989.

قائمة المصادر والمراجع

44. حسنين جودة وعلي هارون أحمد ، جغرافية الدول الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1984 .
45. حسون علي ، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت 1998.
46. الحصري ساطع ، مدخل الى السلطنة العثمانية تأسيسها وتوسعها، د.م.ن.، د.ت.ن.
47. حلیم ابراهيم بك ، تاريخ الدولة العثمانية العلية، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1408هـ/1988م.
48. أحمد عبد اللطيف ، البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، 1415هـ / 1994م.
49. حمزة يوسف الصيرفي نوال، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن 16هـ/16م، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1983.
50. حمشوش أحمد، المدينة و السلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر، دمشق، د.ت.ن.
51. حوراني ألبرت، الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994.
52. الحويري محمود محمد ، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001 .
53. خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوروبي، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 1971.
54. خضير أحمددي حسين، قيام الدولة الزيدية في اليمن، الطبعة الأولى، مكتبة مدبول، القاهرة 1996.

55. خوري إميل وعادل إسماعيل ، السياسة الدولية في المشرق العربي ، ج 1 ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت ، 1990 .
56. داهش محمد على ، الدولة العثمانية والمغرب إشكالية الصراع والتحالف ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 2011 .
57. الدغيم محمود السيد ، أضواء على البحرية العثمانية الاسلامية ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، 1414 هـ / 1994 م .
58. دوسون مراجعة ، نظم الحكم والادارة في الدولة العثمانية ، نقله الى العربية فيصل الشيخ الأرضي ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، 1942 .
59. الذنون عبد الحكيم ، آفاق غرناطة ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، دمشق ، 1408 هـ / 1988 م .
60. الرشيدى سالم ، محمد الفاتح ، مطبعة متولي وأولاده ، مصر ، 1989 .
61. رافق عبد الكريم ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ، دمشق ، 1988 .
62. ، العرب والعثمانيون 1516 - 1916 ، دمشق ، 1974 .
63. الرمضاني مازن ، فن التخطيط السياسي الخارجي ، مطبوعات كلية القانون والسياسة ، بغداد ، 1978 .
64. رائسي إدريس الناصر ، العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن السادس عشر ، الطبعة الأولى ، دار الهادي للطباعة والنشر ، بيروت ، 2008 .
65. رفعت محمد ، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لجنة البيان ، مصر الجديدة ، 1949 .
66. ساحلي أوغلي خليل ، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين ، إرسكا ، استانبول ، 2000 .

67. سالم أحمد، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2011.
68. سالم سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول 1538- 1635، الطبعة الثالثة، منشورات المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1977.
69.، المؤرخون اليمينيون في العهد العثماني الأول، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1971.
70. سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006.
71. ستوارد لوثر، حاضر العالم الاسلامي، ترجمة أعجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت 1971.
72. سرهنك الميرلاي اسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة حسن الزين، دار الفكر الحديث بيروت، 1988
73.، حقائق الأخبار عن دول البحار، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية بولاق، مصر، 1112هـ
74. سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، الطبعة الثانية، دار الشروق، 1997.
75. السيد أشرف صالح محمد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، الطبعة الأولى، دار ناشري، الكويت، 2004.
76. السيد محمود سيد محمد، تاريخ الدولة العثمانية(النشأة -الإزدهار)وفق المصادر العثمانية والدراسات التركية الحديثة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، 1428هـ/2007م.

77. شحاتة ابراهيم حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، منشأة المعارف للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1981 .
78. الشطاط علي حسين ، نهاية الوجود العربي في الأندلس ، دار قباء للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2001.
79. الشناوي عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جزئين، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، 1981.
80. شوجر بيتر ، أوروبا العثمانية 1453 -1804م (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة) ، ترجمة عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، 1419هـ / 1998م.
81. شوقي عبد الرحمان تهاني، الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان، الطبعة الأولى ، دار العالم العربي ، القاهرة ، 1431هـ / 2010 م.
82. الصباغ ليلي ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر العاشر "العاشر والحادي عشر الهجريين" ، مؤسسة الرسالة ، جزئين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 1409هـ / 1989م.
83. صباغ اسماعيل عباس ، تاريخ العلاقات العثمانية الايرانية ، الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، 1999.
84. الضيقة حسن ، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة ، الطبعة الأولى ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، 1417هـ / 1997م.
85. طربين أحمد ، التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث ، كاليفورنيا ، 1970.
86. طقوش سهيل ، تاريخ الدولة الصفوية في إيران ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، 2009

87. عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع ، الاسكندرية ، 2001
88. ، تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر (1715- 1919) ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، 2000.
89. عدي سعيد ، المغرب والعالم المتوسطي ، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الدولية ما بين القرنين 16م و20م ، الطبعة الأولى ، دار الأمان ، الرباط ، 2014.
90. العزاوي قيس جواد ، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الإنحطاط ، الطبعة الثانية ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2003.
91. عنان محمد عبد الله ، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، الطبعة الخامسة ، مطبعة حسين عنان ، دم.ن ، 1997.
92. عودة محمد عبد الله و الخطيب إبراهيم ياسين ، تاريخ العرب الحديث ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، 1989.
93. عوض عبد العزيز محمد ، بحوث ودراسات مهداة لعبد الكريم غرايبية (العلاقات العثمانية -الصفوية 1499 -1722م) ، دم.ن ، د.ت.ن.
94. الغالي غربي ، دراسات حول تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي ، الطبعة الثانية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 2011 .
95. غرايبية عبد الكريم محمود ، تاريخ العرب الحديث ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1984.
96. العزاوي عباس ، تاريخ العراق بين الإحتلالين ، العهد العثماني الأول ، المجلد الرابع ، الجلايرية ، بغداد ، 1949.
97. غنيمه رزق الله يوسف ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، الطبعة الأولى ، مطبعة الفرات ، بغداد ، 1925.

98. فتحي غيث، الاسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.ن.
99. فاروقي ثريا، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، الطبعة الأولى، المدار الإسلامي، بيروت، 2008
100.، حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين 1517- 1683، ترجمة أبو بكر أحمد قادر، منشورات الجمل، بيروت، 2010.
101. كريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، الطبعة الثالثة، الرباط، 2006.
102. كواترث دونالد، الدولة العثمانية 1700- 1922، الطبعة الأولى، ترجمة أيمن أزمنازي، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004.
103. كوبريلي محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، أحمد عزت عبد الرحيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
104. كوثراني وجيه، الفقيه والسلطان، جدلية الدين والسياسة في ايران الصفوية - القاجارية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 2001.
105. كيدوأكرم، مؤسسة شيخ الاسلام في الدولة العثمانية، ترجمة هاشم الأيوبي، الطبعة الأولى، جروس براس، طرابلس، 1993.
106. لامب هارولد، سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، ترجمة شكري محمود نديم، مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر بغداد - نيويورك، 1961.
107. لونكربك ستيفن، من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط 1، منشورات الشريف الزغبى، بغداد، 1968.
108. لوتيسكي فلاديمير يورسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديث، الطبعة التاسعة، بيروت، 2007.

109. مانتران روبيير، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة 1993.
110. متولي أحمد فؤاد، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.
111. المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، 1981.
112. محمد عبد اللطيف، البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى. مكتبة العبيكان، الرياض، 1415هـ/1994م.
113. المدني أحمد توفيق، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(1412 - 1472)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1993.
114. مصطفى عبد الرحيم أحمد، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، 1982.
115. مصطفى محمود نادية وآخرون، العصر العثماني من القوة و الهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، 1996.
116. منجم باشا أحمد، جامع الدول، دراسة وتحقيق غسان علي الرمال، مكة المكرمة، 1430هـ/2009م.
117. ميلاد سلوى علي، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983.
118. النبراي فتيحة و مهنا نصر محمد، قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1983م.
119. نوار عبد العزيز سليمان، الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس مسلموا الهند، دار النهضة، بيروت، 1991.

120. هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدى للثقافة والنشر، دمشق، 1997.
121. هريدي محمد عبد اللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة، القاهرة، 1978.
122. الوديانى خلف بن دبلان بن خضر، الفتح العثماني لجزيرة رودس 929هـ / 1522م، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1977.
123. يلديرم أوغلو آغان، اليمن في العهد العثماني، منشورات ارسىكا، استانبول، 2008.

-باللغة الأجنبية:

1. Allen(W.E.D), The Turks in Europe,Printed bay Oliver and Boya ,London, 1919.
2., Problems Turkish power in sixteenth century central Asian,Asian Research Center,London,1963.
3. Babinger (Franz),Mahomet le conquérant et son tempt 1432-1481,Payot, Paris,1954.
4. Balhamissi (Moulay),Les captifs Algeriens et L'Europe Chritiennes 1518-1830,entreprise national du livre,Alger,1988.
5.,La marine Algerienne, 2^{eme}édition ,Enal ,Alger , 1986.
6. Bois (Jean Pierre),Les guerres en Europe1494-1792,Belin Sup , France 1993.
7. Bradford(Ernele),The great siege,Hardford and Stoughton ,London , 1961.
8. Braudel.(Fernand),la Méditerranée et le monde Meditteranéen a l'époque de Philippe II , Tome(2), librairie Armand Colin, Paris,1966 .
9. Bridge(Antony),Suleyman the Magnificent,Granada publishing ,London , 1983.
10. Brocdman (Eric) ,The siege of Rhodes 1480-1522,Jhon Marray , London 1969.

11. Carre(J.M), Voyageurs et Ecrivains Français En Egypte, Tome4, Imprimerie Oriental, Le Caire, sans date d'édition.
12. Chirol Sir Valentine and Eversley Lord, The Turkish empire from 1288 to 1914, Adelphi Trrace, London, 1913.
13. Charriere (E), Negociations de la France dans le Levant ou correspondances, mémoires et actes diplomatiques, Tome 1, imprimerie nationale, Paris, 1848.
14. Clot(Endré), Soliman le manifique, Fayard, Paris, 1983
15. Coles(P), La lutte contre les Turcs, Flammarion, Paris, 1969.
16. Cortepeter(C .M), Ottoman impérialisme during the reformation, Europe and the Caucasus, New York, 1972 .
17. Creasy (E.S), History of the Ottoman Turk from beginning of their empire to the present time, Khayats, Beirut, 1961.
18. Creighton(A), History of the Papacy, Cambirdge modern history, New York, 1903.
19. Daniel (Gofman), Izmir and the Levantine world 1550-1650, Seatt - lecefun of Washington press, Washingthon, 1990.
20. De Grammont (H.D), La France et la regence d'Alger, Adolphe Jourdan, Alger, 1879
- 21....., histoire d'Alger sou la domination Turque, Ernest Leroux, Paris, 1887.
22. De LA Janquière(L.E.V.A), Histoire de l'empire Ottoman depuis les origines jusqu'au traité de Berlin, librairie Hacette, Paris, 1871.
23. De Mim (Gabriel), Deux ambassadeurs au Constantinople 1604- 1614, Plon, Paris, 1902.
24. De Villegaignon(Nicolas Durand), Relation de l'expédition de Charles-Quint contre Alger, traduit par Tolet Pierre, Auguste Aubry, Paris 1874.
25. Duparc (Pierre), Recueil des instructions aux ambassadeurs et ministres de France, Luis-Jean, paris, 1970.
26. Emrah (Safa Gurkan), Espionage in the 16th century Mediterranean: secret diplomacy Mediterranean go- betweens and the Ottoman Habsburg rivalry, Georgetown university library, Washington, 2009.
27. Galati (Stephen Fisher). Ottoman Imperialisme And German, Havard university press, London, 1959.

28. Hammer- Purgstall(J. V), Histoire de l'empire Ottoman, tome5, tr J.J.Hellert, Paris, 1835 .
29. Handziem(Adem), Population of Bosnia in the Ottoman period a historical overview, Ircica, Istanbul, 1994
30. Hoch(Charles) , la question D'orient, Smndoz, Paris, 1877.
31. Hurewitz(J.C), Dyplomacy in the near and middle East, A documentary Record:1535-1914, Princeton, New York, 1956.
32. karpat (kamal), The Ottoma, state and it's place on the world history , E.G.Brill , Leiden, 1974.
33. with Zens(Robert), Ottoman border lands, publication center of Turkis studies, the university of Wixonsin, Madison, sans date d'édition.
34. Kollugli(Berray) and Toksoy(Melten), Cites of the Mediterranean from the Ottomams to the present day, T.B Tauris, London, 2010.
35. Kunt(Melin) and Woodlod(Christine), suleyman The Magnificent and his Age, Longman , London, 1995.
36. Lamouche (colonel), Histoire de la Turquie depuis les origines jusqu'à nos jour, Payot, Paris, 1934.
37. Mantran (Robert), Istanbul dans la seconde moitié du 16^{eme} siècle, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1982.
38. Mercier(Ernest), Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquete Francaise, Tome3, Ernest Leroux editeur, Paris, 1868.
39. Merriman (R.B). Suleiman The Magnificent 1520-1566, Cooper Square publishers, INC, New York, 1966.
40. Parry(V.J) And Others, A history of the Ottoman empire to 1730, Cambridge University press, London, 1976.
41. Pitcher(D.E), Historical geography of Ottoman empire from earliest times to the end sixteenth century, Lieden, 1972.

42. Ranke(Von Leopold),Histoire des Osmanlis et de la Monarchie Espagnole pendant 16^{eme}et 17^{eme} siècle,Traduite del'Allemand Haiber(J.B)Laibrairie editer, Paris, 1939.
43. Shaw(S.J).,History of the Ottoman empire and modern Turkey, Tome1, Cambridge, London,1988.
- 44.Stainly (lane-Poole),the Barbary corsaire,London,1890.
45., Turkey, Khyats, Beirut, 1966.
46. Starianos(L.S),the Balkan since 1453,Holt Rinehart and Winston , London,1958.
- 47.Stripling (G.W.F) ,the Ottoman Turks and the Arab 1511-1574, Procupine Press, philadelphia , 1977.
48. Testa (Le Baron),Recueil des traités de la porte Ottoman avec les puissances étrangères,deux tomes,Amayot editeur,Paris,1867.
- 49.Toynbee(A.J),A study of history,tome2,Oxford university ,London,1945.
- 50.Urusu(J), La politique orientale de Francois 1^{er}1515-1547,imprimerie F.Paillart,Paris,1908.
- 51.Uyar (Mesut)and Erickson(Edward),A military history of the Ottomans from Osman to Ataturk,Greenwood ,California,2009.
- 52.Vatin (Nicolas),Sultan Djem ,un prince Ottoman dans l'Europe du 15^{eme} siècle d'après deux sources contemporaines Vaki-at-i Guillaume Caoursin sultan Cem ,euvres de,imprimrie de la société Turque D'histoire , Ankara,1997.
- 53.Weisman (Itizchak) and ZachsK (fruma),Ottoman reform and Muslim regeneraton ,I.B.Tauri s,London ,sans date d'edition.
- 54.Williams(A),Mediterranean conflit,Longman,London,1995.
55. Zadeh(kamel Pasha),Histoire de la campagne de Mohacz,tr Pavet De Courteille (A.J.B).,edition Pavet de court Eille,paris,1859.

1. السحيباني بن ناصر بن سلطان عبد الله ، السياسة الخارجية للدولة النبوية ، رسالة دكتوراه، إشراف محمد الحسيني حنفي ، كلية المعهد العالي للقضاء، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1399 هـ / 1979 م.

2. كمال حسنة ، العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث 1789-1807 م، إشراف عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية و الإجتماعية، جامعة الجزائر، 2005، 2006، .

خامسا: المقالات و الدوريات :

-باللغة العربية :

1. أر ن خالد، "الندوة الدولية حول المغاربة والبحر المتوسط"، ارسكا، استانبول، 2013.

2. امبر كولييز، قضايا المثل والمشروعية في التاريخ العثماني المبكر، مجلة الاجتهاد ، العدد 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت ، 1420 هـ / 1999 م.

3. أميلي حسن ، العلاقات الجهادية المغربية -الجزائرية(ق16 -17م) بين التكامل والتعارض ، الندوة الدولية حول المغاربة والبحر المتوسط ، منشورات ارسكا ، استانبول، 2013.

4. إنالجيك خليل : "العثمانيون النشأة والازدهار"، مقال منشور في كتاب دراسات في التاريخ العثماني ، لسيد محمد السيد، القاهرة، 1996.

5. أورخان محمدعلي : "مأساة الأندلس وموقف العثمانيين" مجلة حراء، العدد 7 ، استانبول، أكتوبر -ديسمبر 2006.

6. برودال فرنان " صعود الإمبراطوريات وانهارها" مجلة الاجتهاد ، ترجمة مروان أبي سمرا، السنة 7، العدد 26 - 27 ، بيروت، 1995.

7. البلاد العربية 1546 -1914"، دراسات تاريخية، السنة 25، العددان 85 -86، دمشق آذار -حزيران 2000.
8. بوحميش نعيمة، "البحرية الجزائرية و القضية التونسية"، حولية المؤرخ، السداسي الأول، العدد 7 - 8، الجزائر، 2010.
9. بيات فاضل، "المغرب الأقصى بين الإستقلالية والتبعية العثمانية، العهد السعودي" بحوث الندوة الدولية حول المغاربة والبحر الأبيض، منشورات إرسكا، استانبول، 2013.
10. التميمي عبد الجليل، "الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين"، المجلة التاريخية المغربية، العددان 23 -24، زغوان، 1989.
11. "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية -المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29، زغوان، 1983م.
12. "العرب والأترك في إطار الدولة العثمانية"، المجلة التاريخية المغربية، زغوان، د.ت.ن.
13. "الخليفة الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن 16"، المجلة التاريخية المغربية، العددان 10 -11، زغوان، 1978م.
14. "العثمانيون والبحر المتوسط: الإشكاليات والمقاربات الجديدة، العثمانيون والعالم المتوسطي"، مقاربات جديدة، تنسيق عبد الرحمان المودن وعبد الرحيم بن حادة، منشورات كلية الآداب، الرباط، 2003.
15. الثقفي يوسف علي، "معاهدة الامتيازات"، مجلة كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية، العدد 6، السنة 6، 1403هـ.
16. جانبولات عارف خليل وأورهان، "قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها، أهدافها، وآثارها"، دراسات علوم الشريعة والقانون، العدد 1، الأردن، 2012.

17. جدلة إبراهيم، "إفريقية والغزو البحري في العصر الوسيط من القرن 4/هـ/10م إلى القرن 10/هـ/16م"، مجلة البحث العلمي، الرباط.د.ت.ن.
18. حرب محمد، "حملات سليمان القانوني"، مجلة الجامعة الإسلامية، العددان 55-56، الرياض،، رجب 1402هـ.
19. حركات ابراهيم، "الأوضاع في المغرب"، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد12، الرباط، 1986.
20. حمداني عباس، رد العثمانيين على إكتشاف أمريكا والطريق الجديد إلى الهند، مجلة الفسطاط، العدد7، مركز اليقين الإعلامي، دمط، 2006.
21. ريان رجائي محمد، "أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي 1546-1914"، دراسات تاريخية، العددان 85-66، دمشق، أذار وحزيران 2006.
22. السامرائي أحمد محمود علو وحمزة محمد، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية"، مجلة التربية والتعليم، المجلد17، العدد2، الكويت 2010.
23. سعيود ابراهيم، "القرصنة المتوسطة خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجاً"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد11، جامعة غرداية، 2011.
24. السويكت فهد بن محمد، "مواقف السعوديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد19، الرياض، 1426هـ/2006.
25. شطب جاسم محمد، "الإستراتيجية العثمانية في شمال إفريقيا في القرن السادس عشر"، جامعة كربلاء، منشورات كلية التربية. www.studenthistory13.com
26. صالح شهاب حسن، "البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي"، ندوة رأس الخيمة التاريخية2، مجموعة أبحاث، 10 - 16 ربيع الأول 1409هـ/19 - 21 نوفمبر 1988، مركز الدراسات والتوثيق، رأس الخيمة، 2001.

27. صحراوي كمال ، "الصراع الإسلامي المسيحي ومؤثراته في البحر المتوسط خلال القرن 16م"، مجلة الحضارة الإسلامية، منشورات كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، العددان 20 - 21، الجزائر، 1435هـ/2014م.
28. الطيبي أمين توفيق ، "المواجهة العثمانية -البرتغالية في القرن السادس عشر"، مجلة الاجتهاد، العدد 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت، 1420هـ / 1999 .
29. الظرافي أحمد ، "الإمام جوري الصومالي فاتح الحبشة"، مجلة البيان، العدد 333، الكويت، 1436هـ / 2015م.
30. عباس باسم حمزة ، "إيران في عهد الشاه طهماسب الأول الصفوي 1524 - 1576"، مجلة الخليج العربي، العدد 1 - 2، العراق، 2012.
31. عبد الرحيم مصطفى أحمد ، "السلطنة الروسية في البلاط العثماني" ، مجلة العربي، العدد 283، الكويت ، يونيو 1982م.
32. عزب خالد، "لقب خادم الحرمين الشريفين" ، مجلة الاجتهاد، العدد 43، دار الاجتهاد، بيروت، 1420هـ / 1999م.
33. علاوي عبد العزيز الحاج نسبية ، "البحار العثماني محي الدين بيبي ريس حياته وجهاده البحري 1465 - 1554م"، مجلة التربية والعلم ، المجلد 6، العدد 4، الموصل ، 2009 .
34. الغاشي مصطفى عبد الله ، "صورة مغربية للامبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر" نموذج التمكروتي" ، مجلة الاجتهاد، العدد 44، السنة 11، بيروت، 1999م / 1420هـ.
35.، "البحر الأبيض المتوسط في الاستراتيجية العثمانية خلال القرن السادس عشر، العثمانيون والعالم المتوسطي" ، منشورات كلية الآداب ، ط 1، الرباط، 2003.

36. فهمي توفيق، "تساؤلات حول أسباب غياب المنافسة في الكشوفات الجغرافية للعالم الجديد"، مجلة عصور. دمن، دتن.
37. قاري، ياسر عبد العزيز، "دور الإمبراطوريات في سقوط الدولة العثمانية"، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الرياض، 2001.
38. الكيلاني شمس الدين، "العثمانيون والأوروبيون في القرن السادس عشر"، مجلة الاجتهاد، العدد 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت، 1430هـ / 1999م.
39. لوي كارديا اوي، "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون"، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، 1989.
40. مبارك زكي، "الجهاد البحري في الغرب الإسلامي والمفهوم الغربي"، مجلة البحث العلمي، العدد 45، الرباط، 1998.
41. محمد عبده، "الدين والدولة أو الخلافة والسلطنة"، مجلة المنار، العدد 33، السنة الثانية، القاهرة، 1899.
42. النظام زهراء، العثمانيون والصراع المسيحي في غرب المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003.
43. نور الدين محمد، "الانتفاضة العلوية في الأناضول في القرن 16م" من أعمال المؤتمر حول الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية، ط1، منشورات وزارة الثقافة والتعليم العالي، لبنان، 2001.
44. نور طارق محمد، "إضاءة على جانب من تاريخ السودان على ضوء الوثائق العثمانية"، كلية الآداب جامعة الخرطوم. www.activities.edu.

-باللغة الأجنبية:-

1. Berandi(Mihnea) et Vein Stein (Gilles),"L'Empire Ottoman et les pays Roumains",**Annales Economies Societes Civilisations**,année 46,n°1,Paris,1991.
2. Braudel(F),"les espagnoles et L'Afrique du Nord de 1492à1577",**in revue Africaine**,T69,Alger,1928 .
3. Brummet (Palmira),"Ottoman seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery",**New perspectives on Turkey**,n°14,spring 1996.
4. Charles (A),"Catholic and Sultan,The church and Ottoman empire 1453-1923",**Revue Francaise D'Histoire D'Outre Mer** ,T72,n268,3e trimestre,Paris,1985
5. Creighton(A), "History of the Papacy",**Cambirdge modern history**, New-YorkK1903.
6. Islamoglo (Ihan),"The Ottoman empire and the World Economy ", **revue Francaise d'histoire d'outre mer**,n°287,2e trimestre,Paris,1990.
7. Labile (Subhi),"The Era of Suleyman the Magnificent crisis of Orientation",**Middle East Studies**,printed in Gred Britain Cambridge,London,sd.
8. Lambto(Ann K.S and Holt). P.M,"the further Islamic lands, **Islamic society and c Islam**",V2 Cambridge at the university press, London,1970.
9. Vein stein(Gille), "Les preparations de la campagne naval de 1552 Franco-Turquo a travers les orders du Divan Ottoman",**revue de l'occident Musulman et de la Mediterranée**,n°39,Paris,1985.
10. Lmayer(Andras Ried),"Ottoman-Safavid relation and Anatolian trade",**The Turkish studies**,N°5-7,Turkey,1981.
- 11.Maribel(Fierro),"the western Islamic world eleventh to eighteenth centuries ",V2,**the new Cambridge history of Islam**,Cambridge university press,London,2010.
12. Parry(V.J)," the reigns of Suleyman the Magnificent 1520-1566 ",**Cambridge history of Islam**,Cambridge university press,London,1976.
- 13.Rank (P.M.hold), " the heyday and decline of the Ottoman empire ",**the history Of Islam** ,T51,the Upress ,London, 1970.
- 14.Sanchez (Montes Juan), " Franceses,Protestantes,Turcos,los Espanoles ante la politica internacional ",**Bultein Hispanique** ,T54, n°2,Espagne,1952.

سادسا: القواميس والموسوعات :

-باللغة العربية :

1. أوزوتونا يلماز ، موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، م4 ، ط1 ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، 1431هـ/2010م.
2. جانين ود. سورديل ، معجم الإسلام التاريخي ، ترجمة أ.الحكيم ، الدار اللبنانية للنشر الجامعي ، لبنان ، 2009م.
3. حلاق حسان وصباح عباس ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2009.
4. الحموي الرومي البغدادي الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز ، الجندي ، دار صارو ودار بيروت ، بيروت ، 1376هـ/1957م.
5. الحميري محمد بن منعم ، الروض المعطر في خير الأقطار ، تحقيق إحسان حقي ، ط2 ، بيروت ، 1980.
6. الخطيب مصطفى عبد الكريم ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996م.
7. صابان سهيل ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، 2006.
8. فارنديم كريزر كلوس و ماير هاس جورج ، معجم العالم الإسلامي ، ترجمة جميل كوثره ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات و للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1991.
9. المقحفي إبراهيم ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، 1988.

10. موستراس .س، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشحادات، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2002.

-باللغة الأجنبية :

1. Agoston(G.Masters.B),Encyclopedia of the Ottoman Empire ,Facts on File Inc,N.Y,USA,2008.
2. . Bernard Lewis.Ch.Pellat.J.Schucht, Encyclopedia of Islam, V2, E4, EJBrill, Liden, 1991.
3. Somel(S.A),Historical dictionary of the Ottoman empire,the Scarecrow press INS,Oxford,2003.

الفهرس

فهرس المحتويات

5.....	مقدمة.....
16.....	الفصل التمهيدي :
17.....	المبحث الأول: العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية العثمانية.....
19.....	1 - الموقع الجيوسياسي للدولة العثمانية.....
24.....	2 - قوة شخصية السلاطين و الروح الدينية.....
35.....	المبحث الثاني: مظاهر السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني.....
36.....	1 -السياسة الأوروبية للسلطان بايزيد الثاني.....
38.....	أ / حروب السلطان بايزيد الثاني في أوروبا.....
40.....	ب / العلاقات الدبلوماسية مع دول أوروبا.....
42.....	2 -العلاقات الخارجية مع القوى الإسلامية.....
42.....	أ/ العلاقات العثمانية المملوكية.....
45.....	ب/ موقف السلطان بايزيد الثاني من قضية الأندلس.....
48.....	المبحث الثالث : مميزات السياسة الخارجية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول.....
49.....	1 -دوافع التحول الاستراتيجي نحو الشرق الإسلامي و الصدام العثماني - الصفوي.....
52.....	أ/ الصدام العثماني - الصفوي.....
53.....	ب/ معركة تشالديران و نتائجها 1514م/920ه.....
55.....	2 -التوسع العثماني في البلاد العربية.....
56.....	أ /دوافع التوسع العثماني في البلاد العربية.....
59.....	ب / نتائج التوسع العثماني في البلاد العربية و أبعاده الاستراتيجية.....

- 63.....الفصل الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى المسيحية
- 64.....المبحث الأول: ترجمة لشخصية السلطان سليمان القانوني
- 1 -التعريف بالسلطان سليمان القانوني.....64
- أ/المولده والنشأة.....65
- ب/تولية السلطان سليمان الأول الحكم وأهم إصلاحاته.....66
- 2 -الشخصيات المعاصرة للسلطان سليمان القانوني.....76
- أ/في الدولة العثمانية و العالم الإسلامي.....76
- ب/ في دول أوروبا.....79
- المبحث الثاني: التقارب العثماني - الفرنسي في عهد السلطان سليمان القانوني.....81
- 1 -التحالف العثماني الفرنسي بين التكامل والتعارض.....81
- أ/أهداف التحالف العثماني - الفرنسي.....81
- ب/بداية المراسلات ومواقف الدول الأوروبية.....86
- 2 - آثار التحالف العثماني -الفرنسي.....92
- أ/ معاهدة الإمتيازات العثمانية الفرنسية 1536م.....92
- ب/نتائج معاهدة الإمتيازات العثمانية -الفرنسية.....95
- 3 -العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد هنري الثاني.....98
- أ/معاهدة التحالف العسكري 1553م.....98
- ب/ نتائج معاهدة 1553م.....100
- المبحث الثالث: سياسة السلطان سليمان القانوني لإستمالة البروتستانت.....107
- 1 -العثمانيون و البروتستانت في القرن السادس عشر ميلادي.....107

- أ/البروتستانت في القرن السادس عشر ميلادي.....107
- ب/العلاقات العثمانية - البروتستانتية وتطوراتها.....110
- 2 - تأثير السياسة الخارجية العثمانية على البروتستانت.....114
- 3 - موقف البروتستانت من الأتراك العثمانيين.....118
- المبحث الرابع: الصراع العثماني - النمساوي وأثره على التوازن الأوروبي.....121**
- 1 - الدولة العثمانية والهابسبورغ في ظل التوازنات العثمانية الأوروبية.....121
- أ/الظروف والأسباب الدافع إلى السيطرة على المجر.....121
- ب/معركة موهاكس وانعكاساتها 1526م.....125
- 2 - الحسم العسكري في المجر والتعثر في النمسا 1529.....131
- أ/الحملة على المجر (1527 - 1529م) وبداية التوتر مع النمسا.....131
- ب/حصار فيينا والإخفاق العثماني 1529 و1532م.....134
- 3 - تثبيت الحكم العثماني في المجر.....139
- الفصل الثاني: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه القوى الإسلامية.....144**
- المبحث الأول: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه الدولة الصفوية 1520م - 1566م.....144**
- 1 - أسباب الصراع العثماني - الصفوي.....144
- أ/ الأسباب السياسية والدينية.....144
- ب/الأسباب الاقتصادية والإستراتيجية.....149
- ج/الأسباب المباشرة للصراع العثماني - الصفوي.....151
- 2 - تصاعد العمل العسكري على الجبهة الشرقية.....153
- أ/المرحلة الأولى: حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد وضم العراق.....153

- ب/ المرحلة الثانية: تجدد الصراع العثماني - الصفوي 1548 - 1553م.....156
- 3 - العلاقات الدبلوماسية والمعاهدات العثمانية - الصفوية.....159
- 4 - آثار الصراع العثماني - الصفوي.....164
- المبحث الثاني: العثمانيون في اليمن بين السيطرة والتحدي.....170
- 1 - دوافع الضم العثماني لليمن.....170
- 2 - التوسع العثماني في اليمن.....174
- أ/ المرحلة الأولى: تثبيت الحكم العثماني في اليمن.....174
- 1 - حملة سلمان باشا الخادم على اليمن 945هـ/1538م.....176
- 2 - نتائج حملة سليمان الخادم على اليمن 1538م.....178
- ب/ المرحلة الثانية: استكمال السيطرة العثمانية على اليمن.....182
- 3 - صعوبات العثمانيين في اليمن.....184
- المبحث الثالث: سياسة الدولة العثمانية اتجاه الحبشة.....194
- 1 - بداية الاهتمام العثماني بالساحل الغربي للبحر الأحمر.....194
- أ/ أهمية الحبشة في استراتيجية الدولة العثمانية.....194
- ب/ دوافع السيطرة العثمانية على الحبشة.....195
- 2 - الامتداد العثماني على سواحل الحبشة وتشكيل الإيالة 1555م.....198
- 3 - الأوضاع العامة في إيالة الحبشة بعد ولاية أوزدمير باشا.....205
- 4 - آثار الضم العثماني على الحبشة.....208
- أ/ الآثار الثقافية والدينية.....208
- ب/ الآثار الاقتصادية.....209

المبحث الثاني: السياسة الخارجية العثمانية اتجاه المغرب الأقصى 1520 -

1566م.....213

- 1 -أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي.....213
- 2 -بداية الاحتكاك العثماني -السعدي.....217
- 3 -الدولة العثمانية وسياستها التوسعية نحو المغرب الأقصى.....226
- أ/ تصاعد الصراع المغربي العثماني في عهد محمد الشيخ.....226
- ب/ التقارب السعودي -العثماني.....228
- ج/العلاقات العثمانية المغربية في عهد عبد الله الغالب.....231
- 4 -تقييم الوجود العثماني في المغرب الأقصى.....235

الفصل الثالث: الاستراتيجية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس

عشر ميلادي.....239

المبحث الأول: معالم السياسة البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن

السادس عشر ميلادي.....240

- 1 -الجذور التاريخية للبحرية العثمانية.....240
- 2 - البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني.....245
- 3 -المجالات البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط.....251

المبحث الثاني: تثبيت النفوذ العثماني في الحوض الشرقي للمتوسط.....263

- 1 -أهمية جزيرة رودس في الاستراتيجية العثمانية.....263
- 2 - حملة سليمان القانوني على جزيرة رودس 1522م وأبعادها.....266
- أ/الأهداف الاستراتيجية المنشودة من الفتح.....266
- ب/أسباب الفتح العثماني لجزيرة رودس.....267

- 3 - نتائج الفتح العثماني لجزيرة رودس وتداعياته على السياسة الأوروبية.....274
- المبحث الثالث: الصراع العثماني -الاسباني في البحر الأبيض المتوسط.....280
- 1 -البعد الديني للصراع العثماني -الاسباني في البحر الأبيض المتوسط.....280
- 2 -دوافع الصراع العثماني -الاسباني الاستراتيجية والاقتصادية.....287
- 3 -آثار الصراع العثماني -الاسباني في البحر الأبيض المتوسط.....394
- أ/ تأمين سلامة سواحل شمال إفريقيا.....294
- ب/ أهم محطات الصراع العثماني -الاسباني في البحر الأبيض المتوسط.....296
- 1 -الضم العثماني الأول لتونس 1534م.....296
- 2 -معركة بريفيزا والتحكم في البحر المتوسط 1538م.....399
- 3 -حملة شارل الخامس على الجزائر 1541م.....302
- 4 -تصدي العثمانيين للفرسان مالطا في ليبيا 1551م.....306
- 5 -حصار مالطا 1565م.....309
- خاتمة.....313
- الملاحق.....318
- البيبلوغرافيا.....322
- الفهرس.....350